الحضارة الإسلامية في الأندلس

الحسن السائح

الحضارة الإسلامية في المغرب

دار الثقافة

للنشر والتوزيع

32 ــ 34 شارع فيكتور هيكو ــ ص.ب. 4038

الهاتف 30.76.44 ــ 30.23.75

الدار البيضاء

الطبعة الثانية 1406 — 1986

بسم الله الرحمن الرحيم

حضارتنا الاسلامية في المغرب

من العسير أن يعيد الكاتب طبع كتابه دون شعوره بضرورة التغيير والتجديد فيما كتبه من قبل ، سيما فى كتب التاريخ والحضارات حيث تستجد المعلومات ، وتأتى المكتشفات بالشىء الكثير ..

ولكنني لن اغير من كتابي هذا ــ وأنا أعيد طبعه ــ الا بالتقديم والتأخير فى بعض فصوله ، والا فى استبدال اسمه القديم « الحضارة المغربية عبر التاريخ » باسم «الحضارة الاسلامية فى المغرب » .

تقديم

ان الحضارة هى تعبير عن كــل منجزات اعمال الانسان فكريا ووجدانيا وعمرانيا ليحقق ذاته ، ويطور مجتمعه ، ويسهم فى المسيرة الانسانية .. وهى بهذا التعريف السهل تشمل مختلف انتاج الانسان وعطاءه ، كما تعبر عن مدى اسهام الشعــوب والامم فى تنمية المجتمعات الانسانية والتسامى بها ، ولكنها بهذا التعريف السهل أيضا ترتبــط بعقيدة الانسان ومبادئــه وبيئته ومرحلته التاريخية .

والحضارة فى المفهوم الاسلامى تنطلق من رؤية مثاليــة للحياة ، ويسعى كل مسلم وكل مجتمع اسلامى أن يحقق هذه الرؤية ويعمل على انمائها وتوضيحها حتى تظل حية فى ضميره وسلوكه ومعاناته ، وحتى يجعل واقعه يسير على هديها . ولذلك فالحضارة هى مثل عليا وتجارب متنوعة ، وخلق وابداع ، ومعاناة لتصحيح مسيرة الانسان . فهى فى الواقع بروز الثقافة الاسلامية الكامنة فى ضمير الفــرد وسلوك المجتمــع وتحديه للانحرافات الجارفة وهى محصلة واقع تاريخى يتصل بمختلف العلاقات الاقتصادية والسياسية والاخلاقية والاجتماعية .

وحضارتنا الاسلامية تلزم كل مواطن أن يكون أمينــا مثاليا فى ابتكاراته وفى تقليده ، فى عمله وسلوكه وفى اختياراته ومواقفه ، وهذا ما يضفــي ، عليها صفة الالتــزام بالمبادىء

الاسلامية ، وهذا ما يجعل صلتها قويـــة بتراثها لانها امتداد واستمـــرار .

ان جدلية ارتباط الحضارة بالتراث ، وبتأكيد الواقع هى دينمية تطور وتنمية ذاتية فى حضارتنا بل ان تاريخ الاســلام يتحرك بربط الاسباب بالمسببات على أساس السير فى النهــج الاسلامى .

ان حضارتنا الاسلامية تراث مثالي ، وواقع معـــاش وملاحقة دائمة للمبادىء والقيم دون التخلي عنها أو تناسيها فى كل عمل اجتماعى ، وهى بهذا الاسلوب توحد بين المسلمين قاطبة أينما كانوا فى الشرق أو فى الغرب ، فى الشمال أو الجنوب ، كانوا أمما أو اقليات بين أمم أو مهاجرين فى أوطان غير أوطانهم لانها ذات مبادىء واحدة ، وقيم مشتركة ولانها لا تتخلى عن الخصوصيات المميزة للشعوب والبارزة فى الاعراف والعوائــد والتقاليد ، لان هذه الخصوصيات تبرز الانسجام والتكامل فى حظيرة الامة الاسلامية جمعاء .

مقدمة

اشكاليات التطور والتغيير في الحضارة الاسلامية

ميكانزم التطور فى الاسلام :

التحديات الحضارية المعاصرة ، والصراع الثقافي المتزامن معها . ينبثق عنهما مفهوم جديد للحضارة ، وتعريف شامـــل للثقافة . وسيجد الانسان المعاصر فى هذا المفهوم للحضـــارة والتعريف للثقافة ترسانة من الأسلحـــة ليقتحم آطروحـــة انسانية جديدة هدفها انصاف كل أمة واحقاق كل قضية عادلة .

ان المفهوم الجديد للحضارة والثقافة الشاملة هو محصلة معادلات علمية ثابتة يعتمدها كل عقل قويم المنهاج ، وكل وجدان واع . وهو مفهوم تمخض عن جهود قرون وقرون . ومنـــذ الأول الذى نبض فيـــه عقل الانســـان بالتفكير ، ووجدانـــه بالاحساس . ومنذ بدأ يشعر بحاجته لعون الآخرين . فأرسى العلاقات بالحوار المتبادل وتجاوز موضوع الذات ، الى موضوع بالآخرين .

ان الثقافة الشاملة المعاصرة ستدفع بانسان الغد الـــى افراز مفاهيم جديدة ، يقر فيها بجهده ، وجهد غيره ، وعملـــه وعمل غيره ، والى صياغة مستحدثة للنمادج والقوالب الفكرية ستساعد على تنمية الحوار ، وانسجام الرغبات ، ووحـــدة الأهداف ، فاذا انهار صرح الانانيات الذى شيده انسان ما قبل

التكنولوجية ، فستنهار بجانبه المفاهيم الخاطئة ، والاعتبارات المزيفة ليبدو الانسان كما هو ، وكما يجب أن يكون ، دون أن ينبهر أمام متسلط أو يستلب ازاء حضارة . ولم يصبح من المجدى أن يقول أحد ان آباءه اكتشفوا وحدهم ، أو اخترعوا قبل غيرهم . فتلكم خرافة وأسطورة ، ولقد كشفت الايام أن الحضارة من بناء المجتمع الانسانى كله .

فليس عمل الفكر ملكا لأمة أو الشعب أو لمرحلة تاريخية ، وليست التكنولوجيا ملكا لأمة أو لشعب ، بل هى انتاج الجميع ولكن ستظل الثقافات تعبر عن خصوصيات الافراد والجماعات ، وعلاقتهما بالتطور والتغيير الذى يفرضونه أو يفرض عليهم .

ما هى خصوصية الثقافة الاسلامية ؟ وما علاقاتها بالتطور والتغيير ؟ وما هى اشكاليات التطور فى الاسلام ؟ هذا هو سؤالنا وهذا ما سنحاول أن نجيب عنه :

والواقع أن السؤال هو المنطلق الاول لتحديد الجواب ، فهو الذى يخطط للفكر جوانب الموضوع ويعطيه الوضوح والبيان وارتباطات علاقاته الابسيتمولوجية ، وكم من سؤال ضلل الموضوع فى الجواب ، وأفسد الوضوح ، وعطل الفائدة لقد أقام سقراط فلسفته على الحوار ، والسؤال والجواب، محاولا أن يعلم الانسان كيف يسأل ليحظى بالجواب الواضح المفيد الذى تنبنى عليه فلسفته وآراؤه .

وقد ضبط المنهج الاسلامى اشكالية السؤال لئلا يكون مجرد كلام يشق طريقه فى الفراغ ، وجعل كل موضوع اشكالية تبتدىء بها طريقة المعرفة ونهجها وغايتها دون أن يحجز نفسه فى منهج خاص .

وعندما يكون السؤال محددا واضحا فان الجواب لا ينطلق من فرضية أو مسلمة أو بديهيــة ، وانما ينطلق من الفطــرة السليمة . أى من نقطة الصفر لتتبنى عليه سلسلة الارقـــام المتتالية ، والفطرة السليمة نقطة التقاء العلاقات المشتركة بين الناس كافة ، المنطلقة من أصالة التفكير والوجدان ، وبذلك يجد كل فرد الجواب واضحا مبنيا على وحدة الفكر الجماعى ورأى الناس كافة وشمولية الموضوع .

وهكذا يكون الجواب مركزا على قواعد ثابتة لبناء الفكــر الجماعى ، وتكون هذه القواعد ذات معادلات عقلية ، وليس طقوسا ، وذات مبادىء وليست ذات مصالح ويمكن على أساسها صياغة براهين منطقية وحجج مقنعة تخاطب العاطفة والعقل ، والفكر والوجدان ، والمادة والروح .

ومن هذه القواعد تتنســج المعلومات لتكون من نسيجهــا استنتاجات ثابتة نابعة من طبيعة الذات وامكانات الفكر فــى المعرفة التى ليســت رياضية مرتبطة بباقــى المعادلات ارتباط السبب بالمسبب ، والعلة بالمعلول . وعند اختــلال أى شرط فى المعادلة أو وضعها فى غير مكانها الطبيعى تصبح المعرفة ناقصة لا تعطى نتيجة ولا تغذق فائدة وينشأ الغلط عن عدم ضبـــط المعادلات مما يؤدى الى فساد النتائج أو استحالتها ، لانها لم تبن على السلم الطبيعى فى قانون الوصول الى المعرفة وكــل الحقائق العلمية والأخلاقية والاجتماعية هى نتيجة معـــارف مرتكزة على معلومات مضبوطـــة لمعادلات متسلسلة تخضع للمقولات والتكيف بعامل الزمكانية وطبيعة الفكر والعمل . وتنشأ أغلاط الانسان عن عدم ضبط المعادلات أو فهمها مما يؤدى الى فساد النتائج وضبابية المفاهيم لانها لم تبن على السلم الطبيعى فى قانون الوصول الى المعرفة ، فكل الحقائق والمقولات العلمية

والاجتماعية هى نتيجة معارف مرتكزة على معلومات مضبوطة لمعادلات خاضعة للمقولات المنطقية وللاحساسات الانسانيـــة الدقيقة ، ويظهر ذكاء الانسان فى مدى استفادته من المعادلات تركيبا وتحليلا لابراز الحقائق وكشفها وابداعها واختراعها ، حتى تتولد النظرية من سلسلةالحقائق والمعرفة من المعارف ، كما تتولد الأغصان من الشجرة . وكما يتدفق الماء من الينبــوع فما يكاد الانسان يعرف شيئا حتى يجد نفسه أمام أشيـــــاء فيبدأ رحلته من جديد وينفد البحر ولا ينفــد المــداد لتسجيــل الكلمات والايحاءات اشكالية التطور فى فلسفة الاسلام ترتبط بذات الانسان وعلاقاته مع الموضوع وعلاقاته مع النص المختص بالموضوع ، فالانسان لا يحدد بفكره وعقله فقط بل بفكره وعقله وحدســـــه ووجدانـــــه وعواطفـــــه وبالعلاقـــات (وهى الجسور) التى تصله بالموضوع الخارجى وهى علاقات بنص معرفى مستوحى من خارج ذاته أو من فطرته ذاتها ليكون عمله الفكرى مرتكزا على أساس متين .

وقد اهتم الاسلام بربط الذات الانسانية عقلا ووجدانا بالنص القرآنى الذى يوجهها ، فالمعرفة المتكاملة اما من قراءة كتاب الطبيعة المفتوح أمامها ، أو من الاصغاء الى هواجس الانسان الفكريةوالوجدانية وتقليبالنظر فى ذاته، واما منالنص الذى يعيه من خلال تأملاته الفكرية والذى يفيد سلوك الانسان وتفكره .

ومن خلال علاقات الذات ، والموضوع والنص ، تقوم جدلية الصراع ليتحكم الانسان فى ذاته وموضوعه عن طريق النـــص أو عن طريق التجربة ومعاناة الموضوع خارج الذات ، فلم يبق حوار ذاتى Dialogue مع النص يكرر ذاته ، أو يكرر الموضوع ، وانما يظل فى جدلية مع فكره ومع الموضوع وبذلك يتجنـــب الاخطاء والاغلاط ويكتسب علما تجريبيا وعقليا ، .. وخارج ذاته ،

أى العلم الشمولى . وبذلك بتجنب ما وقعت فيه الكنيسة التى ظلت تحاور النص ولا تصل الى الموضوع ولا تقول بالتجربة فوقعت فى نظريات وأوهام ميتافزيكيا علمية ، وتمسكت بنظريات حسبتها علمية وتطورت فى ميتافزيكيا لا علاقة لها بالموضوع وواقع الحياة ولا صلة لها بالواقع العماى مما اضطر العلماء الى ادانتها والبحث عن العلمانية والدنيوية .

وقد تنبه الغزالى الى خطر المنطق الارسطاليسى العقلانى البحث والى خطر الفلسفة اليونانية المبنية على المنطق فأيد الاسلام الذى يوفق بين العقل المنطقى والتجارب الموضوعية ، وحذر الغزالى علماء الاسلام أن يقفوا فى وجه المسلمات العلمية والمعادلات الكونية والحقائق المفهومية لانهم اذا وقفوا فى وجهها فان موقفهم سيضعف الدين ، وسيضعف العلماء أيضا وسيقيم تعصبا وجمودا عند علماء الدين ، وشكا وحيرة لدى العلماء التجريبيين .

وبذلك فالغزالى أنقذ الاسلام هما وقعت فيه الكنيسة وقادها الى فصل الدين عن الدنيا ، والوحى عن العقل . مما يفتح فجوة تاريخية لتسرب الالحاد الى الدين والفصل بين عضوين متكاملين .

فلا يمكن أن نعيش بدون صوت الوحى ، الذى يؤكد من أعلى على الرحمة والتعاطف، ولا يمكن أن نعيش دون استعمال العقل الذى أمرنا باستعماله لنحقق أنسيتنا ووجودنا وخلافتنا فى الارض وقدرتنا على الخلق والابداع، ولا يمكن ان نفكر أو نعيش بدون موضوع وبدون جسور العلاقات بين الذات والموضوع .

فالاسلام سلطة دينية ودنيوية ، عقل ووجدان وموضوع وذات وقد اصطفى الله رسوله فى جزيرة العرب حيث لم تكن

سلطة ادارية قاهرة تضطر الدين الى البحث فى عالم الـــروح والرحمة فقط كما وقع للمسيحية أمام جبروت الرومان، فتخلت عن التنظيمات العقلية المادية الارضية واكتفـــت بصقل الـــروح ، وقد أراد الله أن يكون رسوله جامعا بين القوة الروحية والقوة الزمنية ؟ وهما قوتان لابد لهما فى موضوع ، وتجربة مع الموضوع ولابد للموضوع أن يحدد بنص مضبوط .

ينطلق الفكر للممارسة العلمية فتصحح الفكرة من تجرد وتصاغ فى علاقات جدلية مع الموضوع والنص وهكذا دواليك دون وناء أو توقف وهذا هو ميكانزم التفكير الذى يفرز الأفكار والنظريات فى عملية تحديد للمفاهيم وصياغتها وربطها ببعضها لئلا تبقى مفهوما مجردا معمما دون ارتباط بغيره وتحديد علاقاته الابداعية للخلق والابتكار والاكتشاف فى غمرة من صراع الافكار بعضها ببعض وتولد بعضها عن بعض وبقاء الصالح منها وتجاوز الخطأ فى الفهم والتقدير وصياغة المعادلات . وفى هذا الميكانزم الحيوى يتم التناقض والتضاد والتكامل ثم التولد أو الاجهاض . فكل فكرة لاتفهم الا فى تضادها مع فكرة أخرى ، وعلاقة التضاد تخلق الحيوية والحركة فهو فيض عقلى داخلى كنبض القلـــب الجسمى الخارجى ، كل حركة تعنى دفعا للأمام وكل سكـــون يعنى توقفا وشدا الى الوراء ؟ فالحركة هى التناقض والصراع . ويتجاوز العقل الفكـــرة المجردة الـــى المعاناة الذاتية أو الـــى المعاناة مع الموضـــوع ، فتمتـــزج القدرات التجريدية الفكريـــة والمعاناة الوجدانية الذاتية والموضوع الخارجى ليتم نمو الافكار ونضجها وخلقها وابداعها وتوادها وتأثيرها . فالفكرة متولدة عن الارادة ، والارادة تبدو فى القدرة ، وليس الا جدلية مع الموضوع ، فلا معرفة دون معاناة أو تجربة ولا تجربة دون موضوع ، ولا موضوع دون فكـــرة ، وارادة ، فالشىء الظاهـــر ، والباطـــن

والميتافزيك والفزيك والشاهد والغائب كلها تكشف عن الفكـرة والذات ، والموضوع والعلاقات بينهما جميعا ، والاسلام (قول) أى تفكير و (نية) ارادة ، و (عمل) أى تجربة ومعاناة . فهو ليس مجرد احساس وشعور ذاتى كالنرفانا البودية ولا انعزالية ورهبانية كالمسيحية ، ولا سلسلة تجارب ذاتية كاليهودية .

والفكر والمعاناة ، والايمان والوجدان والموضوع والذات هى هى جميعها مجالات للصراع الذى هو عملية التضاد والتناقض لينتج عنه التطور والتغيير .

وتوجد كلمات تنتج عن قانون التضاد والتناقض والتكامل وهو ميكانزم التفكير والوجدان فى الاسلام .

ان ألفاظ التغيير والتطور والتجديد والاصلاح والتقـدم والصيرورة والطفرة كلمات تقابل التوقف ، والاصالة ، والمحافظة، والاستقرار . ويجانبها كلمات مثل الجمود والاستلاب والتقليد . والانحراف ولكننا سنركز على اصطلاحين فقط . التطـــور والتغيير .

ونتساءل عما تعنى كلمة التطور ؟

ان التطور يتحقق عن مقابلة بين شيئين واختيار الانسب والاحسن . مقابلة تلقائية فى غالب الاحيان وقد تكون بتدخل الانسان وعلمه وارادته لتحقيق حالة أحسن . وهذه المقابلـة هى قانون التطور . وكما جاء فى القرآن الكريم (ولكل جعلنـا شرعة ومنهاجا) أى قانونا ونهجا وطريقة .

فللتطور أسباب وللتأخر أسباب كذلك ، والمعادلة هى ربط سبـب بمسبب وعلـة بمعلـول ليتحقـق التطـور فى الطريـق المستقيم . وهـو الخالق الـذى بيده كـل شـىء

وقانون التضاد والتناقض يولد صراعا مستمرا ليتولد عنه شيء جديد ، والعالم يعيش هذا الصراع الدائب مادة وفكرة في الحياة معادلة في استطاعة الانسان أن يحققها لانها تدخل في اختياراته وحريته .

ويقرر الاسلام أن الحياة صراع دائم (فلولا دفاع الله الناس بعضهم لبعض لفسدت الارض) وهو مناقض للكمال الالهي ، (فلو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا) وهذا الدفاع بين الناس هو صراع وحركة لتقع الصيرورة والتغير النافع والتجديد والاصلاح . وهذا هو التطور أما التغيير فهو حركة فقط غير واعية وربما يكون انتكاسة .

ان كل تطــور حركة الى الامــام . لانه حلقات سلسلة متواصلة . كل حلقة ايمان وفكر واستقرار ونزوع ، فالايمان استقرار ، والتفكر حركة ونزوع وقلق للايمان والاستقرار .. والاستقرار ليس ركودا واستكانة ولكنه اشاعة وعطاء ينزع الى تفكير متلاحق لا ينشأ عن قلق ولكنه ينشأ عن حاجة للكمال . والفكر حركـــة في مجـال بنيوى متصـــل بمختلف البنيـات يؤثر ويتأثر بالانظمة المفهومية والانماط السلوكية ، والعمليات الدائبة في التعبير عن الذات وعن الموضوع .

فالتطور هو الحركة الناشئة عن دفع الله الناس بعضهم لبعض ، والتضاد بالتنسيق يكون الاستقرار والسكون المستقـر والساكن على مفهوم ثابـت لا يلبث أن ينازعـه مفهوم آحر ضاغط . هو نزوع الشك والقلق .

والتضاد معادلة في طبيعة الانسان بين فطرته التى تنزع للقيم ، والمبادىء العامة ، حتى تكون وحدة اجتماعية حافظـة لشخصية الانسان وللمجتمع الاسلامى كله .

والصراع بين الفطرة والغريزة والتضاد بينهما ، وبين تعالي القيم والميول الشخصية ، ينشىء تضادا مستمرا بـــين الارادة والاستسلام . وبين الفتق والرتق والانجاب والقتل والبنـــــاء والتخريب . فكل تيار جارف يواجه تيارا جارفا معارضا . ويعبر الاسلام عن ذلك الصراع بين الخير والشر وطريق الله الواضح وطريق الشيطان المنحرف وقد يبدو التضاد واضحا فى الثنوية وقد يكون خفيا ليتدخل الانسان بارادته لحينـــه .

وباختصار فالتضاد شرط كل تطور لانه مبعث الحركة . وعدم وجود التضاد يعنى التوقف . لان الضد من طبيعته ينفى ضده ، ولا يجتمع معه ، ولذلك يقاومه ، ومقاومته تعنى الحركة والتقدم لان القيم الثابتة تنفى القيم المزيفة والصدق ينفى الكذب والنور ينفى الظلام وكما يقول ابن عربى حقيقة العالم تقوم على الاضداد . وكما يقول الامام على : « بمضادته بين الاشياء عرف أن لا ضد له » فمبدأ التضاد فى الاسلام يخضع للمثل والقيم كأســـس فكريـــة ، ولذلـــك فالثقافـــة الاسلاميـــة والحضـــارة الاسلامية كذلـــك تعتمـــد الصـــدق والفـــروض والواجبـــات ، ولكنها تقر ظهور المحرمات والمكروهات لا كقواعد ولا كأسس ولكنها كسلبيات لتحقيق الواجبات . مما تولد عنه الق4يم ، والمبادىء المرتكزة على منطلق الفطرة لتكون :

1) ــ قوة الدفع الى الاستمرار والتطور .

2) ــ لتكون قاسما مشتركا للوحدة .

3) ــ لتعبر عن قوة الدفع لصناعة التاريخ .

لتكون رادعة لمن يحاول الخروج عن المصلحة العامة والخط المستقيم . ان قانون التضاد لم يكن معروفا بهذا الوضوح فى

الفلسفة الدينية التى سبقت الاسلام ولم يكن معروفا حتى فى الفلسفة اليونانية بهذا الوضوح .

لقد كان الفلاسفة القدماء يرون أن الشىء الحقيقى هو الذى لا يتحول ولا يتغير ، فاذا تبدل فذاك دليل على عدم وجوده ووجود النقيض فى كينونته معناه عدم ثباته ، ولذلك لا يعتبر معناه عدم ثباته ، ولذلك لا يعتبر حقيقة ولا يكون معرفة لأن الحقيقة والمعرفة تبنيان على الثوابت ، ولهذا فان أفلاطون كان من رأيه أن اجتماع الاضداد فى الاشياء مما يخفضها من سلم الموجودات ، واتبع أرسطو رأى أستاذه فكان أبو المنطق القديم يؤسسه علم المنطق على الكينونة لا على الصيرورة وهذا منشأ الخلل فى منطق أرسطو حيث بدا ما هى البراهين من ضعف يؤدى الى نتائج غير مقبولة فالغزالى وابن تميمة وابن حزم وابن خلدون وغيرهم انتقدوا ما فى منطق أرسطو من خلل ولذلك لم يطمئن اليه علماء السنة من المسلمين واعتمد الاصوليون بعض أبوابه وكان ديكارت كانت وهيمل ورسل من أعظم المقوضين لمنطق أرسطو . ولعل الهيجلية لم تجد فى هذا المنطق ما يؤيد فلسفتها المبنية على ضرورة التناقض فى كل شىء حتى يمكن استمرار التغير . بينما منطق أرسطو صورى أى هندسة ثابتة . فهو صورة غير متحركة ومنطق هيجل حركى أى متتابع الصور ، الاول صورة فوتغرافية والثانى فلم متتابع الاحداث .

كان منطق أرسطو يرتكز على ثلاثة مبادىء .

مبدأ العقلانية .

مبدأ السببية .

مبدأ الماهية أى خضوع الماهية لقانون الذاتية وقانون عدم

التناقض وقانون الوسط المرفوع أى عدم اجتماع النقيضين .

أما هيجل ، فالمنطق يقوم على التضاد ، وعلى استمرارية التنقل من الموضوع الى اللاموضوع الى التركيب من الايجاب الى السلب ثم الى سلب السلب .

والواقع أن مذهب هيجل سبق به علماء الكلام والاصول فى الاسلام . فقد قال بالتضاد كل من النظام والجبائى والاشعرى والغزالى وابن عربى والطوسى والرازى ، وانتقلت هذه الآراء الى فلاسفة الغرب وبالاخص عن طريق سينوزا الذى قال بنشوء التناقضات ثم اتحادها فيما بينها أى (الديالكتك) وظهر تفسير ذلك واضحا عند فيخته وشلينج . وجاء هيجل فوسع الموضوع واعتبره وسيلة لتبرير الواقع .

لقد تحدث فلاسفة الاسلام عن الجدلية بأنها عملية بين الاثبات والانكار ، أى عدم اجتماع الضدين وانتهى هيجل الى التأليف بين الضدين . ومن رأى فلاسفة المسلمين أن التضاد فى الحركة وفى التكامل لا فى الحركة وحدها ، ولذلك قالوا : تضاد الموجودات الطبيعية شرط لدوام الفيض الالهى وامداده المستمر وعنايته بخلقه الى الصيرورة وهى وجود واخراج من العدم .

ويفسر الفخر الرازى 1149 — 1204 الصيرورة بأنها الحدوث الانبثاقى بالطفرة ، وليس الحدوث بالتدريج ، اذ أن الحدوث بالتدريج لا معنى له ، وهو مجرد خداع بصرى فما تظنه تدريجيا يحدث دفعة واحدة ، فالحركة هى مجموعة أجزاء متتالية ، فليس هناك بدء أو بداء وانما هناك صيرورة وتنقل من حال الى حال وتطور متتال .

وعندما نضع يدنا على الطفرة فى كلام الرازى نجد صلته

قوية بالنظام . فلو تظافــرت الجهود بينهما لوضعــا أســس الميكانيكا الحديثة .

ومذهب الرازى يفسر مبدأ التطور قبل أن يصل فيلسوف التطور سينسر الى تفسير التطور بأنه تناسق عمايتى التفريــق والتجميع وذلك ان كل كيان طبيعى ينقسم ، وكل قسم مفصل يعود فيجمع بمنظومة من الروابط الجديدة تجعل منه وحــدة جديدة ، ولكنها فى هذه الحالة أكثر تعقيدا فى تركيبها مما كانت عليه من قبل، وهى فى نفس الوقت جزء من الكليات الاولى ، كما تصبح فى صورتها الجديدة أقدر على القيام بوظيفتها .

ويحدث هذا التطور على مراحل متساوية فمن مرحلــــة التجميع الى مرحلة التفريق وهذا المفهوم للتطور يوحد أشتات المعرفة وقد بسط سينسر (1820 — 1903) مذهبه فى كتابــه المبادىء الاولى وهو مقدمة كتابه (الفلسفة التاليفية) .

وقد استثنى من تطبيق المبدأ ما أسماه (بالمحال عــلى المعرفة) ويعنى به الجانب الــذى لا يرد على خبرة الانســـان كاللاهوت والمجردات مثل المكان ، الزمان ، الحركة ، والقوة .. والقاعدة عنده فيما يمكن معرفته هى امكان مقارنته بغيره . ولما كان المطلق مستحيل المقارنة بغيره استحالت معرفته ، فحد المعرفة الممكنة هو الظواهر وعلاقاتها .

واستطاع سينسر أن يوضح فى كتابه (أصول البيولوجيا)

---

1) يرى النظام ان الجوهر ينقسم الى درجة يصبح فيها طاقة وهو قريب من النموذج المعروف للذرة والذى يتكون مــــن نواة تضم عـــددا من البروتونات والنيترونات تدور حولها فى مدارات ثابتة مجموعـــة من الالكترونات ، وبينما تكون النواة موجبة للتكهرب فان الاكترونات المحبطة بما سالبة اما الذرة نفسها فمتعادلة من الوجهة الكهربائية ، وهناك قوة كهربية وميكانيكية تحفظ للذرة نظامها الشبيه بالسديم الشمــس .

وأصول علم النفس ، كيف تقدمت الحياة بفعل المواءمة المستمرة بين العلاقات الداخلية فى الكائن الحي والعلاقات الخارجية فى عناصر البيئة .

ويرى فى كتابه (أصول علم الاجتماع) أنه كلما تطـور المجتمع انفصل الفرد عن الكيان الاجتماعى وازداد حرية .

وفى تطور الاخلاق يرى أنها تطورت نحو التوفيق بـين حقوق الفرد والجماعة وألح سينسر على مبدأ العودة الى الطبيعة والعناية بالجسد والصحة ، واشاعة الروح العلمية وتوجيـه الافكار الى قوانين التطور الفكرى والنفسى ، والتربية الذاتية .

وقد عدل مذهب سينسر جون ستيوارت 1873 — 1806 الذى عاد الى مذهب الرازى فى فلسفته Emergement Evolution والذى قال بأن التطور الانبثاقى والتركيب المنتخب كيمياء عقلية (أى أن امتزاج الافكار تنشأ عنه أطوار فكرية جديدة لم تكن واضحة فى الافكار المتعددة قبل امتزاجها) .

وجاء لويد مورجان Leoyd Margan فحاول تعديل مذهب سينسر الذى قال بالارتقاء فى عالم العضوية وغير العضوية، وأنه ارتقاء البساطة الى التركيب ، ومن التشاكل الى التنوع ، وبأن الله تعالى هـو الوجود المطلق الذى يتجلـى فى الوجـود المشهود والعقل الانسانى (آخر مثال) وصل اليه الوجود فى التجلى .

وأكد موجان أن الانتقال يجب أن يحتوى شيئا جديدا . والتركيب الجديد يبرز خصائص كانت مكنونة ، وهذه الخصائص نفسية وحيوية تعلو وتبرز بعد الخفاء ، ويرى أن درجات الارتقاء تكون فى المادة فى اخلاطها الكمية والكيمائية ، ثم فى الحياة ثم فى العقل . فلكل ذرة عقل . ولذلك يجوز أن نقول عقل الشجرة ، لأنها

لا تخلو من عنصر العقل المحرك والمدبر وهو بالنسبة للشجرة فى حالة النزارة التى تكفيها للحياة وضبط قوانين نموها (وكل شىء يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) أما الذى يخـــرج الاطوار ويبرر العقل ويخلقه فهــو المدبر الاول وبجانب هــذا الفيلسوف جاء صموئيل اسكندر 1855 الذى عدل التطور وقال بأنه فى المادة صورة عن الزمكانية فليس الزمان عدما اذا انعزل عن المكان ولا يمكن ذلك ، وتجمع .. ومن الانبثاقيين من يجمع بين مذهب التطور ومذهب هيجل ذلك لأن هيجل يرى أن الله هو الوجود المطلق الذى يتمثل فى حدود الوجود المشهود ، والعقل الانسانى آخر مثل وصل اليه الوجود فى هذا التجلى فهو أرفع مثال . والمادة ومظهرها نشأت عن الكون المؤلف من الزمـــان والمكان ، واذا فطبقات المادة ذات الخصائص الأولية (والحجم والشكل والعدد والحركة) ثم خصائص الاعراض (اللون . والصوت . والرائحة ودرجة الحرارة) . وهذا التركيب هو نظام ، يستلزم منظما .

ورأى صدر الدين (1643 م) وهو من فلاسفة المسلمين ومن الحية فى تركيب أجزائه ، والكون يتجلى فى حوادث لا فى آشياء ، لانها تتجدد باستمرار .

وتوضيحا لفلسفة الوجود والعلم فى الفلسفة الاسلامية وعلاقتها بالتطور والصيرورة حسب أصول الثقافة الاسلامية نجد هذه الفلسفة ترى :

ــ ان جميع القضايـــا ، وجميع الافكار ، وجميـــع الآراء والنظريات ، فيها جوانب السلب وجوانب الايجاب ، سواء فى المفاهيم والمنظومات الفكرية أو فى التعابير اللغوية . فجملة زيـــد

ليس واقفا هى زيد جالس ، فالايجاب والسلب متواجدان حتى فى التعبير اللغوى ، واذا فالوجود والعدم بينهما ترابط وعلاقة ، أى سلب الربط وربط السلب ، فمصداق السلب ومصداق الايجاب واحد ، والمقابلة بينهما تولد الصيرورة أى التدرج والسيلان ، أو ما عبر عنه برجسون بالوجود السيال وهو يعنى بالفكر السيال فى أن يكون وجودا مستمرا .

ورأى صدر الدين (1643 م) وهو من فلاسفة المسلمين ومن شراح فلسفة ابن سينا وؤلف كتاب (الواردات القلبية) باضافة الزمان أى البعد الرابع معبرا به بين الابتداء والآنية ، فالان هو بداية الوجود ، ومعنى ذلك أن الوجود ممتد ، وذو بعذ مطاط يتطابق مع الزمانى ولكنه محدود وليس بلاحد . وهذا البعد يشبه فلسفيا الى حد بعيد مذهب النسبية الذى يرى أن الفضاء رباعى الابعاد ، والبعد الرابع هو الزمان فلا يمكن ولايتأتى قياس حركة من الحركات بالطول والعرض والعمق دون أن تضيف اليها بعد الزمان فالآن هو نقطة فرضية اعتبارية فى الزمان مثل النقطة الهندسية التى يبتدىء بها المكان . ويقول فى كتاب الاسفار : الحركة والزمان من الامور الضعيفة فى الوجود التى وجودها يتشابك مع عدمها ، ويزيد فى موضوع آخر : ان المتغير يربط بالثابث فالثبات للتغير والتجديد ويدل على هذا الفهم قوله تعالى فى سورة هود وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة ، ويفسر ذلك بأن الشىء المتصل وجوده بعدمه يضم بقاؤه الفناء لان أسباب موجبات حفظه وبقاء الانسان حتما أسباب وموجبات هلاكه وفنائه . واذا فهناك اتصال الوجود والعدم فى كل شىء ولذلك يجب اعتبار نشاط الذهن حول مفهوم العدم .

فامتداد الزمان الذى أدخله (صدر الدين) كبعد رابع

هو امتداد للموجودات التدريجية من القوة الى الفعل ومـــن الطاقة الى البروز ولو أن رأى النظام فى الجوهر الفرد الذى قال انه يصل الى نقطة التجزء التام أى بصريح العبارة يصل الى نقطة يصبح فيها (طاقة) لكان للمسلمين السبق فى نظرية النسبيـــة ، زيادة فى التحليل ، فالشىء غير الموجود هو الذى يكون فى الحال أما الماضى فقد كان ، وأما المستقبل فهو أمر وسيكون . ولـــو لاحظنا فكرة الزمان فى الفكر العربى لوجدنا الفعل قد يكـــون ماضيا ، ويكون حالا . أما المستقبل Future فلا يكون ، وانما هو الامر أى الخلق والامتداد لامر جديد .

ان قضية التضاد فى تفسير الحركة تبتدىء من الوجـــود والعدم ، ويرى الفلاسفة المسلمون ويتبعهم علماء الكلام أن جميع القضايا والافكار موجبة ، وسلبية ، وبين الوجود والعدم والسلـــب والايجـــاب رابطـــة وعلاقـــة الربـــط ربط السلـــب ، ومصداق السلب ومصداق الايجاب واحد والمقابلة بينهما تولد الصيرورة والتدرج والسيلان . فامتداد الزمان الذى أدخل كعبد رابع امتداد للموجودات التدريجية من القوة الى الفعل هو الذى يكون فى الحال ، أما الماضى فقد كان فيه الشىء موجودا وكذلك سيوجد فى المستقبل وبالتمعن فى هذا التحليل ترى مدى موافقة الفلسفة الهجلية لتفكير علماء الاسلام ، فهما معا يرميان أن اتحاد الوجود والعدم فى الصيرورة .

وبناء على هذا التحليل فالفلسفة الاسلامية فى مواجهـــة الهيجلية ترى أن اتحاد الوجود والعدم فى الصيرورة ، كما يرى هيجل ويتنافى مع مبدأ اجتمـــاع النقيضين وهـــو (ديالكتيـــك هيجل) فالفلسفة الاسلامية تتبى مبدأ اجتماع النقيضين خارج الذهن . وربما يرجع ذلك الى عدم وحدة ادراك المفهوم الواقعى

الخارجى للمسئلة لاعتبارات مفهوم معنى العدم والوجود فى الثقافتـــين .

غير أن الديالكتيك الهيجلى ينفى مبدأ اجتمــاع النقيضــين والديالكتيك الاسلامى يجمع بينهما فى الصيرورة ، وهذا ناتج عن عدم ادراك أو وحــدة ادراك المفهوم الخارجــى للمشكلــة والاعتبارات اللغوية لتفسير العدم .

واذا فالديالكتيك الهيجلى واضــح فى فلسفة مثالية تتخــذ العقل المثال المطلق فى الطبيعة والذهن وصورة واقعية تستند الى التناقض ، ولهذا فهيجل من الواقع لا يرفض مبدأ اجتماع الضدين بصورة ذاتية ولذلك فلا تباين بين فلسفته والفلسفة الاسلاميــة بصورة ذاتية ، فهو غير مخالف لما أقره فلاسفة المسلمين . فالصورة فى المرأة ليست هى الذات الناظرة فهى صورة على شكــل ذات الانسان وليست ذات الانسان . أى أن الانسان فى الخارج هــو شىء آخر ، وليس هو الانسان ذاته .

واذن فالديالكتيك القديم هو عدم اجتمــاع الضديــن . لان القدماء رأوا أنه لا يمكن أن يكون الشىء موجودا وغير موجود ، وهيجل يرى أن الاشياء تكون موجودة وغير موجودة لانها اذا كانت موجودة فقط تكون ساكنة ، فلا تغيير ، وهيجل يسمــى اجتماع التناقض فى وجود الاشياء وفى الذهن وهى مثالية . وهى الديالكتيك . والصيرورة ليست وجودا أو عدما بل تركيب نقيضــين فالوجود معدوم وهو صورة المقبول .

وهنا لا يتفق مع الفلسفة الاسلامية التى ترى عكس ذلك أن أى الشىء فى الصيرورة موجود ومعدوم لان علماء المسلمين اتجهوا الى الموضوع لا الى الادراك العقلى والموضوع ليس نقطة مقابلة لمبدأ عدم اجتماع النقيضين .

ان هيجل واضح فى فهمه للجدلية فى فلسفته المثالية ، لان المنهاج الديالكتيك الذى على ضوئه يتخذ العقل (المثال المطلق) فى الطبيعة والذهن صورة واقعية تسند الى التناقض . ولهـذا فهيجل لا يرفض مبدأ اجتماع الضدين بصورة ذاتية ولذلك فـلا تباين فى فلسفته والفلسفة الاسلامية .

واذا فالخلاف فى الصيرورة بين فلاسفة الاسلام وهيجل ليست قضية اجتماع النقيضين أو اختلافهما . بل فى أسلـوب التفكر ومنهاج العقل وأساس الانطلاق . لانه انطلق من المثالية المطلقة بينما هم فى الاسلام انطلقوا من التعادلية بين المثاليـة والحسية والموضوعية فقد ينتهيان الى رأى موحد ولكنهما لم ياتيا من رأى موحد .

وتوضيح هذا المنطلق ان هيجل يرى التصور مجموعة من النسب والعلاقات والاضافات أى المقولات العقلية ويرى أنها هى معنى الوجود المحض ومعنـى العدم المحض . ويـرى أن الموجود موجود وهى مرحلة التصديق والموضوع ولكن الوجود (اللامعين) يساوى العدم وينتهى الى أن الوجود هو صـورة القبول . لانه أى الوجود المحض لا يمكن أن يتحقق وانمـا يحقق فى التركيب مع العدم بينما يبطل فلاسفة الاسلام أصالة الوجود ويرون أن الشىء الذى هو فى الوجود الواقعى وهو الوجود المحض . لان الوجود يتصف بطابع سيال لانه يختلط مع العدم ويدخل مرحلة الصيرورة . أى فهم ينهجون طريقا عكسيا وان كان يبدو اتصالهما معا .

وتنتهى الصيرورة والتغيير الى التولد . أعنى هذا الناتـج الذى نتج عن الصيرورة فما موقف الانسان منه ؟ وما موقـف الشرائع والقانون ؟ وما موقف المجتمع منه . ربما كانت هـذه قضية القدر والقدر والحرية والاختيار والجبرية والحتمية .

للوجود قانون ثابت ، وهو قانون خفي يوجه ويتحكم وتبدو عنه ظواهر طبيعية واجتماعية ذات علاقات فيما بينهـــا علاقة السببية والعقلية .

والانسان مخلوق من المخوقات الكونية فله نفس خصائص المخلوقات يخضع فى علاقاته مع الطبيعة ومع المجتمع للاسباب والمسببات . وربما كانت علاقات الانسان مع الطبيعة والمجتمع أكثر تعقيدا ، لانه ليس مجرد شىء بل هو عقل ووجدان ، وهذا ما يجعل علاقاته تتعــدد وتتغير ، وتتطــور تبعا لذلك وتتعــدد الاسباب والعلل لبروز نتائج تشابه احداها الاخرى .

ان عالم الطبيعة يتكون من ذرات ، وعالم الاحياء يتكون من خلايا . والمذهب الذرى يربط بين تفاعل الذرات وتأثير بعضها ببعض بقانون الاسباب والمسببات الذاتية والخارجية ومن حركة صادرة عن طاقاتها حينا ، وفوق طاقاتها أحيانا أخرى .

ومن أجل هذا فان الانسان فى حياته الاجتماعية يعمل وفق قانون الطبيعة دون تدخل ارادته ، وأحيانا بتدخل هذه الارادة . فيكون طورا مسيرا وطورا مخيرا . فاذا جهل قوانين الطبيعة كان مسيرا أما اذا عرفها كان مخيرا ، وكما يقول الغزالى : كلما كثرت معارف الانسان كبرت حريته .

فالانسان ليس كالحجرة الصماء ، ولا كالحيوان الاعجــم لانه يستطيع عندما يعرف الاسباب والعلل أن يتدخل فيها ليغير مسيرتـــه .

ولكن كيف السبيل للتغيير ؟ فالغريزة والفطرة وعمل العقل كلها أداة لتغير الاحوال ، غير أن المنهاج المتزن هو الذى يجب أن يتوفر عليه الانسان ليستطيع أن يكون على بصيرة من أمره فى التغيير والتطور ، ومن هذا المنطلق يمكن للانسان آن يخوض فى طريقه التغير والطور حتى لا يعرض نفسه للدونية .

ان التطور والتغيير تنشأ فى (الفرد) وفى (المجتمع) وفى (الامة) وهو فى كل ذلك يخضع لجدلية الديالكتيك . فيؤثر بعضها فى بعض .

على أن السلفية الحديثة ترى التطور يجب أن لا يخرج عن القوانين العلمية فى الاجتماع ، تلك القوانين التى تحدد سمات الظواهر والتى تربط الاهداف باالوسائل ولهذا فنتطور الحضارة الاسلامية يرتبط بمفاهيمها الخاصة العقائدية والفكرية والاخلاقية والاقتصادية والمادية . ولهذا فنقل تقنيات وتكنولوجيات التطور المادى بحرفية وتقليد تفسد مسيرة الحضارة الاسلامية لاختلاف الاهداف والغايات بين الحضارات الشرقية والغربية .

فالعلوم التكنولوجية فى اطار حضارة الغرب هى غير العلوم التكنولوجية فى اطار حضارة الاسلام وهذا نفس ما سلكته أوروبا حين اتصلت بالحضارة الاسلامية وأخذت عنها ، واستفادت منها . فأوروبا أخذت القوانين وغيرت الاهداف ومثال على ذلك ، فالطب عند ابن سينا والرازى لا يفرق بين المادة والنفس ، ولكن الطب الغربى أقام الطب الجسدى وحده ، والطب النفسى وحده،

فلابد اذا أن نفرق بــين ما يدخل فى اطــار القوانين العلميــة وتطبيقاتها وبين الاتجاهات والاهداف التى تحدد نموها وتطورها، وكمثال على ذلك أيضا فالحضارة الاسلامية تجعل الانسان مركز العمل العلمى وهدفه، بينما تهتم الحضارة التقنية المادية بالاشياء والطبيعة وتجعل الانسان تابعا لها ، وليست بتابعة له ، وبما أن الاسلام دين الفطرة ، وحضارة المادة تنمو على حساب فطــرة الانسان ، وتعرضه للانهيار والاستلاب ، فان الاسلام لن يأخذ من حضارة الغرب ما يقضى على الانسان نفسه وقد يجوز أن تتكامل الحضارات ويأخذ بعضها عن بعض دون تحفظ اذا كانت من فصيلة واحدة ، ولكن لا يمكن تكاملها اذا اختلفت فصائلها ، كما هو معلوم فى قواعد البيولوجيا ، وليس معنى ذلك رفــض الحضارة الاسلاميــة للمادية اطلاقــا ، ولكن معنى ذلــك أن الحضارة الاسلامية مركز اشعاعها روحــى : وتتطور المادة حول اشعاعها ، بينما الحضارة الغربية مركز اشعاعها مادى ويتكون الجوانب النفسية والروحية كهالة بجانبها .

تحديدات ومفاهيم عن الحضارة

ما هى الحضارة ؟

ان كل محاولة لتحديد مفهوم الحضارة تستلزم دراسات طويلة وعميقة يعسر نقصها ، ورغم ان كل باحث فى اى جانب من جوانب الحضارة ملزم باعطاء نظرة محددة لها تقريبيا ، فانه يجد نفسه مرغما ان يكتكفى بالنزر اليسير مما يحقق له تعريفها تقريبيا لبعض جوانبها فقط ذلك لان الحضارة تتصل بكـــل عطاءات الانسان فى مختلف العصور ، ولها علاقات جدلية بكل انتاج الانسان أيضا منذ ظهوره على مسرح الحياة فى مختلف المجالات سواء منها الفكرية أو الوجدانية أو التقنية ، واذا اضفنا الى هذا كله حقيقتها التجريدية ، ظهر الى اى حد يصعبتعريفها .. ويختلف علماء الاجتماع فى تعريف الحضارة اختلافا ناتجا عن المدلول اللغوى لهذه الكلمة أو عن الايديولوجية التى يؤمن بها العالم الاجتماعى ، واذا كان مـــن اللازم أن نحددها تحديـــدا موضوعيا بعض الشىء ، فالحضارة نتاج عدة عوامل منها العامل الثقافى وما يعطيه الفكر والوجدان من عاطفة وفلسفة وعلـــم وفن ، ومنها عامل المدنية وما يعطيه من تفاعـــل الانسان مـــع البيئة وتحديه للمحيط والزمان والمكان ، وحركة التاريخ ، فهى كالواجهة الامامية للحركة الثقافية المتأججة وراء كل عمل انسانى وانتاج بشرى ، وما يؤثر فى نمو الحضارة من تعاقب الازمان وبين البيئة المتفاعلة مع الانسان فى حوار وصراع مستمر وسواء

كانت بيئة صحراوية أو غابوية أو ساحلية أو بحرية ... فان كل عمل انسانى يتحدى به العجز والاستسلام ويظهر وجوده يبدو واضحا فيما نسميه بالحضارة .

وقد استعمل المغاربة كلمة الحضارة فيما يفيد العمران وحسن الاخلاق والسلوك ، وينقل الشيخ محمد الطالب ابن الحاج فى كتابه (رياض الورد) عن الاديب المغربى محمد بن الخياط المتوفى سنة 1273 هـ 1770 م فى الدفاع عن الحضارة .

عاب الحضارة قوم لاخلاق لهم
اذ لم ينالوا نصيبا من مبانيها
وقالوا عن حسد أضنى قلوبهم
هذى الحضارة لا ندرى معانيها
فقلت ان الذى انكرتم عرض
فان من دونها الدنيا ومن فيها
ان الحضارة أخلاق مهذبة
تهدى معالى لنا من دون باريها
فالعلم أواها ، والفضل تابعه
فمن يطاولها ؟ أو من يدانيها ؟

وخص الانجليز عبارة الحضارة فيما يدل على طريقة العيش لجماعة بشرية فى بقعة خاصة ، وبيئة معينة Awayo Fliving فالحضارة نمط فى السلوك ، ومزيج انتاج وتطور ، وطريقة تفكير ، ونظرة للحياة منزاوية خاصة ، وسلوك عام .

وجاء فى دائرة المعارف البريطانية فى مفاهيم المدنية والحضارة : ان الحضارة هى طريقة حياة جماعة انسانية ، فهى اذن أنماط السلوك المكتسبة التى يستعملها الانسان ... والحضارة تزدهر وتتقدم عندما تجد طبيعة وبيئة صالحة وامكانات طبيعية

طبيعية ورغبة فى التطور والتجديد ونزوعا الى السلام والبناء .

ويعرف (ول ديوارنت) الحضارة بقوله :

هى نظام اجتماعى يعين الانسان على الزيادة فى انتاجه الثقافى ، ولهذا فالحضارة تصاحب الوجود الاجتماعى للانسان .

أما الثقافة فيقول أحد المفكرين الالمان : هى مزيج من التعليم والحضارة والعقيدة والتراث فقد يكون الرجل متعلما حاذقا ولكنه لا يكون مع ذلك مثقفا ، وقد يكون مثقفا وليس لة قدر كاف مما تتناوله التربية الاساسية وقد تكون الامة ذات حضارة عريقة ولكن ليست لها الثقافة التى تؤهلها . على أن الاستعمال العام لها مرادفه للادب ولطف المزاج ، والذوق الجميل وبالاخص فى ميدان الفنون ... ويرى آخرون أن الحضارة هى بنية فوقية أو واجهة أمامية ، تعتبر الثقافة بنيتها السفلية Infrastricture فالثقافة هى حوار مستمر بين الاقتصاد (اى الناحية المادية) وبين البحث والتفكير وهو الناحية الروحية أو الادبية ، والفكر ، يطور الاقتصاد ، كما أن الاقتصاد يطور الفكر أيضا ، فليست الثقافة غاية ، وانما وسيلة ، وليس الاقتصاد غاية ، بل هو وسيلة لتحسين مستوى الانسان واسعاده ، والثقافة فكر يترجم الى عمل ، والعمل حركة دينميكية لابراز الفكر ، لقد بدأت الثقافة مع العمل ، كما بدأ العمل والبناء الحضارى مع الثقافة .. ويلاحظ مؤرخو الثقافة أنها اصبحت برجوازية حين انقسم الناس الى عامة يعملون ، والى مفكرين يبحثون بحثا ترفيهيا .. فبرزت الكتابة والادب والفن والموسيقى من صميم التجربة ، ثم أصبحت ظلالا للمترفين من الناس ، وخمدت الثقافة حين ابتعدت عن التجربة والمعاناه ، فأصبحت ميتافزقيا خيالية وصوفية حالة ، لا تطور العمران والحضارة والفلاحة ، وانما تمتص الاعمال فى وناء ، وأصبحت

الثقافة الحذلقة والمعرفة المجمدة فقط فاضطر الشعب العامل ان يجد ثقافته فى فنونه ورقصه وتصويره وملحونه ، وما يعبر عنه بالفلكلور ، كتعويض عن الثقافة نفسها التى ترفعت عنه ، أو صعبت عليه أما الثقافة فى الواقع ، فهى المعارف والابحاث والدراسات التى تساعد الانسان على الفهم والبناء والتشييد عن وعى وهى التى تخطط ، وتكون الانسان المنتج والعامل والمستهلك وتعلم فى المدرسة والاذاعة والتلفزة والصحافة وتخطط فى المخبر والعمل ... فلأجل تطور الاقتصاد والحضارة يجب تطور الثقافة والفكر ، والعكس كذلك ... وهذا لا يعنى تجريد الثقافة فى محتواها المتنوع فهناك ثقافة فردية تربى الملكة والذوق والجسم والنفس ، وهناك ثقافة اجتماعية تقر النظام والعدل ، تتجه الى الطبيعة والآلة والفلاحة والطاقة والصناعة والمعادين لتطويرها بالبحث والتصميم ... وهكذا تتعاون الثقافات فيما بينها ليتكون انتاج جديد ، يعوض المندثر ، ويتلاحم مع المجتمع وينعكس ذلك على البناء الحضارى .

والحضارة هى آثار الانسان فى حياته العامة فى مأكله وملبسه وعاداته وعمرانه وابنيته وفكره وثقافته وهى انظمته وتربيات حياته وهى أساليب تلقينه وتعليمه وبيعه وشرائه ، وزواجه وطلاقه ، وحياته وموته ، وحفلاته وافراحه واحزانه واعياده وصحته ومرضه واسلوب عيشه فى سلامه وحربه ... فكل هذه الحركات الدائبة فى المجتمع تعطى تحديدا نهائيا لما نسميه بالحضارة .

وكما يبدو من خلال هذا كله ، الحضارة هى تشخيص لحياة المجتمع ، ذلك لانه حركة فكرية ووجدانية تلاحم الثقافة الفكرية والفنية والوجدانية والفنية . وله كذلك عطاء تقنى يظهر فى التمدن المادى ، وفى انواع البنايات وانماط الألبسة والعادات

الانسانية ومن خلال ذلك تبـدو الحضارة كشخصية لهـذا المجتمع ... فتختلف باختلاف الحركة الخلفية لهـا ... وبذلك تختلف الحضارات بين الحضارة السحرية كالكلدانية والفرعونية والحضارة الدينية كالمسيحية والهندية والاسلامية والحضـارة الفلسفيـة كاليونانيـة والهلينيـة . والحضـارة العلميـة والتقنية وكما تختلف الحضارات حسب أصولها ومقوماتها ، وحسب ما تعتمد من ثقافات ، تختلف كذلك تبعا لمعطيات البيئة التى لها انعكاسات على طبيعة الثقافات ، فالبيئة الجغرافيـة اليونانية ذات الجبال العالية ، والرياح العاصفة أوحتبالخيالات والميثولوجية الاغريقية بينما توحى الصحراء بالهواجس الداخلية ، وتنمى الاحساس الباطنى ، كما أن ظلال الاشجار الباسقة فى الادغال الموحشة مما يطبع حضارة الغاب بالحذر والوحشة ، وتؤثر البحار وأمواجها ، فى تكوين حضارات البحار والمغامرات فى عالم المجهول ... والواقع أن كلمة الحضارة تحمل بالتعريف المعجمى عدة معان ، فهى بالمعنى الانتروبوجى تتناول كل حضارة مختلفة عن الاخرى ، فتدرس كظاهرة اجتماعية لها خصائصها المعينة لها ، وتدرس بمعناها العام كفاعلية انسانية مبدعة ، فهى بالمعنى الاول تعنى ما نحن بصدده أى دراسة انتاج الانسان فى بيئة جغرافية معينة مرتبطة بزمان خاص ، بينما هى بالمعنـى الثانى ترتكز على المؤسسات الاجتماعية والثقافية والعمرانيـة ، وبذلك تدرس كظاهرة اجتماعية ضمن التقدم الاجتماعى والثقافى وهى بالمعنى العام تعنى كل المعطيات الثقافيـة والمادية التـى اكتسبها الانسان خلال تحديه واستغلاله للارض والطبيعة .

والحضارة بهذا المعنى ذات فاعلية انسانية شاملة مشتركة ، كما انها بهذا المعنى توضح مدى حيوية الحضارة وعدم فنائهـا وفواتها ، وانما تستمر ثـم تتحول وتتطـور دون أن تفقـد

خصائصها الاولية ولهذا فالتركيز على المعانى السابقة فى شرح الحضارة يدل على أن الحضارة بنية اجتماعية تعتمد التنظيم الاجتماعى والفنى والفكرى .. والتنظيم الاجتماعى بكيفيته وكميته ينعكس على المفهوم الحضارى كما ينعكس على الجهد الفكرى والوجدانى والتقنى ، ويخلف مقياس سموها بقدر ما تعطى من تنظيم ورخاء وسعادة عقلية ومادية ، اما هدف الحضارات فهو تحقيق حركة التاريخ لتطوير الانسان وتقدمه متكاملا فى دائرة الاقتصاد والفكر والوجدان والعلم والتقنية . والحضارة مجموعة المعطيات المادية والمعنوية فاذا عرفنا حضارة مجتمع من المجتمعات البشرية عرفنا أنواع النشاطات الفكرية والوجدانية والابداعية والتقنية كما عرفنا ما يتوقعه أفراد هذا المجتمع من بعضهم ومن غيرهم لان الحضارة من حيث طبيعتها ووظائفها ذات وحدة فى المجتمعات كلها والخلاف بين الحضارات فى نوعيتها فقط .

وللحضارة شروط :

1) نظام اجتماعى ينظم فيه الافراد بقوانين وأعراف وعادات وتقاليد ، لتكوين بنية اجتماعية سليمة متكافلة .

2) أعمال وانجازات تتوالى بفعل الذكاء الانسانى والتطور الدائب ، وتتبلور فى تقدم تقنى وفكرى .

3) قيم ومبادىء يهدف المجتمع الى تحقيقها ، ويناضل من أجلها تتجلى فى الثقافة العامة التى تضمن مستوى أخلاقيا وأدبيا واجتماعيا .

وعملية التطور هى تاريخ الحضارات ، فكل تقدم دفعة للامام ، واسهام من الجميع ، وعطاء لكل الامم ، وعلى أساس العمل المنظم تقع التنمية الحضارية . ويذكر الدارسون لشخصية

الحضـــارة وتفاعلها مــع مكوناتها أنهـــا تتسـع باتســـاع الممارسين لهـــا والخالقين المجدديــن فيها وانهـــا ، ليست لهـــا نهاية محتومة وليس فى طبيعتها ما يرسم لها حدا معلوما (1) (الفلكلور ومشكلات الحضارة المعاصرة) عالم الفكر المجلد 3 — العــدد 1)

الثقافـــة والمدنيـــة والحضـــارة

أما عن تحديد العلاقة بين الثقافـــة والحضارة والمدنيـــة والمجتمع ، فقد اختلف الباحثون فى هذه العلاقات فالمجتمع هو مجموعة من الافراد تربطهم مصالح تنتهى بانتهائهم ، اما الحضارة فهى اساليب مختلفة من الحياة للجماعة ... واذن فحضارة مجتمع هى طريقة الحياة الــتى يعيشها أفـــراده ومجموعة أفكارهـــم والاستعدادات التى اكتسبوها .. فالحضارة تراث انسانى تختلف بين المجتمع والاخر وان لم تختلف فى طبيعتها التى هى تكيف الانسان مع البيئة الخارجية .. ويفرق الباحثون الالمانيون بـــين الحضارة والمدنية فالحضارة هى صورة التعبير عن الروح العميقة للمجتمع ، أما مظاهر التقدم التكنولوجى والآلى فهى المدنيـــة (الفلكلور ومشكلات الحضارة ، عالم الفكر . الكويتية) .

ويذكر F. B. Taylor فى كتابه الثقافة البدائية Primitive culture ان الحضارة هـــى الكل المعقد الـــذى يتضمن المعرفة والعقيدة والفن والاخلاق والقانون والتقاليد وكل القدرات التى يكتسبها الانسان بصفته عضوا فى مجتمع ...

ونتساءل عما كان من الضرورى أن تتلازم الثقافة والحضارة؟ فالتاريخ يذكر نماذج لحضارات بدون ثقافة ، ولثقافة بـــدون

حضارة فكل ثقافة لم تشيد آثارا ملموسا تبقى حركـــة خفية دون حضارة ، فثقافة الزهاد لا تتبلور فى حضارة .. كما ان الحضارات المدنية المنحرفة كالنازية تعتبر حضارة دون ثقافة مثل ذلك الرجل القوى الجبار الذى يفترس كالحيوان فهو جسم عليه البســـة الحضارة ولكنه بدون ثقافة ، والحقيقة أن القول بالتفريـــق والفصل بين الحضارة والثقافة يرجع الى اختلاف التصـــور لمفهوم الثقافة ومفهوم الحضارة ، ذلك لان مفهوم الثقافة يختلف باختلاف الحضارات والبيئات كما يختلف حسب الاشخاص ومستويات ثقافتهم .. وهذا الاختلاف فى مفهومها يؤدى الى الاختلاف فى تحديدها ، لذلك خصها الكتاب المعاصرون بتآليف مختلفة المشارب للتعريف بها وبيان فروعها ونواحيها وعلاقاتها بالحضارة والمدنية والمجتمع .. فالمفكر الفيلسوف الذى يفضل حياة الادغال هو مثقف وفى نفس الوقت يعطى للحضارة التى يمارسها عطـــاء انسانيا .. والبناء الامي الذى يعمل دون وعى وتصميم يعطى للحضارة عطاء بارزا فى الماديات والمظاهر .. وهذا الاختلاف بين العطاء الثقافى والعطاء المدنى الحضارى يرجع للخلاف فى تحديد الثقافة نفسها فقد عرفها المفكر (ماتيو ارنولد) بانها افضـــل ما انتجه الفكر وصاغته الاقلام .. كما عرفها قبله المفكر الفرنسى بونكارية قائلا ... انها ما يتبقى فى الذهن بعد نسيان كل شىء ؟ ... ولعلنا بهذين التعريفين نقارب بين مختلف التعاريف القديمة التى جعلـــت الثقافة تعتمـــد المعرفـــة ، والوعـــى ، والتعبـــير اما مفهومها الانتربولوجى فهو انها مجموعة العناصر المكونة لنمط خاص من أنماط الحياة .. ولاشك أن الثقافة سواء بالمفهوم التقليدى أو بالمفهوم العلمى الحديث . هى وسيلة للسمو بالانسان سواء بوسائل جديدة تهدف الى التوعية الثقافية أو بالوسائل التقليدية .. فليست لها غاية الا ان تكون عاملا لاسعاد الانسان

وجدانيا وعمليا .. والترفيه عنه وتزكية الترابط بينه وبين مجتمعه والانسانية جمعاء .

والثقافة تعبير واع واقع بأسلوب لغوى أو بأسلوب فنى عن خصائص المجتمع المعبر عنه ، هادفة الى غاية انسانية ، ولهذا فالثقافة تعبير عن كل عمل انسانى واع سواء كان صادرا عن العقل أو عن الوجدان ولذلك أيضا فالعلم جانب من جوانب الثقافة والفن كذلك ، والكلمة المسموعة والمكتوبة تعابير ثقافية وقل كذلك عن العوائد والمثيولوجية ، والاعراف والفلكلور تعابير ثقافية .. واذن فالثقافة تمس كثيرا من الجوانب التى تستقل عنها فى الدراسات الموضوعية . فالعلم ، والميثولوجى والفن والفلكلور قد تكون مجال دراسات خاصة موضوعية وبذلك تكون علوما أو فنوناولا تكون ثقافة الا حين تكون تعبيرا عن واقع وتهدف الى شىء ، أى عندما تحيا وتتحرك وتواكب الحضارة الانسانية .. ولكن عند ما نحاول تحديد الثقافة لابد من الاستعانة بهذه العلوم ودراسة جوانبها الثقافية ، فلذلك تعتمد على المثيولوجية وعلم الاثنولوجية وعلى تاريخ العلوم والفنون وعلى الفلكلور وعلى مختلف العلوم التى من بينها أيضا (علم اجتماعيات الثقافة) وهو علم حديث يبرز علم الاجتماع الثقافى كعلم ذى قوانين وقواعد .

وكلمة الثقافة فى أصلها العربى لا صلة بينها وبين كلمة Culture (كلتيور) الالمانية أو الفرنسية التى لها معنى حصيلة ما يزرع ، فهى فى هذا الاصل لها جذور عقلية بينما هى فى العربية لها جذور اخلاقية ، واذا تجاوزنا الاصل اللغوى الى الاصل التاريخى ، نتساءل عما اذا كانت الثقافة تفيد الابتكار والخلق أو هى التقليد والاتباع ؟ أو هى انتهاج المثل الاعلى الخلقى أو انتهاج المنطق الفكرى ؟ اذ ان المثقف يكتسب

معرفته عن تجاربه الشخصية وعن أصالته للاستفادة من هذه التجربة واشاعتها بين مواطنيه لما فيها من خير لهم جميا ولما تسعدهم به من تكوين مجتمع سليم وهذه الاشاعة قد تصبح تقليدا فى الاتباع أو تقليدا فى الخلق ، اذ الاول يؤدى الى التقليد الاعمى والثانى يفضى الى التفتح الثقافى . وقد ادرك كثير من علماء الاجتماع آفة التقليد فى الشعوب فابن خلدون يرى ان الشعوب المغلوبة عندما تقلد تفقد شخصيتها ومن عادة المغلوب أن يقلد الغالب، وكذلك فان من عادة الغالب أن يستعمل الجونسيد لثقافة المغلوب ، وبقدر ما تكون الثقافة عريقة وانسانية يصعب تفويتها ولو على الغالب لان انسانيتها تتحكم فى مصير الغالب أيضا وتنتقل اليه ، كما وقع لكثير من الشعوب التى دخلت الاسلام فاعتمدت على الثقافة الاسلامية فى بلورة شخصيتها الجديدة اما الثقافة الضيقية التى لا تصدر عن ذكاء الخلق والابتكار فهى تفضى الى العزلة والانحصار ، وتعرض للكساد وعدم القدرة على التحدى وموافقة التطور ، وهذه آفات تعرض للثقافة اما لان اصولها الاولى ليست عريقة تعتمد على مقومات اصيلة ، واما لعدم التزامها لخدمة قضاياها ، واما لانحرافها عن رسالتها ، واما لانها لم تعد واعية بمقوماتها كما هو الشأن فى عدة بلاد اسلامية رغم انتمائها لعالم الاسلام لان الثقافة اذ تصدر عن عقيدة تحدد مفهوم الكلمات والاصطلاحات والتعابير فلا ثقافة دون عقيدة اذ من العسير ان يلتزم الانسان دون رصيد اخلاقى ، وكما تعتمد الثقافة على العقيدة تعتمد على اللغة القومية التى تحدد المفهوم اللغوى فى عقلية الشعوب ، ونحن نرى كيف يفهم المسلمون القرآن اخلاقيا دون معجمية ويلتزمون لمبادئه العقيدية لارتباط العقيدة باللغة . فالعقيدة تحدد اللغة وتكون العقل والآداب ، واللغة تخدم العقيدة

وتصل بمراكز العقل الانسانى ، والعقيدة تخلق الوحى فى الانسان واستمراره ليلتزم ، وتظل اللغة السر الامين لنقل الايحاء والفكر وصلة الانسان بالانسان ... فعوامل البيئة الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية والجنسية تتعاون فى تحديد اللغة ومدلولها وصلتها بالفكر لوخز مكامنه الاخلاقية ، وذلك جانب الثقافة الاهــم فى الانسان لان الثقافة لابد لها من عقيدة ومن لغة ومن هدف ، ومن وعى ومن أسلــوب فى التعبير عــن الفكر والوجدان والعواطف سواء باللغة أو اليد أو الرسم أو النحث أو الموسقى أو الرقص أو الفلكلور الجماعى ... ويهدف كل ذلك للسمو بالانسان وتعاطفه مع الانسان لانه حيوان رامز يسعى دائما للتعبير عما يجيش به عقله ووجدانه ليتصل بمجتمعه الصغير وهو اسرته ، والكبير وهو مجتمعه ، والاكبر وهو الامة جمعاء ، وهذا التعاطف الثقافى يسمو على اللغة لانها وسيلة للمجتمع القومى ، ولذلك يلاحظ أن الصلة الثقافية فى قيمتها تربط بين المفاهيم الانسانية متجاوزة اللغة التى هى وسيلة لخدمة الانسان فى مجتمع ضيق نسبيا . لهذا نلاحظ استساغة لآراء (روسو) و (فولتر) وسينسر وجيمس كومت ، فى المجتمعات الاسلامية اكثر من الاستساغة لآراء البابوات ورجال الكنيسة لتقارب الهدف الثقافى الانسانى ، كما نــرى صلة الغرب بابن رشد وابن خلدون اكثر من صلته بالامام مسلم وأبى حنيفة .

ان الايمان والعقيدة واللغة والالتزام والهدف أساس الثقافة التى هى روح للحضارة بل انها مظهر خارجى وعارضة للمحتوى الثقافى ، أما اللغة فتحدد بعمق الفكرة الاصيلة التى تصدر عــن مثقف عبقرى ، وقد يكتب الكاتب بغير لغته وهذا لا يمنعه ان يكون مثقفا ، ولكن تفقده الاصالة فى التعبير ، ولذلك لا نعثر على شاعر فرنسى باللغة العربية ، لان الشعر هو ارقى فنون الكتابة الذى

يفتقر الى عبقرية اللغة ، كما ان كثيرا من المثقفين العرب الذين كتبوا بالفرنسية لم يكونوا من عباقرة الشعر وقد يحسنون القصة والمسرحية وما يتصل بالثقافة العامة ، ولكن الاصالة اللغوية فى الشعر لابد لها من جذور محلية ، لان الكلمة تعبر عن حقيقة باطنية وتترجم عملا .. فالرقص قد يكون مشاعا ومفهوما لانه ليس تعبيرا بخلاف اللغة المعتمدة على عمق الاصالة .

أما عن علاقة الحضارة بالمجتمع ، فالمجتمع هو مجموعة افراد ... فهو اذا فرد كبير ، ولهذا فالمجتمع هو بيئة الحضارة ومجالها ومصدرها فكلما كان قويا نشيطا الا اعطى حضارة متينة ، فالمجتمع كالانسان حين يصاب بالضعف وعدم القوة ، يضعف ابتكاره فيصبح هزيلا ،، وهذا ما تصاب به الحضارات ، فعندما تطغى الحضارة الغالبة على الحضارة المغلوبة تفقد الثانية شخصيتها وتصبح مقادة تشك فى قيمتها وقوتها وقدراتها وقد ذكر ابن خلدون ذلك فى مقدمته حيث عقد فصلا خاصا عن تقليد المغلوب للغالب ، فتضعف حضارته لاهمال مقوماته التى هى فعالية المجتمع بنشاط افراده ... ولهذا فالمجتمع هو مجال الحضارة ومقياسها فكلما كان مجتمعا نشيطا حيا الا وكانت حضارته حية نشيطة وكلما اصيب بنكبة الا وينعكس ذلك على حضارته ذاتها .

نشاة الحضارات فى نظر الاسلام :

يقرر الاسلام (والديانات السماوية بصفة عامة) ان الحضارة تحققت على الارض بارادة الله فقد خلق آدم واصطفاه وجعله خليفة فى الارض ليعمرها ، والهمه من فيضه كل أسباب الحضارة والعمران ، فعلمه الاسماء كلها ولا يوجد اسم بغير مسمى ثم

تتابعت رسالات الانبياء والرسل ترشد الانسان بوحى من الله ليقاوم الشر للخير ويعصم من الانحرافات ... ورغم ظهور نزعة التطور الداروينية التى تقرر أن الانسان انحدر فى تطوره من القردة فان هذه النظرية ظلت تعانى حاقة مفقودة ، وظل كثير من المفكرين فى مذهب التطور يرون ضعفها ويقرر المفكر الفرنسى (جان بيفتو) رئيس المجلس العلمى البارزى الذى وقف جزءا من عمره لدراسة أصل الانسان ، أن النظرية القائلة بوجود جدع مشترك انبثق عنه كل من الجنس البشرى وجنس القردة الكبيرة ما تزال مفتقرة الى البرهان الحاسم ، واذا كانت هناك تشابهات بين الانسان والقرد ، فانها غير كافية للجزم بوجود اصل واحد للانسان والقرد ... والشىء الذى جعل كثيرا من علما التطور يرون أن بعض القردة تحولت الى خلقة بشرية وبقى بعضها على خلقته ما يزال مجهولا ، ولو أننا سلمنا بان الجنسين قد افترقا بعضها عن بعض فى زمن من ازمنة التاريخ فما نزال نجهل الاسباب العلمية الحق ، بل ثبت بالمراقبة العلمية ان تطور الكائنات الحية يتجه متصاعدا الى مرحلة الكمال (النفسى) وبما ان الانسان اكمل الكائنات جسميا روحيا ونفسيا فان من المنطلق القول بان الانسان كان فى سلسلة التطور اكمل مما انتهى اليه القرد لما له من خصائص نفسية متفوقة .. ولهذا فان الانسان لم يظهر على الارض صدفة وانما كان الهدف الحق من تنظيم الكون فجاء مركبا فى احسن تقويم ، وهذا ما يؤكد علميا النظرية الاسلامية والدينية بصفة عامة . ويتحدث بعض المفسرين عن تعدد الاوادم بذليل نص (القرآن) على علم الملائكة بأن الانسان سيفسد فى الارض ، وهى قولة دالة على تجربة الخلق قبل آدم .

والحضارة فى نظر الدين لها بداية ، ولها نهاية

ونهايتها يوم القيامة . وعندما تنتهى اعمال الانسانية سيسأل عما فعل فى حياته وبهذا فان الحضارة الاسلامية حضارة دينية واعية ترتبط بالمستقبل الاخروى الواضح المعالم .

وكلما ورد فى القرآن الكريم عن الحضارات القديمة فهو تقرير لمصيرها من الوجهة الاخلاقية ... واظهار ان انحراف الانسان هو انحراف للمجتمع وبالتالى نهاية للحضارات وسقوطها النهائى المأساوى .

وقد اعترف الباحثون الحضاريون كجستاف لبون ، والمؤرخ روزنتال فى كتاب التاريخ عند المسلمين بقيمة الحضارة الاسلامية ومعجزتها سواء من حيث نموها بسرعة مدهشة أو ابداعها ونموها بالتوسع أكثر من العمق (1) .

نشأة الحضارة فى نظر العلم :

ويرى علماء الانترويولوجى أن الانسان الاول البدائى عرف حضارة بسيطة تناسب حياته فى الكهوف أو الادغال وكل ما يمكن أن يقال عن عطاء الانسان الاول البدائى الذى كان يعيش منذ حوالى نصف مليون سنة خلت انما هو تخمين وافتراض وقد عثر على آثار فنية حضارية قرب (بايا Bayonne) أو بكهوف جرسالدى حيث تطورت صناعات الانسان فى النحت والتصوير والحرث ... وظهرت بعد ذلك الاسرة كنواة للمجتمع وكان الانتساب الى الام والخضوع لحكم المرأة Regime matricirchal

1) نشر جوستاف جون جرونيام . الاستاذ بجامعة شيكاغو كتاب الوحدة والتنوع فى الحضارة الاسلامية ويشمل مقالات تبحث عن الاسلام باعتباره حضارة ودينا ، وتبحث التراث الثقافى ، وحالة البلاد الاسلامية وعلاقة العرب بالحضارة الاسلامية .

ثم أصبح الرجل صاحب السيادة وقد نشأ عن هذا التفاعل الثقافى والاجتماعى والبيئى حضارة بدائية كانت القبيلة نواتها فظهرت الطوتمة لمعرفة أعضاء القبيلة وتحالفهم مع بعض الحيوانـــات والاشجار .. ومن هنا نشأت حضارات ذات قوانين اجتماعيـة وصلات دينية حسب الموقع الجغرافى والتأثيرات البيئات آثـر على نشأة الحضارات وتورها بسرعـة أو توقفها دون تطـور ... وتلاحمها أو تعزلها وتفصلها حسب مدى قدرة انسان كل بيئة على التحدى والعطاء الفنى واللغوى والمعمارى .

ومن المفكرين من يرى ان الحضارة نشات بسيطة وتطورت وما تزال دائبة فى التطور ويذكر سبنسر أن المجتمع الانسانى كائن عضوى تماما له اعضاء للتغذية ودورة دموية وتعاون بين الاعضاء وتناسل ، فهو يولد وينمو ويمتد ثم تستقل أجزاؤه ، والمجتمـع كالفرد يتعاوره التكون والانحلال فقد تمت الوحدة السياسيـة من الاسرة الى الدولة ثم عصبة الامم ، وكذلك الوحدة الاقتصادية من الصناعة المنزلية الى الشركات ، كما تمت القرية الى المدينة . فالتطور حتمى فى المجتمع يتألف ويتنافر ، وهدف التطور هـو الصناعة والرقى والتخلى عن الحروب .

ويرى ابن خلدون أن الحضارة هى نتيجة حتمية تطورت من العصبية القبلية والحياة البدوية الى الحضارة حسب مرحلـة مضبوطة ثم تنتهى لتنشأ حضارة اخرى فهى مثل الكائن الحى يولد ويشـب ويهرم ويمـوت ليتـرك المجـال لوليد آخـر ويرى مثل هذا الراى (فيكو) وغيره من المؤرخين ولابن خلدون نظرية متكاملة عن نشأة الحضارة وتطورها ونهايتها وتفاعلها مع بعضها بالتقليد والمحاكاة وغير ذلك .

بينما يرى هيجل (1770 — 1821) ان الحضارات تجارب

بشرية ، وهى فلسفات متعددة فلكل حضارة فلسفتها وحضارة فكل امة لها روح ولبــاب Geis وتتكون كل حضارة مــن مفهوم خلقى وتنظيم اجتماعى ، ومن تفاعل هذين مع حركة الزمان تنشا حركة التاريخ وغاية الحضارة هو تحقيق المطلــق كما هو فى تصور المسيحية ، وقد درس هيجل تسع حضارات منها مصر الفرعونية والعربية بطريقة منطقية جدلية وقد حـــاول سبنجلر Spengler (1880 – 1936) أن يفسر قيام الحضارات وسقوطها بناء على تصور عضوى لبناء الجماعات ، حيث يــرى ان الجماعة كائن حى يولد وينمو ويموت ويسمى الاوج بمرحلة يكون الانحدار والتوقف ... ويعطى توينبى Toynbee تفســير للحضارة بناء على نظرية التحدى والاستجابة Challenge aid respouse حيث اعتمد احدى وعشرين تجربة حضارية ويفسر الحضارة أنها نتيجة تجربة اشتراك جماعة فى نظرة واحدة للعالم تلــك النظرة التى تحدد موقف الجماعة كلها من الحياة كما تحــدد العمل الجماعى والروابــط الدينية والسياسية والفلسفيـــــة والاقتصادية والانشطة الفلاحية والتجارية الخ ... ولهذا فلا يقسم توينبى التاريخ الى عصور ولا الى دول بل الى وحدات حضارية ، كل وحدة لها طابع فكرى خاص ، ولهذا يتكلم عــن الوحدة المسيحية الشرقية أو الجماعية الهندية الخ ، والحضارة لا تمر فى مراحل الكائن الحى العضوية وانما هى تطور الجماعات من نشوئها ونموها وسقوطها وتفككها .. فهى فى مرحلة النمــو تغزو شعوبا اخرى لتتحول الى دولة عالمية اى جزءا من العالم وعندما تتفكك تترك طابعا حضاريا فى الوحدات الصغيرة التــى تتجرأ . والحضارة تصيغها نخبة قليلة حيث ترسم وتبدع اما الجمهور فهو طبقة عاملة فتكون داخلية أو خارجية وبعد صراع بين الاقلية والعاملة تنتهى الى السقوط ، ثم تبدا تجربة حضارية

على يد شعب آخر ...

فالحضارات لاتفنى آثارها وحضارة كل جماعة وان اجتازت مرحلة النمو ثم السقوط ثم التحلل The Disintegration فهى فى نموها تدخل فى كيانها شعوبا اخــرى انتحاول الى دولـــــة عالمية Universal Stade وليس من الضرورى ان تشمل العالم بما فيه وانما تشمل قسما منه فقط وفى اثناء التفكك تخلف وراءها طابعا حضاريا حيا فاعلا فى كــل الوحدات المجزاة عــن الدولة العالميـــة وسمـــى المؤرخ الانجليـــزى هـــذا الطابــــــــع الحضارى Universal church كما ان كل حضارة تلتقى باخــرى لتتكون حضارة جديدة كما يلتقى الجدول بالجدول ليكونا نهرا كبيرا فهناك الالتقاء ولا يمكن أن يكــون السبق هو الاســاس الحضارى .. ان فلسفة (التركيب الحضارى) لا تعنى افلاس الحضارات ونهايتها بقدر ما تعنى تفاعلها واستمرارها أما عن مكان نشأة الحضارة الاولـــى فقد قال بعــض المتخصصين أنها نشأت الشرق الادنى بوليل وحده الكلمات اللغوية الاساسيـــة كالام والاب . وقبل نشأت فى عدة أماكن ومن المؤرخين مـــن من يجعـــل (الساميـــين) آباء الحضارة ومعضمهـــم يرى أن (السامية) تغير عن العرش لتحقيق اهداف عنصرية .

لماذا الاهتمام بدراسة الحضارة العربية الاسلامية :

ان الاهتمام بدراسة حضارتنا المغربية الاسلامية هو لبلورة شخصيتنا التاريخية والمعاصرة حتى نستطيع استجلاء حقيقتنا للاسهام فى عملية انقاذ ما تعانيه الحضارة المعاصرة من ضحالة روحية ، ذلك أن الباحثين فى الحضارة الغربية يتفقون أنها حضارة مادية تقنية تولدت كرد فعل ضد سيطر الكنيسة الروحية على اوربا ، وعما خلفته تلك السيطـــرة من فقد تـــوازن بين الروح

والمادة ، فكانت حضارة أوربا ترتكز على احداث مفهوم جديد للانسان يجعله أداة سيطرة على الطبيعة واستغلالها احساسا بشخصيته المستقلة عن الكون وحقيقته الفردية ، فساد الاهتمام بالعلم الطبيعى وتآزر العلم والفن والفلسفة فى خلق عالم جديد وحضارة تسودها التكنولوجية ولم تتأقلم هذه الحضارة وانما عمت العالم كله على حساب المقومات الروحية فاضحت تعانى فى نفسها أزمة روحية (عبر عنها الفلاسفة الوجوديون · بالقلق الروحى) والاشفاق عن مصير الانسان امام عملاق التقدم المادى الذى سوف يدمر العالم اذا لم تصاحبه روح انسانية ومعطيات روحية ... ولهذا فنحن نصرف الاهتمام الى ابراز معالم الحضارة الاسلامية التى تعتمد القيم الانسانية كلها والطاقات البشرية وتحفظ التوازن بين الانسان وطاقته وبيئته .

علم الحضارة المقارن :

والحضارة المغربية الاسلامية شارك فى انمائها العرب والبربر وغيره من المتواجدين بأرض المغرب وتأثرت بالحضارات الفينيقية والقرطاجنية المتأثرة بالحضارات الشرقية كلها من البابلية والكلدانية والاشورية والفرعونية كما تأثرت بالحضارة الرومانية المتاثرة باليونانية والهلينية ثم الحضارة الاسلامية التى اخذت عن حضارات فارس والروم والترك والهنود والصين .. فالحضارة المغربية هى حضارة اسلامية وعربية ومغربية اعتمدت الفكر العربى واللغة العربية والاخلاق العربية والاليق أن نسميها حضارة مغربية اسلامية ، مغربية لانها تعتمد الوطنية والقومية وتاريخ المغرب قبل الاسلام ، واسلامية لانها حققت ذاتها ووجدت حقيتها وقوتها واعطت من فيضها بفضل الاسلام وتعاليمه وتوجيهاته ، فالمغرب اسهم فى الحضارة الاسلامية كلها

سواء التى انتشرت فى الاندلس واوربا أو افريقيا عبر الصحراء وبلاد السنغال ... فكان المغرب من بناة الحضارة الاسلامية .

واذا كان الحاضر وليد الماضى ... فالمستقبل امتداد الحاضر، لان الحاضر حصيلة الاحداث الماضية بمعناها الواسع وهى التى تكون حاضرنا .. ولذلك فنحن نعمل على تجسيم الحاضر وتحسينه لبناء غد أفضل ، مستلهمين كل مصادر القوة ومزكين كل عوامل كرامة الانسان ومحاولين معرفة الاصالة بانتسابنا الى أرض تلائمنا معها ؟ دون ان تصرفنا العواطف عن الموضوعية ، ولا الموضوعية عن الانسية المغربية .

واذا كانت شعوب دخيلة جعلت عن بلادنا مسرحا لاحداثها، فان من واجبنا ان نفرق بين الاصيل والدخيل ، والمضر والنافع دون ان نتيح الفرصة لاحد ليتجاهل دورنا الحضارى البناء .

ان هدف دراسة تفاعل حضارتنا يرتكز على معرفة الحضارات القديمة وتفاعلها واسهامها كلها فى العمل الانسانى مما جعلنا نحتاط للمستقبل من طغيان الجانب المادى على الجانب الروحى حتى لا نتشاءم مثل (سبنجلر) Spengler فى كتابه (سقوط المغرب) ومثل توينبى الذى لاحظ أن أزمة الحضارة الغربية هى طغيان جانبها المادى . فالهدف من هذا التعاون تحقيق انسانية كاملة لا قمع فيها ولا تسلط ولا ظلم ولا طبقية ولا استغلال .

واذا كان التعليم تكوين عقلى وروحى وجسمانى للناشئة ، لتواجه الحياة العلمية وتجعل من الانسان قوة واعية لشخصيتها ورسالتها ، كما توضح طريق العمل للمجتمع ، فالحضارة وهى الانتاج الضخم نتيجة لهذه الاعمال ، ومهما تكن برامج الحاضر ومناهجه متسمة بالواقعية والتقنية والمعاصرة ، فلا يمكن مطلقا ان نتناسى أثر الماضى فى توجيه التخطيط وفى التكوين العقلى

والفني والوجدانى ، وليس معنى ذلك الدعوة الى الاستكانة الى اعمال الجدود وامجاد الماضى بل ان الايمان بالماضى يجب ان يكون بقدر ما فى فعاليته وجدوه فى توضيح طريق المستقبل ، التى نحن مضطرون الى سلوكها ، ومرغمون الى تأليف انفسنا معه ، لان التاريخ ليس ماض فقط ، وانما هو خط وهمى يطلعنا على المستقبل ؟ ولا اعتقد ان اى طبيب فى وسعه ان يعالج مريضه دون ان يعرف تحليلا دقيقا لتاريخ مرضه والمه ، سواء كان طبيبا نفسيا أو طبيبا عضويا ، ومن هنا لابد للتفكير للمستقبل من معرفة الماضى الذى ليس احداثا بقدر ما هو علل واسباب لمختلف المظاهر ، والعلل بدورها نتائج لتفاعل الفكر مع البيئة والزمان ، ولهذا فتاريخ الفكر أجدى من تاريخ الاحداث لانه يفسرها .

ولاثراء الفكر المغربى لمواجهة المستقبل المغلق يوجب شحذه بحركة الماضى ، وغنى الانتاج فى البيئات الفكرية العميقة التى تتخيل وتصمم قبل البناء فليس التاريخ قضاء مبرما ، وانما هو حركة عميقة ومغامرات وجدانية وفكرية فى الماضى ، لشحذ الفكر فى المستقبل للتطور الى حياة احسن . ومن يستطيع اذا واجهته المعضلات أن لا يرجع الى ذكرياته وتجربته ليواجه المشكل فينتصر حسب صلابة عوده واختمار تجربته ، وما تاريخ الفرد الا تاريخ مصغر لتاريخ الامة ، لان كينونة الفرد استقطاب مصغر لكينونة الجماعة ، ثم لكينونة الانسانية جمعاء المتفاعلة مع الكون فى ظواهره البادية واسراره الخفية ، وحركة الفكر والوجدان اقرب الحركات الى كينونة الفرد والجماعة ، واصدق طريق للتجمع والائتلاف واقوى دعامة للهدف الغائى لعمل الانسان .

والمغرب فى خضم هذا المجال الممتد أفقا وعرضا ، اى فى جذور تاريخية وفى اتصالاته مع اصناف من الثقافات والاراء والنظريات الخارجة عن بيئتنا فى حاجة ان يتبين طرقيه وموقعه

الفكرى جغرافيا وتاريخيا ليخط مذهبه على أساس الواقـــع والتاريخ وليرسى حضارته على اسس متينة .

وقد تحدث كثير من المؤرخين العرب والمستشرقين عـن مظاهـر الحضارة المغربية كابـن ابى زرع فى (القرطـاس) ، والجزنائى فى زهرة الآس ، وابن خلدون فى العبر وابن الخطيب فى الاحاطة ، والمراكشى فى المعجب ، والزركشى فى تاريخ الدولتين، وابن مرزوق فى المسند الصحيح ، والفشتالى فى المناهل وابـن زيدان فى الاتحاف وابن ابراهيم فى الاعلام وغير هؤلاء كثير ...

كما بحث كثير من المستشرقين فى الحضارة المغربية مثـل مارسى ودوزى ، وتيراس ، واندرى جوليان ، وكونتيى ، وكودارت وميلى وجوستاف ، وسيديو ، وغـير هؤلاء ، غير أن أبحـاث المؤرخين العرب يختلط بها البحث التاريخى بالبحـث الحضارى وينقصها التسلسل والبحث العلمى ، كما ان دراسة المستشرقين تنقصها النزاهة ، وربما تتحكم فيها عوامل عقلية اجنبية غربية عن فهم طبيعة الحضارة المغربية الاسلامية .

وقد كان المغرب معبر ثقافات وحضارات ، بل ان المغـرب عندما سد ابوابه فى بعض مراحل تاريخه انعزل وضعف أمره ، ووهى شأنه ، لان طبيعته تابـى الانكماش ولأن موقـع المغرب (البرمائى) بين القارات والمحيط الاطلسى ، والابيض المتوسط ، جعله ذلك كله نقطة ارتكاز حضارى ومعبرا ثقافيا دائم الحركة والنشاط فكريا واقتصاديا .

حيويـة الحضـارات :

ظهـرت عدة نظريـات فى موضوع حيويـة الحضـارات فالنزعة الوظيفية تحصر مهماتها فى مقارنـة عناصر الثقافـات

والحضارات البدائية بعضها مع بعض ، مع بيان وظيفة كل عناصرها داخل الكل ، وتعنى بدراسة الشعوب البدائية كما هى فى الواقع لتشرح وظيفة كل ظاهرة فى اطار مجموع الظواهر المشكلة للثقافة والحضارة .. وبجانب النزعة الوظيفية تعتمد النزعة التطورية على تطور المجتمع تطورا تاريخيا أى على ما كان من قبل ثم ربطه بواقعه وحالته ، ويرى بعض المفكرين المعاصرين ان الحضارة تسير بين قطبى الشرق والغرب أو بين اوربا وامريكا فى تبادل وتعاقب فهى فى الشرق حية حتى اذا استهلكت تحولت الى الغرب لتعود منه الى الشرق فى حوار مستمر ؟ ويعبر تتبع ما قيل فى الموضوع فى هذا الكتاب الذى هو رؤوس أقلام لبحث الحضارة الاسلامية المغربية ؟

نشأة الحضارة في المغرب

الانســان المغربــى الاول :

كان العصر الجليدى أو الزمن الرابع مرحلة جيولوجيــة لتكوين سطح الارض ، ومن المؤكد أن الانسان لم يظهر قبــل العصر الجليدى . فلما كانت نهاية هذا العصر ظهر الانسان الاول على البسيطة فى البقاع التى خــف فيها الجليد ، ولم يبــق معرضا لخطر الطوفان الذى تعددت آفاته من أثر ذوبان الجليد ، وفى العصر الحجرى الاول أخذ الانسان المغربى يصنع أدواتــه البدائية من حجر الصوان التى عثر المنقبون على الكثير منها ، وبالاخص فى جنوب تونس بنواحــى قفصــة ، أمــا فى العصر الحجــرى الوسيط ، فقد عثــر المنقبون علــى أدوات حجرية كالسكاكين وصفائح حجرية مستعملة لتجزئة لحوم الصيــد ، وفى العصر الحجرى الاعلى ، ظهرت الادوات الحجرية المتعددة الاشكال التى عثــر عليها الاثريون فى نواحــى قفصة ووهران وسواحل المحيط الاطلسى المغربى ، وقد ارتقت الحياة وتطورت فظهر فى الشمال الافريقى الوعل والفيل الافريقى ، وفى العصر الحجرى الثالث ، بدأ صقل الحجر والاستعداد للدخول فى العصر المعدنى والبرونزى . وكانت الصحراء المغربية فى هذا العهد غنية بالوحوش من فيلة وزرافات وأسد وفهود وتماسيح مما يــدل على خصوبة أرضها ، وترك الانسان المغربى القديم نقوشا على الصخر تعطى نظرة عن الحياة فى هذه الحقبة عما وصل اليــه

الانسان الافريقى من تطور فى تدجين الحيوانات واستغلال لحمها وصوفها ...

وقد دلت الادوات والمخلفات الحجرية البيضوية الشكل حينا ، على مدى مهارة الانسان الافريقى وذكائه ... وتوجد بقايا أدوات حجرية مصقولة كالمقابض والفؤوس والاسلحة فى نواحى شالة وسيدى قاسم وسوق الاربعاء ونواحى تارودانت فى جبال الاطلس الكبير ، وكلها تدل على أن الانسان المغربى ذا كفاءة ونشاط وذوق فنى ...

ولعل أقدم انسان عثر عليه فى افريقيا الشمالية عاش منذ أربعمائة ألف سنة تقريبا ، وذلك فى عهود مختلفة منها الصقلى ، ويناسب آخر عصور ما قبل الجليدى والميلازى والتبرينى ، والمنسترى أو (فريملدى) الذى يناسب عصر ما بين الجليدى وعصر (ريس — ورم) ثم فى العصر المناسب فيما بعد الورمينى أو الفلاندرى ، ويقول بعض علماء الاجناس ان الانسان المغربى هو أول انسان عرفه التاريخ ، ومن المغرب انتقل الى أوربا شمالا ، وافريقيا غربا ، ويؤكد العلامة سرجى أن الانسان الاوربى الابيض أصله من المغرب (من وهران) وعثر فى سنة 1933 أحد حراس مصلحة الاثار بالرباط على جزء من فك بشرى ، كما عثر بعد ذلك بثلاث سنوات فى القبيبات بالرباط

---

(1) يظهر فى دراسة علم اصول الانسان لبقايا هياكل الحيوانات وهياكل الانسان القديم ، وما تركه من مخلفات بأوربا أن الشمال الافريقى هو المهد الاول للانسان الابيض بدليل وحدة البناء بين شواطىء المحيط الاطلسى ووحدة الادوات الحجرية ، كما أن جمجمة الإنسان الأول من بقايا العصر الجليدى بأوربا تتشابه مع جمجمة انسان العصر الحجرى بافريقيا . فأصل الاوربيين على هذا من شمال افريقيا ويطلق عليهم أور افريكان Eurafricain ، ومنهم الايبريون ، وتؤيد لغة الباسك هذه النظرية باصولها الافريقية البربرية ، ويكون هذا دليلا على ان شمال افريقيا هى أصل الانسان الابيض .

على هيكل بشرى له 16 سنة من بقايا العصر الجيولوجى ذى تكوين بدائى ، وأسفــرت الدراسة الانتروجولوجية عن هــذا الهيكل بأنه شبيه بخصائص الهيكل المكتشف فى نياندا نطيـــل Néanderdertel قرب نهر الريف ، كمـــا اكتشف بجانب الهيكل الانسانى هياكل للفيلة قرب الدار البيضاء بمنجـــم سيـــدى عبد الرحمن ، وبالاضافة الى وجود الانسان فى شمال افريقيـا فى هذه الناحية عثر على بقايا مصنوعات بيد مغربية فى سيــدى عبد الرحمن بالدار البيضاء وسوق الاربعاء وعرباوة مما يدل على عراقة الحضارة المغربية ، وعثر فى أرحود قرب آسفى سنة 1962 على جمجمة تقارب صفاتها انسان (نياندرتال) واكتشفت بقايا اسنان راقية التركيب قريبة من الانسان الحالى فى مغارة قرب تافورالت ترجع الى اثنى عشر ألف عام .

واذا تجاوزنا الانسان الاول الذى ظهر بالرباط وعرفـــت آثاره بسيدى عبد الرحمان بالدار البيضاء فاننا نجد آثارا عريقة فى القدم فى كهوف جبال (تاشوكالت) وبجبال (اخفى تازت) بل نجد فى هذه الكهوف رسوما للفيلـــة والاسد مرسومة علـــى الصخور بطريقة بدائية دالة على وجود هذه الحيوانات ببلادنا التى كانت أرضا ملتفة الاغصان كثيفة الاشجار كغابات البـــلاد الافريقية مما يدل أن المغرب كان يمتد الـــى افريقيا السمراء لا تفصله عنها هذه الصحارى الرملية التى تكونت فى عصـــور لاحقة ...

وتدل الاثار القديمة أن المغـــرب فى عصوره الاولـــى كان يسكنه منذ عشرة الالف سنة تقريبا سكان سود البشرة ثـــم انقرضوا وهاجر اليه سكان الصحراء الكبرى الذين كانت بلادهم خصبة فى أول الامر ثم استحالت لاسباب جيولوجية الى صحراء وأصبحت موطنا للسلالة السامية منـــذ آلاف السنين ويثبـــت

التاريخ القديم منذ العصر الحجرى وجود الانسان فى افريقيا حيث عثر على بقايا هيكل فى طنجة . ويؤكد العلامة الطبيعى (بيفتو) أن انسان نياندرتال وجد منذ العصر الحجرى وانتشر فى مختلف القارات ولعل هذا الانسان سبق بأنواع أخرى قبل انسان (نياندرتال) الذى كان منتشرا فى كل بقاع العالم وبالاخص فى افريقيا ، نظرا لصعوبة الحياة فى أوربا التى لم يستطع الانسان الحياة فيها فى العصر الثلجى مما ساعد الانسان الافريقى على النمو وتجاوز حياة الكهوف الى الحياة فى العصر الحجرى حيث تحدى قسوة الطبيعة واستعمل الادوات البدائية بمهارة ودقة .

ثم ظهر الانسان (الموستيرى) الذى كان فى افريقيا يمثل نموذجا وسطا بين الموستيرية والانسان ذى الملامح الميكوكية الاشولية ... وقد يكون من المسلم به عند علماء الانترويولوجى أن يكون الانسان الموستيرى فى افريقيا يشابه الانسان الموستيرى فى أوربا وآسيا نظرا لتشابه المعطيات الحضارية ، ويظهر ذلك جليا فى اتقان الجميع للصناعات الحجرية على نحو متشابه ، ولاشك أن عبوره الى أوربا كان عن طريق المغرب ومن الموستيرية والاريجانستية تكونت مدنية الانسان العاقل (نياندرتال) وحسب مقاييس الجمجمات فان التشابه واضح بين جمجمة انسان هذه الحقبة . ويقسم علماء الاجناس العصر الحجرى القديم فى أوربا الى عصر الاوريجناس والسولترى والمجدلى ولكل عصر حضارته ، ويذكرون أن الحضارة الاوريجناسية ترجع الى جنس (جريمالدى) وهو من الزنوج ، أما الحضارة السولترية فالجنس (الكرومانيون) وهو قوقازى والحضارة المجدلية الى جنس شاسلبيد .

فالحضارة الافريقية اذا ترجع الى الجنس الجريمالدى ..

الذى كان جنسا افريقيا وصفه العلامة الكسندر موريه بأنه جنس زنجى صغير الحجم من نوع الهنتتوت والبوشمن الموجودين الان فى أواسط افريقيا . ويظهر أن هذا الجنس بدا فى افريقيا الشمالية واستمر تأثيره فى حوض البحر الابيض المتوسط ، ولعله عبر الى أوربا حيث وجدت هياكله فى أوربا الغربية والوسطى حتى العصر الحجرى الحديث ويمتاز بجمجمة مبلطحة ، وتوجد تماثيل تاريخية عثر عليها الباحثون فى الحفريات الاوربية تؤيد هذه العبور من افريقيا الى أوربا .

وفى فترة مليون سنة تهجنت الاجناس لتصل الى النموذج الانسانى فاختفت الاشكال المتعددة للانسان ليبرز الانسان كما هو ذو حضارة مزدهرة ، وبرزت الحضارة العاطرية فى المغرب والحضارة (السبيلية) فى مصر ، والحضارة (القفصية) فى الصحراء ثم جاء زنوج (جريمالدى) لينتشروا فى أدغال افريقيا وجاء بعدهم اليها جنس (كرومانيون) ، المغرب وظهرت الحضارة (الايبرية المغربية) بعد الحضارة العاطرية شمال غرب افريقيا ، وحضارة قفصة فى تونس، وبذلك يكون المغرب عرف حضارتين وسكنهنوعان منالاجناس، وكان صلة وصلأنثرويولوجية بينأوربا وداخل افريقيا، ولاشك أن بقاياهؤلاء الاجناس بالمغرب استقبلت شعوبا نزحت اليه من افريقيا عبر خط ليبيا وأخرى من أوربا عبر جبل طارق، فالوافدون اليه عبر ليبيا كانوا من اليمن الذى هاجروا بلادهم لعوامل اقتصادية قبل ميلاد المسيح بنحو ثلاثين قرنا فدخلوا الحبشة ومنها الى مصر ثم الى ليبيا حيث استقروا فى فى آخر مطافهم بالمغرب وبالجزائر المحيطة بنواحيه كسردانيا وصقلية ومالطة والكنارى ، ولاشك أن الخصائص الجنسية الكامنة فى شكل الجسم وطريقة التفكير وأسلوب ممارسة الحياة طبعت هذا الجنس بطابع خاص ظهر فى خصائصه الحضارية وذوقه الفنى .

وتـــرك لنــــا الاجــــداد المغاربـــة رسومـــــا لحضـــارة عريقـــة مسجلـــــة فى آثـــــار فنيــــة ، تدل على أن المغربى القديم عرف كيف ينقل عن الطبيعة الحيـة وصورها المعاشة ، كما ترك لنا (خروف زناكة) Le bellier de zenaga الذى اكتشفه الاثريون فى فكيك ، وفى جبال الاطلس الكبير ، كما عثر علماء الآثار على نحو من ثلاثة آلاف صورة بشرية وحيوانية منقوشة على الصخور فى كهوف الجبال الاطلسية بجبال أوكايمدم وباكور ، حيث تحمل تلك الصور البشرية حرابا وأعتدة حربيـة معروفة عند الانسان القديم فى النصف الثانى من الالف الثانية .
ترك الانسان المغربى القديم حياة الكهف الى الحياة فى القرى المبنية فى شكل الخيام (كاسطيلا) Castella ، وتطور منها الى الحياة فى القصور أو (الحصون) التى تضم الادوات والمحصولات الزراعية ثم عرف بناء المدن بعد اتصاله بالفينيقيين ، وقد ترك لنا آثارا كثيرة تتمثل فى صناعة الحراب والخناجر ودرقات الدفاع ، ونقـــش المجوهرات للتزين بها ، ويكشف عام البلينتولوجى عــن أدوات للانسان المغربى قرب بسكرة وسطيف وهى عبارة عن كـــرات حجرية ، ودبابيس ... ثم فى العصر الحجرى الاعلى نجد حجرات منحوتة دقيقة الاشكال ، وما يعبر عنه بالصياغات الحجرية ، على أن الانسان المغربى فى العصور (النيولوتية) تطورت مدنيتـــه وكثرت الحيوانات التى يستأنس بها بعد اختفاء حيوانات الصيد مما ساعد على ازدهار الفلاحة ، فظهر الفأس وعرفت وسائل الاستفادة من العظام ، كما عرف الانسان المغربى فى هذه الحقبة ، الرسم وصناعة التماثيل ، والنقش على قشور بيض النعـــام وكانت الصحـــراء الكبرى تصل بـــين مصر والمغرب ، فتأثـــر بالحضارة الفرعونية ، وخلف المغاربة القدماء صخورا منقوشة شاهدة على تأثرهم فى هذه الحقبة التاريخية بحضارات مصرية ،

بل يؤكد بعض الباحثين أن مصر والمغرب كرعا من منبع ثقافى واحد كما فى (تاريخ افريقيا الشمالية) لاندرى جوليان .

البيئــة الجغرافيــة للحضــارة المغربيــة :

المغرب بمفهومه الجغرافى عموما ذو شكل رباعى الاضلاع مشتمل على مرتفعات تحيط بها مياه المحيط والمتوسط ورمــال الصحراء ، ولم تكن الصحراء رملية خالصة كما لم يكن بوغــاز (جبل طارق) يفصل المغرب عن أوربا فكان الاتصال مستمــرا بين القارتين . وسواحل المغــرب كثيرة التضاريس ، تتوسطــه الجبال الممتدة عبر المغرب الاكبر ، وقد تأثرت طبيعة أرضـــه بالمناخ وتجزأت الى أقسام مستقلة . كما تطورت التضاريس عبر التاريخ فكانت فى الحقبة الاولية L'ère primaire سلسلة مــن الالتواءات ثم جاءت مرحلة الانجراف فتغيرت ملامح الارض تدريجيا ، وبالاخص فى فتــرة تكون جبال الالــب ، ولعوامــل جيولوجية وتغييرات مناخية عرف المغرب الاقصى أمطارا غزيرة أخصبت أرضه فتكونت فيه الغابات الشاسعة العديدة التى آوت الحيوانات المختلفة ، ويذكر (اندرى جوايان) (1) . أن افريقيــا الشمالية ليست كتلة منسجمة بالرغم من الظروف العامة التــى ألزمت تضامنها المادى والبشرى ، فقد برزت فيها نواحى سلبية ونواحى ايجابية ، ومن مميزات تضاريــس المغرب الاقصــى تكونت مجموعتان من السهول (الاولى) من مصب تنسيفت الى (ملوية) و (الثانية) من الحوز وسهل تدلا الكبــير .

ويمتاز مناخ المغرب بتفتحه للمؤثرات الاطلسية فى غــور البلاد وداخلها ، وللبيئة الجغرافية تأثير على الحضارة المغربية

---

(2) تاريخ افريقيا الشمالية .

ونشأتها ، اذ أن الارض هى مسرح الحضارات ولهذا الموقع الجغرافى كان المغرب ممرا للحضارات من افريقيا الى أوربا والعكس كذلك ، كما كان ممرا لحضارات البحر الابيض المتوسط ، دون أن ينال ذلك من شخصيته القوية بل كان ذلك عاملا فى تفتحه واقتباسه من مختلف الحضارات .

وقد وصف المغرب الجغرافيون اليونانيون القدامى أوصافا تكاد ان تكون خرافية ، وفى قصيدة الالياذة لهوميروس وصف خيالى لمضيق جبل طارق وشواطىء المغرب لدى ذكره لاسفار ملك اغريقى ثم كانت رحلة (حانون) القرطاجنى قبل القرن الخامس الميلادى الذى عبر الشاطىء الاطلسى الى مضيق غانا . وقد حاول القرطاجنيون أن يشيعوا تخوفات عن الحر الاطلسى فسموه بحر (الظلمات) لئلا ينافسهم اليونان فى فتوحاتهم ، كما تكلم عن المغرب سطرابون وبالاخص عن جبال الاطلس . والجغرافى الاسبانى القديم بوبونيورملا Pomponic Mila المولود بجنوب اسبانيا فى Tingentra ووصف صراع Antée مع هركلبوس ودفنه قرب العرائش حيث توجد بساتين Hesperice ذات التفاح الذهبى الذى يعطى الشباب الدائم .

ان للبيئة الجغرافية أثرا عظيما على التفكير والوجدان ، وبالتالى على البناء الحضارى للامة ، فالبيئة الجغرافية تحدد معالم التفكير والوجدان ، وتؤثر فى الفلسفات والاخلاق والمفاهم ، ولذلك نجد شعوبا تتصف بمتانة الاخلاق وقوة الفكر وصرامة السلوك بينما نجد أخرى تؤثر اللهو والمرح والهزل والعبث وهكذا تتكشف طبيعة الشعوب حسب المعطيات الجغرافية وتتبلور

بتأثير البيئة . واذا كانت البيئة الجغرافية والمؤثرات المناخية تسعى لتوزع الكتل البشرية حسب معطياتها فان المبادىء

الاخلاقية والقيم الانسانية المشتركة بين الشعوب تسعى جهدها جهدها لفك الحصار البيئى والجغرافى لتجعل من الناس أمة واحدة تتكامل مصالحهم الثقافية والاقتصادية ويتبادلون التجربة والمعرفة .

ومن امتداد وجذب العوامل الانسانية ، وشد المعطيات البيئية تبدى الشعوب مقدرتها على التحدى والتلاقح ، وهو ما يعتبر أساسا لبناء الحضارة الانسانية ، واظهار ملامح شخصيات الشعوب وقدرتها وصمودها .

وانطلاقا من هذا يعتبر المغرب بلادا ذات خصائص فكرية ووجدانية املتها المعطيات الجغرافية ، وهو فى نفس الوقت بلاد متفتحة تأخذ وتعطى دون أن تضحى بشخصيتها ورسالتها ومكانتها ، كأمة ذات حضارة بارزة عبر تاريخها المديد ..

وقد اهتدى الجغرافيون القدمى سواء من اليونانيين أو من العرب كالبكرى والادريسى وابن خلدون وغيرهم الى أن بلاد المغرب تمتد من برقة غربا حتى المحيط الاطلسى حيث لاحظوا وحدة بيئات ثلاث ذات خصائص متشابهة تضم افريقيا ونوميديا وموريطانيا ، كما سمى الرومانيون القدماء هذه الاقطار افريقيا والمغرب الاوسط والمغرب الاقصى وتبعهم الجغرافيون العرب من بعد .

وهذه البيئات الثلاث المتكاملة اقتصاديا وثقافيا وسياسيا تميزت كل واحدة منها عبر تاريخها المديد بخصائص أخلاقية وثقافية وأدبية تلاقحت فيما بينها عبر العصور وكانت فى تكاملها أعظم معبر عن شخصية المغربى باعتباره أول انسان افريقى صارع الطبيعة وتحداها لبناء معالم الحضارة الانسانية الاولى .

الحضارة المغربية ما قبل الاسلام

سكن المغرب قديما أقوام عبرت اليه من افريقيا واوربا وآسيا ، وأول هجرة وقعت من المشرق الى المغرب كانت منذ حوالى 7.000 سنة اذ حكم قبل الميلاد بنحو خمسة قرون ميناوس بلاد مصر وأخطر اللوبيون الى دخول المغرب ومضايقة الجيتول (كدالة) .

وفى آواخر الالف الثالثة قبل الميلاد غزا المغرب أبرهة من ملوك العرب البائدة الملقب بذى المنار ، وربما كان هو ذا القرنين فخلف بالمغرب جدود قبائل صنهاجة وكتامة ؟

وبظهور حضارة (القوافل) التجارية وصل الهكسوس الى مصر ثم وصلت بقية من العرب الى المغرب بعد خروج الهكسوس من مصر ، ثم اكتشف البحارة الفنيقيون شواطىء المغرب وأنشأوا به مستعمرات تجارية .

على أن أقدم من تعرف من سكان المغرب هم البرابرة الذين اجتازوا اليه عبر الاراضى المصرية وليبيا حتى وصلوا الى شمال افريقيا ، وأسسوا بها مراكز تجمعات قبلية واتجهت قوافلهم الى تشاد وموانىء لوبيا المعروفة عند الفنيقيين (سطرا — أو باليتين — مانيا) المركب منها اسم (طرابلس) أى بلاد المدن الثلاثة .

وكانت القوافل اثناء عبورها تقيم مستعمرات موقتة حيث يقع التبادل التجارى والاقتصادى مما ساعد على ظهور حضارة القرى ومدن القوافل .

وبعد انتظام أمر العبرانيين تحت امارة يوشع طاردوا الفلسطينيين الذين كانوا يتألفون من الكنعانيين واليقشانيين والعماليق فوفدوا على المغرب عبر مصر ، واستقروا به وطبعوه بحضارتهم ودينهم ولغتهم .

والكنعانيون ساميون ، وليسوا يافثيين ولا حاميين كما يذكر مؤرخو اليهود ترويجا لدعايد سياسية وعنصرية .

وفى سنة 1215 ق م وصل الى افريقيا جماعة من الكنعانيين بعد انتصار العبريين عليهم .

واهم الهجرات التى عرفها المغرب هجرة المصريين والعرب . (الاولى) ، منذ 5000 ق . م حيث قام الكاهن المصرى ميناووس احد الكهنة(الحور شسو)بمحاربة(الجيتول)سكان الجنوب المغربى فغلبوهم وطردوهم واستوطنوا بجيوشهم فى الصحراء المغربية . ثم هجرة العرب القحطانيين للمغرب وهم من اهل اليمن وهكذا اخذ يعرف بنوع القبائل العربية (التى هاجرت من المشرق الى المغرب من كنعانيين وفنيقيين وقرطاجنيين وغيرهم من هؤلاء الذين تدفقوا على المغرب من كل مكان فتصاهروا مع سكانه الاصليين .

البـــربـــر :

دلت الابحاث الانتربولوجية ان اصل الانسان البربرى من انسان(مشتى)العربى وانسان ما قبل المتوسطى(Premediteranien وهذا التنوع الانتربولوجى يرجع الى عدة أصناف لها صلة بالجنس العربى والآخرى بالجنس الزنجى .

والمعروف أن اول السكان الذين بنوا المغرب وشيدوا به حضارتهم هم (الا مازيـــغ) وهـــم البرابرة الذيـــن استعجم الكنعانيون لغتهم فلقبوهـــم بالبربر ، كما يرى ابـــن خلدون ، وتحتفظ بهذا اللقب السجلات القديمة سواء فى أهازيج الرومان القدماء أو تاريخ مصر القديمة حيـــث توجد فى شعب النيـــــل (واد بربر) . (وبالقاموس المحيط للفيروزبادى ان البربرة صوت الماعز ، وكثرة الكلام والصياح . ودلو بربار لها صوت (بربر) جيل والجمع برابرة وامة أخرى بين الحبوش والزنج وكلهم من ولد (قيس غيلان) . ويؤيد ميلثوس الكاتب اليونانى صعوبة النطق باللغة البربرية قائلا : يتعذر على حناجر غير البربـــــر النطقبأسماء قبائلهم . ويرىرينان أن جنسالبربر المتكلمبالبربرية كان يمتد من مصر الى السنيغال ... ويتحدث المؤرخون عن أنفة الشعب البربرى من لقب البربرى ، الذى يدل فى مختلف اللغات على معنى خاص ، فهو فى اللغة اليونانية وصف مأخوذ من Barbare التى تفيد معنى القـــوة الضاربة ، وهـــو فى اللغات الساميـــة كالكنعانية دال على الاستعجام ، وعدم فهم مدلول اللفظ فى الكلام حسب تفسير ابن خلدون لذلك انفوا من هذا اللقب فى مختلـــف الاعصار الى اليوم ، وما يزالون يعتبرون اسمهم (امازيغ) اى الرجال الاحرار مؤنثه تمازيغت (1) ، وجمعه امازيغن اى الرجال

(1) وكلمة بربر مشتقة من كلمة (فرفاروس) Farfaros ومعناها اختلاط الاصوات ويرى (فيفه) ان اصلها (واروارا) ومعناها بالسنسكريتية (غريب) .. ولفظة (باربار) تدل فى جمع اللغات على الرطانة=

الاحرار ، وهذا الاسم الحقيقى دال على تأييد لغوى لنسبتهم الى الفضيلة السامية لا الى العنصر السلتى بدعوى ان كلمة (البربر) هى كلمة يونانية اطلقت قديما على هذا الشعب ولان كلمة (باربار) هى فى اللغة اليونانية صفة لكل شعب حربى ، وليست علما على هذا الشعب بالذات ، بل ان اليونان لم يكونوا يعرفون البربر عن طريق الاحتكاك وانما عرفوهم بواسطة مؤرخيهم (كهيقاطس) (1) .

= والضوضاء أو على القسوة والهمجية ، وسماهم اليونانيون بهذا الاسم لشراسة مقاومتهم للغزو الرومانى اليونانى قبل مجىء الكنعانيين .
ويرى النسابون أن اصل البربر ساميون ويرى ميدنون Meduon أنهم يافثيين ويقول آخرون انهم أخلاط من القبل والعمالقة والكنعانيين وقريش تلاقوا فى الشام ولغطوا فسماهم افريقش بالبربر لكثرة كلامهم ويرى أغلب المؤرخين القدامى ان اجلاء البربر الاختيارى او الاضطرارى أو الاجبارى وقع فى عهد جالوت حيث طردوا من الشام بعد انتصار داود .
ويذكر المؤرخ اليونانى هيرودوتس ان البربر ينقسمون الى رحل وهم بربر المغرب الادنى ، والى من يسكنون فى السهول ويحرثون فيها وهم بربر المغرب الاوسط ، وسكان الجزائر من البربر وهم الجيتوليون الذين يسميهم العرب (جدالة) و (غزولة) أما سكان المغرب الاقصى فهم (الفاروزيون) .
واستقر الشعب البربرى (أمازيغ) فى شمال افريقيا بعد عبوره اليها من جنوب ليبيا وشمالها وعن طريق الحبشة وعن مضيق جبل طارق واستقر بليبيا وتونس والجزائر وجزر الكنارى وجزر سردانيا وصقلية وتوصرة ومالطة .
وللشعب البربرى لغته المتميزة بأصواتها ولهجاتها ولها آدابها .

(1) المؤرخون للبربر : من القدماء ، مؤرخو المصريين ، واليونانيين والرولاليين والبونيقيين والبرابرة .
المصريون اول من روى تاريخ البربر لانهم من فصيلة الحاميين اى من فصيلتهم كالاحباش والصوماليين والسودانيين ، وفى الوثائق المصرية المكتوبة على البردى نجد معلومات عن القبائل البربرية المعاصرة للفراعنة ، وكانوا يعرفون باسم (تاحوحو) أو (ربو) ، وكان الاسم القديم لهم (لوبو) وهى أصل كلمة (ليبيا) كما كانوا يسمون (اشبط) وهى أصل القبيلة البربرية المعروفة عند اليونان (أشبوستان) . =

و (هيرودوت) الذى استقى معلوماته البربرية من المصريين، كما ان اليونان سموا المغرب (بسبيريا) وسموا سكان ليبيــــا (اللوبيين) وسموا ليبيــا بالقسم الشمــالى من افريقيا الــذى يسكنه البيض وقابلوا بينه وبين الصحراء . وبلاد الاحبـــاش السود . وتكلم مفسرو القرآن عن الشعب البربرى وخصائصـــه لدى تفسيرهم لرحلة ذى القرنين الى مكان غروب الشمس (حيث وجدها تغرب فى عين حمية ووجد عندها قوما) وهؤلاء هم البربر الذين تحدث عنهم المفسرون . أما الرومــان فيسمونهم بهــذا الاسم ، وبافريقيا التى يريد العرب بها القارة نسبة الى افريقش بن نوح ، وكما عرفت كلمة بربر فى اللغة اليونانية واللاتينيــــة عرفت فى اللغة الفارسية فقد ورد فى الشانامة ، اسم البربر علما

= وتدل الحفريات التى أجريت على حدود برقة ان البربر هو بناة الحضارة الاولى فى افريقيا وعنهم أخذ المصريون وطوروا حضارتهم .

ومن المؤرخين اليونانيين الذين اهتموا بتاريخ البربر ديودوروس الصقلى الذى عاش فى القرن الاول قبل الميلاد وعاصر الامبراطور أوغسطس ويتحدث عن هجوم الرومان على نواحى قرطاج ، كذلك الف استرابون كتاب التاريخ يبدأ سنة 144 ق. م. وينتهى سنة 27 معتمدا على المؤرخ الرومانى (تانوسيوس) الذى الف جولياته فى عهد يوليوس قيصـــر .

وقد فتح الرومان قرطاجنة سنة 146 ق م ودام حكمهم الى سنة 698 بعد الميلاد وعرفوا البربر المتأثرين بالحضارة الفنيقية . وارخ لهــذا العهد (سالسطيوس) الذى عاصر عهد الفتح الرومانى لافريقيــا (146 ق م) وحروب (يوغورطا) .

ومن ألمع الكتاب ، البرابرة ابوليوس الذى كتب رواية الحمار الذهبى. ومنهم المؤرخ فلوروس الذى يقارنه النقاد بابى خلدون . وقد اشتهر بتلخصه لمعشرات (طيطش ليوس) .

ومنهم مرونتونوس ، مؤلف الليالى الاتيكية .

أما فى العهد الاسلامى فأشهر المؤرخــين للبربر ، الوراق وابراهيـم اعتمد مصادر بربرية مكتوبة باللغة البونيقية واللوبية باقلام مؤرخين والرفيق ، واحمد التيفاشى لكن ابن خلدون أعظمهم على الاطلاق ، وقد اعتمد مصادر بربرية مكتوبة باللغة البونيقية والعربية بأقلام مؤرخين برابرة عاصروا الامبراطوريات البربرية قبل القرن الثالث قبل المسيح الى سنة 146 ق م .

على شعب كان يقيم فى اواسط آسيا ، وورد تارة علما على شعب فى نواحى اليمن ومصر وذلك فى وصف مسيرة الملك (كيكاوس) الى حرب ملك البربر ، حيث جاء فيها .

شه بربر بستان بيارست كنك
زمانه وكركونه ترشد برنك
سيباهى بيامدز بربر بزرم
كه از لكشر تاه برخابت برزم

ومعنى البربر بالفارسية التطابق والتشابه ، وما تزال فى فارس جماعة تسمى البربر وهم قوم رحل (1) . كما أن مدينة فاس المغربية ربما تكون اسما منقولا من اسم مدينة (فاس) الفارسية ، واذا كان المغرب يعرف من فصائل البربر قبائل سوس ، فان فارس كذلك تحتفظ بهذه الفصيلة ايضا ، وفى قصة النبى ابراهيم انه كان فى سوس بنواحى العراق .. ، ويذكر علماء الاقاليم كياقوت والهمدانى ان (سوس) بالاهواز وأكثر أهلها ينسجون الثياب المعروفة باسمهم اى (بالثياب السوسية) .

ولا يستبعد ان يكون هؤلاء البربر (السوسيون) من اصل (يمنى) الذين منهم فريق توجه لفارس وآخر جاء الى المغرب ويؤكد هذا وجود مدن بالمغرب تحمل اسماء توجد بفارس كفاس ، والقيروان .

ويستأنس لهذه الصلة بوجود مفردات فارسية فى اللهجة السوسية كسين اى اثنان و (سه) ثلاثة مثلا .

كما يستأنس لذلك ببعض المعلومات الطلسمية والعادات

---

(1) ما يزال ساحل عمان واليمن يحتفظ بقبائل تسمى (بربرة) تكلم عنهم ابن بطوطة فى رحلته ولاحظ تشابههم مع صنهاجة فى المغرب سواء فى عاداتهم أو تقاليدهم .

التجارية وآلات الطرب والالعاب البهلوانية ولعل هذه العراقة الجنسية هى التى مهدت لدولة بنى رستم ان تؤسس مملكة فى سجلماسة وفى وهران فى أول عهد الاسلام بالمغرب فلولا تقارب جنسى لما استطاع هؤلاء ان يؤسسوا مملكة عظيمة داخل المغرب.

ولعل صلة البربر بفارس هى التى اوحت الى علماء الاجناس ان ينسبوهم الى السلالة الهندية الاوربية التى نزحت الى افريقيا من آسيا وهؤلاء يعترفون بوجود السلالة السامية ذات الاصل العربى ، غير انهم يقولون بازدواجية العنصر ، وبوجود سلالة بربرية ثانية اوربية مستدلين على ذلك باختلاف السحنة ولون الشعر ولون العيون وشكل الجمجمة واختلاف اللهجات ، يخضع لعوامل جغرافية لاختلاف الجبال عن السهول وموقع الفصول وتدل كلمة البربر فى اللغة الرومانية على السرعة كما جاء فى بعض الاغانى الدينية Sature tu Fere Mars Linen Salistas Berber (اى) ليكتف مارس الجبار ارقصوا على السدود ، قفوا سيروا ، (فبربر هى السرعة) .

ويرى بعضهم ان البربر يرجع للجنس الاروبى الذى اصله من الهند أو ما يسمى بالعنصر (اليافتى) عند علماء المسلمين ، وانهم مروا من الهند الى فارس ثم القوقاز وذهب بعضهم الى اسكندينافيا ، وبعضهم الى فيرلاندا ، وبعضهم الى فرنسا وبريطانيا وهم (الولش) والبلج فى بلجيكا والغال فى فرنسا والايبيريون فى اسبانيا ، وفريق توجه الى افريقيا عبر اسبانيا ، وحجتهم ان طريق هؤلاء من الهند الى المغرب وشمال اوربا واحدة حيث نصبوا المسلات (المنهيد) وكذلك المصاطب (الدولمين) والمستديرات (فرومليكيس) فى طول طريقهم وبوجود اسماء متشابهة لهذه القبائل كقبائل الكيماريين ، وبنى عمارة فى المغرب وتونس مثلا ، وبياض البشرة ورأى هؤلاء لا تدعمه حجة علمية ،

وانما هى افترضات فقط اذ ان القبائل تتنقل وتتشابه معطياتها الحضارية ، وربما انتقلت هذه القبائل من المغرب الى اوربا كما وقع لبعض فصائل مطماطة التى انتقلت من المغرب الى امريكا قبل الغزو الرومانى بكثير فى رأى بعض المؤرخين ...

وقد لعب البربر دورا هاما رئيسيا فى تاريخ حوض الابيض المتوسط ، حيث أقاموا الممالك ودوخوا الامصار وامتدوا فى الانحاء منذ ان خرجوا من الجزيرة العربية الى شاطىء النيل ثم الى بلاد (امانتى) منذ ازيد من عشرة آلاف سنة ، ثم جاءت جالية كنعانية بعد انتصار بنى اسرائيل عليها فى عهد الفنيقيين كما ذكر ذلك المؤرخ (بروكون) بقوله : عندما عجز اهل فلسطين عن صد غزاة بلادهم هاجروا الى مصر فليبيا فأقام هرقل فى سفن فينقية و (آمانتى) هى المغرب كما سماها قدماء المصريين أو (هيسبيريا) كما سماها اليونان وسمى العرب اقصى غرب مصر بالمغرب لغروب الشمس به .

وتروى الميثيولوجية الاغريقية ان اطلس ملك المغرب الاسطورى خذل صديقه (برسيى) فمسخ جبلا وحكم عليه ان يحمل السماء على كتفيه ، فكان معنى ذاك ان المغرب يحمل ثقل السماء ، وقد اطلق العرب كلمة بربر فى لغتهم على الخروج الى البادية ، وعلاوا بذلك سبب تسمية بر بن قيس غيلان أنه قيل بربر اى خرج للبادية (1) .. وفى شعر امرىء القيس قوله :

« على كل مقصوص الديابى معاود
بريد السرى بالليل من خير بربرا »

وقد اهتم المؤرخون القدامى بتاريخ البربر وأنسابهم

(1) يزعمون ان تماضر اخت (بر) بكت اخاها بقولها :
لتبك كل باكية اخاها كما أبكى على بر بن قيس

وعوائدهم ، فالمؤرخ اليونانى هيرودوت يقسم البربر الى من كان منهم بالمغرب الادنى وهم رحل ، ومن كان منهم بالمغرب الاوسط وهم يسكنون السهول ويحرثون الارض ويصلحونها ، ومنهم من يسكن الجبال فيعمرون الغابات ، وسكان الجزائر من البربر هم الجيتوليون المسمون عند العرب بجدالة ، وجزولة ، كما وصف هيرودوت عوائد البربر وخصائص اعرافهم حيث كانت النساء يزغردن فى الحفلات، وكذلك تكلم البحار اليونانى سيلاكس فى رحلته بافريقيا بالقرن الرابع قبل الميلاد فوصف سواحل افريقيا كلها ، متكلما على ساحل المغـــرب الاقصى الغربى ... كما تكلـــم (يودوروس) المؤرخ الصقلى معاصر الامبراطور الرومانــــى أوغسطس ، ويضم مؤلفه تاريخ العالم الى سنة 60 ق . م وكان لسترابون الفضل فى الكلام بتفصيل عن الامبراطوريات البربرية التى ظهرت فى القرن الثانى ق . م فى عهد يوبا الاول والثانى ويوغورطة، كما ألف المؤرخ الرومانى سالسطينوس (86ــ30ق.م) عن حروب يوغورطة، وألف يوليوس قيصر كتاب حروب افريقيا(2) والواقع أن يوغورطة شغل المؤرخين الرومان لانه وحد البلاد وكون امبراطورية بذل الرومانيون جهدهم للقضاء عليها وفعـــلا حققوا ما أرادوا فقضوا عليه وعلى قرطاجنة فى وقت واحـــد ، واقتطعوا من (يوبا الاول) ويوبا الثانى قسما من البلاد فاهتم يوبا الثانى بالعلوم والآداب وجعل من شرشال عاصمة للحضارة الهلينية ... أما النسابون فى العرب والبربر فيـــرى معظمهـــم أن البربـــر مـــن سلالة يمنيـــة عاربة مـــن قحطان نزحــــوا

---

(2) يـــرى ابـــن خلـــدون ان البربـــر مــــــن ولد كنعـــان بـــن حـــام وان اسم أبيهم مازغ ولكن صنهاجة وكتماة من بقايا القبائل اليمنية ، ويصدر حكمه النهائى انهم بمعزل عن العرب الا ما تزعمه نسابـــة العرب من صنهاجة وكتامة وعنده انه من اخوانهـــم (ج 6 ص 192 تاريخ ابن خلدون) .

من ديارهم لأسباب جغرافية وسياسية ودفعتهم عوامل بيئية الى اختيار الاقامة فى شمال افريقيا التى تشابه الحياة الخصبة فيها ، بالحياة الخصبة فى بلاد اليمن ، وعلى هذا فالتفسير التاريخى لسكان المغرب العربى هو أن أصلهم من الجزيرة العربية جاءوا فى دفعات متوالية حسب عوامل الهجرة ، فقد قدموا منتجعين فى الفترة الاولى ثم جاءوا غزاة فى عهد الفنيقيين وأخيرا جاءوا فاتحين ناشرين للدعوة الاسلامية بعد الهجرة .

وما أن ظهر الاسلام وغزا العرب المغرب ناشرين للدين الاسلامى حتى تحرك الشوق القديم الذى ظل خافتا طيلة عصر الوندال الاليم ، وعهد البزنطيين المظلم وانتعشت جذوة الحضارة الشرقية الكامنة فى بلاد البربر ، تلك الجذوة العرقية التى أذكاها القرطاجنيون فى التشبت بعد الفتح بالاسلام وما يذكره النسابون من العرب والبربر يكاد تتفق عايه معظم الروايات عن أصل العرب والبربر معا ، فالنسابون من (ابن الكلبى) الى (ابن قتيبة) وابن جرير الطبرى والمسعودى والوراق التونسى ، يتفقون على نسبة البربر الى العرب (1) بل أن بعض القبائل البربرية كقبيلة صنهاجة تصف نسبتها القبلية بالحميرية .. ويذكر مؤلف القرطاس أن بر بن قيس ، وبربر بنت مجدول هى أصل قبائل سكنت الشام وجاورت العرب فامترجت بهم ... وعلى هذا فالبتر عرب مضريون والبرانس يمنيون ، بناء على أن القبائل البربرية اما من أرومة البرنس

---

(1) يقول ابن خلدون : علماء الانساب متفقون على ان البربر يجمعهم جدان عظيمان :
البرانس . ومادغيس (الملقب بالابتر) .. وبين النسابين خلاف هل هما لاب واحد ، أم لا ؟ فعند ابن حزم لاب واحد من نسل كنعان .. وقال سابق المطماطى ان البرنس من نسل كنعان ، والبتر هم بنو بر بن قيس .

(مادغيس) أو من البتر . وينتقد ابن حزم حميرية صنهاجة وكتامة ويؤيده مؤلف نشر المثانى ومؤلف البدور الضاوية ... واذا عدنا الى النسابين البرابرة فسابق المطاطى يؤكد فى نسبه عروبته ويرى أن البرنس من مازغ بن كنعان بن حام ، والبتر من بر بن قيس بن غيلان بن مضر من ذرية سام ...

ويستنتج من وحدة الاصل أن قرطاجنة ذات الاصل الفنيقى لم تبذل مجهودا بذكر لادماج البربر فى حضارتها ، وكانت لغة البونيك التى تعربت تنحدر من آرمية أهل الشام هى لغة أمراء نوميديا كما أكد ذلك سان أوجستان .

وذكر كوتيى فى كتابه عصور المغرب المظلمة أن المتكلمين بالبونيفية هاجروا المغرب وانتشروا فى افريقيا الشمالية بعد وفاة النبى موسى عليه السلام وهو يرجع الى قول ابن خلدون عن هجرة الحميريين والكنعانيين الى المغرب عن طريق مصر وليبيا (1) فى غزو افريقش الحيمرى لبلاد المغرب التى أصبحوا بها معروفين بالبربرة (2) .

ويذكر مؤرخو اليونان أنهم وجدوا فى شمال افريقيا كتابة على الرخام الابيض مضمنها (أننا لحقنا بهذه الديار هربا من قاطع الطريق يوشع بن نون) .

صفات البربرية : والصفات الخلقية المكونة لما يسمى بالروح البربرية هى صفات العربى القيم فهو يدافع عن تصرفاته ، ولا يسمح بتقنينها ، ويحافظ على الجوار ،

---

(1) كلمة ليبيا ربما كانت مشتقة من كلمة لواتة ، القبيلة البربرية (انظر برامة فى كتابه عن ليبيا) .

(2) ينسب لافريقش انه قال :

بربرت كنعان لما سقتها ... من بلاد الضنك للخصب العجيب
أى ارض سكنوها ولقد ... فازت البربر بالعيش الخصيب

ومحافظته على عهده جعلت منه رجلا صابرا على المكاره ثابتا فى الشدائد ، وهذه الصفات كونت له نظاما خاصا يعيش عليه فلم يعرف الحكم المركزى وانما كان يعصوصب حول عظيم يدافع عنه ، لذلك عرف نظاما للحكم هو نظام (القيادة) الذى ينفذ بعد حكم استشارى ، هو رأى الجماعة البربرية (1) فهى تحذوا حذو المجتمع العربى القديم حذو القدة بالقدة سواء منها ما يتعلق بالعوائد السوسيولوجية واخصها الوشم والخضاب والختان أو المعتقدات الميتافيزيقيا واهمها التعاق بحركات الواكب ومظاهر الكون المفزعة والسجود فى العبادة ، وتحريم لحم الخنزير ، كما ذكر كوتى ، ولولا بعض التاثيرات البيئية التى لا مناص لها والتى عبر عنها أحد أعلام الفكر البربرى فى القرن الخامس عشر الميلادى الحسن اليوسى بقوله فى كتابه (المحاضرات) ، لو علم ارسطو فضل الكسكوس فى الطعام ، والموسى فى الحلق والبرنوس فى اللباس لشهد للبربر بالحكمة ، وهناك حجة لغوية على هذه الصلة السلالية بين العرب والبربر ، ذلك لان اللغات السامية لها مميزات خاصة ذكرها الاستاذ دوروزة فى كتابه (الوحدة العربية) منها :

1) اعتمادها على الحروف الصامتة ولا تلتفت الى الاصوات بمقدار ما تلتفت الى الحروف الصامتة .

2) اغلب الكلمات السامية يرجع اشتقاقها الى اصل ذى ثلاثة احرف أو حرفين .

وقد ذكر ميشوبلير فى محاضراته أن قواعد النحو البربرى قريبة من القواعد العربية مما يجعله يرى ان البرابرة

---

(1) ستيفان قزال · نظام البربر الاجتماعى والسياسى والاقتصادى (التاريخ القديم لافريقيا الشمالية) .

اصلهم من الشرق بل هناك كلمات عربية ما تزال واضحة فى اللغة البربرية كالماء (امان) والدم والاب والام والخال والحيــــاة والموت ، ويافوح وازيم (من الابزيم) وازرو (مــن اصر) والقائف (اى الكاهن) وغير ذلك من الالفاظ المستعملة المتداولة الدالة على وحدة الاصل وكذلك التعابير ذات الاصل العربى مثل ، (ساقطع تربته) ووحدة القواعد مع النحو العربى كوجود كاف الخطاب وما الاستفهامية ، والماضى الناقص (كان) بل هناك دليل صوتى وهو حرف الضاد الذى لا يوجد الا فى العربية مما يــدل على وحدة الاصل اذ يسود على اللغات السامية ظاهرة الفعــل لان اشتقاقات كلماتها هى فى الاصل من الفعل وليس فى اللغــة السامية اثر لادغام كلمة فى اخرى حتى تصير الاثنتان كلمة واحدة تدل على معنى من كلمتين مستقلتين كما فى اللغات الاخرى .

والذين يدرسون اللغة البربرية يؤيدون هذه الظاهرة فــلا مجال اذا للشك فى انتسابها الى الارومة السامية التى لا تجمع العرب والبربر جمعا لغويا فقط بل تجمع بينهما جنسيا وسلاليا ولقد اثار اختلاف اللهجتين العربية البربرية فى بلاد المغرب فضول المستشرقين الذين يشكون فى وحدة العنصر مع ان فى سوريا فريقا يتكلم الكردية والتركية وفى السودان فرقيــا يتكلــم الزنجيــة وفى الشام من يتكلم الآرمية والتركية ولم يشك علماء النسب فى وحدة الجنس رغم اختلاف اللغات واللهجات .

فاللغة البربرية من العائلة اللغوية السامية كاختها العربية وهى من اللغات السامية القديمة المعبر عنها فى تاريخ اللغات Protosemique وهى تتشابه مــع العربية فى كثير مــن المفــردات واصل الاشتقاق ومخارج الحروف ، ولقحت هذه اللغة مرة اخرى بالعربيةالقحطانية بعد جلاء يهود خيبر عن ضواحى يثربـواقامتهم بشمال افريقيا حيث اشتغلوا بالحــرث والفلاحة كما لقحــت

قبل ذلك بالعربية قبل الميلاد بخمسة قرون عام 480 حيث هاجرت قبائل كنعانية عربية الى بلاد افريقيا وتكونت اللغة المعروفة بلغت البونيك Ponique وهى لغة سامية خليطة من الفينيقية بل هى اقرب لغة الى الفصحى العربية القديمة .

ويؤكد باسى ان البربر لم يقيموا مدنية تعتمد الكتابة لاداء لغتهم ... غير انهم كانوا يحذقون كتابة بقى اصلها مجهولا ، يختلف الباحثون فيه ، فيرى بعضهم انها كتابة ترجع الى اصل فنيقى ... كما تشهد بعض حروفها على القرابة بينهما وبين خط الطوارق (التيفناغ) ... واقدم ما نعرف من المكتوب بهذه الحروف يرجع الى سنة 139 قبل الميلاد ..

ويلاحظ الباحث فى اللغة البربرية أن مخارج الحروف متساوية فى اللغتين حتى حرف الضاد ، فانه ينطق به عند الشلحيين كما ينطق به عند العرب سواء بسواء ، فانهم يقولون : أضاض للاصبع ، ويقولون أبضت من بضعه أو قطعه ، ولا يفوت الشلحة من حروف العربية الا المعجمات منها ، كالثاء والذال والظاء ، وهى نفسها مهجورة فى اللهجات العربية الدارجة (1) .

واذا أردنا أن نعرف مقدار ما فى الشلحة من العربية نجد المصطلحات المتعلقة بالمنزل واللباس والمركوب وأحوال الانسان والملابسات الشخصية ، ففى المنزل مثلا نلاحظ توافر ألفاظ منها الموضع والبيت والباب والعتبة والشرجب والقفل والمقصورة والحش والاروى والهرى والصهريج والساقية والجابية والحانوت والقوس والكرة والدكان والقنديل والفتيلة ،

(1) تقويم المنصور (1343) هـ توفيق المدنى ، عروبة الفنيقيين · ودخول الفنيقيين الى كلومبيا لابراهيم هجر (مجلة المعرفة عدد 10) ص 32 عدد 2 1965 · محمد المختار السوسى (دون تصرف) ·

وكذلك المجمر والقدر والمعلقة والزلفة (أى السلطانية) والصاع والكأس والغراف (آنية الشرب) والسطل والبـراد والمرجـل والمائدة والموسي والمغسل والفوطة والجراب والاشفـى والزيف (المنديل) والكسوة والقشيب والدراعة والملحفة والازار والفراش والمخدة والزربية والسراويل والابزيم والمضمة والصدرة والجبة والخيط والحرير والقطين والسدى (كما نجد حول المركوب) . الحلس والقتب والحمل والركاب والمهماز والجوالق والشكـال واللجام والسمط . أما عن التعبـيرات الوجدانية فان المفردات العاطفيـة ذات اصل عربى مثـل : الحـزن والفـرح والقلـق والجرى والذهاب والمقـل (النظر بالمقلـة) والاحباء بالثـوب والحنان والهـدوء والهدنة والصلح . (نفـس المصدر ، محمد المختار السوسى) .

فهذه كلها وكذلك غيرها تستعمل على نسق استعمالهـا العربى فى أصل المعنى. وكذلك أسماء الاعضاء فى الانسان والحيوان.

فالبيا فوخ والقلة والمقلـة والصمـاخ واللسان والمنخـر والشعر والقلب والرئة والترب والرجل والبطن والعرق والخزر يقصد بها البربرى ما يقصده الغربى .

وكذلك المصطلحات الفلاحية من النبات نجد الشجر والزيت والادام والكمون والجزر واللوبيا والحمص والبلـح والباكـور والكراويا والقصيل والابزار والزبيب .

وهكذا نجد فى تعابير البربر ألفاظا عربية كثيرة التداول فى كلامهم منها ما هو جامد لا يدخله التصريف ومنها ما يدخلـه التصريف فيأتون منه بالماضى والمضارع والامر والوصف والمصدر.

كما نجد ألفاظا غير قليلة عند البربر ، لا تروج غالبا حتى فى لغة العرب المخالطين للبربر وهى السرى ... بمعنـى الجدول ،

والاوق (الثقل والشؤم) الثرب (شحم الكرش) والفدع التواء المفصل ، والشمــط الخيط المعلــق فى آخر الرجــل والقلــزم والفاس (والخلف) زق الادأم ، وأفــت الانسان عن وجهتــه : صرفه عنها والبكت : الضرب بالعصا ، وذرى بمعنى سقط ، وأل اذا بكى . فانها ــ وكلمات كثيرة قد تعد بالمآت ــ لا يكاد يعرف أن لها أصلا فى العربية الآن الا فى قواميس اللغة العربية ، وقد يسمع سامع اطلاق البربر لفظة أزبل على الشعرة ، ولا يجول فى ذهنه أن أصل الكلمة الاسب بالسين وهو شعر الركبتين ثم قلبت السين زايا ، وزيد فيها اللام فجاءت كلمة أزبل أو أنها مأخوذة من السبلة التى بمعنى الشعر مطلقا وقلبت السين زايا ، وكذلك يسمع لفظة الردن بمعنى الولدان جمعا فقلما يهتدى الى أصــل الكلمة وكذلك يسمع أسوأ بمعنى شرب الماء وهى كلمة تتصرف عندهم غالبا على حرف السين فقط ، ماضيا ومضارعا وأمــرا ومصدرا فلا يكاد يعرف أن أصل الكلمة من احتسى الماء أى شربه وكذلك يسمع (كا) (الكاف المفخم) فلان العالم أى كان فــلان عالما ولا يحسب أن الكلمة هى كان المفخمة المعروفة نفسها فى العربية وانما قلبت الكاف كافا (مفخمة) وهــى لهجة عربيــة صحيحة ثم تحذف النون فى الكلمة أحيانا .

وهذا التأثير يقوى فى الكلمات الدينية التى هى كثيرة جدا فى اللغة البربرية مثل الصلاة والزكاة والصوم والحج فشلحت كلك فأنت مثلا تسمع تمزكدا وتصلت وتلفطرت فتعلم أن أصلها المسجد والصلاة والفطرة التى يقصدون بها صاغ زكاة الفطر . وهذا الباب كثير جدا وغالبه معرف بالالف واللام حتى صحت القاعدة التى تقول : ان كل لفظة جامدة فى الشلحة بدئت بالالف واللام فانها عربية الاصــل .

وربما شلحوا جملة عربية تامة كقولهم ما تريد مازكانتك

أرياتا ، ومما اتفقت فيه اللغتان كاف الخطاب فانه يستعمل فى الشلحة استعماله فى العربية .

وكذلك ما الاستفهامية . لانه قلما تكون جملة أو جملتان متصلتان من الشلحة الا وجد فيهما تأثير العربية .

فلننشد هذا البيت البربرى (1) :

أمــرب أور ارحم أه آل متتئيــن
افلتــدكا رأمد أرت اتــن ويــض

ففى هذا البيت أربع كلمات عربية، رب، رحم، افل، ويض.
ولننشد بيتا آخر أيضا (2) :

أو شــن زلــن أوراك ايكــى ايمى غوتــا
أورو كان ايلى بلابويد نغسار أورى الشيات

وهنــاك بيت آخر (3) :

وانا مود لايبد أوزموز أرسول ايت مشى وبر
أولــو كان ايكــى اللزانــس أتنسول أمــين

والكلمات العربية فى السوسية والشلحة على ثلاثة أقسام :

(أولا) ما جاء عن طريق الدين من كل ما يتعلق بالشرع وما جاء عن طريق المدنية العربية من أسماء أدوات المنزل واللباس وآلات الاعمال التى تزاول ، ومن أسماء الاشجار ، والعلــوم التى انتشرت بانتشار تلك المدنية فهذا القسم تسرب من مؤلفات

---

(1) يشبه قول الشاعر العربى : لا فى الكلام تقص أجنحة المنى ، ولذلك يشبه شكلها المقراضا .

(2) يشبه معناه قول الشاعر العربى : لنا الصدر دون العالمين أو القبر

(3) يشبه المثل العربى : انتهز الفرصة قبل أن تصبح غصة .

العلوم ومدارس الدين والمخالطة فى الاسواق والمقايضـــة فـــى المتاجر فهناك مؤلفات كثيرة ترجمت الى الشلحة فشلحت كلمات كثيرة من العربية وتكثر هذه المؤلفات فى الفقه والمواعظ والحساب والفرائض والتوقيت ، فالمترجمات فى هذه الفنون متعددة .

(ثانيا) ما هو قديم عند الشلوح مما سبق الفتح الاسلامى، ويظهر الى أنه متأصل فى اللغة الشلحية ، لانه من الكلمات البدائية فى حياة الشعوب . وذلك كالموت والحياة والدم والريح والاب والام والصوت والبر والبحر والقرب والبعد، وهى ألفاظ تصل الى مائة كلمة ولا يعلم لها مرادف فى أسلوب البربرية يمكن أنه هو الاصل !الاصيل ويكون الاخر من الدخيل وهذه الالفاظ وما على غرارها يتفـــق على التلفظ بها فى معناها كل من أصحاب اللهجـــات البربريـــة المتفرقة حوالى الاطلس زيادة على ما فى سوس .

وكون أمثال هذه الالفاظ أقدم من الفتح الاسلامى هـــو الراجــــح ، وربما كانـــــت ألفاظـــــا غمـــرت مرادفاتهـــــا من البربرية منذ تسربت من العربية القديمة على عهد الفتـــــح الاول للفينيقيين الذين نعرف صلبهم مـــن أبنـــاء الجزيرة العربية فتكـــون حجـــة للمؤرخين الذين يؤكدون أن البربـــر موجـــــة من موجات الشرق فى عصور ما قبل التاريخ .

وثالثا) ألفاظ تتردد ما بـــين هذين القسمـــين ولا يترجـــح فيها جانب على آخر كالتلعة والاحتباء والاحتساء والافول بمعنى وجده الى غيرها من ألفاظ كثيرة (1) .

---

(1) محمد المختار السوسى : تأثير العربية فى اللهجة الشلحية العدد (2) اللسان العربى 1965 (دون تصرف) .

الشخصيـــة المغـــربيـــة :

للمغربى نظرة شمولية للحياة فلهذا يميل تفكيره الى النظرة العامة الموضوعية كما أن ثقافتـــه مطبوعة بالتركيب والتحليل ، مما يساعده على فهم ما يرد عليه من تيارات ثقافية مختلفة ولذلك وجد فى الحضارة الفنيقية شخصيته اللغوية والاخلاقية ، وفى قرطاج استكمل نضجه السياسى ومن ذلك التاريخ وهو يبحث عن وسائل الاستكمال الذاتى فوجد فى الاسلام عقيدة تلائـــم نظرته للحياة ، وتمذهب بالمالكية بصفة جماعية وتمذهب بالتصوف الجنيدى لا الحلاجى لان الاول تصوف بسيط سنى أما الثانى فله أصل فلسفى يونانى ، وعرف من المذاهب الاسلامية المذهــب الخارجى ليستكمل وحدته منفصلا عن الخلافة الاسلاميـــة فى المشرق ، ولقد اختلــف على كل المذاهــب الاسلامية الفقهيـــة من الاوزعية والحنفية والحزمية ليستقر أخيرا فى (مالكية) عياضية، وعقيدة أشعرية ، موقفا فى ذلك بين، طبعته وشخصيته وتفكيره .

فهذه هى الشخصية المغربية المنتزعة من الصفات الفطرية ومن صميم العقل الباطن الذى لا يخطىء الفكر فى اعتبارها من عوامل الاصالة ، فهى خصال خاصة لا سبيل الى شيوعها وذيوعها بين البشر أجمعين بل هى مكتسبة من الوراثـــة وعوامل الـــدم والرحم والتلاحم مع البيئة وهذه الصفات يشترك فيها البربرى والعربى مما يدل على وحدة اصلهما ومن هذه الصفات (الغيرة) والدفاع ، عن الشرف وهى من الطبائع التى سيتعذب العربـــى الموت فى الذياد عنها ، ومن طبائع البربرى الذى يستهوىء الدم من أجلها ، ومظاهر هذه الغيرة وان كانت تختلف فهى فى جوهرها غيرة ايجابية دافعة الى اقتحام واستعذاب الموت ، ومن ذلـــك الكرم وهو من أخلاق العرب والبربر معا ، قلما نشاهده فى أريحيته فى غيرهم من شعوب الارض ، ومن ذلك الشجاعة التى تفقـــد

صاحبها الرشد فيسترخص حياته ويرى فيها مجده الأوحد ، ومروؤته الكاملة فلا يتهاون ساعة اللقاء ولا يجبن فى الهيجاء (1).

والجماعة عند البربر خلية يرتكز عايها المجتمع البدوى وهى جماعة منتخبة تلقائيا للاشراف على مصالح السكان الفلاحية والاقتصادية والاجتماعية وتخضع لقانون تقليدى (أزرف) والشيخ مشرف منتخب لمكانه الاجتماعى ، وهى وان كانت تظهر كخلية بسيطة الا أنها فى الواقع اتخذت عبر التاريخ تنظيمات دقيقة تحتاج الى كثير من الكفاءات والمرونة وكانت مصدر الديناميكية التاريخية لمجتمع البربرى حتى ليقول كثير من علماء الاجتماع المعاصرين أن تاريخ المغرب هو تاريخ بواديه ولم يدرس بعد موضوع (الجماعة) وأثرها الاجتماعى فى البادية دراسة علمية دقيقة مركزة ، وذلك لان الدارسين لها فى الغالب من الاجانب ، وهم لعدم فهمهم للشخصية المغربية ووعيهم لها يستنتجون استنتاجات غامضة غير صحيحة الغالب وشكلية أيضا لان التدليل على وجود القوانين الاجتماعية فرضية فقط ،

---

(1) يقول عثمان الكعاك : واما تخلق البربر بالفضائل الانسانية، وتنافسهم فى الخلال الحميدة ، وما جبلوا عليه من الخلق الكريم مرقاة الشرف والرفعة بين الامم ومدعاة المدح والثناء من الخلق ، من عز الجوار وحماية النزيل ، ورعى الذمة والوسائل ، والوفاء بالقول والعهد ، على المكاره . والثبات فى الشدائد وحسن الملكة ، والاغضاء عن العيوب ، والتجافى عن الانتقام ، ورحمة المسكين . وبر الكبير ، وتوفير وتوفير اهل الدين ، وحمل الكل ، وكسب المعدوم ، وقرى الضيف والاعالة على النوائب ، وعاو الهمة ، واباءة الضيم ، ومشاقة الدول ، ومقارعة الخطوب ، وغلاب الملوك وبين النفوس من الله فى نصر دينه ... فلهم فى ذلك آثار ينقلها الخاف عن السلف لو كانت مسطورة لحفظ منها مايكون اسوة لمتبعية من الامم ، وحسبك ما اكتسبوه من حميدها ، واتصفوا به من شريفها ان قادتهم الى مراقى العز وارفت بهم على ثنايا الملك حتى علت على الايدى ايديهم ، ومضت فى الخاق — بالبسط والقبض احكامهم .

تتوقف على كثير من التحليل لتكون واضحة ... وكذلك لان الانتروبولوجية الاجتماعية لم تصبح عاما قادرا على العطاء فى ميدان الاجتماع البشري لما بين العلاقات الاجتماعية المتشابكة البناء الاجتماعية من تعقيدات تخفى على العالم غير المتخصص .

فالبناء الاجتماعى لا ينفصل عن الثقافة السائدة التى لها كل القدرات على فهم الاشياء فقد خضع المجتمع البربرى (عبر التاريخ) لنظام الجماعة لعدة تجارب وتأثيرات بأعراف أخرى جديدة سواء فى عصر الموحدين أو المرينيين أو العلويين وبالاخص فى عهد المولى اسماعيل الذى جعل من عملية (اللف) و (الصف) وسيلة للوحدة بين القبائل وقد عانت الجماعة المغربية عدة تجارب أخرى ، وفشلت فى معظمها ، والواقع ان التمازج بين سكان المغرب جميعا نفى كل بقاء لعرف خاص ، ووجود الاقاليم بخصائص لغوية لا يؤيد دعوة العرفية اذ أن اللغة أصبحت اقليمية للسكان العرب والبربر والافارقة .

واستغل المستعمرون خصائص الشخصية المغربية الانسانية (المورفولوجية) والاعراف البربرية ، واللغة الخاصة لهذا الشعب فجادلوا بلغته الشمال الافريقى وبدأوا بذلك فى الجزائر سنة 1874 وفى المغرب سنة (1934) .

الديانات :

كانت الوثنية البربرية تعبد آلهة خاصة بها وهى :

ماكورنا ويونا ، وماكورفوس ، وماثيلا ، وليست لدينا دراسة مفصلة من هذه الوثنية وانما تعرف أنها وثنية محلية ، كما عرفت عبادة الاشجار والحيوانات وتقديس بعض الملوك ورؤساء القبائل فى مرحلة تكوين التفكير القديم البداى .

وكذلك تعرف المغربى القديم على وثنيات شرقية ويونانية . ثم ظهرت به اليهودية التى وصلت عن طريق اليهود استيلم وهم الذين جاءوا من المشرق عن طريق الحبشة ، ثم بعد ذلك بواسطة اليهود الذين وردوا على المغرب بعد أن أجلاهم الخليفة عمر رضى الله عنه عن خيبر لما عانى من دسائسهم وخياناتهم فجاءوا الى المغرب حاملين ديانتهم وبعض المعارف الفلاحية التى خبروها فى الواحات العربية كما يذكر اسحاق ولنفسون فى كتابه (اليهود فى جزيرة العرب) .

ودخلت النصرانية الى المغرب بعد أن أصبحت دين الدولة الرومانية ، وظهر بالمغرب مفكرون مسيحيون.

وعبد البربر فى القرن الاول قبل المسيح (افريكا) وهو وثن مغطى بجلد فيل حيث كانت المجوسية دمن المغرب منتشرة .

مدنيات :

جمعت أرض المغرب بين حضارة الغاب وحضارة الصحراء ، فكافح المغربى للتغلب على قسوة الطبيعة التى تمالات عليهم بثلوجها المتراكمة على جبال الاطلس وبحيواناتها المفترسة الضارية ، فكان المغاربة يوقدون النار من الشرارات ليستدفئوا بها فى كهوف الجبال ، ويطاردون الحيوانات المفترسة .. وبتوالى الايام استخدموا النار لطهى الطعام وتحجير الفخار والاوانى ، ولا نعرف الكثير من محاولاتهم المدنية فى العصر الحجرى

---

(1) اليهود فى المغرب منهم الصفاردم Saphardim وهم يهود البحر الابيض المتوسط دخلوا المغرب أواخر القرن الخامس عشر بعد نفيهم من اسبانيا ... ومنهم اليهو البليشتيم أو البيلشتيم Pichjljme أو Pilchime وهم الذين دخلوا المغرب قديما فى عصر داود .. ومنهم اشكنزم Achkenazjm وهم يهود اوربا الشرقية .

والبرونزى والحديدى وانما نعرف الصور البدائية التى رسموها فى الكهوف فى العصر الحجرى معبرة عن عواطفهم المشدودة بجمال الطبيعة ورقة الانوثة . على أن أعظم كشف فى حياتهم بالنسبة لهذه الحقبة هو استغلالهم لخيرات الارض بعد أن تعلموا زرع الحبوب والعيش بها ، وكان ذلك سببا فى استقرارهم على ضفاف الأودية ، وفى المنبسطات الخصبة ، فاستطاعوا بذلك أن يخرجوا من عزلتهم كأفراد ضائعين فى الغابات والفجاج الى أناس متساكنين مع رفاقهم متعاونين معهم (1) .. وبذلك تأسست القرى وتبادل الافراد المصالح الزراعية ، فاستأنسوا الحيوانات الاليفة وربوا ما يصلح للطعام من الحيوانات والدواجن ، ولا شك أن المغاربة فى هذا العصر البدائى تقدموا فى صناعة الالات ، وتعاونوا على دفع الضرر واجتلاب الصالح ، فصنعوا السكاكين من الحجر والفؤوس ، ثم اكتشفوا مادة النحاس كما اكتشفها غيرهم فى هذا العصر فأعجبوا بتالقها وجعلوا منها حلية للنساء ، واستعاضوا بها عن القوس الحجرية ، وربما طرقوا شيئا منه وخاطوا به جلود الحيوانات فتدثروا بالبرنوس الجلدى ضد عوادى البرد القارس . وهكذا أخذت حياتهم تتطور وتزدهر ، وأعانت الحياة الزراعية على خلق جو من المرح والاستراحة والاستدفاء بالشمس والاستنارة بالقمر فى ليالى يطيب فيها السمر والحديث ويحلو الغناء والرقص ، فكان لهم فراغ أتاح لهم فرصة تكوين نواة الحضارة الفكرية والادبية والتأمل فى اختلاف مظاهر الكون ، مما أدى بهم الى الايمان بالله واقامة معابد بسيطة لعبادته ، وما أن توفرت الزراعة حتى ظهرت رغبة فى

---

(1) عرف سكان افريقيا الشمالية حضارة الكهوف ثم حضارة البحيرات ثم حضارة الانهار .. ثم حضارة السفن البحرية .

تبادل المزروعات مع المدن والقــرى المجــاورة واضطــروا أن يستخدموا الخيل للتغلب على المسافات البعيدة والاتصال مــع مختلف البلدان والقرى النائية ، وكان حسن الجوار ينقلب فى بعض الاحيان الى سوء تفاهم ، فيتكدر الجو ، ويضطر كل فريق للدفاع عن شرفه بالسيف ، ووقعت حروب وفتن أعربت عمــا فى طبيعة المغربى من بطولة وشهامة ، وتحمس للدفاع عن الشرف والعرض والمتاع والحرية الشخصية التى يحبها ويستعــــذب المنون فى الدفاع عنها ، فكان يظهر (الاقليد) أيام المحن والحروب حيث تختاره قبيلتــه وتحتفظ بأمجاده ويبقــى لجماعته شرف الحكم وتسيير المدشر والقرية ، وكان النزاع والشجار يتعــدى فى بعض الاحيان القرى والمدن الى الحدود والبلاذ المتآخمــة فنشأت حروب على حدود البلاد ، تعرض فيها أجدادنا للانتصار والانهزام على السواء فسبوا ، وأسروا ، وبذلك تكونت صــلات بينهم وبين أعدائهم استحالت بعد طور الحرب الى سلام ودعة وبذلك تعرفوا على العوائد والمعتقدات والاداب الاجنبية (1) .

وعرف الفلاح كيف يغرس الارض بفأسه ثــم يحرثهــا بمحاريث تجرها الدواب ، وعند ما يتم نضج الحبوب يأتــى علــى المحصــول حتــى يفــرز الحـــب عــن القشــــور ، ثــم يحفــــرون (مطاميـــــر) يودعونهــا مــا أنتجتـــــــه الارض وبذلك يضمنون عيشا سنويا وذخرا ضد المجاعات التى تأتى بها السنون العجاف .

وكانوا يعتمدون على المنجل والمذراة والمحراث فى حياتهم الفلاحية ... حتى اذا انتهى موسم الحصاد أقبلوا على الحياة فرحين يقصون الاحاديث ويستطيبون السمر ويحتفلــون فــى

---

(1) هذا السياق وفق ما تقصه معظم ابحاث (نشأة الحضارة) .

حلقات (حيدوش) ترقص فيها المرأة بجانب الرجل رقصـــات عذبة ، وينشدون أشعارا غنية بالعواطف والاحساس الانسانى ، وكانت الفروسية أحب الالعاب اليهم حيث يتسابق الرجال على الافراس والجمال مظهريــن خفتهم وحيويتهم كـــذلك عرفـــوا الحيوانات المتوحشة وروضوا الاسد ، وعرفوا حيوانات أخرى انقرضت الان وتعرفنا على هياكلها فى الحفريات وكان من بينها الفيل الافريقى الذى انقرض من أمد بعيد ، وعوض بالجمــل الذى دخل المغرب فى أواخر الحكم الرومانى .

واعتمدوا أول الامــر فى معاشهــم على الصيد وتربيــة المواشى ، ثم الفلاحة التى تطــورت فى عهد الزعيم البربــرى (ماسينيسا) حوالى القرن الثانى ق. م. وكانوا يقتاتون أعشاب الجبال وانتاج الحقول المبثوثة فى المنحدرات كالقمح والشعير والذرة والخرطال والزيتون والكرم والرمان والجوز ، فتعلقــوا بأرضهم وأصبح الاغرم عند القبائــل أشبه بملكية الجماعيــة اليوم أى فى شكل اشتراكية فلاحية توزع المحاصيل على الجميع نظرا للاشتراك فى الارض والعمل ، ثم تطورت الاشتراكية الى توزيع الارض على العائلات ، فعرفت الملكية الفردية . وكانوا يرحلون فينقلــون الخيــام على الخيــل والبهائم ، واستوطــن السكان الجبليون كهوفا فى الجبال أو فى نواويل وأكواخ مــن الطوب حيث كان غذاؤهم النبات الطرى والكسكس واللبــن ، وشرابهم الماء العذب القراح ، وبذلك صحت أجسامهم حتى أصبح لا يقهرها الا الهرم ، وتطور أسلوب البناء الى (القصور) أى الحصون المبنية على أطراف الجبال التى تحتوى على الذخائر والمؤون والمطافى والعزيب ؛ وتطورت هذه الحياة الى (المدشر) فتجمع الناس فى سكناهم على شكل قرى بدائية ، أما الاسرة فكانت تسكن فى منزل صغير ذى طابق واحد يصعد اليه بدرج صغيرة

ويحتوى الطابق على غرف ومخـزن الحبوب فى (تغرمـت) ، ويسكن الاغنياء فى حصون صغيرة مربعة بها ساحـة وبـرج للحراسة . أما الفقراء فيسكنون فى (تدارت) ، أى دار صغيرة بـدون طابـق .

وساعد التطور الاجتماعى على الاستقرار بدل الترحال ، وبذلك أتيح للبربرى فى القريـة أن يبنـى حصـونا ومخـازن ومستودعات مشتركة ، أو ما يعبر عنه بالبربرية (أغرم) أو (أجدير) ، وهكذا تطور المظهر المعمارى من شكله الاول العتيق الى شكل دهليز أو دار ذات سطح ، وهذا السطح هو النموذج التقليدى للسكن المغربى الذى ظل أساس الشخصية المعماريـة المغربية رغم تنوع التصميمات المتعاقبة حسب اختلاف البيئات . ويتمثل هذا الفن (تغرمت) فى الاطلس المتوسط وهى عبارة عن قلعة مربعة ذات حصون تحتوى زواياها على برج متصل بغرفة فيها درج توصل الى الطابق الارضى ، أما الحصـون القائمـة بالاركان فتستغل كاهراء ومخزن الحبوب ، وعلى الطابق الثانى من البيوت (الايغرم) أو (التغرمت) ، ويفوقه فى كثرة المخازن المواجهة للبناء وهو مستودع جماعى وخزين للقرية ، وحصن ومركز التجمعات .

ولباس المغربى الاول ، كان من جلود الحيوانات ثم نسج الصوف وضم أطراف بعضها الى بعض حتـى تطـورت الى (البرنوس) المعروف اليوم .

وكان سلاحه الذى يرد به هجمات المعتدين فى أول الامـر مقدودا من الحجارة ثم الحربة ، ثم القوس ، ثم الخنجر ، ثم السيف والدرقة المصنوعة من جلود الفيلة . واعتمد على الفرس فى حربه ولم يتأثر بنقل حضارة (العربات) لصعوبة ارتقـاء الجبال بها ...

وشاع استعمال التزيين عند النساء والرجال على السواء فتحلى الرجل بأقراط الاذن ، وأكاليل الريش ، وتحلت المرأة بالخلخال ، ووشموا وجههم بعلامات طوثمية خاصة ، واقتسموا العمل فى الحقل ، الا أن المرأة اختصت بالطبخ والنسيج وصناعة الخزف ، واختص الرجل بالفلاحة والحرث والبناء والدفاع عن حوزة القبيلة .. وكان الصبيان يعبثون فى ألعاب ما تزال آثارها فى المغرب كلعبة (قبة من ذا) وهى أن يخفى أحد الاولاد وجهه فى حجر زميله ثم يتناوب الاطفال على وضع الايدى على ظهره ، وعليه أن يعرف أسم الواضع اليد أخيرا والا هبوا بالضرب على ظهره ، وهذه اللعبة عرفها قدماء المصريين باسم لعبة اخفاء الوجه ، وكلعبة (طايب) حيث كان يختفى بعض الاطفال ، وعلى رفاقه أن يبحثوا عنه فاذا أمسكوه قبل أن يصل الى المنطقة الحرام فهو مكلف دائما بالبحث عنهم .

ودفنوا الموتى فى الكهوف الطبيعية المنحوتة بعد عماية الثنى وتكسير العظام حتى لا يعود الموتى الى الحياة ، وعندما اتصلوا بالقرطاجنيين فى القرن الثالث الميلادى اقتبسوا منهم عادة حرق الاموات ودفن الحلى والاثاث مع الميت ... كما فعل المصريون القدماء .

ويخطىء بعض علماء التاريخ الاجتماعى حين يظنون ان المغاربة القدماء كانوا ينتسبون لامهاتهم ، وان المرأة كانت تتزوج عدة رجال ، اذ الواقع (كما يرى أندرى جوليان) أن الانتساب كان الى الاباء ، وكان الرجال يعددون النساء فلم يعرفوا (الامومية) لاسباب اجتماعية .

وتدل الاعراف والعادات التى خلفها أجدادنا على أنهم كانوا أتقياء منصفين يأبون الظلم والاعتداء ويؤثرون البساطة ،

فلم يخلفوا أهراما عظيمة أو قصورا مشيدة أو تماثيل لعظمائهم وانما كانوا يميلون الى التواضع والعطف على الضعيف وتقدير أعمال الانسان لا تمجيد صورته وعبادة تمثاله .. ولعل أساس هذه الظاهرة هو ايمانهم بشخصية كل انسان وعـدم تسخيره لتشييد مظاهر تافهة أو بناء كبير يرسم عليه ميزان العـدل ، فلذلك أحبوا من حكامهم وأمرائهم البساطة والشجاعة ، وعطف عليهم حكامهم فلم يسخروهم للاعمـال المرهقة ، ولم يحفلـوا بمظاهر الابهة والحكم .

كما عـرف البربـر أدبا وجدانيـا ومرحـا جماعيـا فى (الانشـادى) وادب ملحمـى معبرا عن الذاتيـة « الادبيـة والوجدانية » .

مراكز الحضارة المغربية الاولى

14 ق. م — 643 ب. م

عثر فى حفريات أثرية عن معالم مدينة (لاثيش) وهى مدينة كنعانية بنيت فى السهول الخصبة فيما بين مدينتي القدس وغزة ، وتمثل زهرة المدائن فى العهد البرونزى الذى سبق ظهور الاسرائليين بكثير وكانت هذه المدينة مأهولة قبل حوالى اثنين وعشرين الف سنة ، وعاصمة للكنعانيين ومنها ومن فلسطين وفد الكنعانيون على المغرب حيث ادخلوا الفلاحة والصناعة وأسسوا به عدة قرى ، فظهرت نواة حضارة مغربية جديدة برزت فى مدن عريقة فى القدم مثل سجلماسة وسلا ودمنات ، وفى وفى كتاب عجائب الامصار لمؤرخ مغربى مجهول ، ذكر لعدة مدن قديمة (كقنط) قرب مدينة آسفى و (تيط) قرب الجديدة و (ازمور) المؤسسة قبل العهد الفينيقى ، ويذكر (ميكيل طارديل) فى بحثه « عصر الفينيقيين الاول بالمغرب » ان العلاقات البحرية بين طرفى البحر الابيض المتوسط اقدم من الفينيقيين بكثير ، ولعلها نشأت فى العصر الحجرى الجديد ، ويؤكد ذلك ما ورد فى (العهد القديم) عن قوارب الصيد التى تعبر المتوسط ، وكذلك بوصف (هيردوت) لتجارة الذهب عبر المتوسط ، وبما ذكره (سترابون) عن ماضى افريقيا واسلاندا وما جاء فى أقاصيص المتيولوجيا اليونانية ... وقد عفى الزمان على هذه الحضارة البدائية الاولى ، فذابت فى حضارة القرطاجنيين ، التى ذابت بدورها فى الحضارة الرومانية ثم عفى الهجوم الوندالى على ذلك كله ويذكر (الفريد بيل) فى كتابه « ديانة الاسلام فى بلاد البربر » ان البرابرة بعد احتلال

الوندال فقدوا كـل ما استمرأوه مـن الحضارة القرطاجنيـة والرومانيـة .

قرطـاج : (814 ق.م الى 146 م) .

فى سنة 814 ق.م (تقريبا) فرت الاميرة جونو (عليشـة أرملة أسرباس رئيس كهنة صور) من ظلم أخيها بيغماليـون المستأثر بالملك دونها ، ونزلت بساحل المغرب الذى كانت به جالية فينيقية فاشترت أرضا ، وبنت بها (قرت ـ جونو) التى حرفت الى قرطاجنة فيما بعد ومن المؤرخين من يرى ان اصل قرطاج (قرية حداش) وهو اسم بربرى قديم .

ويروى هيرودوت ان الفينيقيـين (الصوريين) اكتشفـوا شاطىء القارة الافريقية ، فجاءوا اليها وبنوا بها اصنام هرقل بطنجة ، وحملوا اليها صناعة الزجاج وغيره من منتوجاتهم ، ثم ضاعت مدنيتهـم بعـد انتصار الاسكنـدر المقدونى عليهـم وكان الفنيقيون يسمون بلاد افريقيا (افريكان) اشتقاقا من اسم سكانها (افرى) أى بلاد الافرى وكانت تسمى قبل ذلك لوبيـا أو لبيبـا وعاشت قرطاجنة تسعة قرون قبل أن يهدمها الرومان، وستة قرون بعد تخريبها محتفظة بالحضارة الفينيقية بل وظلت اللغـة الفينيقيـة لغة الشعـب ولسانا للوعـظ ، والعقـود ، والوصايا الى القرن الثالث ب م كما ذكر سكان أوغست ، وكان الرومان يستعملون المترجمين بينهم وبين سكان المغرب بل سجل بهذه اللغة ادب مغربى وثقافة مغربية استفادت منها رومـا كثيرا ... ويذكر المؤرخون الرومانيون ان مجلس الشيوخ الرومانى كلف (دى سبيلانيس) أن يترجم 28 كتابا عن الفينيقية الـى الرومانية وكان عمل الفنيقية تسهيلا للفتح العربـى لأن لغتهـا لا تبعد عن أصول اللغة العربية والبربرية ، وكما لاحظ (جوستيل)

فى (تاريخ افريقيا الشمالية) انه لم يبق الشعب البربرى وحده فى الشمال الافريقى ، اذ سرعان ما جاءت الجالية الفينيقية من الشرق ، واقامت فى افريقيا الشمالية ، وبما أن هذا الشعب ينتهى فى نسبه الى الكنعانيين الساميين ، فقد تآلف بسرعة مع البربر الذين ينتسبون « حسب رأى معظم المؤرخين » الى اليمن ، وسرعان ما أسس الفينيقيون مدنا مهمة على طول ساحل افريقيا الشمالية كبنزرت فى تونس ، وطنجة وشالة فى المغرب ، وينقل (ميكيل طارديل) عن (بيلنيوس) ان هذا المؤرخ لا يذكر تأسيس مدينة ليكسوس ، بل يذكر معبدها بما يدل على أن بناء المعابد سابق على تأسيس المدن ، وبالتالى بوجود فترة طويلة من ملاحة الاستكشاف والمبادلة التجارية قبل انشاء مراكز المستعمرات ...

لقد جاء الفينيقيون (1) يحملون حضارتهم البحرية والبرية الى المغرب ، فأخذ سكان المغرب عنهم الخط الفنيقي وتخلوا عن الخط المعروف باللوبي المشتق من الحميرى ، وهو أقدم من الهيروغليفى المصرى ... وازدهرت الثقافة الفينيقية فى المغرب وتركت آثارها بارزة فى مؤلفات القرطاجنيين وظل التأثير الفينيقى واضحا فى الحضارة المغربية اليوم ، ويقول (ميكيل طارديل) ان هذا النفوذ كان فاصلا فى تكوين ثقافة مغربية ذاتية يجعلنا نرى أن الاسم المناسب فى تاريخ المغرب للفترة المتراوحة فيما قبل

(1) الفينيقيون من الكنعانيين الذين هاجروا بلاد الشمال سنة 530 ق. م وسكنوا فينيقيا حسب الاسم اليونانى المأخوذ من كلمة فنكس، اى الخيل أو اللون الاحمر ، وجاء فى التوراة وصف المدنية الفينيقية بهذه العبارات (انهم لاستخراج الذهب حفروا واديا بمعزل عن السكان ، وانهم على بعد من الناس يتدلون متأرجحين فى سبيل لم يعرفه النسر ولم تبصره عين الحداة ، وانهم بسطوا أيديهم على الصوان وقلبوا الجبال من اصولها وفى الصخور نحتوا قنوات .

سقوط قرطاجنة خلال الحرب الثانية ونشأة البيوت المحلية الحاكمة المعروفة والتحاق المغرب بالأمبراطورية الرومانية (هو القرطاجنى الموريطانى) ونستطيع ان نتعرف من خلال الحضارة الفينيقية الشرقية على مدى تأثيرها فى بلادنا من خلال الفلاحة والتجارة ، والفينيقيون شعب فلاحى وتجارى ، ظهرت آثاره الفلاحية فى غرس البساتين بأنواع الفواكه الشرقية كما كان شعبا تجاريا بما ينتج من أدوات فلاحية ومنزلية كالاكواب والاباريق ، والصناعات اليدوية كالنسيج بالاضافة الى أن الفينيقيين كانوا من الشعوب التى جابت البحار فتركت فى المغرب ثقافة بحرية ، كما ترك الفينيقيون أيضا ثقافة روحية دينية ظهرت فى هيكل (بعل) ومعبد (تانيت) ، هذان المعابدان اللذان اعتصم بهما التفكير الدينى الفينيقى ومن المعلوم ان الفينيقيين تأثروا بعده ديانات قبل ظهور المسيحية فى الشرق ، واختلف على بلادهم الانبياء وكان دينهم توحيديا وكان لهم بالمغرب تأثير دينى حيث عرف البرابرة لاول مرة عبادة الكبش (عمون) وعبادة (بعل) و (تانيت) وغيرهما كما فى رحلة (حانون) ، وكذلك قدموا القرابين البشرية لتكون لهم معينة لاستجلاب رحمة السماء ، واذا كان من القرطاجنيون شعبا تجاريا وفلاحيا ، فهذا من احدى عوامل الخلاف بين قرطاجنة وروما التى كانت شعبا عسكريا يفتح البلد لاستغلالها فلاحيا وليمد روما بخيراتها (1) وقد ظل القرطاجنيون معتنقين بتنمية العمران والاقتصاد طيلة وجودهم فى المغرب ، ويذكر الربان (جنون) فى رحلته ان القرطاجنيين

---

(1) وصفت التوراة الفنقيين بأنهم تجار فلاحون ويصفهم (هردوت) بأن لهم ذوقا وغنى لا حد له وقد ظهر ذلك هيكل هرقل الذى فيه عمودان يتألقان فى الظلام ، ويرى (سترابون) اليونانى انهم علماء فلك ورياضيات وهم معلمو اليونان .

خرجوا فى ستين سفينة عظيمة ليؤسسوا المدن ، ومنها (ثميتيرية) المهديـــة (وسلو) وحصـــن (فريكـــون) (وغيثة) و (مليطـــة) و (ارنبى) ، حتى نهر لكسوس « وادى سوس » و (اجدير) و (روسادير) « مليلية » فى الشمال الغربى (2) .

وتطورت الحضارة المغربية فى هذه الحقبة فى كل المجالات الحيوية ، ففى الفلاحة والزراعة تدل الالات البدائية المستعملة ان البربر كانوا شعبا ذا ثقافة فلاحية تشبه الثقافة الفلاحية فى حوض النيل وبلاد آسيا ، مما يدل على وجود تبادل تجارى فى اساليب الرى والفلاحة . وفى الآثار الموجودة ما يبرهن على وحدة التقاليد الفلاحية ، أو على الاقل ما يبرهن على ان البرابـــرة من سلالة أسيوية نقلت عوائدها الى المغـــرب بعد مرورها بوادى النيل ، وقد عرف البربر حياة الحضر ، وحتى القرن الثانى الميلادى بقى البربر تتنازعهم الحياة الفلاحية والرعوية أما الحياة المدنية فلم تعرف الا بعد الغزو الافريقى ، وأقدم مؤلف نعرفه كشاهد على الاثر الفنيقى هو كتاب (ماكون) Magon وهو كتاب يتناول الفلاحة واساليبها ، وقد ترجم الى اللاتينيـــة ، وكـــان عمـــــدة الرومانيين فى هذا الميدان .

---

(2) اسس الفينيقيون مدينة Lixus سنة 1101 ق. م ومدينة اوتيك Utique قرب تونس .. وجدد الرومانيون Haut empire مدينة Lixus ويرى Plive أن بها حدائق Hesperices .. ثم جدد البيزنطيـــون Bas Empire مدينة الكسوس .. فلما جاء العرب بنوا على انقاضها مدينة تشمس ... وسبـــق أن اسس الرومانيـــون قربها مدينـــة Oppidum Novum وهى المسماة بالقصر الكبير... وكانت هذه الناحية ابان الفتح الاسلامى مكتظة بالمدن كالبصر الموصوفة ببصرة الكتان وبالحمراء ، عاصمة الادارسة بعد سقوط فاس وكان مركزها قرب المدينة الرومانية Valentia او قرب Banassa ومدينة أصيلا التى هدمها أبو الفتوح صاحـــب افريقيا سنة 368 ومدينـــة اقـــلام ومدينة جنبارة ، ومدينة ماسيلة أو ماستة ومدينة (كـــرت) ومدينة الحجر ، وقصر مصمودة وغير ذلك من المدن التى تكلم عنها البكرى .

وأما التأثير الاقتصادى فالآثار تؤكد انهم منذ القـــرن السابع ق. م. افرغوا فى جزيرة الصويرة المنتوجات التى حملوها معهم من شتى البلاد التى قطعوها عبر السواحل اللبنانية الى الشواطىء المغربية ، ومنها الصحون المجلوبة من جزيرة قبرص ورودیس ، وأوانى الفخار المجلوبة من المدن الاغريقية ، وكانت السفن الفنيقية تمخر عباب البحر الابيض المتوسط حيث تحمل حضارتهم الى باقى الاقطار النائية وقد عالج القدماء المغاربة بالجلود صنائع مختلفة ، كالخرجة واجهزة الافراس والاحذية والمتابن والوسائد المرصعة بخيوط الحرير .

وساد فى الاقتصاد نظام المبادلات فى أول الامر ، فكانوا ينتجون بعض الالآت الفلاحية والاسلحة البدائية للدفاع عـن حوزتهم ويبيعونها وكذلك صياغة بعض انـواع الجواهر كما تاجروا فى الحيوانات المفترسة مع الرومان وغيرهم ، وفى أنياب الفيل الافريقى الذى انقرض نهائيا من افريقيا ، ونشطت المرأة بجانب الرجل فى ميدان الصناعة فنسجت الزرابى ونقشت الاوانى رعت الماشيـــة .

وظهر اثر المعتقدات الكهنوتية فى عبادة الشمس ومظاهـر الكون ، وبعض عوائد الفراعنة التى جاء بها البربر اثناء هجرتهم عبر وادى النيل ، فلذلك وضعوا موتاهم بعد صبغها فى كهـوف نحتت فى الجبال،ودفنو الاثاث بجانبها استعدادا لحياة ثانية،وربما دفنوا فى قبور هرمية ، وعرفوا فى صلاتهم السجود وهو مـن مظاهر العبادات الشرقية ، ودال على نسبة ارومتهم الى بـلاد المشرق ، كما كانوا يختتنون حسب التقاليد السامية القديمة .

والمرأة البدوية سيدة منزلها وقد ينتسـب اليها الابناء ، كما سادت عادة تعدد الزوجات .

التأثيــرات الثقافيــة :

وقــد ترك لنــا البربــرى معالــم ثقافيـــة فى الاداب اللسانيـــة ، منها (اليزلان) مــن الاطلـــس المتوسط وهـــو قصائد شعرية تمجد البطولة والفروسية ، وعرف البربر المسرح الشعبى (انشادن) وهو مسرح غنائى يعتمد الحوار من شخص أو أشخاص ومسرح (عبيد الرما) وهو مسرح هزلى وكان التعبير الجماعى عن الفرح بفن الرقص المعتمد على الايقاع والتصفيق والنقر ، وكان (الحيدوش) و (الاحواش) رقصا يعتمد علـــى الموسيقى ، وعلى المظهر الانيق حيث يكون استداريا وقد اسس (يوبا الثانى) معهدا موسيقيا بمدينة شرشال (فى القرن الثانى قبل المسيح) ، كما الف أول معجم فى المعارف ، وفى الانســاب البربرية .

وكان التمثيل شائعا عند البربر القدماء فى عهد (يوبا الثانى) فى مدينة شرشال والغالب ان له اصولا شرقية ، اذ هو فى الاصــل اناشيد وتصاوير يستعطف بها الرب ويتوسل اليه)

كما عرفوا فى عهد (يوبا) نحت الاصنام حيث نحتوا من الحجارة تماثيل لآلهتهم وعبدوها ، وقد صور البربرى القديــم سواء على الصخور أو على بيض النعام أو على الخزف وترك لنا التاريخ الاثرى مجموعة من الرسوم التعبيرية .

أما الشعر الملحمى فهو عريق فى الآداب البربرية فقد عرفته قبل الرومان وفى عهدهم ايضا وكذلك الادب البربرى تاثر بالادب القصصى والمسرحى الرومانى ، وبدا هذا التأثر حتى الى العصور الاسلامية فى الآداب العربية ، ومن ذلك ملحمة (الصابى) بلغة تشلحيت ، كما فى دائرة المعارف الاسلامية .

ويلاحظ الاستاذ (ريكار) ان لرسوم البرابرة طابعا هندسيا

قارا ، مع الاقتباس من صور الطبيعة ، وتختلف هذه الرسوم اختلافات كثيرة من مربعات متداخلة الى تروس صغرى الى رقع للعب الى خطوط متشابكة الى اشكال سداسية .

وباختصار ، فقد طبع المغاربة مساكنهم ولباسهم وأثاثهم بفنهم المستمد من الاشكال الهندسية والرسوم الطبيعية التي تحتفى بتصوير الانسان والحيوان ، وكان فنهم عبارة عن خطوط وتعاريج متناسقة دون التفات الى الاقواس والحنايا المعروفة فى باقى الفنون .

وفى كتاب « تاريخ افريقيا الشمالية » (1) ان الطابع القرطاجى بقى متجليا فى صناعة المعادن والخزف المذهب والاصباغ والنسيج والجلد وآلات الفلاحة والالآت البحرية ، وكانت الثياب البونيقية شرقية بقميصها الطويل الاكمام العريضة وكساء السفر والطربوش والبرنس .

وبقى التأثير كذلك فى الاعراف والعادات ، كتعدد الزوجات وانواع الحلى وشكل الرموس ، وتعليق الخمسة (اى اليد) وتحريم اكل الخنزير .

واستمرت الحضارة الفينيقية طيلة قرون عديدة يختلف المؤرخون فى تقدير مدتها (ثم جاء الرومانيون فانتزعوا الفينيقيين من الشمال الافريقى بعد حروب مديدة استمرت قرونا) واتاحت للبربر أن يكونوا مملكتهم البربرية وبذلك تكون ادب بربرى كتب بخطهم أو بخط لوبى فعبر عن شخصيتهم ، ولكن هذا العهد لم يطل امده ، لان الرومان انتصروا على القرطاجنيين واجلوهم واسسوا الامبراطورية الرومانية التى كان الشعب المغربى سواء فى تونس أو الجزائر من ضحاياها ، غير ان جزءا من القسم الثالث من هذه

(1) ص 92 (كوتى) .

المستعمرة المعبر عنه بموريطانيا الطنجية كان فى بعض الاحيان تابعا للاندلس أو الجزيرة الايبرية أو (بطيقا) كما يعبر الرومانيون وعندما فتح العرب افريقيا الشمالية واصلوا فتوحاتهم فى افريقيا بالاندلس فكانت الاندلس تابعة للمركز الادارى فى شمال افريقيا وحتى بعد انتهاء عهد الولاة فى المغرب بقيت الأندلس تحت نفوذ الشمال الافريقى طيلة عهد المرابطين وعهد الموحدين وهما من العصور الذهبية فى التاريخ المغربى الوسيط .

وتجلى الفن المغربى الجديد فى بناء الدور والمساكن ، اذ بعد حياة الخيمة عرف المغاربة حياة الاستقرار فى الدور المستقرة ، وعرفوا المساكن الخاصة بالرحالين المتأرجحة بين الاخبية واخصاص القصب ، أو الطوب ، وكانت الدار منحوتة فى بعض الصخور الاطلسية كما ظل (الايغرم) أو (التغرمت) هو المستودع الحصين والمجمع القوى الذى قد يكون كبيرا ضم الهيكل ، وقد يكون صغيرا ، وقد يشمل مساكن الماشية والمستودعات والاصطبلات والباحات الواسعة والحدائق المحاطة بسور ذى ابراج محصنة .

لقد كان المغربى يبنى بيته بالحجارة فاذا لم يجدها بلل التراب وافرغه فى اوعية مستطيلة وسماه (الطابية) (1) واستعمل القرميد فى التسقيف والتبليط والاعمدة ، اما الابواب فتؤخذ من اشجار الارز والحفصة وتزين بنقوش وترصيعات جميلة ، وحدائد مسبوكة متقنة وبداخل البيوت اثاث من صناديق منقوشة واعمدة للخناجر مرصعة وملاعق خشبية وركب مزركشة للفرسان واقراط جميلة للنساء ، اما صناعة الخزف فتكاد تنفرد بها النساء، ويختص الجنوب (درعة) بنقش الخوامى ، وتفنن الاطلسيون فى رسم الصور المختلفة على الاوانى المنزلية حيث تبدو فى فن النسيج

---

(1) بناء (الطابية) تختلف مواده حسب الاعصر والبيئات المغربية .

رسوم وتسطيرات رائعـــة من اشكـــال الاسحـــال والاسديـــات المستعملـــــة فى الاخبيـــــــــة ، تتحـــــت الرســــــــوم والتسطـــيرات مـــع تلوينهـــا فى مغـــازل تتداخـــل فيهـــــــا اللحمة فى السداة وادراج خيوط توضع فى منعرجات هندسيـــة مدققة ، وتركب (المنازل) عادة من ركزتين واسطوانتين وتغطى اللحمة المعالجة باليد السداة ، فترسم صـــورا جميلـــة ، واذا تغير لون اللحمة تكونت سلسلة من الخطوط المتوازية ، وهكـــذا استطاعت يد الصناع ان ترسم بالالوان والخيوط صورا فى نهاية الدقة والجمال ، تتجلى فى البرانس والاردية والاكسية والمخدات والخمر والوسائد . واشهر ما تركه الفن المغربى القديم (الزربية) التى تغمر بيوت المغاربة حيث تمتاز برسوم رائعة تنقل الطبيعة بألوانها نقلا أمينا معبرة عن رقة الذوق وسمو الفن ..

السيطرة الرومانية
وتحدي الحضارة المغربية للسيطرة الرومانية
146 ق. م — 439 ب. م

انتهت الحروب البونقية المستمرة بين قرطـــاج وروما ، باحتلال افريقيا الشمالية التى أصبحت تابعة لروما ، يحكمهـــا قاض من رتبة قنصل يدعى بريطور Préteur وبدأت روما عملها فى افريقيا بمسح الارض حتى يتأتى لها أن تستعمرها استعمارا فلاحيا ، وأصبحت أرضها مسرحا لصراع مديد بين القـــــوات الرومانية وسكانها الاحـــرار بقيادة (ماسينســـا) (ويوبـــا) (وتاكفار ينـــاس) Tacfarinas ومجالا للخلافـــات العقائديـــة والمذاهب المسيحية ثم ميدان تمرد قبائل المزالمة وجدالة فى عهد اغسطس ... وهكذا كان الرومان يرون الاحتفاظ بافريقيا لانها مزروعتهم الكبرى ، يستغلون زروعهـــا وماشياتها وأشجارهـــا كخشب السندروس والارز ... وعندما تعرف المغاربة على الجمل (سفينة الصحراء) توغلوا فى الصحراء الافريقيـــة مستفيديـــن اقتصاديا وتجاريا فظهرت حضارة جديدة فى قصور صحراوية وجبلية وحياة بذخ وفروسية ما تزال آثارها ماثلة . ولم يعمد الرومانيون الى احتلال الشمال الافريقى مباشرة بعد احتـــلال قرطاجنة ، بل اهتموا فى البداية بالنواحى المجاورة لها واصبح

---

(1) راجع تفاصيل عن الموضوع بكتاب تاريخ افريقيا الشمالية ترجمـــة محمد مزالى والبشير بن سلامة الدار التونسية للنشر .. والتأثيـــر الرومانى بافريقيا 1913 مسناج

القسم المقتطع تابعا للجمهورية الرومانية تحت اسم افريقيا ، ثم فصلوا الامارة الوطنية الاصلية بحدود ، هى عبارة عن خنــدق يمتد من طبرق الى ناحية صفاقص ، وحولت العاصمة الادارية لهذا الاقليم الى (اوتيكا) شمال تونس ، ووضع على رأسها حاكم رومانى لم يلبث ان اصبح يحمل لقب نائب قنصل Pro consul غير أن هؤلاء الموظفين السامين الذين اسندت اليهم ادارة الاقليم كان همم الوحيد الثراء العاجل على حساب الاهالى حيث بــــدأ الشعور بجور الحكام الرومان يتحول لديهم شيئا فشيئا الـــى ثورات خطيرة .

وقد وجد الرومان مقاومة عنيفة من طرف السكان سواء فى نوميديا أو موريطانيا الطنجية ... أما نوميديا فقذ كانت مملكة عظيمة تختلف حدودها حسب اختلاف المراحل التاريخية التـــى اجتازتها ، فقد كانت تمتد غربا الى ملوية قبل عهد المؤرخ سطرابون وشرقا فى ليبيا الى ما وراء الاطلسى ، ولها مدن مهمة كمدينـــة قسطنطينة المزدهرت فى عهد ماسينسا ، ومثل عنابة وسبجيـــة عاصمة صفاقس ، وشرشال وبجاية وتينس المسماة فى عهد الملك جوبا بقيصرية اعترافا بفضل اغسطس .

وقد عرفت افريقيا فى هذه الحقبة مدنية وعمرانا وحضارة فائقة وثقافة فكرية ، فأسس يوبا الثانى ملكفوليبلوس وشرشال جامعة للاداب والعلوم والفنون المعروفة فى وقته .

وقد ألفت بهذه الجامعة دوائر معارف عن الجزيرة العربية والبلاد المغربية وألفت كتب فى الطب والنبـــات واستفـــاد الرومانيون من هذه الدراسات كما كانت بقرطاج جامعة للآداب والعلوم والفنون ، وكان أساتذتها ينتدبون للتدريس فى جامعة روما ، مثـــل المعلم أبليـــوس والمشرع سايـنـــوس جوليانوس ،

وكأسرة غورديانـــوس ، والطبيـــب أليينـــوس ، وظهر كتـــاب مسرحيون قرطاجنيون ألفوا آثارهم باللاتينية مثل (فرنسيوس) والروائى (باكاست) والكاتب (أبولنكس) .. وتسلق الحكـــم فى روما (سبتينوس سفروس) الذى دافع عن أبناء افريقيا ضد الأنظمة القانونية المتعسفة المتسلطة عليها ، فكان من قياصـــرة روما الذين عطفوا على بلادهم .

آما موريطانيا فكانـــت المملكـــة المغربية المحادية لمملكـــة نوميديا شرقا عند وادى ملوية وتشكل القسم الشمالى من المغرب الاقصى اليوم وهى نسبة الى (المور) الذى كان يطلق علـــى المواطن الذى ينتمى الى هذه البلاد ، ولا يعرف مصدر هـــــذه التسمية فقيل انها تحريف لكلمة الميديين ، او انهـــا اسم لنبات ارجوانى كانت تصبغ به الاردية ، وتتخذ الروايات الاولى من تاريخ موريطانيا مظهـــرا اسطوريا علـــى غرار الميثيولوجـــــا اليونانية فتتحدث عن دخول هرقل الى موريطانيا ومقاومة انطى واطلس له والى هذا الاخير تنتسب جبال الاطلس ، ويجعل بعضهم (انطى) ابن الاطلس .. ونظرا لموقع نوميديا فى حدود قرطاج فقد كان الرومان يضايقون القرطاجنيين وكـــان (ما سينسا) يساعدهم من الداخل طمعا فى ان يستقل ويملك الشمال الافريقى كله وشيدت معظم الرومان بالمغرب على انقاض مدن اخـــرى ومن اهم المـــدن .

آولا : طنجة ، وقد عثر الاثريون على اثـــار فسيفساء فى الكنيسة الاسبانية وهى تمثل الشاعر اورقى بنايه وسط مجموعة من الحيوانات ، كما اكتشفت نقوش فى عين الحمام ، وكهف بما جنوب رأس سبارتل وغير ذلك .

ثانيا : وليلى ولا تزال كثير من آثارها قائمة الى الان بما

فيها قوس النصر والحمامات والاسواق والدور ومعاصر الزيتون.

ثالثا سلا (مكان شالة الحالية) ... وما تزال فيها آثار عديدة للرومان .

رابعا : باناسا على ضفة سبو ، وبها آثار كثيرة .

خامسا : تامودا قرب تطوان .

الثقافة :

صبغ الرومانيون مؤسسات افريقيا بطابعهم السياسى والادارى والثقافى ، فانتشرت اللغة الرومانية المعروفة ببلاغتها ، وتأثير خطاباتها وخطبها ، وساعدت جامعة (قرطاج) فى العصر الرومانى على انتشار القانون الرومانى بما فيه من تشريعات وتنظيمات ادارية مما أتاح لكثير من سكان قرطاج البونيقيين التوجه الى روما للتعليم والتعلم بها .

السكان :

من الصعب ان نعرف شيئا عن كثافة السكان المغاربة فى عهد الرومان على ان المدن مهما بلغ كبرها لم تتجاوز فى الشمال الافريقى اربعين الف مواطن باستثناء قرطاجنة ، وكان سكان المدن فى معظمهم فلاحين يشتغلون فى الاراضى المجاورة للمدينة ثم يروحون الى مساكنهم مساء ، الا المهاجرين من الاقطار الخاضعة للاحتلال الرومانى ، وبينهم سوريون وعرب ومهاجريون ومن كل البلاد التابعة الدولة الرومانية .

الديـــن :

كان الرومانيون (1) متمسكين بوثنيتهم ، وقد ظلوا أوفياء لها فى مختلف البلاد التى حكموها حيث كانوا يجتمعون لعبادة الامبراطور فى مظاهير الوثنية المألوفة لديهم .. وقد تطلـــع الافارقة لفهم هذه الديانة ولكنها لم تكن تحظى بالقبول لأنها وثنية سطحية لا تناسب صفاء ذهنهم ويعتبرونها بالاضافة الى ذلك عبادة اعدائهم .. ولم يمنعهم ذلك ان يعيشوا فى لحظاتها حيـــاة العبث والشهوة فى الحفلات التى تقام فى هذه المناسبات والتى يجدون فيها متنفسا لما يلاقوه من تعسف وجور وظلم .. أمـــا الديانات التى كانت تحاول الاستئثار باهتمامهم فهى الوثنيـــة الشرقية ، والمسيحية ، واليهودية ، ويذكر ابن خلدون ان عقائد البربر فى المغرب تطورت حسب تأثرهم بمن جاءهم من الامم .

وكـــان المغاربة القدمـــاء يعرفون المجوسيـــة متأثريـــن بالوثنية الفارسية التى حملت اليهم من فارس فى رأى من يرى ان اصل البربر من عنصر يمنى ذهب بعضه لفارس او من يرى انهم من عنصر هندى عبر الى المغرب عن طريق فارس ... وكذلك عرفوا اليهودية التى دخلت مع المتهودين اليمنيين منهم ... ومن اليهوذ الذين جاءوا الى المغرب بعد تخريب معبدهم فى أيام (الجلوة) كما جاءوا كذلك بعد انتشار الاسلام فى جزيرة العرب وخروجهم

---

(1) ان العقيدة الرومانية قبل ظهور المسيحية وثنية قامت على انقاض الوثنية الفنيقية ، فهدم الرومان معبد بعل وعوضوه بـــ (بابلون) ، كما هدموا (تانيت) وعوضوه (بسيليتين) ، ثم تمسح الرومان بعد انتصار المسيحية فى بلادهم وحملوها الى افريقيا حين كانت ذات اثر قوى فى البربر الذين رأوا فيها عقيدة الخلاص مما يعانون من تعسفات الرومانيين وارهاقهم للشعب البربرى ، ولم يلبثوا ان تركوها يـــوم اعتنقها الرومان كدين رسمى واصبحت لاتقيم فروقا بينهم وبـــين اعدائهـــم .

من خبير وفى عهد الخليفة عمر ، وعرفوا المسيحية سواء حين اضطهدها الرومانيون فاستقبل المغاربة كثيرا من المسيحيين أو أو حين اصبحت الدين الرسمى للدولة الروما نية .. وفعلا ازدهرت المسيحية واصبحت لها كنائس متعددة فى المدن المغربية وامدت العالم المسحى بكثير من القديسيين امثال ترتوليان ، سايبريان ، والقديس سان اوغستان ، بل خرجت كنائسهم ظافرة من الاضطهادات الكثيرة التى تعرضت لها على يد الكنيسة الرومانية ثم ضعفت المسيحية أمام الاسلام ويذكر المستشرق توماس ارنولد فى بحثه فى تاريخ المسيحية فى شمال افريقيا ان عدد المسيحيين فى نهاية القرن الميلادى كان قليلا جدا ، ولكن استمرار بقائهم فى ظل الحكم الاسلامى دليل على انعدام وسائل العنف والاكراه فى التحول الى الاسلام ، كما ينص تاريخ المسيحية فى المغرب على ان الولايات الرومانية فى افريقيا التى كان الاهالى المسيحيون بها لم تكن فى المغرب كله ، لان الصحراء الكبرى كانت تقف حاجزا منيعا ضد تسرب المسيحية ، واذا كان يوجد قبيل غزو الوندال عدد كبير من الاسقفيات يبلغ نحو الخمسمائة ، فلم يكن هذا العدد مقياسا لعدد المؤمنين من المسيحيين نظرا للعادة المتبعة فى الكنيسة الافريقية من تعيين اساقفة فى معظم المدن والقرى بصفتهم موظفين يعيشون فى كنف السكان الذين يخدمونهم . (كما ذكر توماس ارنولد) .

وانتشرت ملة (الدوناتوسية) نسبة الى دوناتوس وهى نزعة مسيحية ضد الكنيسة الرسمية التى برزت بعد مؤتمر (ميلانو 313) . وقد انضم انصارها (الدوارون) ، وهم من الفلاحين الكادحين ، مما ساعد على ابراز ثورة اجتماعية لمقاومة الامبراطورية الرومانية والكنيسة الرسمية وكان (اغسطوس) اكبر عدو للدوناتوسية .. ثم جاء (جنسريق) ليحارب الكنيسة

حربا شعواء لانه كان اريوسيا ... وكانت سنة 442 من اقسى السنين عناء للمسيحية فى افريقيا .

ويذكر تاريخ المسيحية قبل الاسلام محاولة الكاتب الافريقى المسيحى (لكتانتيوس Lactantius المتمسح سنة 300 م ليوفق بين العقل والعقيدة ، لما رأى من تناقض بينهما وان كان يرمى بذلك ان يدخل المشركين الى المسيحية ، كما ان اغسطس المولود سنة 364 كان يدعو الى الجهاد لينصر دين الله معتمدا قول المسيح (ادفعوهم الى دين الله دفعا) وقد أعلى رأيه فى العناية الربانية حيث اختار الخالق منذ الازل عباده الذين كتبت لهم النجاة ...

التعليم فى العصر الرومانى :

لم يكن الرومان يعلمون أبنائهم فضلا عن أبناء البلاد المغصوبة ، وكان تعليمهم حرا لا يتقيد بمدرسة أو معهد بل كان التلميذ فى بلاد اليونان والرومان يتلقى علومه عن مدرسين متعددين لاتجمعهم صلة ، وكل معلم يدرس فى داره على طريقته الخاصة ، فلما انتشرت المسيحية لم تستغن عن الدراسة اليونانية والرومانية باعتبارها اداة أدبية ، ولكن طبعتها بطابع مدرسى موجه توجيها وعظيا .

المغرب فى العهد الرومانى :

لقد استولى الرومان على المغرب من سنة 146 ق.م الى سنة 439 بعده ونشروا به لغتهم وحضارتهم وآدابهم ، فظهر بين المغاربة مؤرخون وكتاب وشعراء ، استطاعوا ان يقدموا لنا وصفا حيا عن الثقافة المغربية فى هذا العصر ... فالقديس اوغستنوس العنابى وصف فى كتبه المجتمع الافريقى خلال

القرن الخامس بعد الميلاد وما يعتلج فيه من عواطف وفورات وحيوية ، كما ان الكاتبين ترتليان وفيريانوس انتقدا المجتمع الافريقى مع وصف للعائلة المغربية والحياة الدينية والمدنية وما فى المجتمع من حانات ومسارح وساحات عمومية واسواق .. أما الكاتب الروائى ابو ليوس فألف مسرحيات خالدة منها الحمار الذهبى وقد اكتشفت له عدة مؤلفات باللغة اللاتينية ... ورغم هذا التأثير الرومانى فقد ظل الشعب المغربى يتكلم الفينيقية ويحدثنا القديس (غوستينوس) وهو أحد رجال الدين المغاربة ، أنه كان يستحيل عليه أن يلقى قداسة باللغة اللاتينية لان معظم الناس الذين يستمعون اليه لا يعرفون حرفا واحدا من اللاتينية ، وانما كانوا يعرفون اللغة الفينيقية ، التى كانت منتشرة انتشارا واسعا ، حتى أن العرب الذين جاءوا المغرب وجدوا الناس يتكلمون اللغة الفينيقية ، وهى لغة سامية اخت العربية ، بل انها لهجة من اللهجات العربية فكان الانتقال منها الى لغة أخرى كالانتقال من اللهجة المغربية الى المشرقية .

ولم تسيطر روما على البلاد المغربية بسهولة بل اتحد البرابرة والقرطاجنيون تحت قيادة (هانبال) الافريقى لمقاومة الغطرسة الرومانية فى حملة تآخى فيها البربر والقرطاجنيون الفنيقيون ضد المستعمر الاجنبى ، واستمرت الحروب البونيقية تعلن عن الخلاف بين المستعمر والمدافع عن بلاده ، فالانسجام بين البربر والفينيقيين فى الحروب البونيقية حجة اخرى على وحدة الجنس العربى السامى لان الفنيقيين عرب مستعربة كنعانية والبربر من نفس الجنس سامين عرب ولان اللغة متشابهة فى الاصل ، وهى عامل رئيسى فى الاتحاد الفكرى .

لم يلبث الرومان أن انتصروا فى حروبهم بافريقيا ، فقهروا الحضارة الفنيقية واستبدلوها بالحضارة الرومانية

فحولوا معبد (بعل) الى معبد (أبلون) وحطموا (قرطاج) ليشيدوا على أنقاضها مدينة جديدة وقد تآزر ماسينا مع روما لمحاربة قرطاج أملا فى أن يستولى على المغرب الاوسط كله ، واتخذ حجة من معاملة القرطاجنيين لسفيريه مسيبا Micipsa وغولوسا Gulussa ، وكان الرومان يريدون من مآزرته أن يكون لهم حليفا للقضاء على قرطاج أولا ثم لمحاربته ثانيا ... ولم يدم انتصار روما طويلا فى افريقيا ، فقد هاجمهم الوندال واتلفوا معالم اعمالهم حتى اذا جاء عصر البيزانطيين ظهر الأمبراطور يوستنياس ليقاوم الغزو الوندالى ويعيد افريقيا الى حظيرة الامبراطورية الرومانية .

وحكم الرومانيون (نوميديا) واربوا على القاعدة الجغرافية التى احتضنها (سيفاكس) و (ماسنيسا) الى ناحية « تانجيتين » وحولوا الحياة البربرية من التأثير الفينيقى الى التأثر بالحياة الرومانية سواء فى تفكرها أو نظامها ، وقد حولوا الحياة الاقتصادية نفسها يوم ادخلوا الجمل فتغيرت الحياة من نظام نوميدى (الرحلة) الى حياة الرعى والانتجاع سيما ببلد الشاوية التى معناها (رعاة الغنم من كلمة الشاه) والتى كانت تشمل حدود نوميديا الحالية ، ثم انتقلت الى اقليم تانجتين.

أما عن التأثير الفقهى ففى ازرف بعض أثر الانظمة ذات الاصل الرومانى ويظهر ان نظام الجماعة فى الحكم تأثر كذلك بنظام الحكم النيابى الرومانى كما هو مبسوط فيما كتبه Basset فى (محاولات فى الادب البربرى) وما كتبه (لاوس) فى كتابه مسميات واسماء بربرية .

المدن والمواصلات :

ظل التأثير بارزا فى شبكة خطوط المواصلات التى

انشأها الرومان والتى كانت عبارة عن طريق عريضة مرصفة تربط ما بين طنجة الى سلا مارة بالعرائش ومن طنجة الى وايلى، طرابلس و (تافنة) وقد اقتفى الرومانيون اثر الرحلة الطويلة وبين تلمسان ووليلى عن طريق تازة ، بل هناك طريق تربط بين التى قام بها (ما هون) فاستقروا بالشواطىء المجاورة لتطوان براس (سبارطيل) وبقلعة ليكسوس المشرفة على ميناء العرائيش فلا شك ان هذه الشبكة كانت معبدة لحمل البضائع ونقل الصادرات الى العاصمة ألام (روما) وحمل الواردات الى الرؤساء والاثرياء ، ويدل هذا على نشاط تجارى استفادت منه كل الطبقات .

افريقيا فى الادب الرومانى :

زار المؤرخ صليست Sallusta افريقيا الشمالية فى القرن الاول قبل الميلاد وكتب عن حروب روما ويوغورطة حيث كانت مدينة (الكاف) عاصمة اليوغرطية التى شعارها (افريقيا للافارقة) وظلت (الكاف) تحتضن تمثال (بمينوس عشتروت) وتشرف على الحدود البونيقية .

ثم جاء (فلوروس) المؤرخ المعاصر للحكم الرومانى فى المغرب الذى عاصر أحداث عصره ، وحاول ان يستنبط قواعد اجتماعية وتاريخية وقد كتب تاريخ طيطش المعروف بالمعشرات .

وكانت بقرطاج مدرسة فكرية حيث ظهرت المذاهب الفكرية الشرقية والرومانية الغربية ، كالغنوسية ، والأفلاطونية الحديثة ، والتصوف الفلسفى ، وتأملات المدارس الاسكندرية . وعرف المغاربة الاتجاهات المسيحية المختلفة من نسطورية ويعقوبية كما عرفوا (أسلسطيوس) ومدرسة أفلوطين وغيرهما وبرعوا فى الخطابة والجدل والفقه والقانون ، وكان الشاعر منيليوس

خطيبا حماسيا دافع عن مذهب التطهير ومعرفة الغيب عن طريق الطالع كما كان كرنيتوس فيلسوفا رواقيا عين شيخا لمدرسة بروما فى عهد نيرون ، وكان سبتيموس خطيبا وجدا لأحد أباطرة روما ، كما كان فلوروس شاعرا يطمح لجائزة الشعر فى الكابتول

وكذلك عرف الادب المغربى (ابليوس) المولود حوالى سنة 125 م وهو كاتب افريقى اشتهر بتناقضاته ومواقفة المتأرجحة بين الجد والطيش والشك والايمان ... كتب قصصا متنوعة منها (المسوخ) أو الحمار الذهبى وقد زار اثينا وأعجب بالافلاطونية المدرسية فتأثر بها طيلة شبابه وتحتفظ (الازاهير) بثلاث وعشرين قطعة من خطاباته الجميلة .

كما كان بوكليوس Poculios من اعلام الفكر الافريقى القديم ومن سكان سقةبتونس كان مشهورا بفقههفى اللغة اللاتينية بل كان من اساتذة الامبراطور Marc Avrel عاش فى القرن الثانى بعد المسيح (121 – 180) كما كان (ارنوب Arnob) من اعلام افريقيا فى القرن الثالث والرابع الميلادى استاذا للخطابه والبلاغة وهما اهم علم يدرس فى روما لانهما يشملان سائر فروع المعرفة واعتنق المسيحية وناضل ضد الوثنية بكتاباته عن المسيحية .

وكان الافارقة فى العصر الرومانى من أول من كتب الموسوعات العلمية والادبية ، ففى أوائل القرن الخامس الميلادى ألف (مارتيانوس كبيلا) موسوعة نصفها منظوم والآخر منثور ، ثم ألف بعده مطران اشبيلية (ايزيدور)موسوعته المعروفة بالأصول .

الفلاحة :

ازدهرت الفلاحة فى المغرب طيلة العصر الرومانى ونجحت

غراسة الاشجار وبالاخص الكروم والزياتين وكان المغرب يعتبر حقلا كبيرا لانتاج الزيوت والحبوب والعنب . ولهذا فان المـدن الرومانية فى الغالب تقع فى المراكز الفلاحية لهذه الغاية . وتبعا لذلك اهتم المغاربة بتنظيم الرى فى البلاد بناء على هندسة الرى الرومانية فاستغلت مياه الابار والعيون والسواقى والنواعـر والمطافى وشيدت القناطير على الانهار وقناطير تحمل قنوات الماء عبر الاودية الى الاراضى الفلاحية .

وتحتفظ اللغة البربرية بكلمة (أكر) المحرفة عن (أكرو) بمعانى ميل وكانت العملة الرومانية مسكوكات من نقود البرونز المفضضة ، ومن جملتها الفلس والصلدى Solidus وقد ظلت هذه الكلمات مستعملة فى المغرب الى اليوم .

العمـــــران :

لم تختلف مبانى الرومان فى المغرب عنها فى باقى اجـزاء الامبراطورية من حيث الشكل العام وفى الواقع لم يخلف الرومان أو لم يبق من آثارهم على الاصح ، شىء كثير بالقياس الـى المدة الطويلة التى استغرقها حكمهم ، لان الرومانيين لم يكونوا مستقرين وانما كانوا معمرين غزاة ، على أن فيما تبقى مـن الاثار يظهر انه يمتاز بالمزج بين الفن الرومانى والاغريقى ، فى كثرة صوره الجدرانية ، والتماثيـل التى تزين ابواب المبانـى خصوصا الضخمة منها ، وضمن الفن الرومانى وجدت مجموعة من القناديل التى تزدان بصـورة حيوانية ونباتية ، وتغطـى الفسيفساء صحون المنازل مشتملة على صورة بشرية وحيوانية ونباتية كما تمتاز الجدران بضخامتها ونقوشها النباتية وهـذه الاثار ما تزال ماثلة فى وليلى وشالة .

ونشاهـد فى قـصر فرعـون (بوليلى) قـوس نصـر

مبنيا بالحجارة المتداخلة ومثل ذلك يقال عن اسواق وساحات بناسة وشالة التى شيدت من الحجر المنجور المتجانس ، ونفس الاسلوب يامس بوجه عام فى مختلف الاسس والعتبات والاسكفة الرومانية . أما (الجدران) فهى من الحجر غير المنحوث ومن الآجر والطابية . وأما الدور فكانت متعددة الطبقات مغطاة بسطوح من تراب وكاس واحيانا بالقرميد ، كما كانت ارضها مرصعة بالحجارة الا فى الحجرات حيث كانت مبطلة بالكلس والتراب أو بالفيسيفاء المختلف الالوان واستمر الفن الرومانى بالمغرب بارزا فى نحت تماثيل المرمر والبرنز كما بقى بارزا بعد الفتح العربى فى الجهاز المادى للحضارة من ازياء وحلى وبنايات وحمامات . وحافظ الذوق المغربى على الجودة والاتقان فى عمل الصناديق الخشبية المنقوشة ، وادوات زينة آلابواب والاقفال والخناجر والسيوف والابازيم والاعماد ، المرصعة بالعاج والحلى المتنوع والخواتم والعقود واليجان والاسورة والخلاخل والسورج وتشبيك النوافذ وغير ذلك .

وبما ان (المدينة) هى معقل الحضارة فقد ظلت مرافقها تستوعب عطاآتها الثقافية ، وهكذا كانت المدينة الرومانية تضم (الفروم) بساحة البلدية و (قوس النصر) سجل الانتصارات العسكرية و (الحمامات) نادى النخبة الارستقراطية ، ثم المنازل والدور والدكاكين ومعاصر الزيتون والعنب ... وقد كان الرومان مستعمرين متغطرسين لم تكن لهم مع المغاربة علاقات انسانية نظرا لنفور المغاربة منهم ومقاومتهم لسيطرتهم رغم ما كانوا يغرون به من مناصب عليا ، ولذلك لم يستولوا على المغرب كله لشدة المقاومة واكتفائهم بالمراكز التى يجمع فيها الانتاج الفلاحى فاعتبروا المغرب مزرعة كبرى Dépot de blé وقد استولى الرومان على المغرب لضرورة بناء امبراطورية شاسعة الاطراف ،

عسكرية الاهداف ، كان عليها ان تضم اليها جميع ممالك حوض البحر الابيض المتوسط وتطارد من افريقيا اعظم دولة تنافسها تجارة واسطولا وتقنية وهى دولة الفنيقيين والقرطاجنيين من بعدهم .

وقد تأثر الفن المغربى بالاسلوب الافريقى الرومانى وما يمتاز به من اقواس واعمدة وحمامات وقناطر وقنوات ومخازن للماء وسقايات ، وظل ذلك بارزا فى مختلف اطواره ومراحلـــه التاريخية ولقد كانت الدار الرومانية فى اقليم المغرب كثـــيرة الشبه بالدار الافريقية حيث تشتمل كما نرى ذلك الى الآن على بناء مربع متصل بالهواء الطلق تحيط به اروقة وله ممر طويـــل يوصله بالشارع .·. أما الحجر فهى تقع فى الجهات الاربع للبناء وربما كانت ذات طابقين وحمام وروض صغير .

ســــــلا :

وربما كان اسم (سلا) له صلة باسم القائد الرومانى Sella الذى ظهر فى روما أيام الحكم الجمهورى وكان خازن القائــــد الرومانى (ماريوس) سنة 107 ق.م فقد جاء الى المغرب ليفاوض بعض ملوك شمال افريقيا ونجح فى سفارته حتى اذا أصبـــح ماريوس قنصلا فى روما سنة 104 ق. م عينه بين قواد جنده ، ثم دب الخلاف بينهما فزحف سيلا على روما وأكره مجلـــس الشيوخ على الحكم بنفى ماريوس ثم عاد هذا الاخير الى روما اثناء غيبة سلا فى بعض حروبه ، ولقب نفسه بالسيد ...

التأثـــير العسكـــرى :

كان للرومانيين نظام عسكرى محكم ، طبع حياتهم بالنظام

والقسوة والقوة .. وقد تركوا أثــرا بارزا فى الميادين الحربيــة والعسكرية حيث اقتبس المغرب منهم اهتمامهم بالقوة العسكرية وتنظيم الحامية واسلوب الحرب ، ووحدة القيادة ، واحكــام تنظيم الصفوف وطريقة حفر الخنــادق واستعمال الاسطول فى الغزوات البحرية وقد ظهر ذلــك جليا فى حروب طــارق بن زياد فى الاندلس وتنظيم الكتائب فى عهد المرابطين والمحدين ... وبناء القلاع والحصون عبر الاقليم كله فى عهد مختلف الدول المتعاقبة على الحكم فى المغرب .

اللغــــة :

ظل الشعب المغربى يتكلم بلغته البربرية ، ويكتب بها رغم كل المحاولات التعسفية لفرض اللغة الرومانية كما ظلت اللغة البونيقية لغة المجتمعات والمحافل الدينية تكتب بجانب اللغــة اللاتينية عسى أن تخلفها فلم تستطــع الى ذلك سبيــلا ، لأن البونيقية قريبة فى اصولها من اللغة البربرية، ولانها كانت لغــة الشعب فلم تفرض عليه فرضا وانما وجد فيها سهولة التعبــير والاداء لتناسبها مع تفكيره .

مقاومـــة الرومـــان :

قاوم المغاربة الرومانيين ومن اشهر مقاوميهم ــ مـــن البربر ــ القائد البطل يوغرطة حفيد الملك (مسينسا) فقد قاد الثورة ضدهم سنة 110 ق. م وهزم الرومانيين قرب مذينــة قالمة فى المعركة الشهيرة بواقعة (سوتول) . ولكثرة الهزائــم التى اوقعها بهم هذا البطل (يوغرطة) اغروا صهره (بوكوس) ملك موريطانيا الذى اعتقله سنة 106 ق. م فسلمه اليهم . فذهبوا به الى روما حيث بقى بها حتى مات اسيرا فى احدى سجونها

سنة 104 ق.م وقد كافأ الرومان بوكوس بالحاق نوميديا بمملكته الموريطانية ، وظل بوكوس وفيا لروما رغم الهزات العنيفة التى تعرض عرشه حتى مات وتوارث ولداه (بوغود وبوكو الثانى) مملكته : فحكم الاول القسم الغربى من عاصمته تنجيس (طنجة) والثانى ما وراء ماوية شرقا الى حدود افريكا الرومانية . وكان الخلاف بين الاخوين حادا الى درجة جعلت احدهما وهو بوكوس الثانى يقتل بوغود ويضم مملكته الى حكمه . وخلال تلك الاضطرابات ، كان الرومان يقوون نفوذهم ببلاد المغرب حتى فرضوا عليه سيطرتهم وقسموا المغرب الى ثلاث ولايات هى ! (افريقيا ونوميديا وموريتانيا) . ولما وضع الامبراطور (كلوديوس) بلاد المغرب تحت الحكم الرومانى المباشر اطلقوا عليه اسم موريطانيا وقسموها الى موريطانيا قيصرية و (تشمل الجزء الشمالى من ارض الجزائر وتونس) وموريطانيا طنجية (وتشمل الاراضى الواقعة بين وادى ملوية والبحر المتوسط) وكانت العاصمة الرومانية الاولى بالمغرب هى (عوتيقة) التى توالى عليها الولاة منذ عهد كلوديوس الى كومود .

الونـــدال فى المغـــرب

429 م — 534 م

جاء جنسبريق (1) الذى استقام له الامر من 442 فنظم البلاد وضرب السكة ، (والصورة المنقوشة على النقود تصور امرأة تحمل سنابيل القمح) .. وما كادت ستة قرون تنصرم على الاستعمار الرومانى حتى شعر الرومان بخيبة آمالهم لان

---

(1) أ. ف. فوتية جنسبريق ملك الوندال .

اللغة الفينيقية لم تمت وظلت لسان الشعب يرتل بها أناشيده الكنيسية ويعبر بلغته فى ثورته ضد الاستعمار الرومانى ، فكان الانتصار للفنيقية البونيقية والانهزام للرومانية .. وبانتهاء حكم الرومان يتعرف المغرب على جنود جنسبريق بعد ان مهد له الكونت بونيفاص الطريق ليستولى على افريقيا الرومانية ، وقد شيد هذا القائد مملكته على انقاض المملكة الرومانية فى افريقيا وضرب النقود باسمه ونظم المحاكم على غرار ما فعل الرومان من قبله ، وشجع المذهب المنتمى الى (آريوس) ، وبنى المعابد ، كما ظهر ادباء باللغة الوندالية منهم الامير (جاليما)الذى نظم مرثيات فى الدولة الوندالية ورغم ان الوندال لم يكونوا مثقفين أو حماة للثقافة فـان دركانسيون Drocontinus الذى الف فى قرطاج ملاحم وتبتلات كانت مصدر ملحمة (ملتين) الانجليزى .

البزانطيون

534 م — 643 م

الروم (البزنطيون) مزيج من الرومان واليونان والسلاف واللتين احتلوا افريقيا الشمالية ووصلوا الى طنجة وسبتة فى أقول بعض المؤرخين ، وقد عين الامبراطور جوستنيان بعد قضائه على القائد الفندالى (سالمون) حاكما على افريقيا الشمالية (أى المغاربة الثلاث) وجعل مقر حكمه قرطاج وحاول تركز المسيحية الكاتوليكية التى اصحت فى عهده المذهب الرسمى للدولة، وقد قاومه من المغاربة الزعيم البربرى (يابداس) رئيس قبائل الاوراس فانهزم البزنطيون امامه . وفى سنة 600 م اعتلى عرش روما هرقل الذى عاصر الرسول صلى الله عليه وسلم ووجهه اليه دعوة الى الاسلام تقبلها قبولا حسنا وفى هذا العصر

أى بداية القرون الوسطى أخذ العرب يكتسحون الامبراطوريـــة البيزنطية سنة 632 فى عهد الخليفة عمر . واقتطع البطريـــــق (كريكوريوس 2) جرجير المغرب من الحكم البزنطى سنة 607 الـــذى انتصر عليه العرب وبدأت الفتـــوح الاسلاميـــة المنتصرة منذ هزيمته فى سبيطلـــة .

ودام حكم البيزنطيون من (534 الى 643 م) وهم ينتسبون الى بيزانس رئيس الماغريين ومؤسس مدينة بيزنطة التى جددها قسطنطين الكبير واتخذها عاصمة له ، وقد فتحها الاتــــــراك العثمانيون وسموها (اسلام بول ــ اسطمبول) والبيزنطيون فى المغــرب وبالرغـــم من عبورهـــم واستقرارهـــم فى الجزائر وتونس فلـــم يثبت لهم وجـــود بالمغرب الاقصـــى الا ما ادعاه بعض المؤرخين من كونهم وصلوا الى سبتة .

الحضارة الاسلامية المغربية

القـرن الاول الهجـــرى

(643 م 701 م) (23 هـ 82 هـ)

يطلق العرب على البلاد الممتدة من برقة غربا الى المحيط الاطلسى اسم (المغرب) ، وهكذا نجد هذا الاصطلاح عنـــد المؤرخين والجغرفيين العرب كابن حوقل (فى المسالك) والبكرى (قسم المغرب) والادريسى (فى النزهة) وابن خلدون (فى العبر) ولا شك ان هذا التعميم يشمل بيئات مختلفة ولذلك قسموا المغرب الى (أدنى) أو افريقية ، و (أوسط) و (أقصى) . أما الرومانيون فقسموه الى افريقيا ونوميديا وموريطانيا . (1) وعـلى أرض المغرب نشأت قبائل بدوية رحالة وقبائل مستقرة ذات حضارة ، وصحراوية تفاعلت مع البيئة الجغرافية وتوغلت فى الصحراء أو تناءت عنها لعوامل طبيعية كالجفاف، أو لعوامل اقتصادية كالنهب والسلب ، لعوامل اجتماعية ، ولذلك اهتم المؤرخون المعاصرون أمثال جوليان وجوتيه وطراس وغيرهم بحركة القبائل وعلاقتها بالبيئة الجغرافية وتفاعلاتها معها ، وبذلك استطاعوا أن يعطوا بعض التفسيرات المفيدة لحركة تاريخ المغرب وحضارته، اذ ان طبيعة البلاد من اقليم ساحلى وسهلى ذى تربة خصبة ومواسم منتظمة الى أقاليم يسودها الجفاف فى الجنوب ، ويعتمد سكانها على التوسع داخل افريقيا ، الى اقاليم أخرى جبلية فى الاطلس

(1) راجع الموضوع بتفصيل بكتاب قيام دولة المرابطين للدكتور حسن احمد محمود .

وجبال الريف حيث يستوطنها قوم اقوياء تعودوا حياة الرعي والحرب ... والعرب لنشئتهم الصحراوية وببيئتهم القبلية فهموا البلاد المغربية وطبيعة سكانها فلم يقسموا البلاد تقسيمات جغرافية كما فعل الرومان ، وانما قسموها حسب اصولها القبلية وبذلك استطاعوا ان يوحدوا بينهم وبين سكانها الاوليين للاستمرار فى بناء حضارة متشابهة الاصل وتطورت المدينة من الشكل الرومانى الى الشكل الاسلامى استجابة للتأثيرات العقائدية فاشتملت المدينة على المسجد الاعظم بمرافقة المائية والدينية والمدرسة التعليمية .. والساعات لضبط الاوقات والدكاكين والاسواق والمنازل والحمامات التى اصبحت شعبية تختلف عن الحمامات الرومانية فهى امكنة للنظافة والطهارة والغسل ومستوصفات علاجية بها (برمة) للماء الطاهر الذى لا يجوز تكديره واروقة ثلاث للتدرج من السخونة الى البرودة وقاعة للاستراحة ..

كما يحيط بالمدينة سور وابراج للدفاع عن سلامة سكانها وحضائر مائية واجنة وحقول لتموينها وأثرت العقيدة الاسلامية فى اظهار فن ابناء الاضرحة والكتابة على رخمات القبور بعبارات ادبية مستوحاة فى الموعظة الدينية .. فكانت للاضرحة عناية من السكان بل كانت مجاورة للمساكن والشوارع تخليدا للموتى وتمازجا معهم وتجاوزا للماورائية .

وقد كان الاسلام سببا اوحدة المغرب وهدايته للطريق القويم ، وليست التحليلات التى روجها بعض المستشرقين والمؤرخين الغربيين الا اتهامات ملفقة تمليها روح استعمارية فهؤلاء يرون ان الاسلام (بصفته مذهبا جبريا) كان مسؤولا عن جمود المغرب العربى لعدة قرون أو ما زعمه Degmanbyne ان ما يعلمه المذهب الاسلامى للناس كحقيقة لامراء

فيها ينكشف انه مجرد تجمع مبهم لاخطاء تظهر كلما استطاع المجهود العنيف للفكر الانسانى ان يتخطى سلما فى المعرفة .. كما أن Goutier يرى ان الفكر الاسلامى يتحمل مسؤولية عرقلة معرفة تاريخية نقدية ويستثنى من ذلك (ابن خلدون) كما ان (تيراس) يرى ان المغرب العربى تحتله سطحيا حضارة عربية أما الاساس الاصيل فهو الحضارة البربرية .. وهو زعم يهدف الى ابعاد استعمارية لا أساس لها فى الواقع التاريخى والاجتماعى بل ان من العسير ان نفرق فى العصر الحاضر بين العربى والبربرى الا بمقتضى التوزيع الجغرافى التاريخى ، فقد تمازج العنصران اجتماعيا وسياسيا وعملت الدولة منذ عصر المولى ادريس يوم تزوج بكنزة ليمزج بين العنصرين ، وبتعاقب الدول على المغرب اصبحت القبلية بصفتها العرقية محتفظة بعصبيتها فقط ، واسدى المولى اسماعيل جهدا كبيرا لاذابة القبائل البربرية من القبائل العربية والعكس ، فيما يسمى بسياسة (اللف) و (الصف) واصبح من العسير أن نفرق بين البربر والعرب ، ولا يصح للمؤرخين اليوم ان يعتمدوا على اللغة فى التفريق بين العنصرين فقد تعرب بربر (ليبيا) و (تونس) تعريبا كاملا ، وكذلك لا يصح أن نتخذ اسماء القبائل دليلا على أصلها فقبيلة (بنى مطير) ورهونة بربرية ، رغم اسمها العربى و (ادوغل) و (مدلش) و (تجاكانت) قبائل عربية رغم صيغتها البربرية .

موقع المغرب
حسب الاصطلاح العربي القديم

كان الجغرافيون فى القرون الاولى يدرجون المغرب فيما يسمونه بالاقليم الثالث ، أى ما بين خط العرض 27 الى 33 حسب رواية الدمشقى مخرجين منه طنجة وسبتة وجنوب درعــــة وتافيلالت ولكن الحسن الوزان يقسم افريقيا فى القــرن العاشر الى أقسام بربريا بشمال الاطلس وتضم فاس ومراكش (نوميديا) وجنوب الأطلس وتضم درعة وسجلماسة وتوات (وليبيا) فى الصحراء الشرقية وبلاد السودان أو كناوة ... وقد سمى العرب بلاد المغرب (بجزيرة المغرب) نظرا لميزاتها الحضاريـــــة والثقافيـــة ..

ويذكر الحسن الوزان المناجم المغربية وهى الجير (بتادلة ودكالة) والحجارة السوداء (بالاطلــس) والخــزف والطــين (بجنوب فاس) والكلس (قرب فاس) والمرمــر الابيـــض (بالاطلس الكبير) والملح الحى بنواحى فاس ، ومن المعــدن المعروفة الأثمد الذى تكتمل به العيون والفضة بتمدالت بسوس، والنحاس بتادلة والحديد بجبل الحديد (منجم الأعوان) .

عصــر الــولاة (26 هـ)

الثقافــة فى عصــر الــولاة :

فى الحقبة المريرة مــن تاريخ المغــرب حين كان يعانــى

ظلم الوندال أو الفندال (Vandalos) واحتلال الرومان كانت الجزيرة العربية تتمخض عن ثورة كبرى هى ظهور الاسلام الذى جاء دينا للناس اجمعين ولا شك أن قابلية الشعوب والامم لاعتناق الاسلام دليل على أنه يساير نزعتها الفطرية مما كان عاملا على انتشاره بسرعة ووصوله الى بلاد افريقيا وآسيا ، واتاح الوضع الجغرافى لبلاد المغرب ان يكون فى طريق حركة الفتوح الاسلامية والاسلام باعتباره مصدر الثقافة المغربية ومكيفها يعتبر أساسا للثقافة الاسلامية المغربية والحضارة المغربية كذلك لقد حمل الاسلام الى الفرد استقلال شخصيته فلم يربطه بالمعبد أو الكاهن ، ولا بالكنيسة ولا بلاياقونة ، وانما المسلم فرد ، حر ، يتحمل مسؤوليته وحده ويخاطب ربه بدون واسطة فهو فى صلاته يتوجه الى ربه ، وهو فى حجه يطوف ويسعى ، لا يلتمس الغفران من اى شخص ، عليه واجبات ، وله حقوق عليه احترامها واداؤها ، وهدى الاسلام الشخص الى الكمال ، فاذا اقتضى المثل العليا السامية التى سنها الاسلام كان خليقا ان يصبح (السوبرمان المسلم) ، وفى سيرة الرسول (ص) نموذج الشخصية الاسلامية التى تتفانى فى الخير والصلاح ... والتقوى وحدها هى ميدان المفاضلة بين الناس اجمعين واعطى الاسلام للدنيا حقها ، وللآخرة حقها ، فلا ترهق النفس على حساب البدن ، ولا يرهق البدن على حساب النفس ، فالازدواج بين الروحية والمادية متوازن فى شخصية المسلم ، وحمل الاسلام الى الفرد العزة والكرامة ، لمخلوقات متساوية عقلا ونفسا وتتفوق فى ميدان التقوى فقط ، وليس هناك ما لقيصر فيعطى له وما لله فيعطى له ، اى ان السيطرة والهيمنة انما هى لله وحده وجاء الاسلام ليحث الفرد على العمل ، ولا يدعوه الى القنوط والاتكال ، وكان قوله فى القضاء والقدر اعظم حافز للمسلمين فى

صدر الاسلام ان يجتازوا معالم بلادهم الى العالم اجمع وهم يسترخصون نفوسهم فى الجهاد ، وما ساء فهم الناس لفكـرة القضاء والقدر واصبحت فكرة جامـدة حتى فسـدت القيـم الاسلامية ، واصبحت معانيه تفسر تفسيرا جامدا مشوها ، ولم يكن الاسلام دين فرد من الافراد أو طائفة من الناس أو شعبا من الشعوب ، وانما كان دين الناس كافة ، لا يفرق بين الابيض والاسود ، ولا بين السامى والآرى والحامى ، ولا بين الاسيوى والافريقى والاوربى ، وانما هو دين المساواة لا يحفل باللونية والجنس وهو بعد هذا دين الحرية فلا يقيم العراقل فى وجه الشعوب التى تريد اعتناقه ، وهو دين متسامح ، يحرر الفرد من الخرافة ، ويحرر الشعب من الرق ، ويسامح كل الاديان ، لا يعادى عقيـدة من العقائد السماوية وانما ينكر الوثنية ولا يحتمل وجودها لانها عقيدة بدائية لا يؤيدها عقل وتقود الانسان لكل شر ، ثم هو بعـد كل هذا نظام تام يتناول العقيدة والمجتمع والاخلاق فيقيم وحدة شاملة بين طبيعة الفرد وسلوكه ونظامه الاجتماعى فى تحرر كامل وانعتاق شامل ، لا يمنع الفرد من التطور والتقدم ، هذا هـو الاسلام الذى عمت دعوته بلاد المغرب وبالاضافة الى هذا كلـه فان مواطنى المغرب ساميون فى الاصل أو ابناء عمومة فى السامية مما يستأنس به بعض المؤرخين ويرون ذلك من أسباب اعتناق البربر الاسلام تبنيهم لدعوته ...

الاسـلام فى المغـرب :

فى خلافة عثمان بن عفان (سنة 26 هـ ــ 73 م) استأذن والى مصر عبد الله بن أبى سرح الخليفة فى فتح بلاد افريقيا ، فأذن له الخليفة بذلك فكانت بداية الاتصال الحضارى بين المغرب والبلاد العربية وقد وقف السكان أول الامر بجانب البزنطيـين

لمقاومة الفتح العربى ولكن لم يلبث الافارقة أن انضموا الى صفوف المسلمين واستمر الغزو طيلة ولاية معاوية بن حديج وعقبة بن نافع ، والمهاجر ابن ابى دينار وحسان بن النعمان .

دعندما بنى عقبة بن نافع جامع القيروان ، أصبح المسجد جامعة اسلامية للرجال وللنساء أيضا ، يدرسون فيها على السواء ، فكان سحنون بن سعيد وأسد بن الفرات ، يدرسان فى جامع القيروان ، وكانت خديجة بنت فاطمة بنت أسد بن فرات تدرس بنفس المسجد أيضا ثم تجاوز المسجد تدريس العلوم الاسلامية وتدريس الآداب الى التعليم وتذريس العلوم الدخيلة .

لذلك كانت دولة الأغالبة فى القيروان فى القرنين الثانى والثالث المعاصرة للدولة الرستمية بالجزائر والادريسية بالمغرب الاقصى والاموية بالاندلس ولشرلمان ــ الدولة الكرلوسية بفرنسا ــ تدرس العلم بجامعة القيروان ، وأسس زيادة الله الثالث الى جانب جامع القيروان ، وعلى خطوات منه بيت (بيت الحكمة) وهو مكتبة للنقل والترجمة كما كانت القرويين بفاس تهتم بالدراسات الفقهية والادبية والعلمية وهكذا تركزت الثقافة الاسلامية فى افريقيا الشمالية .

ويذكر بعض المؤرخين ان وفدا من البرابرة ذهبوا الى الجزيرة العربية وتكلموا بلغتهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأجابهم بلغتهم واسلموا على يده فكانوا فى عداد الصحابة ، ولكن المحدثين ينكرون سند هذا الحديث ويستبعدونه وهم يطعنون فيه من الوجهة الحديثية ، والواقع ان متنه بعيد ان يتكلف تصنعه لا سيما ونحن نعرف الاتصال القديم بين البربر والروم البيزنطيين وقدرة البربرى على الرحلة والسياحة ، بل يقال هؤلاء رجعوا الى بلادهم مسلمين وماتوا بها حيث دفنوا بالشياظمة فى جبال الحديد ..

وهناك من يرى ان هذه القصة ترجع لعهد الخليفة عمر ، فقد نقل « الاستقصا » عن صاحب (كتاب عقد الجمان) انــه لما كانت خلافة عمر رضى الله عنه وفتحت مصر ــ وكان عليها عمرو بن العاص ــ قدم عليه ستة نفر من البربر محلقين الرؤوس واللحى ، فقال لهم عمرو : من من انتم ؟ وما الذى جاء بكــــم قالوا رغبنا فى الاسلام فجئنا له لان اجدادنا قد أوصونا بذلــك فوجههم عمرو الى عمر رضى الله عنه وكتب اليه يخبره فلمــا قدموا عليه ــ وهم لا يعرفون لسان العرب ــ كلمهم الترجمان على لسان عمر فقال لهم : من انتم ؟ قالوا نحن بنو مازيغ ، فقال عمر لجلسائه : هل سمعتم قط بهؤلاء ؟ فقال شيخ من قريش : يا أمير المؤمنين هؤلاء البربر من ذرية بر من قيس بن عيلان، خرج مغاضبا لابيه واخوته فقالوا بربر . اى اخذ البرية ، فقال لهم رضى الله عنه ، ما علامتكم ؟ قالوا : نكرم الخيل ونهين النساء فقال لهم عمر : الكم مدائن ؟ قالوا لا ، قال : الكم اعلام تهتدون بها ؟ قالوا : لا ، قال عمر : والله لقد كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض مغازية ، فنظرت الى قلة الجيش فبكيت ، فقال لى الرسول : يا عمر لا تحزن فان الله سيعز هذا الدين بقوم من المغرب ليس لهم مدائن ولا حصون ولا اسواق ولا علامات يهتدون بها فى الطريق ، ثم قال عمر : فالحمد لله الذى من على برؤيتهم ثم اكرمهم ووصلهم وقدمهم على من سواهم مــــــن الجيوش القادمة عليه ، وكتب الى عمرو بن العاص أن يجعلهم على مقدمة المسلمين ، وكانوا من افخاذ شتى ... وفى هذه الحقبة ايضا اتصل المغرب بشعب آخر هو الشعب القوطى ابناء عمومة الوندال من الجرمان ، فقد طارد القوطيون البزنطيين وعبــروا بوغاز جبل طارق واحتلوا سبتة سنة 547 م . ومن المعلوم ان المسلمين فى عهد عقبة بن نافع لما وصلوا سبتة وجدوها تابعة

للقوطيين ولحكام اسبانيا حيث شجعهم حاكمها القوطى عــلى التوغل فى بلاد المغرب والابتعاد عن اسبانيا ، ثم ان حاكمها شجع بعد ذلك موسى بن نصير على حكم اسبانيا بدافع الخلاف الذى كان بينه وبين ردريق .

لقد حمل العرب بعد انتشار الاسلام فى جزيرتهم هذا الدين الى العالم اجمع ، وحاول عمرو بن العاص والى مصر ان يقنع الخليفة عمر بفتح افريقيا ، ولكنه ابى وامتنع ، وفى خلافة عثمان بن عفان امر عبد الله بن سعد بن ابى سرح سنة 25 هجرية بفتحها ، فحاول ذلك ولكنها امتنعت عليه من جهتها ، وبعد سنة غزاها مستعينا بمدد من الجزيرة وفيهم جماعة مــن الصحابة منهم العبادلة ، وفيهم الشاعر الهذلى أول شاعر عربى فى المغرب ، والصحابى عبد الله بن الزبيــر أول خطيب عربى فى المغرب ولقيهم جرجير البزنطى مع جماعة من البربر كصولات وزمــار الزناتى جد الخزرجيين الذى اسلم على يد الخليفة عثمان ، ولكن العرب نزحوا عن افريقيا وتولى أمرها (جناها الهباهيا) فقاتلته بيزنطة واضطر ان يستمد العون مــن الخليفة معاوية فبعــث معه معاوية بن حديج الذى يعتبر أول داعية الى الاسلام بــين البربــر .

على ان الفاتح العربى الحق وناشر الاسلام فى المغرب هو بلا جدال الصحابى الجليل عقبة بن نافع الفهرى ، وقد وصل الى المغرب فى عهد ولاية عمرو بن العاص على مصر وكان من اسرته ، ولكن غزواته كانت فى هذا العهد (اعنى فى عهد عمرو بن العاص) عبارة عن محاولات تمهيدية ثم وصل الى لواته ومزانة فى سنة 42 ، بل وصل الى تخوم السودان فلما كانت سنة 50 ولاه معاوية على افريقيا لمعرفته وخبرته بهذه البلاد .

والمهم من هذا العرض التاريخي ان نتعرف على طريق الاتصال بين المغرب والحضارة الاسلامية بعد ظهور الاسلام ، لان العرب جاءوا يحملون الثقافة الاسلامية ، وكانت عظيمة التأثير فى حياة البربر اذ ان الفتح الاسلامى هو الذى سبر غور العاطفة والعقلية البربرية وطبع هذا الشعب بطابع خاص زاد فى تمسكه بالثقافة الشرقية فاتحاد طبيعة الفكر والعاطفة بين البربر والعرب سهل الفتوح الاسلامية فى المغرب وحسب تعبير (سديو) الذى يقول (بان البربر والعرب لهم ميول وعواطف ومبادىء متشابهة كحب الفخر والهيام بالحرية واكرام الضيف) ووحدة التاريخ المشترك ووصل عمود نسبهم بالعرب .

وزيادة على وحدة العوائد والاعراف فقد زادهم الدين الجديد ترابطا وتوحيدا وتعاطفا .. ولذلك نرى ان البربر احتضنوا الثقافة الاسلامية وسموا فى معارفها ، وبنوا صرحها ، وانسجموا معها اسلوبا وروحا فى سائر الميادين ، وظهر فى المغرب اساطين الثقافة الاسلامية كالادريسى الجغرافى ، والرحالة ابن بطوطة والفيلسوف الاجتماعى ابن خلدون ، وغير هؤلاء من العلماء والفقهاء والكتاب .

واذا كانت البيئات المختلفة قبل عصر النهضة سادتها تأثيرات دينية ولا يكاد يوجد عالم غير متأثر بالذين فالاسلام كان يسود افريقيا والاندلس بينما كانت المسيحية كانت تسيطر على أوربا والبلاد الشرقية وكانت بلاد الشرق الاقصى خاضعة لتأثير شتى المذاهب الدينية القديمة ، فكان البشر لا يخرجون عن توجيه الدين والرجوع الى أحكامه المدنية والجنائية وآدابه الاجتماعية ، وقد كانت الديانات تختلف مناهجها فى نظام الحكم وتوجيه المجتمعات حسب مبادئها وقيمها وتشريعاتها وقد كان الشرق يعج بالمذاهب والتيارات الاجتماعية

التى تحمل الى المغرب ما جد من الآراء فنجح بعضها ، وكان تأثيره قويا ، وتعبعثر بعضها ولم يتمكن من عقلية السكان وعاطفتهم ، وبناء على ذلك كله فقد عرفت بلاد المغرب الديانات الموسوية ، والمسيحية ، بمذاهبهما المختلفة كما عرفت كثيرا من ديانات الامم البدائية ، ولكن ذلك لم يتمكن من حياة سكان افريقيا ، مثلما تمكن الاسلام من قلوبهم وعقولهم (1) ، وكانت بداية معرفة الافارقة بالاسلام فى عهد عبد الله بن سعيد بن ابى سرح سنة 27 هـ أو 28 هـ أو 29 حسب اختلاف الروايات ، ولكنه رجع عنهم بطلب منهم كما ذكر ابن خلدون (الجزء الرابع من كتاب العبر) ، ثم غزا عقبة بن نافع افريقيا . سنة خمس واربعين ، وبنى وبنى مسجد القيروان ، المركز الاول للثقافة الاسلامية فى افريقيا الشمالية ، وأثخن فى البلاد سنة اثنين حتى بلغ الى مدينة آسفى واطل على المحيط الاطلسى ، وبذلك تكون سنة اثنين وستين هى بداية تمركز الاسلام فى المغرب الاقصى ، ولم يستقر العرب نهائيا ، ويمتزجوا بالبربر الا فى عهد حسان بن النعمان منازل الكاهنة ، ثم فى عهد عمر بن عبد العزيز . وجاء فى كتاب « البيان المغرب » لابن عذارى انه هو الذى علم اهل افريقيا الحلال والحرام ، وقد بعث عمر بن عبد العزيز الفقهاء التابعين كعبد الرحمن بن نافع وسعيد ابن مسعود ليفقهوا الناس فى امور الدين والدنيا .

ويعتقد كثير من المؤرخين خطأ ان الثقافة الاسلامية تمركزت فى المغرب متأخرة بعد ظهور الادارسة ، والحق ان الحضارة

---

(1) بما أن موقع المغرب بعيد عن بلاد الاسلام الاخرى ، وفى مواجهة أوربا المسيحية ايضا ، فقد كان المغاربة يشعرون انهم فى ثغر فضاعفوا من تمسكهم بدينهم وجهادهم ضد اعدائه ، ويظهر ذلك فى وفرة المساجد والاربطة مما نتج عنه ظاهرة (المثاغرة) .

الاسلامية ظهرت فى كثير من المدن المغربية المبنية قبل فاس فى عهد الاسلام (1) ، ويذكر الزيانى ان ادريس بن صالح الحميرى اسس مدينة النكور فى عهد عبد الملك بن مروان كما اسس باديس واسست مليلية عام (92) على يد امير من امراء بنى يفرن ، كما ان مدنا قديمة آوت الاسلام واحتضنت الثقافة الاسلامية ، كسجلماسة التى اسسها ملوك بنى مدرار ، وكدمنات التى اسسها امراء فطواكة قبل الاسلام زيادة على المدن الكثيرة المعروفة فى ذلك الوقت ، والتى حدثنا عنها الزيانى فى الترجمانة الكبرى وتكلم عليها مؤلف الاستبصار ، والبكرى فى المسالك والممالك ، كشالة وسلا وانفا بتامسنا واداى بتادلة التى حطمها المرابطون وطيط وازمور بدكالة وآسفى وشيشاوة واعمات وغير ذلك من المدن ، والمهم ان نبحث الوسيلة التلقائية أو المنظمة التى انتشرت فيها الثقافة الاسلامية ببلاد المغرب فى سرعة هائلة ، اذ فى سنة 51 كان عقبة قد انهى بناء العاصمة الاسلامية (القيروان) ، وفتح السودان وشمال افريقيا ، واعتنق البربر دين الاسلام واخذوا يكونون الحضارة المغربية ذات الطابع الاسلامى .

لقد أوجب الاسلام فريضة الحج فرحل كثير من المغاربة الى الشرق حيث اتصلوا فى المدينة برجال المذاهب الاسلامية ونقلوها الى افريقيا الشمالية ، وذكر ابن خلدون فى مقدمته ان المذهب المالكى انما انتصر فى المغرب والاندلس لان رحلتهم غالبا الى الحجاز وهو منتهى سفرهم ، والمدينة يومئذ دار علم ومنها خرج الى العراق .

---

(1) سمع سمكو المدرارى عن عكرمة فى نفس الوقت الذى اخذ محمد القيسى عن مالك وسفيان ، وعكرمة بربرى كما فى ابن خالكان .

وقد كان سحنون المتوفى سنة 240 اهم دعامة للمذهب المالكى فى المغرب ، وبالاخص بعد تأليفه المدونة التى اعتمد عليها علماء الفقه فى المغرب ، وكانت المدونة فى نشأتها هى تحرير للفقه على أساس القرآن والحديث ، ولهذا كان طابع الثقافة المغربية هو الاستناد الى النص القرآنى والحديث وعدم الاخذ بالرأى على طريقة المذهب الحنفى ، وكانت هذه البيئة التى تدين بهده الاعتبارات تستقر فى الحجاز ، والبصرة وبلاد افريقيا والاندلس وصقلية والمغرب والسودان ، كما ذكر ابن فرحون فى كتاب الديباج المذهب .

على ان المغرب عرف فى هذا العهد النحلات والمذاهب والفرق الاسلامية التى ظهرت فى الشرق حتى وصف ياقوت الحموى المغاربة لتسرعهم الى اعتناق المذاهب الاسلامية بالطيش والنزوع الى الفتنة ، فقد والوا عدة اتجاهات سنية وشيعية وناصروا عدة دول ، فكانو خوارج واباضية وصفرية فى عهد ولاية عبد الله بن الحبحاب ، وبلغ عدد الثائرين على عمر بن حفص عامل المنصور الى 40 الف صفريا و 25 الف اباضيا ، كما كانوا شيعة زيدية مع الادارسة وشعرية متصرفة مع الفاطميين فى أول عهد دولة بنى زيرى الصنهاجيين التى منها المعز بن باديس أول من حمل الناس بافريقيا على مذهب مالك كما كانوا فى عهد العباسيين على مذهب ابى حنيفة ، ويلاحظ القاضى عياض ان مذهب ابى حنيفة ظل فى المغرب الى قرب سنة اربعمائة ، ثم انقطع عنها ، وكان للمعز بن باديس اثر كبير فى نشر مذهب مالك بعد رجوعه عن المذهب الشيعى والدعوة للعباسيين .

وتحول سكان البلاد الافريقية من بدو جفاة ، (كما يقول ياقوت) الى امة ذات مدنية وحضارة مرتكزة فى عدة مدن اهمها القيروان والمهدية وتاهرت وفاس وسجلماسة التى وصف المقدسى

رجالها بالعلم والعقل ، وربما يخطىء المقدسى فى فاس حيث يصفها بأنها كثيرة الغوغاء قليلة العلماء .

كما يصف المقدسى المذهب المغربى بأن المغاربة لا يعرفون الا المذهب المالكى أو الحنفى ولا يعرفون شيئا عن الشافعى ، ويقول فى كتاب احسن التقاسيم (لا يعرفون الا كتاب الله وموطا مالك ... فان عثروا على حنفى أو شافعى نفوه ، وان عثروا على معتزلى قتلوه) .

وقد عرف المغرب المذهب الحنفى ايضا بواسطة اسد بن عبد الله الذى ذهب الى المدينة ليأخذ علم مالك فوجده عليلا ، ودله الفقهاء على نظيرة فى العلم وهو محمد بن الحسن صاحب ابى حنيفة ، فروى المذهب الحنفى وادخله الى المغرب . كما عرف مذهب الاوزاعى ومذهب الشافعى على يد ابى جيدة ...

ويذكر المقدسى ايضا ان بالمغرب المذهب الفاطمى الذى لهم فيه تصانيف يدرسونها ، ومن جملتها كتاب (الدعائم) الذى قال عنه بأنه يوافق المعتزلة فى أكثر الاصول ، ويقولون كذلك بمذاهب الادارسة وغلبتهم بكورة السوس الاقصى (انظر المقدسى ص 236) .

وتوجه كثير من علماء الاندلس الى المشرق ليأخذوا العلم بالرواية من افواه العلماء مثل جودى بن عثمان النحوى المتوفى سنة 198 الذى قابل الكسائى والفراء وادخل الى الاندلس والمغرب كتاب ابى الحسن ، ومثل الغازى بن قيس المتوفى سنة 199 الذى لقى الاصمعى والامام مالك ، وحفظ موطاه وحملها الى المغرب كما قرأ عن أبى النعيم الزبيدى (ص 335) ويعتبر ابن القزاز البربرى من الذى صحت عليهم اللغة بالاندلس كما حمل ابو جيدة الفاسى أوائل القرن الثالث التفاريع الفقهية الى المغرب .

وحمل العرب معهم الى بلاد المغرب نظامهم التربوى

البيداغوجي الذى يرعى التكوين من الطفولة الى الشيخوخة فهناك الكتاب لتعليم الصغار والمسجد لتعليم الكبار . وكان الكتاب الاول فى بلاد المغرب عبارة عن خيمة متنقلة ، كما كان المسجد مدرسة مختلفة الفصول والاقسام ومستويات الراغبين فى العلم زيادة على هذا كانت الحلقات العلمية الادبية يؤمها الادباء والشعراء والعلماء ويحضروها مختلف ابناء الامة ، الشىء الذى ساعد على انتشار الثقافة الاسلامية فى بلاد المغرب ، غير ان بعد المسافة بين مختلف البلدان فى بلاد افريقيا ومتاخمتها لبلاد الفرنج ساعد على تكوين رباطات هى عبارة عن مدرسة ومسجد وثكنة عسكرية وبناء مساجد كبرى لاحتضان الثقافة الاسلامية كمسجد عقبة فى القيروان وكمسجد موسى بن نصير فى تلمسان وكانت هذه المراكز للبعثات المكونة من الاعلام المسلمين والمتمسكين به حيث تركز نشاطهم بها وبشروا بالاسلام فى الاوساط البربرية .

وجاء فى ابن خلدون ان موسى بن نصير غزا طنجة وفتح درعة وصحراء تافيلالت وارسل ابنه الى السوس فاذعن البربر لسلطانه وذلك سنة (88) وولى على طنجة طارق بن زياد الليثى، وانزل معه سبعة وعشرين الفا من العرب واثنى عشر الفا من البربر وامرهم ان يعلموا البربر القرآن والفقه ، ويروى مؤلف الاستقصا عن اب العرب مؤلف طبقات علماء افريقيا ان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ارسل بعثة تعليمية الى افريقيا مكونة فى عشرة من التابعين يفقهون اهل المغرب فى الدين منهم حبان بن ابى جبلة المتوفى فى افريقيا سنة (122) هجرية .

ولا شك ان هذه البعثة التعليمية كانت تنشر الثقافة الاسلامية العربية فى بلاد البربر حيث تبدى نشاطها سواء فى المسجد أو فى الكتاب أو فى الرباط أو فى الاسواق وميادين الحرب

ومحافل الاسلام . غير ان هؤلاء حملوا معهم الخلافات المذهبية، فما كاد يستقر بهم المقام حتى تعرف البرابرة علـــى الحركـــة الشيعية والخارجية الصفرية والخارجية الاباضيـــة ، وتفرقوا طرائق قددا .

وقد تمركز التعليم فى الرباطات التـــى ابتدا تكوينها فى عهد هرثمة بن اعين سنة 181 هـ الـــذى كان من رجال الفكـــر والادارة فى الدولة العباسية ، وهو مشهور بين زعماء العـــرب فى هذا العصر وقد ولاه الرشيد على المغرب العربى فوضع الحجر الاساسى للمدرسة الاسلامية المتطورة على عهـــد العباسيين ، ويعتبر أول وزير للتربية والتعليم فى بلاد افريقيا ، وجاء فى كتاب الاستقصا ان هرثمة هو الذى بنى القصر الكبير بالمنستـــير ، ويقول ياقوت الحموى فى معجمه : ان (المنستير) يقع بين المهدية وسوسة بافريقيا وموضع فيه خمسة قصور يحيط بها سور واحد ويسكن هذه القصور قوم من اهل العبادة والعلم ، ويمكـــن ان نخلص اهدافه التعليمية والتربوية والسياسية من (عهد الرشيد) الى هرثمة ويبتدىء العهد بقوله : هذا ما عهد به هارون الرشيد امير المؤمنين الى هرثمة ابن اعين حين ولاه تغر خراسان واعماله وخراجه امره بتقوى الله وطاعته لاوامر الله ومراقبته ، وان يجعل كتاب الله اماما له فى كل ما هو بسبياه فيحل حلاله ويحرم حرامه ويقف عند متشابهه ويسأل عنه اولى الفقه فى دين الله واولى العلم بكتاب الله أو يرده الى امامه ليريه الله عز وجل فيه راية ويعزم على رشده .

وكلمة الرباط مشتقة من فعل (ربط) المأخوذة من الآية القرآنية (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) ، ومن قوله تعالى (ورابطوا) ثم تطور الى المكان الذى تجتمـــع فيه الفرسان القيام بحملة من الحملات الحربية فى ايام الحرب

والتجهيز البريدى فى ايام السلام ، ثم اصبحت عبارة عن منشأة علمية ذات صبغة دينية وحربية ، بل صبغة دفاعية للذود عن حوزة الاسلام ، وقد أخذ المسلمون هذا الاسلوب عن الرومانيين الذين اصطنعوا نفس الاديرة لسكنى الرهبان . وعلى هذا ، فالرباط هو مركز حربى وثقافى معا ، حربى حساب بنائه الذى يشبـــه القلعة المحصنة ، ثقافى لتعليم المقيمين المرابطين للثقافة الاسلامية والمعارف الدينية .

ويذكر ابن خلكان ان بلاد الشرق شاهدت فيما وراء النهر ما لا يقل عن عشرة آلاف رباط ، ثـــم عم سائـــر الشواطـــىء الاسلامية حتى كانت الرسائل تصل الاسكندرية الــــى سبتة بطريق الاشارة فى يوم واحد .

وانتقلت الرباطات الى الاندلس وصقلية على يد هرثمة ابن اعين وهو أول منشىء للرباط فى افريقيا كما قلنا ، اذ شيد أول رباط سنة 179 هـ الموافقة 795 م وما بلغ القرن الثالث الهجرى حتى كانت الرباطات تحمل مكانتها الاولى فى التعليم الاسلامى ، ومن الاربطة المشهورة بعد المنستير ، رباط سوسة الذى انشأه زيادة الله الاغلبى عام 206 . ورباط مدينة نكور المغربية ، ورباط أصيلا ورباط سلا (أى الرباط الحالى) الذى بنى ليسهل الغارة على البرغواطيين .

والى الرباط ينسب المرابطون الذين هم قوم متطوعـــون اتقياء ورعون ، يوجههم شيخ من شيوخ الاسلام .

وكان موقع المغرب الستراتيجى ، وتعرضه لهجمات الاعداء مساعدا على تكوين عدد وافر من هذه الرباطات فى المغـــرب الاقصى ، حيث عم البلاد المغربية الى شواطىء السينغال الادنى ، المعقل الذى تكون فيه رجال لمتونة المرابطين ، والمعـــروف فى

المغرب القديم بعد الموحدين . (رباط تازة) الذى حصنه عبد المؤمن ، ورباط الفتح (الحالى) ، وحتى الى عهد بنى مرين رابط جنود من المرتزقة فى معاقل الرباطات كما ذكر ذلك ابن مرزوق .

ومن الاربطة المشهورة رباط العباد قرب تلمسان ، ورباط (تمكدلت) قريبا من وهران احياء لذكرى ولـــى من أولياء بنى يزناسن ، ورباط (تافرطاست) القائم بالقرب من نهر سبو ، والذى يضم قبرى اميرين من امراء المرينيين ، كما ان فى بلاد السوس رباطات متعددة اشهرها رباط ماسة ورباط شاكـــر ، وكلمة الرباط ما تـــزال مستعملـــة فى اللغة الاسبانيـــة Rabato بما يفيد الهجوم المفاجىء وفى اسبانيا عدة حصون قائمة الـــى اليوم تحمل اسماء مشتقة من الرباط (1) .

فالرباط هو ثكنة عسكرية ومدرسية كما قلنا يحتوى على صحن وعلى غرف للطلبة كما يحتوى على مسجد كبير وصومعة للاذان ولمراقبة السفن والقوافـــل وللاضاءة بالليـــل لتبـــادل الاشارات ، وكان رباط الرجال بجانبه رباط للنساء .

أما دوره الثقافى فهو معهد ثانوى للذين اجتازوا مرحلة التعليم الابتدائى فى الكتاب ، حيث يعكف الطالب فيه على العلم واستنساخ الكتب والمطالعة فى خزائنه ، وكانت الرباطات متعددة يبعد احدهما عن الآخر بستة كياو مترات ولكنها مترات ولكنها فى درجة واحدة حسب اختلاف مكانها الجغرافى .

---

(1) راجع دائرة المعارف الاسلامية فقد اسهبت فى الكلام على الرباطات كما تكلم عنها الاستاذ عبد الرحمن الجيلالى فى كتابة (تاريخ الجزائر) ، وقد ذكر الاستاذ الكعاك ان له كتابا (فى الرباطات) لم يطبع بعد كما ان المرحوم المؤرخ على الدكالى له كتاب فى الرباطـــات اسمـــه « تاريخ الرباطات » .

أما الدروس التى كانت تلقى به فهــى التفسير والفقــه والحديث (والرقائق) اى آداب المواعظ والارشاد ، وكل رباط يحتفظ بأناشيده الخاصة المعبر عنها بالعمل . وقد ساعد الرباط على كثرة الرحلات العامية حيث ينتقل الطلبة من رباط الى آخــر ، كما ساعد على رواية الكتب عن أفواه الشيوخ .

ومن السهل ان نتعرف على مدى دراسة الرباطات فى ثقافة اعلامها الذين وصلتنا كتب بعضهم والتى لم تضع فى الغالــب لتكرار النسخ ، وذلك نتيجة رغبات الطلبة وتعدد الاربطة ، فمن اعلام الرباطات فى ميدان الثقافة الفقهية الامام سحنون المولود سنة (160) والمتوفى سنة (240) صاحــب المدونة الفقهيــة المشهورة التى بقيت نواة للجدل الفقهى والافتراضات التشيعية والتى كانت نتيجة الجدال المستمر بين علماء المذهب فى الرباطات ، ومن رجال الرباطات احمد بن الجزار ، وهو فقيه وطبيب كان يعلم الفقه ويعالج المرضى .

ومن رجال الرباطات عبد الله بن ياسين معلــم الفقــــه والارشاد ومؤسس نواة الحركــة الدينيــة المرابطية ، فهــذه النماذج الثلاثة تعطى صورة عن ثقافة الرباطات التى هى ثقافة دينية صوفية عسكرية .

ولم تكن الثقافة الرباطية مسيطرة على البلاد المغربية كلها فنحن نعرف ان جماعة من الاعلام لم يكونوا ينتسبون الى هذه الرباطات كالخطيب البربرى المفوه طارق بن زياد ، وكالنسابة البربرى والشاعر الصوفى المشهور سابق المطماطى وكالفقيــه الكبير ناشــر مذهب مالك فى المغرب يحى الليثى والشاعر ابوبكر بن حماد ابن سهل الزيانى (كان حيا سنة 217) ، وسعيد بن واسول جد بنى مدرار الذى كان من اعلام الفقهاء حيث ادرك

التابعين واخذ عن عكرمة مولى العبـــاس ، واخـــذ عنه برابـــرة مكناسة ، ومنهم الفقيه (بسمقو) كما فى ابن خلدون (ج 6 ص 267) .

ولا ينكر ان ثقافة هؤلاء الاعلام من بلاد البربر كانـــــت نتيجة احتكاكهم بالعرب ، اذ ان طارق كان من اصفياء موسى بن نصير وسابق المطماطى قضى مدة طويلة ببلاد الشام وفـــى بلاط بنى امية كما فى الاغانى ، ويحيى الليثى لازم الامام مالك واخذ عنه .

وقد تركزت الثقافة الاسلامية زيادة على الرباطات المشهورة فى عواصم افريقيا فى اربعة مدن ، أولا : فى سبتة حيث كانت دولة بنى عاصم الموالية لبنى امية والتى كانت موطن العلماء الكبار كابن العجوز الذى اخذ منه القيراونى وترجم له ابن فرحون فى الديباج ، وفى (تاهـــرت) فى عهد الرستميـــين حيث الجامـــع المشهورة والمدرسة الاباضية ذات الفقه الاباضى المدون باللغة البربرية ، والمتجلى فى مدونة ابن غانم (مكتوبة بالبربرية) أو المؤلفات العربية المعلق عليها بالبربريـــة ككتاب بحر الدمـــــوع والقواميس العربية البربرية (وفى القيروان)حيث دولة بنـــــى الاغلب الموالية للدولة العباسية من بعد (وفى سجلماسة) . واخيرا تجمعت فى فاس بعد مجىء ادريس الاول المغرب حيث اصبحت العاصمة الجديدة التى بناها المولى ادريس والتى ناصرت الحركة الشعبية (1) العلوية وحيث بنى مسجد القويين الذى استحال بعد ذلك الى جامعة اسلامية كبرى تبارى جامعات العالـــــم الاسلامى .

(1) فى الكامل لابن الاثير : ان الشيعة تسمى فى المغرب المشارقة (انظر المذكورة التيمورية) .

وكانت المذاهب المختلفة التى تظهر فى الشرق سواء السياسية أو الدينية سرعان ما يسرى اثرها الى المغرب عدة مذاهب كمذهب الاباضية الخارجي فى اواسط افريقيا الشمالية وجنوب المغرب ، وكالمذهب الشيعي الذى انتشر بين قبائل كتامة وصنهاجة وفى مدينة وليلى بصفة خاصة (2) .

انتقاضات قبلية :

يلاحظ المؤرخون وقوع حادثتين بعد دخول الاسلام الى المغرب : (أولهما) انتقاضة كسيلة البربرى على عقبة بن نافع الفهرى (وثانيهما) ثورة مسيرة المضغرى الخارجى ، اما الاولى فلها تفسير بسيكلوجى ذكره المؤرخون العرب ، فقد بالغ عقبة فى اذلال القائد البربرى كسيلة ولاحظ ذلك اصحاب عقبة فنصحوه ولكنه لم ينتصح ، فكانت ثورة كسيلة انتقاما شخصيا من قائد يبالغ فى الاستعانة به وليست ثورة عنصرية أو جنسية (اما ثانيهما) واعنى ثورة مسيرة المضغرى فقد كانت الخارجية قد انتشرت فى المغرب بل اسست لها دولة بنى وستم فى سجلماسة وانطوى البربر تحت لوائها ليسترجعوا مكانتهم السياسية وصادف ذلك سوء تصرف الوالى عبيد الله بن الحجاب فانتقضت البربر تحت زعامة مسيرة ، ولا يمكن ان نفسر هذه الانتفاضة بانها انتفاضة عنصرية بقدر ما نرى ان المذهب الخارجى كان منتظما لكثير من الذين لم يقروا الخلافة فى قريش

(2) انتشرت الشيعة فى أغمات والروافض بالاطلس الكبير (كما فى ابى حول) واتباع على البيجلى (البجليون بسوس) الذى حمل الى المغرب وثائق شافعة بالاضافة الى تضلعه فى المذهب المالكى .

سواء من العرب أو من العجم أو من البربر ، كما يدل على ذلك تاريخ الحركة الخارجية . ويدل على بطلان هذه الدعوى تفشى الحركة الشيعية فى المغرب تلك الحركة التى امدت الفاطميين بعنصر قوى من الرجال والافكار حتى تسنى لدولتهم ان تقيم خلافة كبرى حلت محل خلافة بغداد فوجود الحركة الخارجية والحركة الشيعية فى المغرب دليل قوى على تمركز الاسلام والعربية فيه ، مما مكن للمذاهب الكلامية والسياسية المنبثقة عن التفكير الاسلامى المحض ان تعمل عملها فى بلاد البربر التى اصبحت بعد الفتح بلادا اسلامية تعيش كل معطيات الفكر الاسلامى ، والاحزاب الاسلامية كذلك ، ولهذا لابدع ان نجد دولة الادارسة فى المغرب يؤسسها رجل من آل البيت ، وهو المولى ادريس الذى يمم جهة المغرب لاقامة دولة اسلامية اعصوصفت حولها القبائل البربرية ، وبالاخص قبيلة عبد الحميد (والغالب عبد المجيد بدليل وجود هذه القبيلة الى يومنا هذا) ولعب البربر دورا هاما فى تأسيس هذه المملكة وكان للمرأة البربرية المسلمة أثر فى تأسيس هذه الدولة كما فى كتاب (الدرر السنية) ولم تكن الدولة الادريسية فى الواقع الا محاولة موفقة لتركيز الاسلام والعربية والتهيىء لقيام امبراطورية مغربية .

الخوارج فى المغرب :

عندما ثار الأزارقة فى الاهواز والبصرة استباحوا دماء المسلمين الذين لم يكونوا من حزبهم ، فلما انهزموا انشق عنهم الصفرية الذين أباحوا التعامل مع المسلمين رغم أنهم من غير نحلتهم ، ووفدوا عاى المغرب وشقوا عصا الطاعة على بنى أمية فى

الاندلس معلنين الثورة سنة 121 هـ باقليم طنجة وتسربوا الى الصحراء فأسسوا سنة 140 سجلماسة التى أصبحت عاصمة بنى مدرار ، ونظرا لمركز هذه العاصمة الاقتصادى وثروتها الذهبية جـاء العبيديـون اليها لتأسيـس الدولـة الفاطميـة معتمدين على ثروتها الذهبية المجلوبة من أوروبا ليمكنوا لانفسهم فى البلاد العربية ، ثم انهزم الحكم الشيعى وانهار فى المغرب وانتصرت السنة المالكيـة .

الاقتصـاد :

ظهرت أول عملة مغربية اسلامية فى عهد موسى بن نصير الذى حاول أن يضرب النقود باسم الدولة الاسلامية الجديـدة ليظهر المغرب من كل علاقات رومانية تجارية واقتصادية ، لا سيما وقد خرج الاقتصاد المغربى منهوكا بعد حروب الوندال واستغلال البيزانطيين للافتتاح الافلاحى وارهاق الشعب بالضرائب الجائرة.

وتحتفظ خزانة العلامة التونسى المرحوم حسن حسنـى عبد الوهاب بنموذج للعملة الاسلامية وعليها صـورة موسى بن نصـير .

ويذكر ابن خردادية فى القرن الثالث الهجرى ان التجـار الصقالبة كانوا يمرون فى وجهتهم نحو الشرق عن طريق سوس الأدنى (أى طنجة) ومنها الى افريقيا ومصر .

وقد عرف القدماء المغاربة توأمة المـدن ، ولهذا توجـد « بصرة » بالمغرب وحمص بالاندلس ، وتدمر فى الاندلـس والشام فى الريف كما جاء ذلك فى الانسكلوبيدية الاسلامية .

أما عن النشاط التجارى فقد راجت تجارة مواد جديدة ذرت الارباح على الاقتصاد المغربى ، فقد دخلت للمغرب نباتات شرقية كالقطن وقصب السكر والزعفران شجرة الزيتون (1) ، وأصبحت سجلماسة التى أسسها المدراريون مدخلا لبلاد السينغال ، كما عبد الطريق البحرى بين الاسكندرية وسبتة بأبراج المراقبة فاصبح الخبر ينتقل فى يوم واحد بين هاتين المدينتين المتباعدتين ، كما أصبحت السكة المغربية من أهم العملات المتداولة فى البحر الابيض المتوسط .

الدبيلوماسية :

يرى كثير من المؤرخين المعاصرين ان المغرب عاش منكمشا على نفسه ويبررون هذا الانكماش بأنه نتيجة لموقعه الجغرافى، حيث يحاصره جبال الاطلس جنوبا ، والبحر الاطلسى غربا والبحر المتوسط شمالا ، وفيافى الصحراء جنوبا .

ويرى آخرون أن المغرب امتداد للموجات المتدفقة عليه من الشرق ، والتى تتلاشى فى رحابه تلاشيا ركوديا .. والواقع أن موقع المغرب الجغرافى اتاح له فرصة الاتصال بالشرق والغرب معا فقد عبر المغربى البحر والصحراء وعرف امريكا قبل كرستوف كلومب ، ووصل الفينيقيون والمصريون القدماء عن طريق المغرب الى امريكا .. وكذلك عرف منذ عهد الفنيقيين والقرطاجنيين والرومان صلات مع مختلف بلاد العالم القديم .. كما تحدى الصحراء جنوبا الى ادغال افريقيا فكان نهر النيجر مأوى المرابطين ، ومقام عبد الله بن ياسين دفين ضواحى الرباط ،

1) ادخل الفنيقيون شجرة الزيتون الى المغرب ونمى غراستها الفينيقيون واستغلها الرومانيون . وبذلك ظهرت فى المغرب تجارة الزيتون ومشتقاته وتطورت صناعة الارحى . و (الانارة بزيت الزيتون) .

وتنقلت جماعة من قبائل رجراجة الى جزيرة العـرب فى عهـد الخليفة عمر ، فلم يكن المغرب منعزلا بقدر ما كان شديد الاتصال بالعالم القديم ويتحـدث المؤرخون عن سفيـر شرلمان لدولـة الادارسة (بفوسنيوم) التى ربما كانت تعنى فاسا ... وهذه أول محاولة سفارية بين المغرب واوربا فى عهد الاسلام ..

العمـران (المـدن) :

مدينـة سبتـة :

نقل شكيب ارسلان فى الحلل عن الشريف الادريسى مؤلف نزهة المشتاق ان سبتة هى سبعة أجبل صغار معروفة بقصـب السكر وفواكهها كثيرة ويايها من جهة المشرق جبل عال يسمى جبل المنبه وعلى أعلاه سور بناه محمد ابن عامر ولم يتمه وعجز السكان عن الانتقال الى هذا المبنى الجديد المسمى بالمنبه .

ويتوفر ساحلها الحوت حيث يصاد التنين اى (الطون) وبها شجر المرجان وبها سوق لصنعه وثقبه حيث يحمل منها الى غانة وجميع بلاد السودان اما المكان الذى يجمع جبال سبتة فاسمه (بليونش) ويقول ابن عذارى فى وصفها (وهى على ما قيل مجمع البحرين وقاعدة البر والبحر واللؤلؤة الحالة من الدنيا بين السحر والبحر وفى سنـة (319) احتلها الامويين فى عصـر الناصر الاموى ويعتقد بعض المؤرخين العرب انها اقدم مدينة مغربية فقد قال الحجارى فى المسهب : أول من سكن فى العدوة وبـر الاندلس من ولد نوح بعد الطوفان ابن يافث بن نوح فنزل فى آخر المعمور فى بر العدوة وبنى له منزلا فى موضوع سبتـة فسميت باسمه وكان مكانها بربر فلما جاء الاسلام اصبحـت من مدنه الكبرى وفيها يقول مالك بن المرحل .

سلام عـــلى سبتـــة المغـــرب   اخيـــة مكـــــة أو يثـــــرب

وقد استولى عليها البرتغال سنة 819 ثم تحولت الى يد الاسبان سنة 1578 . وارشد المطلع الى المعادر الاتية عـــن تاريخ سبتـــة (1) .

(سجلماســـة) :

ومن المدن المشهورة فى العصر الاسلامى (سجلماسة) التى كانت مركزا سياسيا واقتصاديا فى هذا العصر ولم يذكر البكرى ولا ياقوت الحموى اصل هذه الكامة ويقال أن أصلها اسم لقائد رومانى خططها وخصها الزبيدى بكتاب سماه (الحاجة الماسة فى تحقيق لفظ سجلماسة) وموقعها كما يقول الادريسى والبكرى فى أول الصحراء ويقول ياقوت فى منقطع جبل درن ... ويصفها البكرى بالتجارة كما يصف أهلها بالغنى وسعة الحال لانها كانت مدينة التجارة فى الذهب ولانها محطة الى طريق غانة التى كانت من اعظم مدن الاسلام فى افريقيا ويرجع تاريخ تأسيس سجلماسة الى سنة 757 كما يقول كوتى ... ويزعم يوفيل ان سجلماسة بنيت ايام القرطاجنيين ويرى البكرى انها اسست سنة 140 هـ ... وقد عانت سجلماسة فى الاسلام الخلاف بين الامويين اصحاب قرطبة والشيعة الفاطمية كما كانت قبل ذلك من عواصم الخوارج فى المغرب وكان بها بنو مدرار وكان يسكنها البربر السود وهـــم الجيتوليان السود المعرفون فى تاريخ الرومان كتابعين للبربر . والذين يقيمون بجدالة والتى منها القائد البربرى سيفاكس فى القرن الثالث قبـــل الميلاد . وجدالة كانت تصـــل الى السودان جنوبـــا .

---

1) (انظر) ــ البكرى ــ ابن خلدون ــ وتيراس ، وكوتى .

الحضارة المغربية الاسلامية

فى القرن الثانى والثالث الهجريين

788 م — 985 م
172 هـ — 375 هـ

الادارســـة

لم يأل العرب جهدا فى تعريب المغرب الاسلامى فمن عهد عقبة بن نافع الى عهد موسى بن نصير الى اسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر الى عبيد الله بن الحبحاب ، وحبيب بن أبى عبيدة وحنظلة بن صفوان الى أن قامت فى المغرب دويلات مستقلـــة عازلة Tampon كامارة صنهاجة فى بجاية وهوارة فى طرابلس، ونفوسه فى قابــس ، وبنو واســول فى سجلماسة الى عهـــد عبد الرحمان بن حبيب الذى وحد المغرب من جديد فى تبعيـــة لمراكز الخلافة ، واخيرا الى عهد الادارسة الذين حاولوا وحدة المغرب مستقلا ، فأيدتهم قبائل المغرب المتنافرة ولاءموا بـــين القبائل المتباعدة ، وأقاموا حكومة مركزية مزدوجة الادارة بين البربر والعرب ، وأعلنوا الجهاد المقدس لاستئصال الانحرافات اليهودية والنصرانية والبرغواطية من أنحاء المغرب .. كما واصلوا رسالتهم المقدسة الى أن تصدى لهم موسى بن أبى العافية ففل شوكتهم ، فتأرجح المغرب بين المروانيين فى الاندلس والعبيديين فى تونس ، والادارسة مهدوا فى دخولهم للمغرب بدراسة أوضاعه ثم وجه المولى ادريس الاول الذى كان شيعيا معتدلا ، رسالـــة تتضمن دعوته والتزاماته وجاء فى كتاب المرجع الشافى للامام عبد الله بن حمزة نص هذه الرسالة وهو :

بسم الله الرحمان الرحيم الحمد لله الذى جعل النصر لمن عصاه ، ولا اله الا الله المتفرد بالوحدانية ، الدال على ذلك بما أظهر من عجيب حكمته ، ولطف تدبيره الذى لا يدرك الا اعلامه وصلى الله على محمد عبده ورسوله وخيرته من خلقه ، أحبه واصطفاه واختاره وارتضاه صلوات الله عليه وعلى آله الطيبين .
أما بعد : فانى

1 — ادعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

2 — والى العدل فى الرعية والقسم بالسوية ورفع المظالم والاخذ بيد المظلوم .

3 — واحياء السنة واماتة البدعة وانفاذ حكم الكتاب على القريب والبعيد .

4 — واذكروا الله فى ملوك غيروا وللامان خفروا ولعهد الله وميثاقه نقضوا ولبنى بيته قتلوا .

5 — واذكركم الله فى أرامل احتقرت وحدود عطلت وفى دماء بغير حق سفكت .

6 — فقد نبذوا الكتاب والاسلام ، فلم يبق من الاسلام الا اسمه ، ولا من القرآن الا رسمه .

7 — واعلموا عباد الله أن مما أوجب الله على أهل طاعته، المجاهرة لأهل عدواته ومعصيته ، باليد وباللسان :

أ — فباللسان الدعاء الى الله بالموعظة الحسنة والنصيحة والحرص على طاعة الله ، والتوبة عن الذنوب بعد الانابة والاقلاع ، والنزوع عما يكرهه الله ، والتواصى بالحق والصدق

والصبر والرحمة والرفق والتناهي عن معاصي الله كلها والتعليم والتقديم لمن استجاب لله ورسوله حتى تنفذ بصائرهم وتكمل ، وتجتمع كلمتهم وتنتظم .

ب ــ فاذا اجتمع منهم من يكون للفساد دافعا ، وللظالمين مقاوما وعلى البغي والعدوان قاهرا . أظهروا دعوتهم وندبوا العباد الى طاعة ربهم ودافعوا أهل الجور على ارتكاب ما حرم الله عليهم وحالوا بين أهل المعاصي وبين العمل بها ، فان في معصية الله تلفا لمن ركبها ، واهلاكا لمن عمل بها .

ج ــ ولا يؤيسنكم من علو الحق وا ضطهاده ، قلة انصاره فان فى ما بدا من وحدة النبى صلى الله عليه وسلم والأنبياء الداعين الى الله قبله ، وتكثيره اياهم بعد القلة ، واعزازهم بعد الذلة دليلا بينا ، وبرهانا واضحا ، قال الله عز وجل : ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة » وقال تعالى : « ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز » فنصر الله نبيه وكثر جنده ، وأظهر حزبه ، وأنجز وعده ، جزاء من الله سبحانه ، وتوابا لفضله وصبره ، وايثارة لطاعة ربه ورأفته بعباده ، ورحمته وحسن قيامه بالعدل والقسط فى تربية ومجاهدة أعدائهم وزهده فيما زهده فيهم ، ورغبته فيما يريده الله ومواساته أصحابه ، وسعة اخلاقه كما أدبه الله ، وأمر العباد باتباعه وسلوك سليم والاقتداء لهدايته . واقتفاء أثره ، فاذا فعلوا ذلك أنجز لهم ما وعدهم . كما قال عز وجل : « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

وقال تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » .

وقال : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » .

وكما مدحهم وأثنى عليهم ، كما يقول : « كنتم خير أمــة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتومنون باللــه » .

وقال عز وجل : «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض» وفرض الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واضافة الى الايمان والاقرار لمعرفته وأمر بالجهاد عايه ، والدعاء اليه ، قال تعالى : « قاتلوا الذين لا يومنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق » .

وفرض قتال المعاندين على الحق ، والمعتدين عليه وعلى من آمن به ، وصدق بكتابه حتى يعود اليه ويفيء كما فرض قتال من كفر به ، وصد عنه حتى يومن به ، ويعترف بشرائعه ، قال تعالى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما ، فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى ُمر الله ، فان فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا ان الله

هـ ــ فهذا عهد الله اليكم ، وميثاقه عليكم بالتعاون علــى البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان فرضا من اللــه واجبا وحكما لازما فأين عن الله تذهبون ؟ وانى توفكون ؟

و ــ وقد خانت جبابــرة الافاق شرقا وغربــا ، وأظهروا الفساد وامتلأت الارض ظلما وجورا ، فليس للناس ملجأ ولا لهم عند أعدائهم حسن رجاء ، فعسى أن تكونوا معاشر اخواننا من البربر اليد الحاصدة للظلم والجور وأنصار الكتــاب والسنــة ، القائمين بحق المظلومين من ذرية النبيئين فكونوا عند الله بمنزلة من جاهد مع المرسلين ، ونصر الله مع النبيئين .

8 ــ واعلموا معاشر البربر أنى اتيتكم ، وأنا المظلــوم

الملهوف ، الطريد الشريد ، الخائف الموتور الذى كثر واتره وقل ناصره وقتل اخوته وأبوه وجده وأهلوه فأجيبوا داعى الله فقد دعاكم الى الله ، فان الله عز وجل يقول : « ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الارض وليس له من دونه أولياء » ؟ أعاذنا الله واياكم من الضلال ، وهدانا واياكم الى سبيل الرشاد .

9 ــ وانا ادريس بن عبد الله ، بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسول الله وعلى بن ابى طالب جداى وحمزة سيد الشهداء وجعفر الطيار فى الجنة عماى ، وخديجة الصديقة وفاطمة بنت أسد الشفيقة جدتاى وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفاطمة بنت الحسين سيد ذرارى النبيئين أماى ، والحسن والحسين ابنــاء رسول الله صلى الله عليه وسلم أبواى ، ومحمد وابرهيم ابناء عبد الله المهدى والزاكى اخواى .

10 ــ هذه دعوتى العادلة غير الجائرة فمن أجابنى فله مالى ، وعليه ما على ، ومن أبى فحظه اخطاء وسيرى ذلك عالم الغيب والشهادة انى لم اسفك له دما ولا استحللت محرما ولا مالا واستشهدك يا أكبر الشاهدين واستشهد جبريل وميكائيل انى أول من أجاب وأناب فلبيك اللهم لبيك مزجى السحــاب ، وهازم الاحزاب مصير الجبال سرابا بعد ان كانت صما صلابا ، أسألك النصر لولد نبيك انك على كل شىء قدير والسلام وصلى الله على محمد وآله ..

واستجاب المغاربة لدعوته وتأسست الدولــة الادريسيــة محفظ الحكم فى عصر الادارسة التوازن السياسى بين مختلف العشائر ، واعتمد نظاما قارا يرتكز على الحكومة أو ما يعبر عنه (بالمخزن) فى تسيير بلاد ذات سيادة ومؤسسات متشعبة، وكانت

البلاد تتكون من البدو الرحل ، والمتحضرين والاشراف والمرابطين والقبائل التى تخضع جميعها اسلطة تعتمد على العصبية كما كان لهذه الحكومة مخطط تربوى واجتماعى واقتصادى ... ورغم ان المغرب لم يعرف الاستقرار ولا الوحدة طيلة حكم الادارسة فان أثرهم كان قويا فى ابراز شخصيته ، ويهما أن تلاحظ التحـول الكبير فى الاطار الحضارى فقد جاء ادريس الاول وبنى مدينـة فاس لتكون مركزا للدولة الجديدة . فأصبحت مركزا علميا زاوجت بين ثقافة القيروان ، التى حماها القيروانيون الذين وفدوا على المولى ادريس وعمروا العدوة القروية (المنسوبة اليهم على غير قياس) وبين الثقافة الاندلسية التى حملها اليهم الفقهاء والعلماء الذين طردهم الحكم من قرطبة (وهى من عواصم الحضـــارة الاسلامية) فلجأوا الى فاس حيث عمروا العدوة (المنسوبـة اليهم) وحيث بنت السيدة مريم اخت السيدة فاطمة مسجـد الاندلس الذى استحال فيما بعد الى معهد دراسى كبير فاخذت الثقافة المغربية طابعا جديدا بعد ظهور هذه الجامعة فازدهرت الدراسة الاسلامية فيها وظهرت حركة علمية نشيطة فى تصانيف ومؤلفات وشروح جديدة ، وكان طابع هذا الاستقلال يظهر جايا فى استقلال علماء المغرب بالاخذ بالآراء والمذاهب التى توافـق البيئة المغربية الجديدة فاختاروا مـن المذاهب الفقهية المذهـب (المالكى) والعقيدة (الاشعرية) وتصوف الجنيد ... « وأسست مدينة فاس لتكـون دار علم وصـلاح فنزلها عدد مـن الفقهاء والصلحاء والادباء والشعراء والاطباء » كما جاء فى القرطاس (ص 47 ج 1) ، وذكر المراكشى فى المعجب وهو من مؤرخى المغرب فى القرن السادس وأوائل القرن السابع ان فاسا جمعت علم قرطبة والقيروان ، حيث دخل اليها علماء هذين العاصمتين وبالاخص القرطبيين بعد وقعة الربض فى ايام الحكم ثم بعد موت

محمد بن ابى عامر فى القرن الرابع الهجرى حيث اضطرب شأن السياسة فى الاندلس فهاجرها العلماء الى فاس ، ويذكر مؤلف مفاخر البربر (ص 76) أن بفاس من الفقهاء الاجلة اعيان الانام ما ليس بغيرها .

وكانت سجلماسة حاضرة علم قبل فاس بكثير وفى الجزء الاول من كتاب الدرر البهية والجواهر النبوية ص 63 لابو العلاء العلوى عن القاضى عياض فى مداركه فى أن اعلام سجلماسة من أخذ عن الامام مالك بالمدينة ورجع اليها ودرس العلوم بها وبقيت مأوى الصالحين والعلماء والامراء ، ويقول بعد هذا النقل ان سجلماسة قاعدة بلاد المغرب قبل فاس ودار الملك منذ عمــرت قبل حلول الادارسة الحسنيين بهذا القطر المغربى بقريب مــن أربعين سنة وذلك عام اربعين ومائة (140) ولم يتقدم لأهلها كفر ولم تزل من ذلك الوقت آهلة بالعلماء والصلحاء ، وهى أول بلاد درس العلم بها فى المغرب .

ونستطيع أن نتعرف من خلال تراجم العلماء المشهورين فى هذا العصر على الثقافة الاسلامية ومكانتها ، فمن العلمــــاء أبو جيدة اليزغينى امام المذهب ومؤلف وثائق الشافعية المتوفى سنة 360 ، وجاء فى جذوة الاقتباس (ص 121) وفى نيل الابتهاج وفى الغرباء ان أبا ميمونة دراس نسبة (لكثرة الدرس) من علماء مدينة فاس أخذ عن أبى بكر اللباد ورحل الى المشرق وحج ولقى على بن ابى مطر بالاسكندرية ورجع الى مسقط رأسه فاســا حيث توفى سنة سبعة وخمسين وثلاثمائة (357) وقد شد اليه 8الرحلة ابوزيد صاحب الرسالة الملقب بمالك الصغير وأخذ عنه ودراس هو الذى أدخل فقه مالك الى المغرب الذى كان الغالــب على أهله مذهب الاوزاعى ، وأنا اعتقد ان دراس انما دعم المذهب

المالكى فى المغرب والا فقد نشره قبله احد من اعلام الفقه المغربى كيحى الليثى وسحنون فى افريقيا وزيادة بن عبد الرحمن فـــى الأندلـــس .

وفى سلوة الانفاس (الجزء الثانى ص 176) فى ترجمة دراس بن اسماعيل الفاسى من أهل مدينة فاس وممن ادخـــل مذهب مالك رضى الله عنه بلاد المغرب وكـــان الغالب عليها فى القديم مذهب الكوفيين ، وسمى دراسا لكثرة دراسته للعلـــم وهو ممن تقدم عـــصره وشهر فضله سمع من شيوخ بلـــــده فاسا ورحل الى المشرق فحج وجال فى الاندلس وافريقية ولقى جماعة من العلماء .. روى الحديث وقرأ الفقه وسمع بافريقيا عن أبى زيد وأبى الحسن القابسى وغيرهما ، ودخل أيضا الاندلس مجاهدا وطالبا وتردد بها فى الثغر فسمع منه ابو الفرج عبدوس بن خلف بن ابى جعفر وغير واحد . وقال عياض فى (المدارك) اراه دخل بلادنا فقد حدث عنه اقوام من كبارهم وكان رحمه الله على مذهب مالك واصحابه ولما وصل الى القيروان أطلع حفاظ المغرب ومن أهل الفضل والدين له الامامة الناس من حفظه على امر عظيم حتى كان يقال ليس فى وقته احفظ منه ، وكان نزوله بها عند تفوقه على ابن أبى زيد وظهر علماء القيروان وشفوفـــه على كثير منهم . وقد قال ابوبكر المالكى كان ابو ميمونه مـــــن الحفاظ المعدودين والائمة المبرزين من أهل الفضل والدين كما ترجم ابن الفرضى السجلماسى وترجم القاضى عياض فى المدارك لأحمد بن خلف المسيلى المتوفى بقرطبة سنة 393 ، وترجم فى فى الديباج المذهب ص (92) لابراهيم بن عثمان ابى القاســـم الوزانى المتوفى سنة 346 .. ويذكر ابن الفرضى (150) ترجمة لاحمد بن الفتح الميلى المعروف بابن الحراز وابراهيم بن عثمان ابو القاسم الوزان م 362 . كما أن من علماء المغرب فى هـــذه

الحقبة ابو عمران الفاسى المتوفى سنة 430 هجرية ، ومـــن اعلامها أيضا عبد الله بن محمد بن ابراهيم الاصلى المنسوب الى (اصيلا) وهو أحد أفراد أسرة علمية مشهورة ، مالكى المذهب ، له كتاب فى اختلاف الائمة (أى مالك والشافعى وابى حنيفة) سماه (الدلائل على امهات المسائل) توفى سنة 392 كما ذكر ابن الفرضى فى تاريخ علمـــاء الاندلس (ج الاول ص 208) ، وفى الغرباء ونقلها ياقوت الحموى فى معجم البلدان (ص 278) الجزء الاول .

كما أدخل المذهب المالكى الى المغرب ابو عبد الله محمد بن محمود الهوارى قاضى فاس المعلق على المدونة المتوفى سنـــة 401 هـ .

ولقد كانت الشخصية العلمية المغربية بارزة فى القرويـــين فى العصر الادريسى كما كان العلماء الذين يدرسون بالمغـــرب يرحلون الى المشرق ليعطوا وليأخذوا ، كما كان المذهب الفقهى وهو المذهب الاجتماعى فى البلاد وقد تباور فيما كتبه اعلامـــه الذين احتفظوا بالاعراف والعوائد المكونة لشخصية البـــلاد فى كتب النوازل والاحكام ، وفى كتـــاب القاضى عيـــاض (ازهار الرياض) ما يدل على ان مدرسة فاس الفقهية كان لها اسلوب خاص فى تحليل المدونة على طريقة خاصة تعتمد على المناقشـــات اللفظية وتضبط الروايات وتصحيحها وشاهـــد العصر الادريسى ازدهارا ادبيا كبيرا وكان ادريس الثانى من شعراء عصره ويذكر ابن الآبار آثار ادبية للقاسم ابن ادريس كما يذكر البكرى قصائد لشعراء برابرة طوعوا اللغة العربية لتعابيرهم الشعرية وفى كتاب (المسالك والممالك) قصائد للنكورى وسعيد بن هشام المصمودى وبكر ابن حماد وغيرهم .

ونبغ فى هذا العصر شاعر ملحمى افريقى وهو ابن هانىء الاندلسى الافريقى الاصل وكذلك مقداد بن الحسن الكتامى ، واجتمع بباب المعز بن باديس من الشعراء ما لم يجتمع الا بباب الصاحب بن عباد كما يقول ابن خلدون ، ومنهم المنشىء ، الكبير على بن ابى الرجال الذى الف له (ابن رشيق) كتاب العمدة والف له ابن شرف رسائله المشهورة . ومن نقاد هذا العصر أبو الحسن الحصرى وعبد الكريم النهشيلى .

العقائد فى عصر الادارسة :

كان الادارسة فى أول امرهم شيعة زيدية وكان عبد الله والد المولى ادريس الاول يعتبر من الطبقة الثالثة من طبقات المعتزلة كما فى اليعقوبى (كتاب البلدان ص 28 والبكرى دى سلان ص 188) ثم غلبت السنة المالكية عندما انتشر مذهب الامام مالك بالمغرب .

أما الدراسة اللغوية

فقد نشات أول مدرسة نحوية منظمة فى الاندلس بعد وفود القالى على بلاد الاندلس سنة 1350 ، حيث اخذ يقرىء كتاب الامالى ويتخذ نصوصه مجالا ليعلم اللغة والنحو كما فعل المبرد فى الشرق ثم الف المقصور والممدود وفعلت وافعلت فى علوم النحو ، وعاصره ابوبكر محمد بن القوطية المتوفى سنة 367 فألف المقصور والممدود وتصاريف الافعال فى اللغة ، وقد روى كتبه بن القطاع وظهرت فى هذا العهد كتب كثيرة فى النحو منها (الواضح فى النحو) وابنية الاسماء ، ولحن العوام ، ومختصر المعين فى اللغة .

وقد عرف المغاربة النحو على أساس المذهب الكوفى نظرا

لعطفهم على علماء الكوفة الشيعة بالمفهوم الاسروى لسلالـة النبى ، ولأن بغداد عاصمة الخلافة ، كانت أول الامر تعطف على مدرسة الكسائى ، ولنفس السبب انتشر بها مذهب ابى حنيفة وأول من ادخل كتاب الكسائى الكوفى ، الى المغرب والاندلس جودى بن عثمان الطليطلى (198) كما فى البغية) ثم شرحـه مفرح بن مالك ، ثم دخل كتاب سيبويه بعد ذلك الى المغرب واقدم من اهتم بحفظه حمـدون بن اسماعيـل ، وصرف المغاربـة والاندلسيون اهتمامهم لدراسة كتاب سيبويه والاخفش والكسائى حتى كونوا مدرسة نحوية مغربية اندلسية استفادت من المدرسة البصرية والمدرسة الكوفية والاختبارات البغدادية . وذكر الزبيدى فى الطبقات (ص 335) انه لم يكن لدى مؤلفى العربية وغيرهم اعتناء بالنحو حتى ورد محمد بن يحيى عليهم ، وذلك لان المؤدبين انما كانوا يعلمون تلاميذهم العوامل وما شاكلها وتقريب المعانى لهم فى ذلك ولم ياخذوا انفسهم بعلم ذخائر العربية وغوامضها والاهتمام بمسائلها ، ثم كانوا لا ينظرون فى امالة ولا ادغـام ولا تصريف ولا ابنية الفعل ولا يجيبون فى شىء منها حتى نهج لهم سبيل النظر واعامهم بما عليه اهل الشأن فى المشرق وذلك استقصاء الفن بوجوهه واستيفائه على حدوده ، وقد ظهر متأخرا فى عصر الموحدين ابن مضاء الاندلسى (552) احد دعاة تطويـر النحو العربى وتحريره من نظرية العامل والاسس التى بنـى عليها سيبويه مؤلفه النحوى .

والحق أن أول حركة علمية منظمة فى المغرب وبالاخص فى فاس من وفود الاندلسيين القرطبيين الواردين على المولى ادريس بعد وقعة الربض مـع الحكم بن هشام وينقـل مؤلف الغـص المهصور عن (سديـو) فى كتابه خلاصة تاريخ العرب ، ما اشار اليه من ان الحركة العلمية والمدارس والكتبخانات كانت معروفة

فى القرويين فى عصر الادارسة وان تلك الحركة هى التى كان يحث عليها العباسيون بالممالك الشرقية ، ويظهر ان ذلك من آثار نزول الاندلسيين بفاس ، ولا سيما اهل قرطبة دار العلوم والخزائن العلمية ، حيث وفد على المولى ادريس علماء من جملتهم عامر بن محمد بن سعيد القيسى الذى سمع عن مالك وسفيان الثورى وابو الحسن عبد الله الخزرجى ، ويذكر المراكشى فى المعجب انه انه رحل الى المولى ادريس من القيروان وقرطبة من كان فيهما من العلماء والفضلاء من كل طبقة لما حدث فيهما من الفتن والاضطراب ونزل اكثرهم مدينة فاس .

ولا شك ان الحضارة المغربية ازدهرت ازدهارا عظيما فى عصر الادارسة ، اذا كان المؤرخون يقارنون بين الاغالبة فى تونس والادارسة فى فاس فان التنافس كان مستمرا بين الدولتين ، الكتب الادبية والعلمية وانشىء بالقيروان معهد لدراسة الرياضة والطب والصيدلية وترجمة الكتب اللاتينية وسمى هذا المعهد ببيت الحكمة ، وعرف هذا العصر مشاهير الرجال كالقاضى اسد بن الفرات المتوفى سنة 213 ، والقاضى سحنون المتوفى سنة 240 ، والطبيب احمد ابن الجزار ، وكانت القيروان وارثة قرطاجنة وروما فيما خلفت من ثرات فكرى وعلمى وازدهرت الزراعة كما كانت فى عصر الرومان وانتظمت وسائل الرى فى البوادى وتقدمت الصناعات وخاصة صناعة النسيج الصوفى والحريرى وعنيت الدولة بالمناجم ، فاستخرجت منها المعادن ، وقويت التجارة مع العواصم الاوربية .

وكانت الثقافة المغربية منبثقة من وعى شعبى وكانت كما ذكر (سديو) عن الاندلس قائلا : (لقد كانت الحضارة الاندلسية من صميم الشعب لم تفرض عليه فرضا ، وانما كان الخلفاء

يدارون الرأى العام فيحثون على الآداب والتجارة والصناعة ، ويقابل ذلك بالشكر قوم يقدرون هذه المقومات ، ولم تبلغ عظمة العرب فى الاندلس الا عن هذه الاستجابة وحب الثقافة المشاع فى جميع الطبقات وكما قال (سديو) ايضا ، كنت ترى الشعــر يسمو بالنفوس وترى اتصاف القضاة بغزارة العلم اتصافا جالبا لاحترام احكامهم ، وكنت ترى تنافسا كريما حافزا . وكان يؤذن لمن يشيد المبانى فى كتابة اسمائهم عليها ، وأما المذاهب التــى نشأت فى الاندلس خاصة بالاخلاق والفلسفة ، فقد قال (سديو ص 293) : لقد ظهر فيها اناس متطرفو الافكار ولكن لم تخرج مباحثهم عن الحذر الشديد ، وكان سادة الاندلس من أهل السنة فلم تعد المناقشات حدود مشاكل التفسير وكان الفقهاء عــلى مذهبين متنافسين : مذهب مالك والاوزاعى ، ورغم الخـــلاف الشديد بينهما لم ينقلب قط الى انفصال .

المذاهب الفقهيـــة فى هذا العصــر :

كانت فاس ملتقى المذاهب السنية ، فقد عرفت مذهــب الامام الاوزعى الذى انتشر مذهبه فى الشام طيلة قرنين كما فى (خطط الشام لكرد على) ، وعرف مذهب ابى حنيفة الـــذى ظهر فقهه فى افريقيا أواخر القرن الرابع ومنها دخل الى فـــاس والاندلـــس .

وعرف المغاربة كذاك المذهب الشافعى الذى ادخل بعــض آرائه الفقهية ابو جيدة الفاسى المتوفى سنة 360 هجرية (كما فى السلوة) وهو الذى ادخل المذهب المالكى أيضا الى المغرب أما المذهب الحنبلى فلم يشتهر فى المغرب ، ومن الخطأ ما ذكــره الزركلى فى الاعلام (ج الاول ص 192) والخاقانى فى شعراء

بغداد (ج 1 ص 386) فى ان مذهب احمد بن حنبل وصل الى المغـــرب .

والواقع ان المذهب المالكى انتشر فى المغرب كله ، وفى حوض البحر المتوسط وافريقيا السوداء ، نظرا لان الحجاج الفقهـــاء حملوه الى المغرب عن طريق زيارتهم للحجاز ، وكان الامام يحى الليثى من تلامذة الامام مالك وساعدت دواعى سياسة عــلى انتشار مذهب مالك ، واهمها موقف الامام مالك من بيعة العلويين، ومنها تردد المغاربة على مكة والمدينة معقل المذهب المالكى ، وايضا لمرونته الاصولية المقرة للمصالح المرسلة ، ولصلابته فى الاحوال الشخصية .. وقد ركز الادارسة هذا المذهب وعززوه فى المغرب بتوليتهم لتلميذ مالك وسفيان الثورى ، محمد بن سعيد القيسى المالكى ، كما ركزه فى الاندلس يحى الليثى حين ولى القضا بها .

واستمر عصر الادارسة نحو قرنين تقريبا ولم تستقـــر البلاد أثناءه لعدم تمركز الحكومة مع اتساع رقعتها مما احدث تضعضعا اقتصاديا .. وكانت حدود الدولة تمتد حينا الى بلاد السنغال ، وتتقلص احيانا فى قلعة حجر النسر ونواحى البصرة وطنجة .. زيادة على الفتن المتوالية التى يوقدها أعداء الدولـــة من البرغواطيين والعبيديين والخوارج والامويين والانداسيين ، ولهذا عانت دولة المولى ادريس الثانى أزمة مالية ، ومع ذلـــك لم ترهق السكان بنفقات غير شرعية ، واكتفت بالنصيب الشرعى، وعمل اليهود على اضعاف الخزينة بأساليبهم لانهم كانوا يؤيدون الخلافة فى بغداد ويعملون على تشويه سمعة الادارسة ... وقد طبع المولى ادريس عمله شرعية ضربت فى مدينة فاس تحتفظ باريس بقطعة منها فى قسم المسكوكات بمعهد الآثار ...

وقل المسلمون فى هذا العصر عن الصين تربية دودة القز

فانتشر الحرير فى افريقيا الشمالية والاندلس وامتازت صناعة الثياب الحريرية فى افريقيا بجمالها ورونقها ..

وفى القرن العاشر الميلادى ظهر فى المغرب قصب السكر والقطن وزرع الارز والزعفران فى املاك مثلما نشطت مع بلاد البحر المتوسط ، وقد فرض نائب المغرب من بنى زيرى ضرائب باهضة وتتبع قطاع الطرق .. ونجحت هذه السياسة فعلا فى تنشيط الاقتصاد فوفدت قوافل السودان ، وفيها فيلة وزرافات هدية لامراء بنى زيرى (ص 33 من كتاب القوى البحرية والتجارية) ، وعندما خضعت سجلماسة للامويين تحولت طريق السودان بطبيعة الحال الى المغرب الاقصى ، وكان ذهب السودان يرد على الاندلس عبر المغرب الاقصى عن طريق سبتة .

وان طبع عملة مغربية فى عهد المولى ادريس الاول بزرهون وفى عهد داود (1) دليل على استقلال اقتصاد المغرب سيما بعد ان تساند مع الاقتصاد الاندلسى . وقد ضمت فاس بعد زرهون جماعة من الاغنياء المترفين الوافدين عليها من الاندلس والقيروان وسجلماسة فكونوا قوة اقتصادية كانت من عوامل ازدهار العملة المغربية ، ويقول لفى بروفينصال فى كتابه تأسيس مدينة فاس : ان مدينة فاس كانت مركزا اداريا وزراعيا فى القرن الثامن (م) ولكنها لم تكن مركزا للتجارة وهى كذلك مدينة داخلية بعيدة عن البحر كمعظم العواصم الاسلامية فى ذلك الحين ، ويقول (ارشبالدر . لويس) : ان قيام مدينة فاس يؤكد الطبيعة الزراعية التى اتصف بها القسم الغربى من بلاد المغرب .

وعم الازدهار الفلاحى والاقتصادى هذا الجزء من المغرب

---

1) راجع ما كتبه بروفنصال عن بناء مدينة فاس .. وبالاخص
Fragment, historique sur l'Histoire de Berbers au moyen âge.

غير ان الثورات التى استمرت حتى سنة (800 م) فى قبائل البربر ، وثورات الخوارج دهورت الاحوال الاقتصادية ، ويلاحظ من خلال عرض ابن الاثير (157) ان الخمسين سنة التى سبقت استقلال الاغالبة هبط فيها مستوى الرخاء حتى اصبحت الاعانة السنوية مستمرة لتغطية نفقات الحكومة من الاعانة السنويـــة المرسلة من مصر (ص 93ف) .

البحـــريـــــة :

اسست فى هذا العصر دور الصناعة البحرية وجهزت بالعتاد والرجال ، واشرف عليها خبراء من ذوى الشجاعة والدرايـــــة وخاضوا معارك احرزوا فيها على انتصارات قضت على آمال البزنطيين الذى كانوا يطمعون فى العودة الى افريقيا الشمالية ...

وظهرت وظيفة أمير البحر فى الدولة الاموية ، ولا شك ان المغرب عرف هذه الوظيفة ايضا لوحدة النظام الادارى وكان أمير احد الاربعة الكبار الذين تعتمد عليهم الدولة ، بل كان يقـــــال عنه انه قسيم الخليفة فى السلطان ... وجهزت الاساطيل البحرية بالنار الاغريقية ، واستخدم الاغالبة المعاصرون للادارسة قرب قرب صقلية سنة 835 م . سفنا قاذفات وبذلك نافسوا القوة البحرية البزنطية وقضوا عليها ، وكان للعالم الاسلامى مراكز ثلاث للقوة البحرية الاولى فى الغرب والثانية فى الوسط والثالثة فى الشرق ، ويظهر ان قوة الوسط كانت قوية ، وقد تناوبـــت السيطرة عليها قبائل مغربية من زناتة وصنهاجة ، ويذكر ابن الاثير ان زناتة قاومت رغبة المعز بن باديس فى السيطرة على طرابلس فدفع ذلك الـــى بناء اسطول كبـــير للاغارة عليهــــا سنة 1025 م .

الطـــــرب والغنـــــاء :

وفى عهد عبد الرحمن الاوسط دخل الى الاندلس زريـــاب المغنى فحمل الى القصور الاندلسية الطرب ، واستبدل حياتهم الخشنة بحياة مترفة وغير الآداب الاجتماعية والملابس الوطنية، والهندم العام ، وبذلك أشاع فى الحياة الاجتماعية رقة وانحلال ، ولاشك ان القليل منها وصل الى المغرب ورده معظمها الفقهاء الذين قاومهم الحكم فى قرطبة ، وهم الذين اعتصموا فى المغرب ليناضلوا ضد البدع والانحلال الاجتماعى ، ولذلك فما كانـــت الحياة الاجتماعية فى المغرب تتسرب اليها عوامل اللهو والطرب حتى كان الفقهاء والحكام يقاومون ذلك ما استطعوا الى ذلك سبيـــــلا .

الدبيلوماسيـــــة :

بعث المولى ادريس الازهر الـــى الامبراطور شارلمـــــان سنة 801 سفيرا .. واذا كان المؤرخون يتحدثون عن سفـــــير هارون الرشيد الى شارلمان فهم لا يذكرون ان الوثائق الملكية بفرنسا تذكر أن سفيرا جاء من (فوساتوم) (أى فاس) فى عهد شارلمان ، وقد يرى بعض المؤرخين ان هذا السفير ورد علـــى الامير ابراهيم ، وهو لا يوجد بين امراء الادارسة وكان الادارسة يلقنون بالسلاطين . (بالخلفاء) بما فى كتاب الخلافة لرشيـــد رضا ص 24 كما وجه المولى ادريس الاول رسالة الى أهل مصر يدعوهم للدخول فى طاعته .

المرأة فى العصر الادريسى :

كانت كنزة أم ادريس الثانى أول امرأة مغربية مسلمـــة ساست البلاد ووحدتها ونظمتها كما كانت (الحسنى) ، زوجة

المولى ادريس الازهر أعظم امرأة فى عصرها فكان لا يقدم على امر الا اذا استشارها ... ومن نساء العصر الادريسى فاطمة القيروانية مؤسسة أقدم كلية فى العالـم المتمدن والتى بنـت القرويين سنة 245 ... واختها مريم مؤسسة جامع الاندلـس بفــاس .

المغرب والاندلس فى العصر الادريسى :

عندما توفى المولى ادريس الثانى سنة 213 عن ســت وثلاثين سنة خلف اثنى عشر ولدا كان اكبرهم محمد بن ادريس غير ان جدتهم كنزة وكانت نفوذ عليهم ضعفت امام طغيـان عواطفها ، فدعت الى تقسيم المغرب بين هؤلاء الابناء جميعا ... وبذلك وقعت فى غلط طالما هدم الدول ولم تمنع الفتن المستمرة بين هؤلاء الاخوة من توفر بلاد المغرب على اقتصاد واستقرار اجتماعى ، فهاجر كثير مــن الاندلسيــين والافارقة الى فــاس (كما ذكر ابن ابى زرع) فى دولة يحيى بن محمد بن ادريس ، ولا بعد ان يكون سبب ذلك ما عرف فى الاندلس فى هذه الحقبة من غلاء ، ففى سنة ستين ومائتين عم الاندلس قحط ووباء وفتنة وحروب ، كما ذكر ذلك الناصرى فى الاستقصا ، واخذ الامويون الاندلسيون يتدخلون فى شؤون المغــرب بعد ضعف الدولـــة الادريسية ، وتأسيس دولة العبيديين الفاطمية التى اخذت تنازعهم السلطان بواسطة القائد مصالة ابن حبوس المكناسى صاحـب تاهرت سنة خمس وثلاثمائة ، وأخيرا قضت عليهم بواسطـة موسى بن العافية المكناسى ، الذى لم يلبث ان تنكر للعبيديـين وولى وجهه شطر الاندلس ، وعاش المغرب فترة مسرحا لحروب دامية بين الاندلسيين والعبيديين ظهرت من خلالها دويلة صغيرة للادارسة فى جبال الريف . كانت مهمتها درء الخطر عن الامويين

ضد زحف العبيديين الذى كان من المحقق أنه سيصيبهم بعد استيلائهم على الشرق الادنى ، وقد نجح الناصر المروانى فبايعه أهل المغرب ، وخطبوا له على المنابر وبعد نهاية الادارسة كانت دولة زناتة من مغراوة تعمل تحت نظر الامويين بالاندلس ، فكانوا يتأرجحون بين طاعة العبيديين وطاعة الامويين الاندلسيين، وقد وفد منهم سنة اثنين وثمانين وثلاثمائة زيرى بن عطية عطية مؤسس مدينة وجدة على المنصور بن ابى عامر الاندلسى ، ولم تلبث هذه العلاقات ان حلت محلها الجفوة وبعث المنصور الاندلسى مولاه واضحا وامده بما كان معه فى الاندلس من رؤساء البربر ، وانتصر على زيرى حيث دخل ولده عبد المالك المظفر الى فاس وساسها بقوة وحزم غير ان ثورة ابى الكمال تميم ابن زيرى اليفرنى واهزام جماعة المغراوى ثم انتصار المغراويين فى عهد دوناس وفتوح بن دوناس لم يساعد كل ذلك على الاستقرار ، اللهم الا فى فترة دوناس سنة خمس وثلاثين واربعمائة حيث عرفت فاس استقرارا وعمرانا اشاد به المؤرخون .

نشر الكتب :

وأهتم المغاربة كما اهتم المسلمون جميعا بوسائل الكتابة وأدواتها ، فجلبوا الكاغد من الصين ، وانتشر فى المغرب ، تحقيقا لعدالة التعليم ونشره واذاعته بكل الاوساط ، لان ورق البردى أو رق الغزال كان يكلف غاليا ، وكانت معامل صنع الكاغد بفاس والقيروان وشاطبة وسبتة وكذلك ما يتبع ذلك من فن تجليد الكتب . وتزويقها ونجارة الخزانات وغير ذلك .

الارقام العربية :

وفى افريقيا الشمالية استنبط تميم بن خريف الأرقام

العربية التى تعتمد أولا على الزوايا ، وقيمة الرقم ، (وهى كم فيه من الزوايا) ، فاذا كانت فيه زاوية واحدة فهو واحد . أو زوايتان فهـو اثنان ، وهكـذا الى تسع . ففى التسعة تسـع زوايا ، اما اذا كان الرقم خاليا من الزوايا فهو دائرة مستديرة لا زاوية فيهـا .

المـدن الجديـدة فى العصر الادريسى :

وبجانب هذا النشاط الفكرى فى ميدان العلم والثقافـة الاسلاميـة شاهـد العصر الادريسى ازدهـارا معماريـا ذا طابع خـاص ظهـر فى بناء مـدن ادريسيـة أسسهـا حفـدة المولى ادريس بعد ان اجلاهم موسى بن العافية عـن فـاس كمدينة حجر النسر فى غمارة قرب تلبوط كما ورد ذلك فى الجزء الثانى من الدرر البهية ، وكمدينة البصرة الموجودة بين طنجـة والعرائش والمشهورة بكتانها وجلودها ، وقد أسسها ابراهيـم بن القاسم بن ادريس ، وكمدينة اقلام التى أسسها عبد اللـه بن ادريس ، حصن سوق عكاشة قرب ورغة أسسه محمد ابن الحسن بن ادريس ومدينة جراوة التى اسسها عيسى بن ادريس بن القاسم بن ادريس ومدينة نكور التى اسسها سعيد ابـن ادريس بن صالح فى عصر الادارسة ، على ان عدة مدن وبالاخص فى شمال المغرب قد انقرض معظمها كقصر مصمودة المعـروف بمدينة الكتان وهى مدينة (ارجل) كما فى كتاب التحفة القادرية وكمدينة تشميس على نهر سفدد ، وكمدينة باب اقلام السالفـة الذكر ومدينة ماسنة على نهر سبو ومدينة تطوان التى كان يسكنها قديما البرابرة المعروفون بمجكسة ، ثم اعيد بناؤها وكمرسى انزلان فى غمارة وهى اصيلا وكتقساس قرب ازيلا وكقصر تاركا وكحصن مسيكانة وحصن الكركال ومدينة بادريس نكور ومدينة

المزمة ، وكرت وقد بسط الكلام عن هذه المدن الشريف الادريسى فى كتابه نزهة المشتاق .

كان مؤسس الدولة الاموية من اعقاب الامويين ، فلا غرو ان يتسلل التأثير الفنيقى القديم فى العرب للشاميين ثم يحملونه من جديد الى افريقيا الشمالية والاندلس ثم تمذهبه الاندلسيون لمذهب مالك ، فكان قضاتها واصحاب الوضائف السامية بها من المالكيين ، ومن خصائص المذهب المالكى عداؤه للتجديد (أو بالبدع) لذلك وكان عاملا فى اذكاء حماس الشعب واثارة الفتن والقلاقل فى مختلف الاتجاهات السياسية كفتنة النصارى (فى قرطبة) ووقعة الحفرة فى طليطلع و (هيج الربض) فى قرطبة حيث كان موقف الفقهاء المتشدد من الحكم موقفا صارما اضطره ان يشردهم من الاندلس .

الفلسفة والطب :

أما الفلسفة والطب فذكر ابن اصيعة أن اسحاق ابن عمران البغدادى دخل افريقيا فى دولة زيادة الله ابن الاغلب ، وبه ظهر الطب فى المغرب كما شاعت الفلسفة بواسطة تلميذه اسحاق الاسرائلى المتوفى سنة 320 وابن الجزار القيروانى .

الحركة الصوفية :

بدأت الخانقات والرباطات الصوفية تظهر فى العالم الاسلامى قبل نهاية القرن الثانى الهجرى ، وأول خانقات أسس لمتصوفة الاسلام كان بالرملة (كما فى النفحات ص 34) ، وتأثر المغرب بذلك فى هذا العصر وجاء فى الانيس (ج 2 ص 13) فى ترجمة عبد الله بن ياسين انه دخل الى جزيرة قرب الساحل مع سبعة نفر من كدالة وابتنى بها رابطة وتضاعف عدد تلاميذه حتى

بلغ الفا ، ويرى بعض المؤرخين ان وجاج اللمطى هو الذى أسس دار المرابطين فى مدينة نفيس ، وجاء فى زهرة الآس للجزنائى انه كانت فى القرن الثانى حركة رهبانية قرب فاس فى القـــرن الثانى . ويؤيد هذا ما جاء فى (القرطاس ج 1 ص 49) من أن المولى ادريس وجد راهبا فى صومعة قريبة من المكان الذى أسس فيه فاسا ، كما كانت فى جبال (زلاغ) حركة اباضية (أنظـــر تاريخ الاباضيين) .

القرويين مركز دراسى (1) :

وكانت هذه التيارات الداخلية تتجاوب اصداؤها فى القرويين باعتبارها المركز الذى يمحص العناصر الفكرية الدخيلة ، ولذلك شاهدت القرويين عدة حركات اصلاحية مذهبيـــة ومقاومـــــة للتيارات الدخيلة .

الهندسة الجديدة لبناء المساجد :

حقق عبد الرحمن الداخل تقدما فنيا عظيما حين بنى جامع قرطبة (170 هـ) (789 م) الذى تبلور فيه الفن العربى الجديد المطعم بالفن اليونانى والرومانى والبزنطـــى وخصائص الفـــن المغربى ، وقد استمد المسجد اداته ومواده المرمرية وسواريـــة من بقايا الآثار الرومانية كما اقتبس الرسوم من جامع دمشق وبغداد والقدس وهذا المسجد مربع تقريبا طوله 180 متـــــرا وعرضه 131 م ثلثاه اروقة وثلثه صحن ، محاط بسور مدعـــم فتحت فى اضلاعـــه ابواب يضم سقائـــف للنساء وحوضا للمـــاء

---

1) كان جامع القرويين نفسه مكانا لدروس كبار العلماء بالاضافة الى حلقات أخرى فى باقى المدارس والمدارس والمساجد ، كما كانت بالمغرب معاهد لنشر العلم والدين والمعرفة كمعهد وجلح زلو فى السوس .

ومنارة فى الصف المقابل للمحراب فى اساقيف متناسقة عليها قبب جوفاء مطرزة بالمرمر المنحوت والفسيفساء ، والماء يجرى الى نافورته فى قنوات من حجر متقنة البناء اودع جوفها انابيب من الرصاص ، وقد بسط الادريسى فى النزهة وصف هذا المسجد (حقق المستشرق هراى هذا الجزء من الكتاب) ، ولا شك ان هذا المسجد (ظل النموذج المحتذى) فى بناء مساجد المغرب الاقصى المتأثرة بالفن الاندلسى الى حد بعيد ملحقة بروائع الفن القيروانى مفروشة ارضها ببلاط ابيض ، مصنوع محرابها من اخشاب الابنوس والصندل والنبغ والبقم ، واستدير المسجد بطاقات على عدد ايام السنة حتى تدخل الشمس كل يوم من طابق وقد استشار الحكم الفقهاء فى تحريف قبلته الى الشرق ولكن لم يوافقه ابو ابراهيم ، كما وقع فى محراب القرويين .

ولا شك ان المغاربة نقلوا روائع الفن الاندلسى الى بلادهم فى مستهل العصر الادريسى ، ويظهر ان طبيعة المغاربة الديمقراطية ابت عليهم ان يسكنوا فى القصور والمنازل فلم يحفلوا بالمعمارات الشخصية وانما افرغوا عظمة فنهم فى المساجد والقناطر والمدارس والمؤسسات الخيرية (واهم هذه المساجد) فى هذه الحقبة (القرويين) التى تشبه جامع قرطبة الى حد كبير والتى شرع فى بنائها بعد بناء (فاس) .

العمران فى عهد الادارسة (فاس) :

يظهر أن فاس بناها المولى ادريس بقرب قرية قديمة ، ويستأنس بذاك بما ذكره الجزنائى فى كتابه (زهرة الآس) أن ديرا للرهبان كان بقرب فاس . سيما وكلمة فاس لها أصل بربرى مأخوذ من (أفوس) أى اليد ، والجمع (أفاسن) وأسيف النهر ، جمع أسافى ...

وربما كان هذا مبررا لما يذكره بعض المؤرخين العرب ان فاسا اصلها ساف مقلوبة ، ويستأنس له بمجاورتها للانهار ، كما يستأنس له بوجود مدينة أخرى تسمى أسفى ، فاللفظة من حيث مادة حروفها متقاربة ودالة على اصلها البربرى القديم ، ويـرى بعض اللغويين ان اللغة البربرية تغير فى الجمع شكل الكلمـة وتزيد النون فى الآخر فى جمع المذكر وجمع التكبير معا ، ويمثلون بذلك بأفوس الذى يجمع على افاسن كما ان بعض المؤرخيـين العرب يرون ان للكلمة اصلا اسلاميا ويرون فى ذلك حديثا لا مصدر لصحته وهو ما ذكره الجزنائى (جنى زهرة الآس) ص 20 وابى القاضى فى الجذوة « أن النبى حين أسرى به رأى نجمة تلمع فى الارض فسأل عنها جبريل فقال له انها مدينة تسمى (ساف) فقال اللهم أجعل العلم ينبع من صدورهم كما ينبع الماء من حيوطهم ».

وأصبحت فاس فى هذا العصر كما وصفها المراكشى « حاضرة المغرب وموقع العلم منه اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة .. وحل من هذه وهذه من فيهما من العلماء من كل طبقة فرارا من الفتنة فنزل أكثرهم فاس فهـى اليوم عـلى غاية الحضـارة واهلها فى غاية الكيس والظرف ولغتهم أفصح اللغات فى ذلـك الاقليم وما زلت اسمع المشائخ يدوعونها بغداد المغرب ... وعرفت فاس فى عصورها الاولى مئات المساجـد والمدارس والسقايـات العمومية والحمامات ودور الوضوء ... , كما فى زهرة الآس ص 33) .

وذكر كوستاف ليون أن مدينة فاس كانت تزاحم بغداد فى القرن العاشر الميلادى فكان بها نصف مليون نسمة و 800 مسجد وخزانة حافلة بالمخطوطات اليونانية واللاتينية ويذكر (هولوجى روسو) ؤنه اشترى من فاس نسخا مخطوطة نادرة من عشاريات

تتليف حول التاريخ الرومانى . وقد ذكر دلفان (ص 81) ان هذه الخزانة كانت تحتوى على 30.000 مجلد ، وذكر كـــودار (المغرب 2 ص 376) ان يعقوب المرينى استرجع من المسيحيين عددا من المصنفات العربية واهداها الى القرويين وذكر ميلى الموحدين ، ص 101) ان يعقوب الموحدى كانت له خزانة تضاهى مكتبة الخليفة الاموى الحكم الثانى ، وفى عهد المولى زيـــدان السعدى اختلس قنصل فرنسى اربعة آلاف مخطوط عربى وباعها لاسبانيا فكانت من نواة الاسكوريال .

ووصف كابريال شارم مدينة فاس بانها أول مدينة مقدسة بعد مكة وانها كانت مركز القوة العربية فى عنفوان ازدهارهـــا والعاصمة الفكرية والروحية للمغرب الاسلامى ، بفضل معاهدها الخالدة ومساجدها الماجدة ، وذكر مارسى أن افريقية نفسها وهى الوطن العتيق لعلماء الاسلام أصبحت تتلمذ لبرابرة المغرب، وشبه على العباسى باى العباسى هذه المدينة (بأثينا) لوفـــرة علمائها ، ومعاهدها ، ويؤكد قوتيى فضل فاس التى ورثت مكانة وليلى ، بما فيها من مياه تحتاجه المدن الشرقية ، لأن هذه المدن لا يعرف أهلها كيف يجلبون الماء من بعيد .. ويلاحظ أن كوتيى نقل الطابع العام للمدن الاسلامية التى تحتاج الى غزارة المياه ... فى أرض لورثة هواريين شرع فى بناء القرويين (فاتح رمضان 245 ، 30 نونبر 859 م) وعثر أخيرا على لوحة نحت عليها داود بن ادريس كمؤسس للقرويين بينما تذكر المصادر التاريخية ان المؤسس هى فاطمة الفهرية أو فاطمة الهوارية .. وتألف المسجد أول الامر من اربعة بلاطات ابتداء من القبلة ، ولكل بلاط 12 قوسا من الشرق الى الغرب ، ثم فى عهد الامير احمد بن ابى بكر الزناتى وباعانة مالية من الخليفة الاموى عبد الرحمن الثالث زيد فى بناء القرويين فبلغت ثلاثة عشرا اسكوبا وثمانية عشر بلاطا ، ونقلت

الخطبة اليها . وفى عهد يوسف المرابطى أضاف القاضى عبد الحق بن معيشة زيادات أخرى فاصبحت القرويين تتألف من (16) اسكوبا و (11) بلاطا .. ومنذ بنائها وهى مركز دراسى يشرف على التعليم فيها قاضى العاصمة كما يشرف المفتــى على القضايا الاحسانية والشرعية ، وبنيت بجانب القرويين مدارس لايواء الطلبة ومن اقدمها فى عهد المرابطين مدرسة الحلفاويين ومدرسة الصهريج ثم مدرسة العطارين ، ومدرسة الوادى ومدرسة الخصة والمدرسة البوعنانية (المرينية) كما بنيت بها خزائن علمية .. وقد شابهت الفرويين فى بنائها مسجد قرطبة لذلك كانت القبلة على السمت ، ثم ظهر بعد تقدم علم الفلك ميل القبلة ، فرسمت القبلة الصغيرة تشير الى الانحراف ووسع الزناتيون للقرويــين فزادوا بها ، ونقلوا الخطبة اليها وهدمــوا الصومعة الاولــى وبنوا مكانها اخرى ، ذات مائة درجة ، وغشوا بابها الكبــير الصومعة الاولى وبنوا مكانها اخرى ، ذات مائة درجة ، وغشوا بابها الكبير بصفائح النحاس الاصفر سنة 345 ، وجعلوا فى أعلى الباب قبة صغيرة وضع فى ذروتها تفافيح مموهة بالذهب فى زج من حديد أثبت فيه سيف المولى ادريس ، وتحت هذه قبة أخرى أكبر منها للمؤذنين وفى المنارة بيت للمؤقت ورخامة شمسيـــة وساعات رملية وفى سنة 388 صنع المظفر بن المنصور الى عامر منبرا للقرويين من عود الابنوس والعناب .

وعلى غرار جامع القرويين بنى جامع الاندلسيين ، وكان فيه 6 بلاطات وصحن صغيرة ، وزاد فيه عامل الناصر الصومعة سنة 354 ثم زيدت فيه اضافات اخرى ... وما يزال البناء القديم فى القرويين يحتفظ بالطابع القيروانى ، وما تزال الصومعة القروية التى بنيت فى عهد الزناتيين سنة 340 تحتفظ بالشكل القيروانى أيضا .

وبدون شك فقد كان يوجد فن رقيق كما يتجلى ذلك فى منبر المولى ادريس الثانى المحتفظ به الى نهاية القرن السادس الهجرى والذى شاهده مؤلف المقباس ونقل وصفه صاحب جذوة الاقتباس .

وقد استمد الادارسة التصميمات الهندسية من الفن الاندلسى الذى يرجع للتأثير البزنطى والقيروانى المتأثر بالقرطاجى ، فكانت المدن تحاط بأسوار والمواد الاساسية فى البناء من الاجر والجبص والطوب والمرمر ويوجد بتونس سور جراوى بالطوب يرجع لسنة 257 ، (أنظر) كتاب الفن الاسلامى (338 ج 1) كما أن رقادة المبنية سنة 294 بنيت كذلك بالطوب أما جامع القيروان ممحى بالجبص والمرمر والآجر سنة 252 وبعد قيام الفتنة بين اعقاب الادارسة وبين الاندلسيين والفاطميين تزايد عدد الابراج والاسوار المحيطة بالمدن ...

وليس ببعيد بعد تشبع المغاربة بالحضارة العربية والثقافة الاسلامية أن يظهر انحراف عقيدى تدور فى بعض المظاهر الشاذة التى برزت فى ظهور انبياء كذبة كطريف الذى ابتدع ديانة خرقاء تكتل تحت شعارها البرغواطيون وكحاميم بن بن عبد الله المتنبى (سنة 313) بجبل حاميم بقرب تطوان الذى انضمت اليه قبائل غمارة ، وكعاصم بن جميل المتنبى بغمارة ايضا ، وربما كانت النعرة القبلية والعصبية هى العامل فى ظهور هؤلاء المتنبئين الكذبة الذين يصطنعون هذه الوسيلة للزعامة القبلية .

صلات تجارية :

لقد وجدت صلات تجارية بين دولتى الخوارج والادارسة ، فكانت العلاقات التجارية بين تاهرت وفاس فى نطاق محدود ،

ويشير (ابن حوقل) الى انتظام القوافل بين سجاماسة وفاس . وقد توجه كثيرون من صفرية فاس الى سجلماسة عاصمة صفرية المغرب طلبا للعلم والتجارة ، كما كان للتجارة المدراريين نشـــاط فى أسواق مدينة فاس ، وكان طبيعيا أن تتوثق الصلات التجارية الصلات التجارية بين دولتى الخوارج والدولة الاموية بالاندلس لما كان بينهما من علاقات سياسية ودية ، تبادل بنو مدرار مـــع مع أموى الاندلس السلع والمتاجر فكانوا يصدرون القمح والسكر والكرم والثمـــر فى مقابل الثيـــاب والقطنية والثياب الكتانيـــة والحريرية التى اشتهرت بها قرطبة ، وكثيرا ما آثر بعض التجار والحرفيين الاندلسيين الاقامة بتاهرت والعمل فى اسواقها ، بينما كان البعض الآخر يعمل فى نقل المتاجر بين الدولتين . أما عن تجار الخوارج مع بلاد السودان ، فقد شكلت حجر الزاوية فى نشاطهم الاقتصادى . وكانت شعوب السودان أخلاطا شتى من العناصر الزنجية القاطنة بين البحر الاحمر شرقا والمحيط غربا ، وبـــين المناطق الصحراوية أو شبه الصحراوية فى الشمال وبين نطاقات الغابات الاستوائية فى الجنوب . ويصف صاعد الاندلســـى فى (طبقات الامم) هذه الشعوب بالفوضى على الرغم من (وجود سياسة ملوكية) تضبطهم ، وناموس الهى يحكمهم . وكانت هذه الشعوب تعيش فى شكل جماعات يرأسها أكبر الرجال سنا .

القرن الخامس والسادس الهجريان

1038 م — 1147 م

420 هـ — 542 هـ

المرابطـــون

تستوطن قبيلة المصامدة أرضا واسعة فى المغرب ، ومنهـا قبائل صنهاجة وغمارة فى الشمال ، وقبائل صنهاجة فى الجنوب الاطلس الكبير والصغير ومعظمهم فلاحون مستقرون .

وكانت صنهاجة تعتبر أعظم قبيلة مغربية بلغ عدد فصائلها نحو السبعين ، ورغم ادعاء (جوتيه) عدم وحدة قبائل صنهاجة ، فان المؤرخين العرب وجدوا فى وحدة العوائد واللهجات دليلا على وحدة اصل هذه القبيلة العظمى . ومن هذه القبيلة دولة المرابطين الذين جاؤوا وحدوا المغرب ، وأنقذوا الحضارة الاسلاميـة فى الاندلس ، وقوضوا حلف زناتة ، وقضوا على مملكة غانة الزنجية المستولية على اقتصاد افريقيا الجنوبية .. ومـن أشهر قبائـل مصمودة ، لمتونة وجدالة ومسوفة ولمطة وترغة ، وجزولة .

وقد سيطرت قبيلة صنهاجة على أجزاء المغرب فى بدايـة الحكم الاسلامى وكانـت تنقسم الـى (صنهاجة شماليـة) و (صنهاجة جنوبية) كما كان التنافس على أشده بينهما وكلاهما شعر بدوره فى توحيد المغرب تحت شعار امبراطورية اسلامية مغربية حيث تم انصهار العنصر العربى والبربرى فى بوتقة الوحدة المغربية الاسلامية ، وكلاهما تنافس كاشد ما يكون التنافـس

على توحيد المغرب تحت امرته ، وقد شاهد العصر الادريسى هذا الصراع الذى تمت فيه الغلبة للصنهاجيين على يد عاملهم باديس الزيرى مؤسس مدينة (اشير) غير ان انقسام الزيريين عاجل دولتهم ، ولذلك لم يمكن لهم من المغرب الاقصى ، بينما كان عبد الله بن ياسين يغرس فى تخوم الصحراء نواة الدولة المرابطية واذا كان المؤرخون يذكرون تعريب بنى زيرى الذين كان فيهم الكتاب والشعراء والفقهاء وبالاخص فى عهد (تميم بن المعز) احد ملوكهم ، فان عبد الله بن ياسين كان زعيما روحيا وسياسيا لدولة الملثمين ، وكانت نظريته الدينية فى تأسيس دولتهم (المرابطين) الذين كانوا نموذجا للعمل المتواصل لسيادة المغرب المسلم ، وقد اعتمد عبد الله بن ياسين نظام الرباطات الذى أسس فى عهد هرتمة بن اعين سنة 181 . كما حقق دعوه ان عمران الفاسى لبناء دولة اسلامية مالكية المذهب .

الثقافة المرابطية :

ولم يكد المرابطون يمسكون زمام قيادة البلاد المغربية حتى سعوا الى توحيد افريقيا الشمالية ، فعلا وفقوا فى تنظيم البلاد واعطائها مددا روحيا جديدا ، واستعانوا لتحقيق اهدافهم التربوية بجماعة من العلماء الواردين عليهم من الاندلس والقيروان .. اذ أن اشتغال ملوك الطوائف بتوافه الامور أضعف ثقة العلماء بهم ، فتوجهوا الى المغرب لتدعيم الدولة الفتية كما اعانهم على ذلك وفود من علماء القيروان الذين اموا المغرب الاقصى بعد ان قضى بنو هلال على القيروان وهدموا معالمها وخربوا مملكة بنى زيرى الصنهاجية فهاجر العلماء الى المغرب الاقصى ناجين بأنفسهم ، وحسب ما ذكره النويرى فى نهاية الارب ، فان مدارس القيروان اقفرت بعد غزوات عرب بنى

هلال ... وهكذا كان القرن الرابع نهاية مجد القيروان وبداية ازدهار الثقافة الفقهية فى المغرب . ويقول المراكشى فى المعجب « انقطع الى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله ، حتى اشبهت حضرة بنى العباس فى صدر دولتهم ، واجتمع له بدولته من اعيان الكتاب وفرسان البلاغة » . وفى التكملة ، والاحاطة والمعجب وصلة الصلة لابن الزبير وقلائد العقيان وكتاب الفصيح ، والجذوة ، ذكر لعدة مشاهير الادب والعلم فى هذا العصر الوافدين على المغرب ... ولم يحفل المرابطون بالعلماء والادباء والفلاسفة والكتاب فحسب ، بل استقدموا الفنانين والصناع من الاندلس ، وكان الخلفاء المرابطون يجالسون العلماء والادباء والفقهاء بصفة خاصة حيث يشاورنهم فى أمور الدنيا ومشاكل الحكم ولا يبرمون امرا الا على اعتبارات شرعية .

وقد ضاقت رحاب القرويين بمن يؤمها من الطلاب ورجال العلم حتى اذا كان اوائل القرن السادس للهجرة اجتمع العلماء وقرروا ان يتكلف القاضى عبد الحق بن معيشة باصلاح القرويين وتوسيعها ، وقد شجعه على بن يوسف المرابطى على هذا الاصلاح ، فقام القاضى المذكور بشراء كثير من الاملاك المجاورة، فتوسعت القرويين وزيدت فيها بلاطات وابواب وزخرفت بعض قبب اساكيبها ... وبدون شك فقد نمت فيها الحركة الدراسية اكثر من أى عهد مضى ، وكان المشرف على تسيير النظام بها عادة هو القاضى الذى يقيم بجانبها ويسهر على الدراسة بها ويعطى الكراسى للمستحقين من اعلام الفقه والفتيا وباقى العلوم ، وكان يجرى على الطلبة امتحانا لتخريج المبرزين على شكل نظام الاجازة ، كما كان بها « مفتى » همه أن يرشد الناس الى دينهم ويوجههم فى الدفاع عن حقوقهم وكان يسند اليه جانب من الاوقاف يصرفه باجتهاده فى المشاريع الاسلامية .

وعندما ازدهرت الدراسة المركزية بفاس ومراكش ومكناس، بنيت عدة مدارس ملحقة بالمساجد لايواء الطلبة تحتوى على مرافق للسكنى والدراسة والمطالعة والصلاة مع اعطيات وارغفة للتشجيع على طلب العلم ومرتبات فى كل شهر ، ولم يكن ابن مرزوق مصيبا حين زعم ان ابا يوسف يعقوب المرينى أول من اسس بفاس (مدرسة الحلفاويين) سنة 670 ، اذ الواقع ان بناء المدارس كان معروفا قبل هذا الوقت بكثير وان كان يظهر انه اعتمد على ما ذكره المؤرخون من ان المفضل العذرى صاحب الشرطة والحسبة هو أول من سن بناء المدارس وعلى يديه بنى يعقوب المرينى المدرسة المذكورة . وذكر مؤلف القرطاس ان أول مدرسة عرفت بفاس هى مدرسة المرابطين ، بناها واجاج بن زلو اللمطى .

وقد ادى هذا التشجيع للحركة العلمية ان توفرت البلاد على عدد كبير من المدارس وتقدمت حركة التاليف والتدريس تقدما مدهشا رفع المغاربة الى مصاف رجال الفكر فى العالم الاسلامى ، وابانوا عن ذكائهم وتفننهم فى سائر الفنون والمعاريف من فلسفة وطب وعلوم لسانية ودينية كما شجعوا الدراسة فى بلادهم .

ومن المعروف ان يوسف بن تاشفين المرابطى اسس بفاس مدرسة (الصابرين) المسماة من بعد بمدرسة بومدين كما جاء فى كتاب « الاخوان ، فى شرفاء وزان » للمؤرخ القادرى ، وكان تأسيسها فى اوائل القرن الخامس الذى شاهد انتصارات يوسف بن تاشفين المرابطى .

ومن ابرز مدارس المغرب فى عهد المرابطين ، كلية القرويين بفاس ، ومدارس سبتة ، ويذكر ابن الابار عدة مدارس أخرى

كانت بطنجة واغمات وسجلماسة وتلمسان ومراكش ، وكانت هذه المدارس تأوى علم القيروان وثقافة الاندلس المشهورة ، حيث نبغ فيها اعلام كبار ، منهم فى علم الفقه والحديث ابو على كما نبغ منها القاضى عياض وابو الوليد ابن رشد مؤلف كتاب المقدمات الاوائل للمدونة والبيان والتحصيل الى آخر كتبه القيمة.

وكذلك آوت قرطبة عددا من الكتاب والادباء ترجم لمعظمهم ابو جعفر ابن ابراهيم المعافرى المعروف بالفتح ابن خاقان ، وكان جلهم يحذقون لغات النصارى المجاورين ويترجمون عنهم فتم النقل والترجمة من الحضارة المسيحية واللاتينية الى اللغة العربية .

كما اشتهر فى ميدان الشعر العربى فحول القريض كابراهيم بن خفاجة الذى تغنى بأمجاد المرابطين فى قصائده وظهر فى ميدان الشعر العامى المعبر عنه بالزجل ابن قزمان المشهور بأغانيه الزجلية كما ذاع فى فن التوشيح اسم الشاعر الاعمى التطيلى ، وابو بكر ابن الابيض .

وتألق فى عالم الفلسفة نجم مالك بن وهيب وزير على بن يوسف ونجم الفيلسوف ابى بكر ابن باجة (ابن الصائغ) الذى مزج مذهب الشك اليونانى بالفلسفة الاسلامية .

أما الطب فقد اشتهر من بين رجاله أبو العلاء ابن زهر بن عبد الملك مؤلف كتاب الاقتصاد .. واذا كان جل هؤلاء الاعلام ممن درس بالاندلس ووفدوا على المغرب ، فان عبقريتهم عبقت فى ربوعه ، وتفتحت الهاماتهم تحت سمائه ... بل ان كثيرا من علماء المغرب وادبائه استوطن الاندلس فى عصر المرابطين والموحدين من بعد ، وكان حجة فى بابه ، كزاوى بن مناد بن عطية الصنهاجى وخلوف بن خلف الله الصنهاجى قاضى غرناطة ،

وموسى بن حماد الصنهاجي وكعبد الملك ابن مروان اللمتونى ، وابى شعيب ايوب بن سعيد الصنهاجي وابى محمد عبد الجليل بن ويجلان كما فى (التشوف لابن الزيات) .

ويذكر الدكتور حسن احمد محمـود ان امراء المربطـين اقبلوا على الثقافة كما اقبل عليها عامة الملثمين كعمر بن الامام الصنهاجي أمير المرية ، وكالمنصور بن محمد بن الحـاج داود الصنهاجي اللمتونى ، وميمون بن ياسين الصنهاجي الذى رحل الى مكة وحدث بالاندلس ، وكأبى بكر سير الصنهاجي ، وكتميمة بنت يوسف الشاعر . ولعال دوزى كان مخطئا حين اتهم المرابطين (فى كتابه مباحث فى تاريخ الادب الاسبانى فى القرون الوسطى) بالجمود والتعصب واعطاء السلطة التامة للفقهـاء ، ذلـك لان المرابطين شغلتهم فى أول امرهم فكرة الجهاد فلم يحفلوا بالفن والادب والطرب ، ولكن لم يلبثوا ان شجعوا الادب والعلوم بعد استقرار النظام واستتباب الامـن .

وقد نبغ فى هذا العصر اعلام كبار بفاس كمحمد ابن احمد بن ابراهيم بن عيسى بن هشام من علماء أواخر القرن الخامس، وكان يلقى درسه بجامع القرويين وتوفى بها سنة 546 ، كما فى الذيل والتكملة لابن عبد الملك (الجزء الرابع) ، ومنهم احمد بن عبد الصمد ابن عبيدة القرطبى المولود سنة 519 والمتوفى سنة 582 (كما فى الديباج المذهب ص 1) كان من اعلام الدراسة بالقرويين ، ومنهم محمد ابن قاسم التميمى ، مؤلف البرهان فى ذكر حنين النفوس الى الاحبة والاوطان ، واللمحة فى ازواج النبى واولاده ، وتوفى سنة 593 . ومنهم محمد بن حكم الجدامى عالم واديب وله شرح على الايضاح مات سنة 538 . ومنهم خير الله الاندلسى ، الفقيه الذى أدخل فقه مالك الى فاس (من رجـال

القرن الرابع) . ومنهم ابوبكر خلف المواق قاضى فاس مؤلف كتاب المكاييل والاوزان مات سنة 599 ، ومنهم أبو حسن على الكتانى محدث وحافظ وتلميذ للغزالى ولد سنة 476 ومات سنة 569 . ومهم المقدمات الاوائل للمدونة والبيان والتحصيل الى 569 . ومنهم ابو خزر الاوربى حافظ وفقيه ومدرس مات سنة 572 ، ومنهم ابن الرمانة محمد بن على القلعى قاضى فاس كان يميل الى المذهب الشيعى ولد سنة 478 وتوفى سنة 567 . ومنهم الفيلسوف ابن الصائغ الذى شبهه ابو حيان بابن سينا مـات سنة 533 . ومنهم يوسف بن عبد الصمد بن يوسف بن على كان مؤرخا واصوليا ودرس بالقرويين سنة 613 بفاس ، كمـا فى الجذوة (والذخيرة السنية ص 83) .

وشاهدت فاس فى القرن الرابع الهجرى نشاطا ثقافيـا وعلميا وكانت زيادة على الدراسة الاسلامية مشهورة بالدراسة العلمية ، فقد جاء فى كتاب طب الانسان بالمغرب (لجورج ألو) ان فى القرن الرابع الهجرى كانت بفاس مدرسة طبية زاهرة .

التعليـــم :

أما عن (التعليم الاولى) فقد ترك لنا القابسى المتوفـى سنة 403 هـ . دراسة مهمة هى رسالته المفصلة لاحوال المعلمين والمتعلمين التى تعتبر وثيقة فريدة مـن نوعها ، وتوضح لنـا المناهج والاساليب التعليمية فى افريقيا ، وقد اخرجها الدكتور الاهوانى (سنة 1955) فى كتابه عن (التربية فى الاسلام) ومنها نعرف حالة الثقافة الاسلامية ومدى ازدهارها فى عهد القابسى ، أول من اعتنى جديا بدراسة موضوع بيداغوجى فى الاسلام ، فابن مسكوية والغزالى وابن العربى وابن خلدون الذين يعتبرون من رواد البيداغوجية العربية الاسلامية متأخرون عن القابسى

ولم يسبقه الا محمد بن سحنون المتوفى سنة 256 برسالتـــه الصغيرة عن آداب المعلمين التى اعتمدها القابسى ونقل فصولها فى كتابه ، والمهم ان القابسى افادنا كثيرا عن التعليم الاسلامى العربى فى عصره ، وما قبله ، لأن ما ذكره كان امتدادا لما سبقه ، ونستنتج من هذه الرسالة ان الطفل كان يذهب الى الكتاب فى السابعة من عمره غالبا بعد أن يكون تعلم قايلا عن ابيه فى المنزل، ويرى الدكتور الاهوانى ان السن لم تكن معينة بدقة بدليل قول بدليل قول ابن العربى فى احكام القرآن : (وللقوم فى التعليـــم سيرة بديعة ، وهى أن الصغير منهم اذا عقل بعثوه الى الكتاب) ، وتنتهى حياة الطفل فى الكتاب اذا بلغ سن الاحتلام فى الغالب ، ثم تبتدىء فى حلقات المسجد كما ذكر احمد أمين فى ضحى الاسلام، او الى مدارس منظمة ، وجاء فى كتاب التربية عند العرب لخايل طوطوح ان التعليم عند العرب يمر فى المراحل الآتية : المكتب ، والجامع ، ومجلس العلم والادب ، والمدرسة أو الكلية ..

ولخص الدكتور الاهوانى رسالة القابسى التى تصور حالة التعليم الاولى فى القرن الرابع الهجرى ، حيث كان الصبى يبعث الى الكتاب اذا عقل وكانت هذه الكتاتيب منتشرة فى انحاء المدن والقرى ، وقد تكون جوار المساجد حيث يقوم عليها معلم يستأجر مكانا للتعايم ، وقد يشترك معلم أو أكثر فى تعليم الكتاب حيث يعلمون الصبيان مقابل اجر زهيد اسبوعيا أو شهريا أو سنويا ولا تخضع هذه الكتاتيب لاية سلطة ادارية أو تفتيشية .

ويذهب الصبى مبكرا الى الكتاب فيبدأ بحفظ القرآن ثم يتعلم الكتابة ثم يعود الى المنزل ويرجع بعد الظهر ، ويظل به الى آخر النهار ويختلف الاطفال الى الكتاب طيلة ايام الاسبوع الا يوم الخميس ظهرا ، وسحابة يوم الجمعة ، وربما قرأوا يـــوم

الجمعة مساء فى بعض المدن ليطوفوا مع الفقيه على المساجـد لقراءة القرآن ...

ويتعلم الصبى اثناء الدراسة القرآن والكتابة والنحـو والعربية ، وقد يتعلم الحساب والشعر واخبار العرب اذا تطوع المعلم بذلك ، على ان اهم ما يدرس هو حفظ القرآن على الطريقة الفردية أو الجماعية ، ولكل صبى لـوح يكتب فيه ما يحفظـه ويعاقب الصبيان الكسالـى أو المتلاعبون بالنصـح والتهديد ، والضرب ، وتنتهى مرحلة الحفظ بالختمة (الحدقة) فى بعـض المدن ، وعندئذ اما ان ينتقع عن التعايم ويتجه الى الصناعة ، اما ان ينصرف الى المسجد والمدرسة للتبحر فى التعلم .

والقابسى انما يصف حالة التعايم فى عصره فيقر المستحسن منها على أساس شرعى وينهى على العوائد المذمومة ويبين مدى عدم جدواها ، والجديد فى رأى القابسى هو دعوته الى التعليم الالزامى حسب التوجيه الاسلامى حيث اوجب تعليم الصبـى من مال ابيه أو وصيه أو احد اقاربه أو من مال المحبسين .

ولعل الصورة التى قدمها القابسى عن التعليم فى القـرن الرابع لم تختلف كثيرا عما بعدها من القرون ، اللهم الا فى مظاهر شكلية حيث ثم تطويرها نسبيا ، واصبح المحتسب سلطان عليها وواقفت الاوقاف على بعضها .

وهذه الصورة التى يعرضها القابسى هى المتبعة فى شمال افريقيا مع تغيير محلى تحدث عنه ابن خلدون باسهاب ، وكان هناك من رجال التربية من لا يرى ذلك ، وينقل مؤلف الديباج فى ترجمة القاضى ابى الوليد الباجى عن ابن العربى قوله فى وصف التعايم بالاندلس .

« فكان الصبى عندهم اذا عقل ، فان سلكوا به امثل طريقة لهم علموه كتاب الله ، فاذا حذقه نقلوه الى الادب ، فاذا نهض منه حفظوه الموطأ ، فاذا اتقنه نقله الى الدونة ، وفى كتاب الاحكام يصف حالة التعليم فى شرق فيرى رأى المشارقة فى الاخذ بعدم حفظ القرآن حيث انهم . اى المشارقة (يؤخرون حفظه ويبدأون باللغة والحديث ، فربما كان الرجل اماما وهو لا يحفظه وذلك لتعلموا ان المقصود حدوده لا حروفه » .

على ان ابن العربى كان منتقدا لطرق التعليم فى عصره ، كابن التوام الذى نادى بتعليم الحساب قبل الكتاب والواقع ان المشارقة كالمغاربة كانوا يبدأون تعليمهم بحفظ القرآن كما ذكر ابن حزم فى الملل والنحل ونقل ذلك الدكتور الاهوانى فى كتابه عن القابسى .

وكان التعليم الاول منتشرا فى انحاء المغرب كله ، وكاد ان يكون الزاميا عملا بوصية الرسول صلى الله عليه وسلم : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » ، وكما كان الكتاب يأوى الاطفال ، كان يأوى الطفلات ما دمن صغيرات ، وقال سحنون : « اكره للمعلم ان يعلم الجوارى ويخلطهن مع الغلمان لان ذلك فساد لهن » ، وكان من المعلم من يعلم النساء على حدة ، وجاء فى ترتيب المدارك للقاضى عياض ان : « من سيرة عيسى ابن مسكين فى غير مدة قضائه انه كان اذا اصبح قرأ حزبا من القرآن ثم جلس للطلبة الى العصر ، فاذا كان القابسى يرى » (ان سلامتها من تعلم الخط انجى لها) ، واهتم رجال التربية الاسلامية بالمعلم كثيرا ، فاشترطوا فيه شروطا كثيرة من حفظ للقرآن وسلوك مستقيم حتى يكون نموذجيا خليقا بتربية جيل مهذب .

أما منهاج الكتاب القرآنى فكان مستمدا من التيارات

الفكرية السائدة فى مجتمعه ، وكانت هذه التيارات دينية خالصة، تهدف الى السعادة الاخروية من طريــق السلوك المستقيــم فى الدنيا ... وذكر القابسى القيروانى منهاج التعليم فى عصره ، وهو ينقسم الى قسمين : الى مواد اجبارية كالقرآن والصــلاة والدعاء وبعض النحو والعربية والقرآن والكتابة ، والى منهاج اختيارى كالحساب والشعر وايام العرب والنحو ، والعربية ، وكان هذا المنهاج هو المتبع فى القرن الثالث كما فى آداب المعلمين لمحمد بن سحنون ، وكان الاسلوب التعليمى يرتكز على استظهار القرآن عن ظهر قلب أو ما يعرف اليوم بالتعليم اللفظى ، وهو يعتمد على الحافظة فقط ، فكان الطفل يستظهر القرآن ضبطا وشكلا وحفظا أو احيانا اذ تخصص فى حفظ القرآن يتلـــــوه بالروايات السبع .

وكان المعلم يتقاضى على التعليم اجرا حدده عاماء التربية القدماء ، ويذكر ، القابسى (أن الأجر ضرورى لانه لو اعتمد على التطوع لضاع كثير من الصبيان ، ولما تعلم القرآن كثير من الناس فتكون هى الضرورة القائدة الى السقوط فى فقد القرآن من الصدور) والداعية التى تثبت اطفال المسلمين على الجهاد .

ولدينا وثيقة اخرى على العلوم المتداولة فى عصر المرابطين بالمغرب والاندلس كتبها ابن حزم فى رسالته مراتب العاوم ، ففى هذه الوثيقة محاولة لحصر العلوم وذكر امهات بعضها ...

بدا ابن حزم مراتب العاوم ، فذكر ان من ذلك علوم درس رسمها كعلم السحر والطلاسم وعلم تأليف الموسيقى واللحون ، وعلم الكيمياء .

أما العلوم التى تكتب فتكون بالتلقيــن عندما يفهمــون ما يحاصلون به فيعلمون أولا الخط وتأليف الحروف والهجاء ،

ثم يعلم القرآن فيحفظ لانه فيه تدريب وتمرين اللسان على التلاوة وتربية الفضائل ثم بعدها يعلم النحو واللغة وذلك بكتاب (الواضح) للزبيدى و (الموجز) لابى السراج المتوفى سنة 316 ، وابن حزم ضد التعمق فى دراسة النحو الا للمختصين .. وتدرس اللغة (بالغريب لمؤلفه ابى عبيد) و (مختصر العين) للزبيدى فاذا توغل فى دراستها فكتاب (خلق الانسان) لثابت و (الفرق) له أيضا و (المذكر والمؤنث) لابن الانبارى ، و (الممدود والمقصور والمهموز) لابى على القالى ، و (النبات) لابى حنيفة ، ويحفظ شعر الحكم ، كقصائد حسان ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وصالح بن عبد القدوس، وينهى ابن حزم عن الاكثار من رواية الشعر ، وبعد تعليم النحو واللغة ينتقل الى علم العدد فيحكم التلميذ الضرب والقسمة والجمع والطرح ، ثم يتعلم المساحة والارثماطى ويدرس بعد هذا الكتاب اقليدس ، ويطالع المجسطى ، وينصح ابن حزم من الاشتغال بأحكام النجوم ثم يدرس علم المنطق ، وعلم الاجناس ، والانواع ، والاسماء المفردة والقضايا والمقدمات والقرائن والبراهين ، ويدرس الطبيعيات وعوارض الجو ، وتركيب العناصر فى الحيوان والنباتات والمعادن ، ويدرس التشريح ثم اخبار الامم السالفة والخالفة والتواريخ القديمة والحديثة ، وهذه العلوم اذا درست باتقان فانما تقضى الى طلب البرهان من العلوم الضرورية لمعرفة التوحيد والاسلام ، وبعد توجيهات حزمية لطالب العلم ينتقل الى دراسة علم شريعة الاسلام فيقسمه الى أربعة : علم القرآن وعلم الحديث ، وعلم الفقه ، وعلم الكلام .

فعلم القرآن ينقسم الى معرفة القرآن ومعانيه ، وعلم الحديث ينقسم الى معرفة متنه ، ومعرفة روايته ، وعلم الفقه ينقسم الى احكام القرآن ، واحكام الحديث ، وما اجمع المسلمون

عليه ، وما اختلفوا فيه ومعرفة وجوه الدلالة وما صح منها وما لا يصح ، وعلم الكــلام ينقسم الى معرفة مقالاتهم ومعرفـــة حججهم ، وما يصح منها بالبرهان وما لا يصح ، وعلم النحو ينقسم الى مسموعه القديم وعلله المدثه ، وعلم اللغة مسموع كله ، وعلم الاخبار ينقسم الى مراتب ، أما علم الممالك أو علم السنين ، واما علم البلاد واما علم الطبقات ، وعلم النسب جــزء من علم الخبر ، وعلم النجوم يشمل الهيئة والتعديل وعلم الطب ينقسم الى طب النفوس وطب الاجسام ، وهو اما عمل باليــد أو يقوى الادوية وينقسم الطب كذلك الى قسمين : حفظ الصحة أو معاناة المرض ، وعلم الشعــر ينقسم الى روايته ومعانيـــه ومحاسنه واقسامه ووزنه ونظمه . وهناك علمان يكونان نتيجة العلوم اذا اجتمعت أو من نتيجة اجتماع علمين منها فصاعدا وهما البلاغة وعلم العبارة .

ثم يزيد ابن حزم : ان كل ما علم فهو علم ويدخل فى ذلك النجارة والخياطة والحياكة وتدبير السفن وفلاحة الارض وتدبير الشجر والبناء وغير ذلك .

ويلاحظ ابن حزم ان هذه العلــوم يتعلق بعضها ببعــض هذا ومن الجدير بالذكر ان تكون تعاليــم ابن حزم وآرائـــه الاصلاحية ودعوته للتحرر من الجمود الفقهى تجد آذانا مصغية فى المغرب ويتبنى المهدى ابن تومرت الكثير منها فيذيعه وينشره فى تعالميه وآرائه ، ويلمس فى كتاب اعز ما يطلب هذا الاثر من تفكير العلامة ابن حزم ، بل كان جل مفكرى الموحدين من اتباع مذهب ابن حزم .

وانتقلت الدراسة الادبية والفقهية والعلمية التى ازدهرت فى طلبا مساعدة العلماء لابراز مقاصدهما فساعدوهما على تدويــن

الفقه كاملا وحرراه طبق ما يوافق بلادهم ولذاك نرى احكــام القوانين والقضاء لا تزال رديئة وسيئة فى العدوة الشماليــة ... ويذكر بعض المؤرخين المغاربة بعد نقله لهذا النص ان (هربرت) هذا هو (البابا سلفستر الثانى) الذى يقال انه درس بالقرويين غير أنى أشك فى هذا الزعم ، لأن (سلفستر)مشهور بأنه ادخل (الصفر) فى العدد ولم يدخل (القانون) الفقهى ، وربما كـــان سلفستر هو الاسقف جربير Gerbet d'Auillac الذى تحدث عنه (كريستوفيتش) بأنه وصل الى القرويين بفاس ايام كانت اوربا تعيش فى عصورها الوسطى ، والحقيقة ان الازدهار الثقافى فى المغرب الى ربوع اوربا عن طريق الاندلس مما اطنب مؤرخو الاندلس فى ذكره ، ويجدر ان ننقل مانقله ابو الوليد محمد بــن عبد الله بن خيره فى تعليقاته على (النهاية شرح الهداية) فى أن طلبة العلم من الافرنج الذين كانوا يسافرون الى غرناطة لطلب العلم اهتموا كثيرا بنقل فقه الاسلام الى لغتهم لعلهم يستعملونه فى بلادهم لرداءة الاحكــام فيها خصوصا فى المائتــين الرابعــة والخامسة من الهجرة ... وهؤلاء (هربرت) و (البرت) اللذان المغرب طيلة العصر المرابطى مهد لنشاط فكرى كبير فى المغرب عم العاصمتين (فاس) فى الشمال (مراكش) فى الجنوب وانتهى الى أوربــا ..

من اعلام الفكر فى عصر المرابطين المؤسسين لجامعة القرويين :

ومن اعلام الفكريين عبد الله ابن محمد بن حماد بن محمد بن زغبوش المكناسى كان يأخذ العلم بفاس لما هاجمها الموحدون اواخر العهد المرابطى ، وممن رحل لفاس ــ آنذاك من تلمسان ــ حسن بن ابراهيم بن عبد الله ابن ابى سهل التلمسانى المعروف بابن زكون والمتوفى عام 553 ــ 1158 : كتب بها عن عيسى بن

يوسف بن الملجوم الفاسى المتوفى عام 543 ـ

ومنهم عبد الرحمن بن محمد ابن عبد الرحمن ابن صقر الانصارى البلنسى ثم المرى المتوفى بمراكش عام 523 ـ 1128 ومنهم عبد الله بن يوسف بن غالب الانصارى البلنسى ، ومنهم ابراهيم بن يوسف بن محمد بن دهاق الاوسى المالقى المتوفى عام 611 ـ 1214 روى بفاس عن ابى الحسن بن جبير وابى الحسن على بن اسماعيل ابن حرزهم الفاسى المتوفى عام 559 ـ 1163 قال فى الجذوة حدث عنهما بالموطأ .

واصبح جامع القرويين جامعة عامية تشد الرحلة اليه ويدل بذلك ما جاء فى ترجمة ابى حرزهم الفاسى الآنف الذكر : انه كان يقصد من البلدان للقراءة عليه ، ودليل آخر على مركز فاس العلمى بالمغرب حينئذ (فى صدر المائة الخامسة) ما ذكره احد علماء الاندلس الواردين على المغرب وهو ابو عبد الله محمد بن احمد بن ابراهيم بن عيسى بن هشام بن جامع الانصارى الخزرجى الجيانى المعروف بالبغدادى لطول سكناه بها ، (والذى وصفه فى (الذيل والتكملة) بأنه كان فقيها ، حافظا ، مشاورا ، عارفا بأصول الفقه) من أنه لما قفل من المشرق فى حدود سنة 515 : نزل أول قدومه مدينة فاس وقعد بغربى جامع القرويين منها يدرس الفقه مدة ، ثم تحول الى بلده جيان الى عام 539 هـ فخرج من بلده وقصد مدينة فاس ونزلها عام 544 ـ وأقام بها يدرس الفقه وأصوله ومسائل الخلاف ، ولم يزل بها مقبلا على نشر العلم وافادته الى أن توفى يوم الجمعة لخمس بقين من ذى الحجة عام 546 .

أما المساجد المعروفة بالدراسة العلمية فى هذا العصر فهى المسجد المنسوب لابن حنين وكان يقرىء به أبو الحسن على بن

احمد بن ابى بكر الكتانى القرطبى المعروف بابن حنين ومسجد زقاق الماء بعدوة القرويين ، وقد كان يدرس فيه أبوبكر بن عثمان بن مالك ، من شيوخ ابى الحسن ابن حرزهم ومسجد الحـوراء الذى تصدر للاقراء به ابوبكر محمد بن محمد بن عبد الله بن مغاور اللخمى الاشبيلى المتوفـى سنة 503 الموافـق 1109 ، ومسجد طريانة ، وهو الذى كان المهدى بن تومرت مؤسس الدولة الموحدية نزل به مدة اقامته بفاس فى السنين الاولى لدعوته وجامع فاس الذى كان يلقى فيه العلم الشيخ ابو مدين . وقد ورد ذكر هذا المركز الدراسى فى (التشوف) و (أنس الفقير) كما جاء فى عبارة التشوف فى الحكاية عن أبى مدين : (فقيل لى ان رأيت ان تتفرغ لدينك فعليك بمدينة فاس ، فتوجهت اليها ، ولزمت جامعها وتعلمت الوضوء والصـلاة ، وكنت أجلـس الى حلـق الفقهاء والمذكرين ، فلا أثبت على شىء من كلامهم الى ان جلست الى شيخ ثبت كلامه فى قلبى ، فسألت من هو ؟ فقيل لى : أبو الحسن ابن حرزهم .

ولا يمكـن ان نغفل فى هـذا العصر ما اسـداه المغاربـة والاندلسيون الى اللغة العربية ، حيث عملوا على تطوير النحو وبرزت تآليف فى هذا الفن آراء مستقلة . وكان من أشهر المؤلفين فى هذا الميدان ابو الحجاج يوسف بن عيسى المتوفى سنة 475 الذى شرح كتاب سيبوية ، وعبد الله بن محمد البطليوسى المتوفى سنة 521 الذى شرح جمل الزجاجى فى كتاب الحلـل فى شرح ابيات الجمل ، واصلاح الخلل الواقع فى الجمل ، والمسائـل المنشورة فى النحو وقواعده ، كما ألف ابن سيده الضرير المتوفى سنة 458 كتاب العالم والمتعلم فى النحو ، وشرح كتاب الاخفش فى النحو ايضا ، والف ابن هشام كتابا فى الرد على الزبيدى وابن المكى فيما زعماه من لحن العامة ، واقتفى اثره ابن هانىء فألف

ابن هانىء فألف كتاب (ارشاد الضوال) فى لحن العامة .

الحركـــة الصوفيـــة :

لقد كانت حركة التصوف فى الشرق تتجاوب اصداؤها فى المغرب والاندلس وكان الفقهاء ينكرون هذه البدعة فيتصـــدون لمهاجمتها ورد المبتدعين ، وقد كان لعلى بن يوسف بن تاشفـــين موقف من الصوفية البارزين فى عصره من امثال ابى العباس ابن العريف وابن الحكم بن برجان ، ويذكـــر بشكوال ان الامـــير المرابطى امر بأشخاص محمد بن الحسين الميروقى من غرناطة وابن العريف من المرية وابن برجان من اشبيلية الى مراكـــش لتراقب نزعتهم ، وما لبث ابن العريف ان قتل مسموما سنـــة 536 بمؤامرة قاضى المرية الاسود الذى ضايقته انتقادات ابـــن العريف ، فطارده من الاندلس وتتبعه بمراكش .. ولكن الاميـــر انتقم لابن العريف بنفى القاضى ابـــن الاسود الى (ســـوس الاقصى) وسمه أيضا ...

وكان الامير المرابطى على بن يوسف يتضايق من دعاوى المتصوفة ، لذلك قرر سجن المتصوف الاندلسى اللخمى بمراكش ، حيث كتب هذا بسجنه مجموعا فى التصوف ولا بدع أن نرى على بن يوسف يأمر باحراق كتب الغزالى (1) ، ولذلك تصدى المتصوفة لحربه ، وكان منهم احمد بن قسى الذى جمع انصاره بشلـــب ودعا الى خلع الملثمين وظاهره بعض الافرنج على هذه الحرب ... ولم يمنع هذا كله ان يكون رجـــال المرابطين من الصلحـــاء ... فيوسف بن تاشفين كان من الزهاد ، والامير ابو يوسف لما جاوز الى الاندلس كان بركبه جماعة من صلحاء المغرب ، كما جاء فى

(1) للقاضى عياض : نقد علمى لكتاب الاحياء للغزالى (الشفاء ص 267 ج 2) .

(الذخيرة السنية ص 29) ، وبنى بها عدة زوايا حتى وصفه ابن الخطيب فى اللمحة البدرية بأنه اشبه بالشيخ منه بالملوك .

ووالى المرابطون بناء الربط فى القرن الخامس والسادس ، وأهم هذا الربط أو معاقل الصوفية رباط اولاد امغار فى تيط ، ورباط مولاى بوشعيب بأزمور ، ورباط محمد صالح بأسفى ورباط شاكر ، ورباط تيملل ، ورباط اتسمطت ، ورباط ماسة (كما فى التشوف) ، وكانت هذه الربط تسمى بالزاوية فى بعض المدن كزاوية ابى النور المشترائى وزاوية تلميذه أبى شعيب ايوب بن سعيد ، وزاوية صالح بن حرزهم تلميذ الغزالى ، وقد ناهض بعض العلماء السنيين الحركة الصوفية واتهموا اصحابها بالنفاق ومن هؤلاء سليمان الدارنى .

وأهم مرجع للتصوف فى هذا العصر ، فهرست القاضى عياض وهى فهرست علمية صوفية ، فيها ذكر لمن لقيهم من علماء وصلحاء فاس وسبتة وهى لا تختلف كثيرا عن المدارك الذى به فصل مهم عن دقائق الوعاظ ومناهج العلماء والزهاد ، كما الف عبد الكريم الفندلاوى كتابا فى الموضوع (المستفاد فى مناقب العباد) .

العمران فى هذا العصر :

ورث المرابطون ملك المغرب والاندلس وبنوا عاصمتهم الجديدية على باب الصحراء وسموها (مراكش) ، وهكذا تأسست هذه الدولة أولا فى المغرب وانتقلت الى اسبانيا ، فعمت الصلات الثقافية اقصى البلاد المغربية واطراف البلاد الاندلسية كما لا حظ مارسى (فى كتاب الفن الاسلامى ج 1 ص 301) .

والواقع ان المغرب قد استفاد من تلاحمه مع الاندلس ادبيا

وعلميا وفنيا ، فقد ورد عليه صناع قرطبيون لبناء مؤسسات بفاس كما زهرة الجزنائى ، ولبناء قنطرة تانسفت بمراكش كما تردد عليه المهندسون والعلماء والفنانون فضلا عن الشعراء والكتاب .

وشاهد العصر المرابطى عهدا حافلا بالمآثر الفنية الرائعة كمسجد جزائر بنى مزغنة ومدرسة اليوسفية بمراكش وقبة البردعيين بها وكتوسيعات جامعة القرويين بفاس والفن الجميل الذى كان يزين المحراب والاسكوب المقابل له الى العنزة ، وكبناء جامع تلمسان . كما بنوا قلاعا متعددة كقلعة بنى تودة بفاس .

كان المرابطون فى أول امرهم لا يحصنون المدن بالاسوار ويرون فى ذلك ضعفا عن الدفاع ثم لم يابثوا ان اخذوا ببنائها بعد اتصالهم بالاندلس وادراكهم لفائدة ذلك فى الدفاع عن المدن .

ومن مآثرهم الخطارات الممدودة فى باطن الارض فى الجهات الصحراوية كمراكش مثلا وحفر الآبار ونقل مياهها بأسلوب حيلى الى حدائق المسرة ، وهى منقولة عن (الفكارات) المعروفة فى الصحراء .

وتركر المرابطون آثارا عمرانية شاهدة على ما بذلوا من جهد اذ استخدموا الصخر المرصوص الكبير فى بنائهم ليظل بناؤهم قويا يقاوم الانهيار ، ومن أثارهم قصر الامة (1) بمراكش الذى تحدث عنه بعض المؤرخين ولم تكشف أثاره الى اليوم وقاعة السفراء بقرطبة ودار الحجر التى أسسها على بن يوسف وقصر تكرارت وجزء من حصن الودايا والزيادات فى بناء القرويين وبناء (المقصورات ، فى المساجد التى أخذها عنه الموحدون) .

---
(1) الاستبصار

ومن أثارهم المشهورة مساجد الكتبية القديم ، والمنارة ، وباب الرواح ، ومارستان مراكش قبل المارستان الموحدى .

ورغم تنقيص دوزى الهولانـــدى ، واشباخ الالمانــــى وبروفنصال الفرنسى من اعمـــال المرابطين بل رغـــم ادعاءات الشقندى صاحب المعتمد بن عباد فى رسالته للتنقيص من امرهم ، فان المر8ابطين كانوا من مشيدى الحضارة المغربية كما يؤكـــد ذلك جوستاف لبون فى رده على دوزى . وكما تشهد على ذلك .

المـــــدن (مراكـــش) :

أسس المرابطون مدينة مراكش 454 هـ 1072 ويرجع اصل التسمية للآبار التى كانت توجد فى موقعها القديم ... وكانـــت بجوارها آثار قديمة لمدينة (بوكاتوم هيو ميروم) الرومانيـــة حسب رأى بعض المؤرخين . ومراكش اختطها يوسف بن تاشفين وبنى بها مسجده وبجانبه قصبته فاصبحت نواة للعمران ثـــم زاد فى توسيعها ولده واحيطت بسور منيع ساعدها على الامن والاستقرار ، حيث أخذت تقتبل وفود السكان من الجنـــــوب والنواحى المجاورة ، ومن الاندلس بصفة خاصة . كما ظلت قاعدة للعلماء والفقهاء حيث تنطلق منها حملات المرابطين ضد البدع ، كما ظلت ثغر الاطلس الكبير المتحسس لأصداء الصحراء (1) ... واعتبرت مراكش مجالا حيويا للصناعة الاندلسية ، حتى اذا سقطت الاندلس أمام الهجوم الصليبى تدهورت ثقافيا واقتصاديا ولكنها ظلت الى عصر بنى مرين عاصمة كبرى ، وقال عنها ليون الافريقى انها من اعظم مدن العالم فى عصره . ويحيط بمدينـــة مراكش سور مبنى بالطابية ، ولها سبعة أبواب (والطابية وهى

---

(1) اندرى جوليان تاريخ افريقيا الشمالية ص 31 ترجمة محمد المزالى البشير بن سلامـــة .

التراب المخلوط بالتبن ، ومنها الطابية المركبة من الجير والصلصال، وصغير الحصى) .. ومن أهم مساجدها (الكتبية) الذى اشرف على بنائها المهندس الاندلسى (جبـير) ويذكر الوزان الفاسى انه كان بجانب الكتبية سوق لبيع الكتب به مائتا دكان وكانـت بمراكش مصانع للسكر ومعامل لتنظيف القطن ومخازن للحبوب ، وبها عشرات الحمامات وسجون للمتمردين والمجرمين ، وكـان السجن عبارة عن مكان للاقامة تختلف الحياة فيه حسب وضعية السجين ودرجة اجرامه ، فقد يكون فى تثقاف ، وقد يشد بالسلاسل أو الاطواق ، ومن العادة ان ينفق عن السجناء ذووهم .

القـــوى الحربيـــة :

أمتاز الجنود المرابطون بقوة جيشهم ، وحسن تنظيمـه ، وكانت فرق الجيش تتألف من اللمثونيين أو الجداليين وباقـى القبائل البربرية والعربية بعد قبائلهم ، ولكل فرقة علمها وبندها الخاص واستعانوا بفرق سودانية واستعملوا الصقليين بقلة . وقد اتخذوا الابل فى الحروب وارهبوا بها الافرنج ، ولم يلبسوا الا أسلحة خفيفة ، وهى درق اللمط واستعملوا القناة والطوال والمزاريق المسنونة كما استخدموا الطبول .. وكانت امارة الجيش تخضع لما كان مألوفا من قبلهم من اسنادها الى القبيلة الغالبة .. وقد شيد المرابطون سلسلة من الربط والحصون فى المغرب كلـه تمكينا لقوتهم الحربية .

خطـوط المواصـلات :

اعتمد المرابطون شبكة مواصلات تربط اجزاء المغـرب ، وهى :

أولا ــ من فاس الى مليلية عن طريق تازة .

ثانيا ــ من فاس الى باديس : ذكر دوكاسترى أنها طريق الواردات الاوربية طوال ثلاثة قــرون وتمتد هذه الطريق عـــن تافراوت .

تطور الفن المراطى فى القرويين :

كشف فى القرويين عن الفن الاندلسى الذى كان يزيــن القرويين من جص مقربص ونقش بورقة الذهب ، واللازورد ، والاصبغة المتعددة من أزرق وأحمر ومغرة صفراء من مح البيض الذهبى ، وأشكال الزجاج المبلط بدهان كامد للتخفيف من حــدة انعكاســات الاشعـــاع ، كما كانت أشكـــال الزجـــاج فى الشماسات التى بجوانب القبلة ، ويذكر ابن أبى زرع (ص 88 ج 1) أن الفقهاء والاشياخ خشوا أن ينتقد الموحدون هذا الفن فيحطموه فنصب (الحمامون) على النقش والتذهيب الذى فوق المحراب وحوله بالكاغد ، ثم لبسوا عليه بالجص وطلى بالبياض .

وجهز المسجد (بمستودعات) لامــوال الجامع وأمانـــات الناس ، وحصنت بخشب الارز ، وصفحت بصفائح حديدية ، و (بـــدار للوضوء) خمســة عشر بيتا مع طاق فى سقف كـــل بيت للانارة وأنبوب نحاسى لصب الماء فى نفير محفور من حجر .

وفى وسط الصحن صنع عامل سجلماسى بيلة حمراء ذات ثقوب نحاسية مموهة بالذهب ، وأقيمت العنزة سنة 688 هـ . وهى محراب خشبى فى الصحن تجلت فيها آيات الفن من دقة الخرط والنقش ، كما صنعت السقاية المنمقة بالجص والحجــر المنجور وأنواع الصبغة وبجانب المحراب مقصورة بابها من خشب الارز .

وبمسجد القرويين 300 سارية ، عشرة منها من مرمــر

مجزع ملون وثلاث تحت الثريا الكبرى ، ونصبت بدقة بحيث ينظر منها جميع أبواب الجامع ، وبه 21 بلاطا و 130 ثريا مختلفة الالوان والصناعات والمصادر .

وهكذا زخر المغرب والاندلس بروائع الفن المزدوج الذى بلغت ذروته فى القرن الخامس الهجرى ، فيه رقة ورشاقة الفن الاندلسى وهيبة الدولة الصحراوية .. وقد جار دوزى فى حكمه على الفن المرابطى بانه حطم معالم الفن الاندلسى ... ورد عليه (كديرا) و (طيراس) .

الموسيقى :

استخدم المرابطون الطبول فى زحفهم متأثرين بالتقاليد السودانية ، (يذكر دوزى) أن طبول المرابطين كانت اذا ضربت اهتزت لها الارض وتجاوزت الافاق ، وتحدث عنها أهل الاندلس لانهم لم يكونوا قد اعتادوا أن يروا فى جيوشهم استخدام مثل هذه العادة ، (أنظر ص 383 قيام دولة المرابطين للدكتور حسن أحمد محمود) .

أما الموسيقى أو ما يعبر عنه (بالآلة) فقد كانت ذائعة بسائر الامصار المغربية كما يستفاد من محاولات المهدى بن تومرت للقضاء على اللهو وتكسير آلات الطرب المعروضة فى الدكاكين ، واشتهرت آلات كثيرة للطرب (كقوال) و « اليرا » و (أبو قرون) كما فى رسالة الشنقدى . ومن أشهر المغنين حسن بن عمر المغنى السبتى الذى كان قوالا كما فى (الاعلام)، وفى رسالة الشقندى انتقاد للطرب المغربى والمسيقى المغربية ، ونعرف من خلالها آلات الطرب المعروفة فى المغرب وآلاتها

المعروفة بالاندلس ، الا أنه لا يعول على احكامه نظرا لانه كان همه أن يحط من قيمة المغاربة .

الاقتصـــاد المرابطـــى :

أصل الملثمين من قبائل الصحراء التى لم تكن تعرف طلاوة الحضر ، وانما كانت تهتم بتربية الانعام والمواشى والابـــل .. ولهذا فقد كانت دولة متقشفة كما تشهد بذلك حياة أمرائها الذين كانوا يعيشون حياة الزهد والتقشف

وقد بدأ المرابطون عصرهم بتطهير بيت المال من الضرائب غير الشرعية فاكتفى عبد الله بن ياسين بالزكوات والاعشـــار وأسقط كل ما عدا ذلك من جبايـــات ومغارم وسار على خطتـــه المرابطون من بعده . وعندما فتح المرابطون مدينة فاس عـــام 462 طوروا اقتصادها وبنوا الحمامات والفنادق والارحاء على الاودية . ولم يعرف المغاربة الا الارحاء الحجرية بينما ظهـــرت فى الاندلس الارحاء الهوائية والارحاء المتحركة على خشبـــات فوق سطح الماء ، وعمل المرابطون على التكامل بين الاقتصـــاد الاندلسى والاقتصاد المغربى . وقد طبع يوسف بن تاشفين نقودا ذهبية عثر على نوع منها بأغمات وهى مربعة الشكل مكتوب على الوجه الاول لا اله الا الله محمد رسول الله وعلى الوجه الآخر اسم الخليفـــة .

وبدأت تجارة النخاسة نشاطها مستجلبة الربع الى العواصم الشرقية وبالاخص فى بغداد رغم انتقاد الفقهاء لها . ووجد التجار فى نشاط الاسطول المرابطى المتكون من نحو أربعمائة قطعة ونشاط الاسطول العربى فى الخليج والبحر الهندى ما يساعد الحركـــة التجارية على النمو ، ويلاحظ البكرى كيف استعيض عن استجلاب الصقالبة (وكلمة Esclave أصلها من كلمة سلاف) بالزنـــوج

وبالاخص فى افريقيا الشمالية . ونشاط التجار العرب فى خلق اقتصاد متبادل مع بلاد الشرق وبالاخص بعد استيطان الباطنية والزيدية وكذلك بالقرامطة الهلاليين وبنو سليم الذين وفد على المغرب مائتا ألف منهم حيث زج بهم الفاطميون الى افريقيا انتقاما من دولة الزبيريين ، وقد كان القرامطة يخربون الطرق ويمنعون على النـاس أداء الحج ولكن وقف فى وجههم بنـو هذيل الذيين جاءوا الى المغرب فى عهد المنصور الموحدى بدعوة منه لاداء نفس الدور ضد القرامطة .

وكانت البصرة (فى بلاد العراق) مدينة اقتصادية عظمى ، فأسس المغاربة قرب مدينة القصر الكبير مدينة (البصرة) أيضا ، وكانت مركزا تجاريا هاما لصنع الكتان . ثم هدمها أبو الفتوح سنة 368 هـ كما فى البيان المعرب لابن عذارى . وكما ازدهـرت البصرة فى الشمال ازدهرت سجلماسة المؤسسة سنة 140 هـ فى الجنوب بسبب صلتها بافريقيا السمراء . وقد لاحظ بن حوقل فى المسالك والممالك (ص 70) أنه رأى صكا فى حق رجل مـن أهل سجلماسة لرجل من أهلها بأربعين ألف دينار .. ويذكـر ياقوت الحموى فى المعجم أن مصانع نسجها بزت مصانع مصر .

واعتمد المرابطون فى الوزن القيراط 197 اغراما والاوقية 33 غراما (1،0 ملغرام والرطل يعادل 12 أوقية فى ايطالية ومصر و 1،8 أوقية فى السوس وفاس أو 090 غراما . والقنطار يساوى أزيد من 59 كيلو كذلك فى مصر وايطاليا)¹ .

وفى كيل المد النبوى يـزن 8،0 غرام للوسق 24 مـدا ، و 192 كيلو والصفحة 120 مدا . وفى المساحة الذراع ويساوى ما بين 24 و 32 أصبعا ، والقامة أربعة أذرع أو متر وستون ، والقصباة 192 أصبعا والبريد أحد عشر ميلا ونصف ميل .

وحــــدة المغــــرب :

استطاع المرابطون لاول مــرة فى تاريخ المغرب توحيــد المناطق الساحلية المتأثرة بالحضارة الاندلسية مع المناطق الفلاحية بداخل البلاد ، ونشروا المعطيات الحضارية فى المغرب كلـــه ، بسهله وجبله ، وقد ضمت كل المؤثرات الحضرية والقرويـــة لتتصهر فى وحدة بين الشمال والجنوب ، بين الاندلس وافريقيا الشمالية وافريقيا الوسطى كالسينغال والنيجر وما حواليهما .

الفـــلاحــة :

بدا العصر الملثمــى بتــدهــور اقتصادى ، لان الملثمين انحدروا من قبائل صحراوية لا تعرف الفلاحة ، وانما تكتفــى بتربية الانعام ، لذلك عانى المغرب سنة 415 أزمة اقتصاديــة 4نتيجة لعدة عوامل أهمها ما ذكرناه ، وثانيها تكدس الاموال عند بعض الاقطاعيين كمسعود بن وانودين دون استثمارها على أن هذا لم يمنع بعض الاطراف المغربية من ازدهار اقتصــادى كفاس وأغمات .

وبعد أن وصل المرابطون الى الاندلس ساهموا فى نهضة الفلاحة وغرس الاشجار ، ويذكر (رينو) أن المغاربة استثمروا شجرة البلوط وما تزال فى بروفانس غابة تسمى بغابة المغاربة . الاقتصادى ومعطياته ، واستعمل يوسف بن تاشفين الروم فــى جباية الضرائب (الجمارك) اقتداء بالاندلسيين . ولاحظ ابــن خلدون ضآلة حسابات بيت المال بعد وفاة يوسف بن تاشفــين الذى لم يفرض مكوسا ولا خراجا وانما اكتفى بالرسوم الشرعية، ولم تتضح الميزانية الا فى عهد الامير على المرابطى على أن الامن هيأ للبلاد رخاء عاما وللعملة قوة اقتنائية . وكانت العملة المغربية

تعتمد على الدينار والدرهم والاوقية ... ووضع الحكام المسلمون فى الاندلس والمغرب قواعد دقيقة لتنظيم الصناعة والاشراف عليها ، وكان للدولة نوع فى الاحتكار على نحو ما كان بمصر .

وتطورت الاساليب المصرفية وعمال البنوك ، واتسع استخدام الصكوك المغربية ، وعن ابن حوقل (المسالك ص 42 و 70) أن الحوالات المسحوبة على ررجال المصارف من أهل الشرق والقابلة للصرف ببلاد المغرب قامت مقام النقود فى السودان ، وتنقل رجال المال بين جدة وسجلماسة وطرابلس وبيروت ومصر ، وهذا دال على وحدة اقتصادية بين العالم الاسلامى ....

التجارة :

لقد كان توحيد المغرب والاندلس والسودان ذا أثر قوى فى نشاط التجارة المغربية ، فأصبح فى الامكان أن تنتقل القوافل من أقصى السودان الى أقصى الاندلس ، ثم الى العالم العربى شرقا والعالم الاوربى شمالا ، ونشطت مراكز جديدة فى المغرب كسجلماسة ومدينة أودغشت (طراس — تاريخ المغرب ص 203) ، ومدينة نول المتوفرة على التبر الخالص ، ودار سكة النقود ، ولا ينافس هذه المدن فى أقصى الشمال الا مدينة (مرسية) فى الاندلس وأصبح الطريق التجارى ، هو طريق البحر الاطلسى والمتوسط نظرا لظهور بنى هلال فى المغرب وما أثاروه من فزع وخوف .

كما كان لسيطرة المسلمين على حوض البحر الابيض المتوسط أثر فى الازدهار الاقتصادى والتجارى ، بعد أن كان المغرب فى عهد الرومان والبزنطيين قطرا فلاحيا فقط ، واستفاد

من هذه السيطرة سكان صقلية وشمال افريقيا بصفة خاصة ، فقد أصبح الافارقة وسطاء فى هذا البحر ، وهكذا تحكموا فـــى نقل التجارة بين الشرق والغرب ، وكانت سفنهم دائبة الحركة الى سورية لجلب التوابل والمنتجات الفاخرة من بـــلاد الشرق الى شمال افريقيا ، وقد عم الرخاء جميع بلاد المغرب بفضـــل هذه السيطرة (انظر ص 225 من كتاب القوى البحرية والتجارية).

وتفوق المغاربة على التجار الشرقيين نظرا لاشتغالهم بنقل تجارة الاجانب فاستحالت بذلك الاسكندرية الى مخزن كبيـــر لتجارة غرب البحر المتوسط ، وازدحمت بكثير من تجارة المغرب والبندقية والقسطنطينية .

وكان لانفصام الزيريين عن الفاطميين تأثير على اقتصـــاد أواسط المغرب فاستفاد الحماديـــون فى بجاية من ذلك بسبـــب المرسوم الذى أصدره أمراء القيروان فى شأن تحريم تـــداول العملة الفاطمية ، فأصبح النفوذ الاقتصادى مركزا فى بجايـــة وقصدها التجار من العراق ومصر والمغـــرب ، غير أن مقاطعـــة الزيريين للفاطميين كان له تأثير على التدهور الاقتصادى ، وزاد الحالة تدهورا غزو بنى هلال الذين نكبوا الفلاحة والتجارة معا . وخرجوا كل ما بناه القرطاجنيون والرومان والعرب من أنظمة دقيقة فى الرى والزراعة فقد قطع غزو بنى هلال طريق القوافل بين السودان والنيجير عن طريق غدامس فقل الذهب بالمغرب ، كما توقفت الربط فى طريقها المتصل بالاسكندرية الى آخر بلاد المغرب ، وانتقلت التجارة البحرية مـــن يد الأفارقة الى يـــد الايطاليين وسعى المرابطون الى توفير الرخاء الزراعى والاقتصادى فى المغرب فاستولوا على سجلماسة وهـــى مركز التعامل مـــع السودان وظلوا يتعاملون بدينارهم الذهبى المشهور ونقلوا هذا

الرخاء الى الاندلس وبذلك توسع الاقتصاد بين ممتلكات المرابطين وسائر البلاد الاوربية .

لقد امتد الاسلام داخل افريقيا من عهد عقبة بن نافـــع فقد كان المرابطون ينشرون الاسلام فى امتداد افريقيـــا ، وفى عصر دولة غانا التى سبقت دولة مالى كان الاسلام دين هـــذه الدولة منذ القرن الاول والثانى بل قبل ذلك اذ أنها كانت موجودة فى القرن السابع الميلادى على ان اهم دولة اسلامية ظهرت فـــى افريقيا كانت فى عهد السلطان موسى الذى أسس دولة مالـــى وكانت تستوعب قبائل متعددة منها (سوننكى) و (اليميـــرا) و (اليوسو) .

وقد سلكت الدعوة الاسلامية الى افريقيا عدة طرق تجارية تكلم عنها البكـــرى والادريسى وكانـــت الطرق تجمع جنـــوب الصحراء بليبيا ومصر يربطوا بين الطريق الساحلى والطريـــق الصحراوى وكانوا يعلنون على افريقيا الغرب السودان الغربى ويشمل الارض الافريقيـــة الواقعة شمال نيجيريا والـــشرق الاسلامى الى المحيط الاطلسى على شاطى الاطلس .

ويشهد تاريـــخ المرابطـــين ان القيروان كانـــت مركـــز اشعاع اسلامى سلبه فاس ، ثم مراكش ثم (تمبكتو) بعد ذلك فى عهد بنى مرين.

وأهم عواصم الاســـلام فى السودان الغربى (تمبكتـــو) (كوندكتو) و (جاو) و (جنـــى) .

ويحتفظ المؤرخون بذكرى حج سلطان مالى ورحلته فى مصر حيث قابل السلطان (محمد بن قلاوون) واشترى كتبا اسلامية الى مصر .

كما ان فى مراسلة المنصور السعدى لسلطان (مالى). ما يدل على اطلاعه وثقافته .

الاسطـــول والبحريـــة :

استقلت دولة الزيريين بمصر ولكنها أصبحت فريسة لغزو بنى هلال بتسليط الفاطميين المنتقمين منها . وتولدت فى المغرب دولة المرابطين لتنتشل الاندلس من المسيحيين (الشمالـــيين) ، واستطاعت هذه الدولة الفتية أن تنقذ العالم الاسلامى من الدمار بعد أن حصل النورمان والبنادقة والبيزانطيـــين والجنونيـــــين واقطاعية فرنسا على مكاسب جديدة ، بينما وهت وحدة افريقيا الشمالية بقيام دول صغـــرى فى طرابلـــس وتونس والجزائـــر وصقلية ، فجـــاء المرابطون موحدين للصفـــوف . وفى سنـــــة (1052 م .) استولوا على فاس ووصلوا الى الجزائر وأقاموا أكبر حكومة اسلامية منظمة (ص 365 القوى البحرية والتجارية) وفى سنة 976 م . بدأ الزيريون فى بناء أسطول جديد ، وفى عهد المعز بن باديس سنة 1016 م . كانوا يتوفرون على أسطـــول عظيم ، وقد ورثوا مجد الاغالبة فى السيطرة على ساحلهم كما كان انتقال الفاطميين الى مصر أكبر داع للتخفيف من الاسطول الاموى فى الاندلس الذى لا يظهر أنه ضعف نهائيا ، وانما استمر على حالته يغالب المغرب الاقصى فى المعارك ضـــد الادارســـة والاستيلاء على الشاطىء المغربى والتوغل فى أرضه ، وفى عصر ملوك الطوائف ضعف الاسطول الاندلسى لعدم وجود حكومة مركزية قوية ، وأتاح هذا الضعف الفرصة لظهـــور البحريـــة الاوربية والنرومانية فى البحر الابيـــض المتوسط ، ثـــم تطـــور الاسطول المرابطى وأصبح ينافس أسطول الجمهوريات الايطالية وينافس أسطول النرمان ، وقد سيطر هذا الاسطول على موانىء

شرق الاندلس وجزر ميورقة ومنورقة ، وأمن تجارة المغرب ضد القرصنـــة .

اللغة المستعملة فى عصر المرابطين :

كان المرابطون والموحدون من بعدهم يتكلمون اللغة العربية واللغة البربرية ، وهذه الازدواجية تعتمد الفصحى فى الدراسات والقضايا الدينية والمراســلات والمعاملات ، واللغة البربريــة بلهجاتها فى الشؤون الخاصة والتعبير فى الحياة المنزلية والقبلية .

القـــرن الســـادس والسابـــع الهجريـــان

(1147 م – 1262 م)
(542 هـ – 662 هـ)

قوض الموحدون دولة المرابطين حيث اتهموهم بالانحراف، والجمود ، والتجسيم ، والانحلال ، والعجز عن تحرير الاندلس من هجمات المسيحيين ... فجاءوا يحملون روحا ثائـــرة ضـــد الصوفية والمدارس الفقهية ، والمذهبية المالكية ، التى جاء بهـــا عبد الله بن ياســـين وذلك ليدعمـــوا مذهبـــا جديـــدا فيه آراء حزمية ، وصوفية غزالية ، ونزعة شيعية وثورة اصلاحية شاملة تأخذ من كل المذاهب الاسلامية المعروفة آنذاك ...

ورث الموحدون عن المرابطين أمبراطورية تمتد من حدود مصر الى حدود نيجيريا ، والى نهر (ايبرو) عند مصب الوادى الكبير بالاندلس ، تضم مواطنين ينعمون بازدهار اقتصادى لم تفرض فيه مكوس وضرائب ترهق الشعب كما شهد بذلك المؤرخ (اشياخ ص 120 ج 1) فلا غرو أن تصبح مراكش الموحدية فى سرعة ـــ حاضرة الفكر الموحدى حيث لمع فى بلاد المنصور أشهر الفلاسفة كابـــن رشد شارح أرسطـــو وابن الطفيل وحتـــى أصبح المغرب حســـب تعبير (أوجين كيرنـــى) معهد المعقـــول الفلسفـــى .

والموحدون مصامدة حيث يؤكد الباحثـــون أن لهم قبـــل الاسلام شفوفا وحضارة ، وكان منهم فى عهد الفتح الاسلامى

جوليان الغمارى الذى حكم جزءا من بلاد المغرب والذى كان مفكرا ومؤلفا ... وقد عاش المصامدة حياة السهول والجبال مما ساعد على ظهور حضارة بين قبائلهم ، ربما كانت أسمى من حضارة المرابطين القبلية ...

وكان من أثر انتشار الفلسفة فى عهد الموحدين أن طبعت حضارتهم بالماورائية والبحث عن حياة خلقية أفضل وأسمى ، وتحقيق مكانة للعقل على الطريقة الرشيدية مما جعل الفقهاء يخشون من اندلاع حرية الاختيار ، وانحسار المذهب الاشعرى الذى أعطى للسلفية الحجة والدعم بين القدرية الجبرية والاعتزالية ..

وظهرت نزعة الثقافة الموحدية فى محاربة فقهاء المرابطين الذين كانوا سلفيين مالكية يكرهون المتكلمين وينفرون من الرأى والتأويل ، والخوض فى مسائل التوحيد ، وعوضوا ذلك بتوجيه جديد يعتمد تأويل النصوص ونفى الصفات والتشبيه عن الخالق ، فاتهم الموحدون المرابطين بالتجسيم لأنهم يقرون الصفات بخلاف الموحدين الذين كانوا يفهمون معنى التوحيد الخالص لذات الله ، كما كان المعتزلة يسمون أنفسهم بأهل العدل والتوحيد ، واتجه التعليم الموحدى الى عدم التقيد بآراء المذهب المالكى على طريقة ابن حزم الذى ركز المذهب الظاهرى فى المغرب معتمدا حرية الاجتهاد فى مسائل الفقه بشرط أن يستند الى حجج القرآن والسنة ، وما جرى به العمل ، وقد منع المنصور الموحدى دراسة مدونة سحنون وكتاب ابن يوسف ونوادر ابن زيد ومختصر البرادعى ، وواضحة ابن حبيب ، وأثر المغرب الموحدى فى الاندلس ، حتى قال (أندرى جوليان) : ان الحضارة الاندلسية اصطبغت بصبغة مغربية وازدادت لمعانا عند ما ذهب

الموحدون لمساعدة السلطة القائمة فى الاندلس ... وكان هـدف الموحديـن توحيد العالـم الاسلامـى سياسيا واجتماعيـا ولتحقيق هذا الهدف وجهوا اهتماما خاصا الى الجيل الناشىء ، ولهذا انصرفوا الى توحيد التعليم وتنشئة جيل متكامل المشارب ، فأسسـوا مدرسة لتعليـم صبيان بالاقاليـم التابعة لهـم ، وفى هذا يقول ابن القطان : « ومـن مكارم عبد المؤمن حـض الناس على هذا التعليم كما فى المعجب (ص 254) ، ونشطت الحركة الفكرية فى عهد الموحدين نشاطا منقطع النظير فى مختلف بحمزة القرآن الكريم بالمغرب الى أن ظهرت قراءة نافع ، وكان الميادين سواء كانت علمية أو أدبية أم فنية ، ذلك لانهم لم يكونوا حديثى عهد بالثقافة العربية كالمرابطين ، وانما كانوا علماء وأدباء وشعراء وأطباء كما أن الاندلس كانت أغدقت على المغرب مـن معارفها ورجالها ، ولذلك فإن عصر الموحدين كان عصر علم وأدب .

التعليـــم :

وكذلك أسس الموحدون معاهد التعليم بمراكش ، كما وردت تفاصيل ذلك فى الحلل الموشية ، حيث كان عبد المؤمن أمـر أن يربى فى مدرسته صغار الطلبة تربية خاصة ، فكانوا يحفظـون الموطأ الذى ألفه المهدى الى آخر ما ورد فى كتاب الحلل الموشية ، وألزموا الناس بتعليم العقائد الزاما لم يفرقوا فى ذلك بين الرجال والنساء والصبيان والفتيان والاحرار والعبيد واشتهرت قراءة الناس يقرأون المرشدة فى التوحيد ، كما كان بجانب ذلك تعليـم عام وشعبى فى كلية القرويين وجامع أبى يوسف بمراكش وجامع سبتـة .

ويلاحظ أن التعليم كان يبتدىء فى سن مبكرة لذلك ، فنوابغ هذا العصر وعلماؤه من الشباب ، كالمراكشى والمزدغى ، وابـن

عطية ، وابن رشد ، وابن زهر ، وابن غالب البلنسى .. وتعـدد اختصاص المدارس ، فكانت هناك مدرسة للملاحة فى سلا وقرب فاس لحاجة الموحدين الى أسطول عظيم ، وتأسست مدرسـة (أكلو) بضواحى تيزنيـت فى أول القرن الخامـس ، وهى أول مدرسة معروفة هناك ، على أنه لا يبعد أن يكون هناك مدرسـة أقدم منها ترجع لوجاج المتوفى سنة 445 الـذى تخـرج مـن القيروان وتتلمذ لابى عمران الفاسى .

واتسع التفكير الموحدى لكل أنواع المعارف ، منكرا جمود الفقهاء المرابطين وجاء فى شرح الحلل أن ابن تومرت كان ينكـر كتب الرأى والتقليد كما شجع الموحدون الموحدون الحركة الفلسفية والترجمة عن اليونانية وأصبح علماء أوربا يفزعون الى المغرب احل المشاكل الفلسفية كما فعل ابن سبعين فى الاجوبة الصقليـة ، وسهلت الكتابة العربية فى المغرب لاشاعة الثقافة فوضعت بعلامات ظاهرة ، فمثلا ينقط القاف من فوق وينقط حرف الفاء من تحت ، وتعطف الياء بياء الالف كالمصطفى وتختصر الحركات ، فالشدة المضمومة تنقل بصورة رقم (٨) فوق الحرف المشدد المضموم وتمثل بصورة رقم (٧) من تحت فى الحرف المشدد المفتوح وتمثل بصورة رقم (٨) تحت الكسرة المشددة .

واشتهر فى هذا العصر كثير من العلماء منهم : محمد بـن ابراهيم ابن عيسى المتوفى سنة (546) ، والعلامة الصوفى ابن حرزهم المتوفى سنة (550) وأحمد بن عبد الصمد القرطبـى المتوفى سنة (582) ، ويوسف بـن عبد الصمد بن يوسـف المتوفى سنة (613) ، والمفسر المحدث ابن القصرى المتوفى سنة (615) ، والملاحظ أن هؤلاء العلماء أنهم كانوا يعلمون ويدرسون عدة كتب ، كما أنهم كانوا يؤلفون كتبا للدراسة ويشرحون كتبا كغيرهم ويعلقون على مؤلفات متعددة .

أما تآليفهم فى علوم الدين فقد كان طابعها ما وصفه أبو العباس المقرى فى روضة الاخوان (من كتابه ازهار الرياض فى ترجمة القاضى عياض) من أن فى تدريس المدونة اصطلاحين : اصطلاحا عراقيا واصطلاحا قرويا ، فأهـل العراق جعلـوا فى مصطلحهم مسائل المدونة كالاساس ، وبنوا عليها فصول المذاهب بالادلة والقياس ، ولم يعرجوا على الكتاب بتصحيح الروايات ومناقشة الالفاظ ودأبهم القصد الـى افراد المسائل وتحريـر الدلائل على رسم الجدليين وأهل النظر من الاصوليين ، وأما الاصطلاح القروى فهو البحث عن ألفاظ الكتـاب مع التحقيـق فى بواطن الابواب وتصحيح الروايات وبيان فصول الاحتمالات ، والتنبيه عـلى ما فى الكلام من اضطـراب الجواب واختـلاف المقالات ، وما انضاف الى ذلك من تتبع سياق الآثار وترتيـب أساليب الاختيار ، وضبط الحروف على حساب ما وقع فى السماع ووافق عوامل الاعراب أو خالفها (أنظر أزهار الرياض) .

ويزيد المقرى فى التدليل على ذلك بقوله : ويحقق ما قلناه تصرف التونسى فى تعاليقه الطيفة المنزع واللخمى فى تبصرتـه البارعة الختام والمطلع ، الى غير ذاك من تأليف القرويين (نسبة الى القيروان) وتعليق المحققين من شيوخ الافريقيين ، وقد سلك القاضى عياض فى تنبيهاتـه طريقة جمع فيها بين الطريقتـين والمذهبين ، وذلك لقوة عارضته ، وذكر المقرى فى نفس الكتاب فى موضع المقارنة بين التأليف الشرقى والتأليف المغربى بعد ما لاحظ لاحظ أن أغاب تآليف المشارقة متصفة بالايجاز لتمكن ملكتهم من التصرف ، مثل كتاب ابن الحاجب فى فروعه وأصوله ، كما لاحظ أن الغالب على جل أئمة المشارقة الاطناب مثل الغزالى والامام الفخر وغيرهما . وأما أهل الاندلس فغالب عليهم فيهقة الالفاظ فى حسن وصف الكلام وانتقائه مثل عبارة القاضى عياض فـى

تآليفه التى لا تسمح القرائـح بالاتيان بمثلها والنسج على منوالها ، وانتهت صناعة التآليف فى علماء المغرب على صناعة أهل المشرق لشيخ شيوخ العلمـاء فى وقته ابن البنـاء الازدى المراكشى فى جميع تصانيفه ويقصد المقرى بابن البناء الذى خصه بابا السودانى فى نيل الابتهـاج بترجمة مطولـة ، والمولـود سنـة ، (654) .

وتتجلى خصائص التعليم المغربـى فى التكوين الاولـى ، وما يسمى بالتعليم الابتدائى ، والاهتمـام باصلاح مناهـج التعليم وأساليه وقد اشتغل بذلك مفكرو المغرب والاندلـس ، وقلما تخلو كتب رجال الفكر المغربى والاندلسى من ملاحظات فى ميدان التعليم والتربية .

ولعل من أهم ما ظهر من آراء تعليمية فى هذا العصر نظرية ابن العربى المولود سنة 468 والمتوفى سنة 541 ، وفى كلامه عن نفسه يبين لنا نظام التعليم فى عصره فقد ذكر أنه حذق القرآن وهو ابن تسع سنـين ، ثم قضى ثلاث سنوات لضبـط القرآن والعربية والحساب ، ولما باغ الى سن العاشرة كان قد قرأ مـن الاحرف (أى القرآن) نحوا من العشرة بما يتبعها من اظهـار وادغام ونحوه ، وتمرن فى الغريب والشعر واللغة (أنظر ترجمة حياته فى مقدمة كتابه ، العواصم من القواصم) وفى كتابه (قانون التأويل) الذى ينقل عنه ابن غازى فى التكميل والرهونى فى شرحه على خليل ، والمقرى فى أزهار الرياض ... ونستفيد أن ابن العربى كان وهو فتى يافعا يمارس الكتابة ينقد الشعر مع بداهة القول كما احذق اللعب بالشطرنج فى صغره ويحلل ابن خلدون مذهب ابن العربى فى مقدمته ، فابن العربى يرى أن المذاهب المعروفة فى التعليم الابتدائى لا تكفى ، بل هى عقيمة بالنظـر الى شيوع

العجمة ، ويرى أن يقتصر المتعلم فى التعليم الاول على البلاغه والنحو وعلوم العربية كلها ، ويقدم اليه من نصوص الادب البليغ ما يقوم به ادراك الطالب ويربى ملكته ، فاذا أخذت ثقافتـــه الادبية تقوى وتتأصل ينقل الى الحساب والرياضيات ، فـــاذا تمت الملكة الرياضية فيه وتمكنت الدراسة من فكره فيكون قادرا على ادراك معانى القرآن والتخلق بهديه ، وينعى ابن العربـــى على قومه تلقيهم القرآن فى أول الامر قائلا : (ياغفلة أهل بلدنا فى أن يؤخذ الصبى بكتاب الله من أول أمره يقرأ ما لا يفهـــم وينصب فيما غيره أهم .. ولعل ابن العربى تأثر بالمذهب الشرقى فأراد أن ينقله الى بلاده ولكن (العوائد لا تساعد عليه وهـــى وهى أملك بالاحوال) حسب تعبير ابن خلدون ، وربما كان الكتاب فى القرن السادس يلقن الرسالة وفنونا من الادب والمعرفة كما يستفاد من ترجمة الشيخ ابن عبد الله الفخار السبتى التطوانى .

ونعرف كذلك برنامج التعليم الابتدائى فى عصر الموحدين من خلال انتقاد ابن خلدون لحالته ، وقد كتب (جورج مارسى) بحثا قيما حول رأى ابن خلدون فى التعليم ، وعرب بمجاة رسالة المغرب ، (العدد الاول من السنة الاولى) جـــاء فيـــه : أن تلقين العلوم لا يكون مفيدا فى رأى ابن خلدون الا اذا كان بالتدريج ، ولذلك يجب أن يقسم برنامج التعايم الى ثلاثة مراحل : (الاولى) تلقين أصول الفن مع مراعاة عقل التلميذ واستعداده لادراك هذه المسائل ، فالطريق المثلى فى نظر ابن خادون أن نقيم وزنا لعقل التلميذ وقدرته على استساغة المبادىء التعليمية التى يراد تلقينها وبعد حصول الملكة الجزئيـــة يصل الى (الدور الثانـــى) حيث يستأنف النظر فى الفن نفسه ويحسن أن يخـــرج بالتلميذ مـــن الاجمال الى التفصيل مع عرض بعض المسائل الخلافية ، وبعد هذه المرحلة ينتقل الى (الدور الثالث) حيث يعود الى الفن نفسه

فلا يترك عويصا ولا مبهما ولا مغلقــا الا وضحه ، وعندئــذ لا يخلص التلميذ من الفنون الا وقد استولى على ماكته ، ويلاحظ ابن خلدون عدم ضرورة التنقل بين الادوار الثلاثة وكذلك لا ينبغى للاستاذ أن يغفل قيمة مواهب الطفل فلا يميز بين ما يجــب أن يكون غاية وما يجب أن يكون مبدأ ، فالتدريج أساس لا يستقيم التعليم الا به ، ويجب ألا يفرض على التلميذ استظهار جميــع الشروح والحواشى والتنبيهــات والمقدمات لتتسنــى الاحاطــة بالمادة ، كما لا يحتاج الى التمييز بين الطــرق الفقهية كالطريقة القيروانية والقرطبية والبغدادية والمصرية ليستحق منصب الفتيا.

وينتقد ابن خلدون دراسة فنون مختلفة فى وقت واحد ، ويرى أن من الواجب أن يلقن فنا واحدا ولا ينتقل الى غيره الا بعد أن يأنس منه الحصول على الملكة التامة فى الفن الاول . كما يرى ابن خلدون أن تكــون معارف الطفل واضحــة فى فكــره فيتلقاها مــن الاساتذة الكثيريــن بدل استيفائها مــن الكتب والتصانيف لان الطلبة أسرع ما يكونون الى الوعى والحفظ وأبطأ ما يكونون من الادراك العميق .

والمتعلم الذى يتلقى أصول الفن من أساتذة متعددين يطلع على مصطلحات كل معلم وأساليبه فى التبيين ولا يلبث أن يجرد العلم عن الاصطلاحات ويعلم أنه (طريق توصيل)

وابن خادون يريد أن يجعل من فكر الاساتذة أداة مرنــة يتصرف فيها فلا فائدة فى معرفة النحو اذا كانت معرفته لا تقى من اللحن والخطأ ، كما يرى أن العلم النظرى لا تتم منه الفائدة الا اذا كان صاحبه جامعا بينه وبين الخبرة العلمية ، والغايــة هى تكوين رجال عالمين بأحوال الحياة ، وقلة المبالاة بالجانــب العملى هى التى تجعل العلماء أبعــد الناس عــن السياسة ، اذ

المناهج التى يستعملها معلموهم لا تؤهلهم لتدبير البلاد .

أما وسائل التعليم فلا تكون بالعنف والقهر ، لان الارهاق فى التأديب يحمل المتعام على الخبث والكذب ويعلم المكر والخديعة ويذهب بنشاط النفس ، ويختصر (جورج مارسى) رأى ابـــن خلدون فى أن المثل الاعلى الذى يجب أن يسعى اليه كل معلم هو تهذيب الفكر والارادة ، ولا يمكن هذا لكل معام ، الا اذا كانـــت

ويعطينا ابن خلدون عرضا موجزا فى مقدمته عن مذاهب التعليم العربى فيما قبل عصره بصفة عامة . وفى عصره بصفـــة خاصة ، فيقسمها الى مذهب أندلسى ومذهب تونسى ، ومذهب شرقى ولا شك أن الشرق كان متعدد المذاهب ولكن ابن خلدون يتحدث عن وسطه ومذاهب بلاده ، أما المذهـــب الاول وهــــو الاندلسى ، فهو منهج يقوم على ثقافة أدبية تعتبر القرآن نفسه أداة للبلاغة وترسيخ ملكتها ويعنون بالشعر العربى ، وروائع النثر مع عناية بتحسين الخط ولذلك كان مظهر الثقافة الاندلسية حسب تعبير ابن خلدون يبدو (فى التفنن فى التعليم وكثرة رواية الشعر والترسل ومدارسه العربية من أول العمر) .

أما المذهب المغربى فهو يفرض على المتعام فى أول الامـــر اتقان القرآن ورسمه واختلاف القراءات ثم التدرج فى مبادىء العلوم ، ويلاحظ ابن خلدون أن المغاربة تفوقوا فى حفظ القرآن تفوقا تاما ، ولكن كان حفظ الطلاب جمودا فى العبارات وقصـــر التصرف فى الكلام ، والمتخرجون عن هذه الطريقة تجدهم سكوتا لا ينطقون ولا يفاوضون ، وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة فلا يحصلون على طائل ، وتطول مدة الدراسة عندهم حتى تصل الى ستة شرة سنة بينما لا يتجاوز فى تونس خمسة سنوات .

أما المذهـــب التونسى فكان وسطا بـــين هذين المذهبـــين :

(الاندلسى والمغربى) وهو يعتبر القرآن وحدة مستقلة فى التعليم وحفظـه وتحويده غاية فى نفسها ، والحفظ وسيلة لا غايـة ، ويعلل المقرى ذلك بأن الناس يقرأون العلـم لا للاجر والمـال ولذلك يلاحظ أن الاهتمام بتقويم ثقافة الطفل على أسس دراسته الادبية غير منتقاة فى جملتها فيكون أن تتخرج طبقة من الطلاب تعوزها ملكه فى اللسان العربى وجمود فى العبارات وقلة التصرف فى الكلام ، أما المذهب الشرقى فيدرس القرآن كغاية مع عناية بالحديث والفقه والنحو والخط .

وبعد المرحلة الابتدائيية يتعرض ابن خلدون للتعليم الثانوى والعالى فينتقد بشدة طريقة التعليم بفاس ، ويرى أن الهمـم مقصورة على تحصيل القرآن ودرس التهذيب مع الاخذ بنصيب من مبادىء العربية التى تعلموها عن السبتيين حتى لم يتصدر منهم أحد ليقرىء كتاب سيبويه ، ويؤيد المقرى فى أزهار الرياض انتقاد ابن خلدون ، فيروى قصة أبى عنان والشيخ الصرصرى حيث تصدى هذا فى المتوكلية لتدريس التهذيب ثم انقطع انقطاعا فاحشا بعد أن ناقشه العلماء بتحقيق ما أورده من المسائل على ظهر قاب حتى انصرف عن درسه ، وآنسه أبو عنان بعد ذلك منبها اياه الا يتكل على حفظه (الى آخر ما ورد فى تاريخ القيسى ولخصه المقرى) . على أن المقرى لم يشايع ابن خلدون فى انتقاداته الصارمة ، بل يلاحظ أن علماء فاس كانوا أهل صلاح وورع فى طاب الفقه وتفننوا فى مروياته لان (باب الفتيا) فى الفقه هو باب احتياط ، فلا بد للمفتى من مباشرة الكتب المروية والامهات الاصلية ولا يجوز له الاقتصار على الوساطة فى الكتب ، ويرى المقرى أيضا أن العجز عن التأليف لا يقدح فى علم العلماء بل ان علماء فاس شغلهم تحرى الحلال عن تتبع موارد التحقيق الذى أدى الى فقد الملكة النظرية عندهم ، ولقد اعترف علماء تونـس

بغزارة علم الشيخ ابن عبد السلام الذى أبدى ضلاعة فى الفقه ، سلم له بها زعيم فقهاء المغرب أبو عبد الله السطى ، وقد اعترف الفقيه القباب لاهل تونس بالملكة والتصرف ، وانتقـــد طريقـــة المغاربة الفاسيين التى قوامها حفظ النصوص ، وابقاؤها على ما هى عليـــه .

والذى يهمنا من خلال هذا العرض هو معرفة المنهـــــج والاسلوب المنتقد وهو منهج يقوم على الحفظ وعدم تكوين الملكة بل ان ابن خلدون يذكـــر فى الفصل الثانـــى من الباب السادس المعنون بأن (تعليم العلم من جملة الصنائع): فيذكر بأن الحذق فى العلم والتفنن فيه انما هو بحصول ملكة فى الاحاطة بمادته وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من أصوله ، وان سند تعليم العلم (فى عهد ابن خلدون) كاد أن ينقطع عن أهل المغرب لان أيسر طرق تكوين الملكة هى فتق اللسان بالمحـــارة والمنظارة فى المسائل العلمية ، أما أهل المغرب (فى عهده) فعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة فلا يحصلون على طائل وتنقصهم ملكة التصرف فى العلم والتعليم .

كما يلاحظ أن المدة المعينة لسكنى طلبة العام بالمدارس فى المغرب ست عشرة سنة وهى فى تونس خمس سنين وانما طال أمدها فى المغرب بسبب عدم الجودة فى التعليم خاصة لا ما سوى ذلك ، ويعرض ابن خلدون أثناء ملاحظاته لأساتذة البيداغوجيا فى تاريخ المغرب ، فيذكر أبا القاسم ابن زيتون فى أواسط المائة السابعة الذى نقل أسلوب التعليم فى الشرق الى تونس وبعده أبو عبد الله بن شعيب الدكالى الذى نقل الاسلوب الشرقى الى تونس كما ذكر أبو على ناصر الدين المشـــدالى الزواوى مـــن رجالات المغرب فى أواخر المائة السابعة الذى حمل الى المغرب

أساليب التعليم الشرقية ، أما فى فاس فذكر ابن خلدون أنهـا مع سائر أقطار المغرب بقيت خلوا من حسن التعليم ويتصل سند التعليم فيها وعسر عليها حصول الملكة والحذق فى العاوم ولذلك كثرت عنايتهم بالحفظ وقلت فى ميدان المفاوضة والجدل ، وعلة ذلك فى نظر ابن خلدون هى فساد التعليم لا ما يلاحظه بعض رحالة أهل المغرب فى طلب العلم من أن عقول المشارقـة علـى الجملة أكمل من عقول أهل المغرب وانهم أشد نباهة وأعظم كيسا منهم . ورغم انتقادات ابن خلدون وابن العربى فان الكتـاب والتعليم المغربى ظل جامدا الى عصور متأخرة ، فبقى الكتاب وسيلة لحفظ القرآن بدون فهم آياته كما بقى التعليم بصفـة عامة يعتمد على الحافظة فقط ، واذلك لم تزدهر علوم الآلـة المبنية على المنطق والعقل فقد ظلت جامدة غير متطورة كما شرح ذلك المقرى فى أزهار الرياض .

والواقع أن مناهج التعليم المغربى كانت مقتبسة أو متأثرة بالاسلوب الاندلسى والمقرى يذكر فى نفح الطيب لدى حديثه عن حال الاندلس فى فنون العام بأن العالم والمتعلم كانت له حظوة فى المجتمع الاندلسى ، وان كان من المفروض أن تكون هنـاك مدارس متعددة لتأوى الطلاب فان المدارس لم تكن منتشرة، وانما العالم عادة يكون بارعا فى فنه لانه يطلب العلم بباعث من نفسه فلدلك ينقطع اليه ويصرف اليه همته .

وشاعت العلوم الاسلامية فى الانداس والمغرب وبالاخص الفلسفة والتنجيم ، فكان حظهما عظيما عند الخاصة ، أما العامة فكانت تسمى المشتغل بالفلسفة فقط ، بالزنديق ، وكان بعض الامراء يحرقون كتب الفلسفة تقربيا للعامة حتى أن المنصـور ابن عامر أحرق كتب الفلسفة مع أنه كان مهتما بهذا العام ، أما

العلوم المهتم بدراستها فهى قراءة القرآن بالروايات السبع ورواية علم الحديث ودراسة الفقه على المذهب المالكى ، وكانوا يحترمون لقب الفقيه فيسبغونه على من يقدرون من الناس ، وربما حلوا بها أسماء الملوك أما علم الاصول فهو متوسط الحال لا يقبلون عليه بلهفة ورغبة بخلاف النحو الذى يهتمون بدراسته كثيرا ، ويدرسون مذاهبه وكتبه القديمة ويحفظون مذاهب وهو علم لا يستغنى عنه عالم ولا يجوز أن يخوض فى غيره من المعارف الا اذا برز فيه ، ويلاحظ المقرى فى الاندلسيين أنهم كانوا يدرسون النحو كفن ، أما التطبيق فهو أبعد ما يكون عنهم ، ويمثل لذلك بالنحوى الكبير (الشلوبيين) المشهور فى الشرق والغرب بتآليفه مع أنه كثير الغلط واللحن ، بل ان الاندلسيين يستثقلون من يعرب كلامه ويجارى قواعد النحو ، كما كانوا يهتمون بعلم الادب من نثر وشعر ، ويهتمون بالتاريخ ورواية الحكايات ليملأوا المجلس نكتا ونقلا ، ولا شك أن هذه الصورة التى نقلها الينا المقرى تطابق الصورة التعليمية فى المغرب الى حد ما ، وكما اعتمدوا على الكتاب اعتمدوا على الشيخ أيضا ، لان العلم انما يؤخذ من أفواه الرجال حسب التعبير القديم ، وكان هذا الشيخ وهذا الكتاب يختلفان باختلاف المواد المدرسية ، وذلك لان قدماء المغاربة كانوا يميلون الى التخصص فى العلم على أنهم يقدرون المشاركة فيه اذا كانت مشاركة تعتمد على ملكة تساند العلوم بعضها مع بعض .

ولقد تبلورت الثقافة الاسلامية فى عدة علوم انتشرت فى العالم الاسلامى كله ، وتركز على القرآن والحديث وما يوصل لفهمها ، وهذه العلوم كانت مجال الدراسة فى مراكز الثقافة الاسلامية فى العالم الاسلامى كله ، وقد حلل ابن خلدون قواعدها وتحديداتها بما لا مزيد عليها ، وانما المهم أن نذكرها لنرى أثر

المغاربة فيها وهذه العلوم هـى القـراءات والتفسير والحديث والسيرة وعلوم الحديث والنحو والتصريف واللغة والبيـــان والاصول وعلم الكلام والفقه والفـرائض والحساب والهيئـة والمنطق والعروض والطب والفهارس والاسانيد والادب ، وكان هناك علم آخر اضافى لا يدرس بصفة رسمية وانما يؤخذ عن بعض المختصين وهو علم الجدل ...

ودرسوا التفسير بعدة شروح ، وألف فيه من المغاربـة الحر الى مؤلف كتاب (مفتاح اللب المقفـل على فهم القـرآن المنزل) . والمزدغـى المتوفى سنـة 655 كما ألف فيـه ابـن فرتون السلمى الفاسى سنة 660 .

وراجت دراسة التفسير فى الصقع السوسى رواجا كبيرا وذلك لحاجتهم الى تفهم كلام الله نظرا لان لغتهم ليست بعربية ، ونبغ من علماء التفسير أبو يحيى الكرسقى من أهـل القـرن السابع وهو متخرج من الاندلس توفى سنة 683 وانتشر اعراب القرآن من هذه الناحية ، وألف فيه زيد الجشتمى كتاب (اعراب القرآن) فى مجلدين وكان من عادة الطلبة أن يحلقوا حول الاستاذ ويعربوا مقدار الوقت الاول من الحزب الراتب مع الاستدلال من المتون فى تطبيق القواعد (أنظر كتاب سوس العالمة ص 34) .

ودرسوا كتب الحديث الخمسة ومؤطأ مالك ، وأشهـر المؤلفين فى الحديث نابغة المغرب القاضى عياض مؤلف المـدارك والشفاء ، وألف فيه كثير من المغاربة فى القديم والحديث وأشهرهم العراقى من المتأخرين (1) .

ويذكر مؤلف قصة الادب فى الاندلس ص 102 أن الافارقة

(1) راجع بحثنا فى الموضوع للمؤلف بمجلة (دعوة الحق — 1974) وهو دراسة اعدت بمناسبة ذكرى الامام البخارى بسمرقند ..

كانوا يفضلون كتاب مسلم علـى البخارى وشرحه للمـــازرى الصقلى ، ونقل أبو عمران ابن سعادة نسخة البخارى (الشيخة) عن نسخة أبى على الصدفى واعتمدت منذ القرن الســادس بالاندلس والمغرب ، واشتهرت دراسة الحديث فى سوس كمـا كتاب سوس العالمة (ص 36) ، كما درسوا السيرة بقصيدة أبى عبد الله الشقراطيسى المسماة بالشنقراطسنية .

أما علوم القرآن من تجويد وقراءات ورسم ، فقد اهتموا بهذا العلم وأسسوا للدراسة بفاس مدرسة السبعين أى القراءة بالروايات السبع ، وهى بازاء مدرسة الاندلسيين ، وألف فى هذا الفن محمود بن الحسن الفاسى المتوفى سنة 656 شرحا علـى الشاطبية ، ويذكر ابن خلدون أن أبا القاسم ابن ميرة أول من لخص هذا الفن ورتبه ليكون سهلا للحفظ والفهم فاعتنى الناس بحفظها وتلقينها للولدان فى المغرب ، كما ألف فيها ميمون الفخار صاحب التحفة والدرة المتوفى سنة 716 وابن (برى) صاحب الدرر اللوامع المتوفى سنة 818 . أما الفقه فقد درسوه بعـدة كتب أهمها النوادر لابن أبى زيد وكتـاب ابن يونس وتهذيـب البرادعى ورسالة أبى زيد القيروانى الى آخر ما ألفوه فى هذا الفن مما تعرض له المؤرخون بالتفصيل ، ودرسوا الاصـول بالبرهان لامام الحرمين والمحلى فيما بعد ، وفى العصور المتأخرة ألف المهدى بن سودة حاشية على المحلى .

أما النحو فقد درسوه بكتاب سيبويه ، وبكتاب الجمل ، ثم الالفية بعد نظم ابن مالك لها ، حيث أصبحت محور الدراسة النحوية بالنسبة للثانويين كما كان كتاب ابن آجروم المتوفـى سنة 723 كتاب النحو المعطل بالنسبة للمبتدئين ، ومن مشاهير رجال النحو أبو زيد المكـودى المتوفى سنة 807 وأبو العبـاس القدومى المتوفى سنة 992 .

ودرسوا اللغة بشرح أبـــى ذر على الغريب وشرح أبـــى الطيب الشرقى على القاموس فى (أربع مجلدات) فى العصور المتأخـــــرة .

ودرسوا الادب بكتاب الحماسة وبمقصورة ابن دريـــد ، وبصفوة الاديب للجراوى وشرح ابن زاكور للحماسة فى العصور المتأخرة ، وقد حافظ المغاربة على قوة التعبير باللغة العربيـــة وسلامة الاسلوب العربى ، ويقول (بيرم) فى صفوة الاعتبار : أن صناعة الانشاء فى الدول باللغـــة العربية كادت تكـــون الآن مقصورة على مراكش ، وجاء فى كتاب التعاشيب الصفحة 95 : أن المغرب نبغ فيه أدباء كبار مثل الاديب الشاعر يحيى ابـــــن زيدون فى بلاط ابن عباد ومثل ابن حبوس ومثل ابن رقية وابن الملجوم الفاسى سايل المهلب بن أبى صفرة ، وله كتاب فى الشعر توفى سنة 690 .

ودرسوا العروض بالخزرجيـــة وعليها تعاليـــق متعـــددة ولابن زاكور حاشية عليها . ودرسوا التوقيـــت والتنجيــــم والتعديل أيضا ، وكان بمراكش مرصد للنجوم وبفاس مرصـــد لمراقبة الاهلة بباب عجيسة يسمى (برج الكوكب) كانت بـــــه نوافذ على عدد الشهور حيث يراقب كل شهر من واحدة منها ، كما ذكر ذلك ابن الابار فى « القسم المفقود من التكملة » .

ودرسوا الطب بكتب ابن سينا وابـــن زهر والانطاكـــى والمجوسى ، كما درسوا البلاغة بكتاب التلخيص وبمنظومة الشيخ الطيب بن كيران من المتأخرين وشرحها للبورى وأقصبى ، أمـــا التاريخ فلم يحفلوا به كثيرا ، وانما كان يدخل فى نطاق المطالعات ، واشتهر فى الجغرافيا ككتاب النزهة ، للادريسى والاستبصار لمؤلف مجهول مراكشى الاصل ، فاسى الوظيفة ، من رجالات أواخر القرن

السادس توفى سنة 587 وكتاب المعجب للمراكشى المتوفى سنة 581 .

نقد الدراسات :

وشاهد المغرب والاندلس فى مطلع عصر الموحدين ثورة نقدية للثقافة الشرقية سواء فى المذاهب الفقهية حيث تصدى الفقهاء لمحاربة المذهب المالكى ، والاخذ بالمذهب الظاهرى ، أو فى العلوم اللسانية حيث ألف القاضى أبو العباس أحمد بن مضاء القرطبى المتوفى سنة 592 الذى كان قاضيا بمراكش فى عهد المنصور الموحدى كتاب المشرق فى النحو ، وتنزية القرآن عما لا يليق بالبيان ، والرد على النحاة وقد ساير مذهب ابن حزم فى الاخذ بظاهر النص والابتعاد عن القياس والفلسفة فقرر الغاء نظرية العامل والغاء القياس ، والكتاب حملة قوية ضد نحاة البصرة والواقع أنه تأثر بنقد الشرقيين للنحو وبالاخص بآراء ابن جنى فى هذا الموضوع كما ظهر نحاة مدرسون كبار كأبى على الشلوبيين صاحب التوطئة المتوفى سنة 561 ومحمد بن هشام المغربى المتوفى سنة 570 مؤلف الفصول والجمل فى شرح أبيات الجمل ، وشرح فصيح ثعلب ، وقد تمخضت دراسة الاندلس والمغرب للنحو على تقدير كامل لنحاة الاندلس من طرف الشرقيين وكا من أعلام النحو جمال الدين محمد بن مالك المتوفى سنة 672 صاحب الالفية المشهور وله منهاج يعتمد على السماع والاحتجاج بالقراءات وروايات الحديثوالقراءات ، ولذلك كان كتابه لتسهيل والمقصور والممدود والفوائد والكافية والالفية من أمهات كتب النحو العربى ، كما تألق اسم أبى حيان الجيانى الذى اتصل فى الشرق بأبى النحاس وأخذ عنه وكان من المذهب البصرى فى عصره بل نقد ابن تيمة للاخذ عن كتاب سيبويه،

ومن أشهر مؤلفاته كتاب فى شرح التسهيل والتجويد والمبدع ونحاة الاندلس ، و (الشذا فى مسألة كذا) الذى يقع فى نحو ثمـــان مجلدات ، بل يعتبر أصل جمع الجوامع للسيوطى ، وكذا اشتهر أبو موسى الجزولى المغربى المتوفى سنة 607 بكتبه النحويــة الاصلية التى منها املاءاته على جمل الزجاج ، واشتهر ابن خروف الاشبيلى المتوفى سنة 602 بشرحه على كتاب سيبويه وجمــل الزجـــاج .

وحرر الامام السهيلى دفين مراكش أبحاثا مهمة فى تطور دلالة كثير من المفردات العربية بكتابة الروض الانف ... كمــا حرر أبحاثا تماثل ذلــك أبو القاسم الشريف شــارح مقصورة حازم ، وأثر المذهب الظاهرى الذى نادى به ابن حزم فى الاندلس والمغرب تأثيرا واضحا فى مختلف مجــالات الدراسات الفقهيــة والادبية مما ساعد عــلى بروز مدرسة نحويــة مغربية تعتمــد الرواية والحديث ولا تقول بالقساس كأساس للقاعدة .

ويرى ابن حزم فى (التقريب) لحد المنطق أن علم النحو يرجع الى مقدمات محفوظة عن العرب الذين يريدون معرفــة تفهمهم للمعانى ، بلغتهم ، والعلل فيه فاسدة جدا ، ويريـــد ابن حزم بذلك عدم فائدة (القياس) ..

ويعتبر ابن مضاء من أكبر نحاة الاندلس تأثرا بالحزميــه لصياغة نحــو جديد ولذلك اقتــرح حذف العوامل ومعلقــات المجرورات والتنازع والاستغلال والقياس .

الدراسات الفقهيــة :

ولا شك أن اشتغالهم بالفروع الفقهية كان سائدا على باقى الفنون ، وأهم ما كان شائعا كتاب ابن يونس ونوادر ابن أبى

زيد وكتاب التهذيب للبرادعى وكتـــاب ابن حبيب ، كما كانـــت مدونة سحنون من أهم الكتب التى جعلوها محورا لابحاثهم قبل أن يظهر مختصر الشيخ خليل ، حيث تفننوا فى شرحه فيما بعد .

ويدل اشتغالهم بالفروع والجدل الفقهى ما جاء فى كتاب المعجب للمراكشى بالرواية عـــن أبى يعقوب بن الجد الـــذى يقول : دخلت على أمير المؤمنين أبى يعقوب أول ما دخلت عليه ووجدت كتاب ابن يوسف فقال لى : يا أبا بكر ، أنا أنظر فى هذه الآراء المتشعبة التى أحدثت فى دين الله ، أرأيت يا أبا بكر المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا ، فى أى هـــذه الاقوال هو الحق ؟ وأيها يجب أن يؤخذ به المقلد ؟ فأخذت أبين له ما أشكل عليه من ذلك ، فقال لى وقطع كلامى ، أبا بكر ليس الا هذا وأشار الى كتاب السنن لابى دوار وكان على يمينه ، أو السيف ، وجاء فى القرطاس والاستقصاء (ج 1 ص 150) أن عبد المؤمن الموحدى أمر سنة 555 بحرق كتب الفـــروع ورد الناس الى قراءة الحديث وكتب أمره بذلك الى طلبـــة المغـــرب والاندلس والعـــدوة .

على أن يعقوب المنصور انقطع فى عهده علم الفروع وخلاف الفقهاء بعد أن أمر باحراق كتب الفقه وبعد أن حذف ما فيهـــا من حديث رسول الله والقرن فأحرق مدونة سحنون وكتاب ابن يونس ونوادر أبى زيد وكتاب التهذيب للبرادعى وموضحة ابن حبيب وما جانس ذلك ، وذكر المراكشى أنه شاهد بفاس أحمالا من هذه الكتب توضع وتطلق فيها النار .

وقد نجح الموحدون فى حركتهم التحررية من المذهبية وظهر أعلام مجتهدون نذكر منهم من ترجم له صاحب التكملة والجذوة والذخيرة السنية وهو أبو الحسن على بن محمد بـــن خيـــار

الاندلسى الاصل الفاسى السكنى المتوفى سنة 605 وما ذكــره صاحب الجذوة وهو أبو اسحاق ابراهيم بن أحمد بن هــارون المرادى الفاسى المعروف بابن الكماد المتوفى سنة 633 كما فى ابن خلكان وابن القطان نقيب الطلبة بمراكش وصاحب كتاب بيــان الوهم والايهام الواقعين فى كتاب الاحكام . ولكن ذلك لم يمنع حركة الفروع من الاستمرار طيلة عهد الموحدين ثم الانتصارر لها فيما بعد حيث أصبحت القرويين مركز الدراسة الفروعييــة الجدلية ومن أعلام الفروع ما ذكره ابن قنفذ فى الوفيات من أن محمدا يشكر بن موسى الجوزاء الفاسى المتوفى سنة 598 ألف حواشى على المدونة واسحاق بن ابراهيم الغمارى قاضى فاس وسبتة وشلب المتوفى سنة 609 ، وفى الابتهاج والجذوة قائم على المدونة ويستظهرها ، وذكــر ابن خلــدون فى مقدمتــه أن القيروانى عكف فى دراسة الفقه على مدونة سحنــون وأهــل الاندلس عاى الواضحة والعتبية ثم اختصر ابن أبى زيد المدونة ولخصها البرادعى القيروانى وكتب أهل افريقيا كثيرا عـــلى المدونة كما كتب الاندلسيون كثيرا على العتبية ، ثم جمع ابن أبى زيد أمهات المسائل والاقوال فى كتابه النوادر ، وبعد انقراض دولة قرطبة والقيروان تمسك أهل المغرب بكل ذلك الى أن جاء ابن الحاجب الذى لخص طرق المذهب فى كل باب ووضع للمذهب برنامجا ولم تكن المدونة منتشرة فى أمهات المدن فقط بل كانت منتشرة انتشارا كبيرا فى سائر الاصقاع المغربية ، وبالاخص فى بلاد سوس ، وقد نقل مؤلف (سوس العالمة ص 18) عن كتاب مخطوط (الجرسيفيون) انه كان شائعا فى السوس مدافن لكذا من البنات يحفظن المدونة فضلا عن الرجال ، وروى أيضا أن سيدى وشاى وأن أبناء الركراكى هم من أوائل من زاولوا شرح المدونة فى سوس ، أما خليل فقد انتشر فى سوس بعد انتشاره

فى فاس وترجم شارحه الدردير الى (الشلحة) للحاجة الماسة لكى يتعرف الجميع على الشريعة وأحكام الدين .

وشاهدت سوس نهضة فقهية فى عهد محمد وجاج الذى وصفه أبو عمران الفاسى بالفقيه الحاذق والجزولى شارح الرسالة والمختصر الحاجبى وكعبد الواحد الرجراجى شارح المدونة وداود التملى (سوس العالمة ص 45)

ويذكر مؤلف الكتاب أيضا ص 44 عدة مؤلفات وأساتذة لعلم الكلام فى بلاد سوس ، وأشهرهم عبد الرحمن الكرامى من القرن التاسع صاحب الشرح على البرهانية للسلالجى ، ومنهم سعيد بن النعمان سنة 650 ، والجزولى صاحب الشروح على الرسالة المتوفى سنة 741 وغيرهم كثير .

اللغـــة والآداب :

أما علوم الآلة من لغة ونحو وبيان ، فقد كانت ذا مكان بارز فى هذا العصر وبرز لغويون كبار أشهرهم أبو القاسم على ابن حمزة البصرى المتوفى سنة 586 ، وفى نيل الابتهاج ترجمة لابن المناصف المتوفى سنة 620 ، مؤلف الارجوزة اللغوية .

وأشهر علماء النحو فى المغرب أبو موسى عيسى ابن عبد العزيز الجزولى المراكشى المتوفى سنة 607 مؤلف المقدمة الجزولية الذائعة الصيت كما فى ابن خلكان ، وأبو القاسم المتوفى سنة 619 المترجم له فى بغية الوعاة ، ومن مشاهير علماء العربية أبو ذر الخشنى الجيانى المتوفى سنة 604 كما فى التكملة ، والذى استوطن فاسا وعلم بها ، واعتنى السوسيون باللغة والنحو اعتناء كبيرا ، وقد ترك أبو فارس الرسموكى حاشية على الصحاح للجوهرى ، وتوجد شروح للقصائد الادبية دالة على تمكنهم من

ناصية هذا الفن كشرح المقصورة المكودية للتازلتى التملى ، وشرح مقصورة ابن دريد للهشتوكى وشرح الشمقمقية لابن فارس الادوزى وشرح العبدونية لموسى الودريمى الى غير ذلك من الشروح .

ونذكر من أعلام النحو المتأخرين (استكمالا للموضوع) أبى زكرى شارح الفريدة والشيخ الطيب بن كيران المحشى على التوضيح والمكودى شارح الالفية والطرنباطى شارحها أيضا وعمر الفاسى شارح المغنى ، ولا شك أن كتاب الاجرومية المغربية كان أعظم كتاب بيداغوجى ظهر فى العالم العربى حيث شغل المعلمين وأفاد التلاميذ المبتدئين ، كما أن كتاب الالفية كان كتاب التعليم الثانوى الذى اهتم به الشراح والمعلقون فأفادوا كثيرا وجمعوا على نظمه الشارد من القواعد والامثلة ، ويذكر (مؤلف سوس العالمة ص 38) أن للسوسيين طريقة معبدة منظمة فى تعلم اللغة والنحو والتصريف ، وقد اتقنوا هذه الفنون الثلاثة اتقانا تاما لشدة حرصهم عليها ولانها كل شىء فى الميدان العلمى ، وأثنى الحسن اليوسى على الطريقة التى يسلكونها فى التصريف فى فهرسته عند ما ذكر شيخه أبا فارس الرسموكى (وهم يقرأون الالفية فى الصفوف العليا بالاشمونى والصبان والموضح بحواشيه تتبعا وتكون الشواهد على السنة الاساتذة بدون مراجعة) .

الرياضيات :

وفى القرن السادس ظهرت الارقام العربية المسماة بالغبارى التى لها شكلان كما يقول ابن الياسمين أحدهما الرقم بالغبارى التى لها شكلان كما يقول ابن الياسمين أحدهما الرقم العربى والثانى المسمى بالهندى المستعمل بالشرق .

وقد اهتم المغاربة بعلم الحساب لانه كما قال ابن خلدون فى المقدمة براهين منتظمة ينشأ عنها فى الغالب عقل مضىء وكانوا يعلمونه فى البداية ، لهذا كانت كتبه تقريبا ابتدائية ككتاب الحصار الصغير الذى يحدثنا ابن خلدون أنه كان منتشرا فى المغرب وتلخيص ابن البناء المراكشى ، وكذلك برع المغاربة فى الجبر حسب شهادة ابن خلدون ، وكان من أعلام الحساب بفاس أبو الحسن على بن فرحون الذى كان يعلم هذا الفن بفاس والمتوفى سنة 601 ، وهو مؤلف اللباب فى مسائل الحساب وأبو عبد الله محمد العابد الانصارى الفاسى المتوفى سنة 662 كما فى الجذوة ، وابن الياسمين الفاسى المتوفى سنة 601 صاحب منظومة الجبر والمقابلة سنة 587 ، وابن القطان المتوفى سنة 628 ، ثم القلصادى بشروحه فيما بعد ، وشاع عند الموثقين استعمال القلم الفاسى وهو عبارة عن أرقام حسابية استعملها الموثقون بفاس فى تقييد التركات والفرضيون كذلك فى تقدير النفقات وهى من أصل رومانى انتقلت من وليلى الى فاس ثم نسبت اليها . ومن علماء الرياضيات فى المغرب يوسف بن سمعون وهو قرين موسى بن ميمون وصاحبه فى مصر ، وزميله محمد بن أفلح الاندلسى وهو من سكان فاس قرأ بها كما ذكر ذلك ابن القفطى ، واشتهر بالهندسة فى فاس أبو عمران بن شامة المشار اليه فى القرطاس علاوة على المهندس الشهير حسان القضاعى المتوفى سنة 598 المنسوب اليه جامع حسان والمدفون بالرباط ، والمهندس الاحوص صانع مقصورة المنصورة الموحدى ، واشتهر من الفلكيين الشريف الادريسى المولود بسبتة سنة 494 ، وأبو على حسن المراكشى المتوفى سنة 660 المنسوب اليه وضع اللوغاريتم ، وابن السكاك الفاسى المتوفى سنة 500 كما فى الجذوة وغيرهم كثير فى فاس ومراكش ورد ذكرهم فى السلوة والاعلام

والقرطاس ، وفى الجذوة أن من أشهر المؤلفين فى الكيمياء ابن التقرات الذى درس بفاس والمولود سنــة 515 مؤلف جــذور الذهب فى الاكسير وكان خطيبا بجامع القرويين ، ومن مؤلفــات المتأخرين فى هذه العلوم روضة الازهار للقادرى المتوفى سنــة 818 ورجز عبد الرحمن الفاسى فى الاسطرلاب وأرجوزة ابــن زاكور ، وألف الوزير الغسانى حديقة الازهار فى ماهية العشــب والعقار ، كان حيا سنة 994 وتوفى عام 1019 (1) كما فى مبادىء شرح التحفة ، وعلق ادراق على نزهة الشيخ داود ، ومنهــم العالم الرياضى المتفنن ابن ابى الربيع اللجائى المتــوفى سنــة 721 ، وأبو القاسم الغول مؤلف حافظ المزاج المتوفى سنة 1059 وابن حميدة المطرفى صاحب المقرب فى الهيئة المتوفى سنة 1061 والرودانى المشهور المتوفى سنة 1095 ، وفى علوم العقليات يذكر من أعلام المنطق أبو جعفر الخزرجى القرطبى المتوفى سنة 582 بفاس ، واشتغل المتأخرون المهتمون بهذا الفن كالعادة بالشرح والتعليق ، ولم يتعمقوا فى فروع الجدل وغيره من أساليــب المنطق ، وأشهر الكتب التى وصلتنا شرح السلم لبنانى وحاشية قصارة عليه وشرح محمد بن حمدون لخريدة والده كما نبغ فى علم الرياضيات أبو الحسن المراكشى فكان راصدا بصيرا جاب فى أوائل القرن الثالث عشر المسيحى جنوب اسبانيا وقسما كبيرا من افريقيا الشمالية فأبان ارتفاع القطب فى احدى وأربعين مدينة واقعة بين افران على المحيط الاطلنتيكى وعاصمة مصر ، أى ما تعادل مساحته تسعمائة من الشرق الى الغرب كما ألف أبو الحسن كتاب المبادىء والغايات ونشر (مانويل سديو) ترجمته سنــة 1834 ونال بنشرها احدى الجوائز الكبرى ، كما تكلم سديو على ازدهار العلوم الرياضية فى هذا العصر وذكــر فى تاريخه مــا

---

(1) نذكر كثيرا من المتأخرين جمعا للنظائر .

مؤداد : « لم تبق افريقيا الغربية كسلى فى ذلك الدور الذى انتهى بانتهاء القرون الوسطى ، فقد نافست سبتة وطنجة وفاس ومراكش فيه قرطبة واشبيلية وغرناطة ، فمن مدارسها ظهر أساتذة بارعون تشهد مؤلفاتهم الكثيرة فى مختلف فروع العلوم بعلو كعبهم ونعرف البطروجى وأبا الحسن وحدهما بمؤلفاتهما فأما البطروجى ، فرصد فى ذلك الحين ميل سمت الشمس وقرأ البطروجى كتاب بطليمس فثار على التعقيد الذى فى نظرية دور ان المدار البعيد عن المركز والدائرة التى وسطها على محيط دائرة أكبر منها حول مركز صفرة متحركة بذاتها فعرض طريقة جديدة سدل عليها ستار من النسيان العميق تنطوى على ميل مبارك الى التحرر من نظريات الاقدمين المختلفة .

الطب :

وكان الطب المغربى وهو جزء من الطب الاندلسى يعتمد زيادة على الدراسة العربية فى الطب على الدراسة الافريقية الطبية ، كما كان أغلب الاطباء يتقنون اللغة اللاتينية كأبى عبد الله الصقلى الذى كان يتكلم الاغريقية وغيره ، وتوصلوا الى معرفة جميع الادوية المفردة المذكورة فى ديوس فورديس ، وقد نبغ أطباء مغاربة علموا المشرق ودبروا المستشفيات كما جاء فى نفح الطيب للمقرى (ج 1 ص 244) ، كما عرفوا أوربا بالطب وقد اشتهر قسنطين التونسى فى القرن الرابع كطبيب ترجم عشرات الكتب الى اللاتينية .

ويذكر الكانونى فى كتابه (شهيرات النساء) نقلا عن كتاب فن الاسنان فى المغرب الاقصى أنه كان بفاس فى القرن الرابع الهجرى مدرسة طبية ، ويذكر (الدكتور رينو) فى بحث نشره (معهد الدروس العليا ص 42) ، أنه لا يمكن الفصل بين دراسة

الطب فى المغرب ودراسة حياة العلماء الذين أنجبتهم الاندلس أو أو تكونوا فى مدارسها ثم صاروا فى أعقاب ملوك المغرب من اشبيلية أو قرطبة أو فاس أو مراكش أو أغمات ، فللمغرب الحق اذا تبنى ابن باجة وابن طفيل وابن رشد .

ولعل أشهر طبيب مغربى هو أبو العلاء بن زهر المتوفى سنة 503 ذلك العبقرى الكبير الذى ألف كتبا خالدة فى الطب واكتشف عدة علاجات لكثير من الامراض ، ومن أشهرهم أيضا أبو جعفر الذهبى نقيب الطلبة ثم نقيب الاطباء فى عهد الموحدين وأبوبكر بن بقى السلامى وأبو الحجاج يوسف بن فتوح القرشى المتوفى سنة 561 كما فى الصلة ومعاصره أبو العباس أحمد القيسى الاشبيلى وتطور علم الطب فى المغرب سواء فى الجراحات أو فى التمريض والمستشفيات أو فى الصيدلية ، وكان هناك اختصاصيون فى المستشفيات سواء فى الجراحة أو فى الجبر أو فى التمريض ، كما كانت تقسم يمين (بقراط) يحلفها الاطباء ويلتزمون بالاخلاص للمهنة وحفظ أسرارها .

وكان علم الطب مشاعا بين طبقة من الفقهاء والمحدثين والادباء وذكر مؤلف نيل الابتهاج ص 353 أن الامام السنوسى شارح البخارى له شرح على رجز ابن سينا فى الطب ، وله شرح كبير على الكوفية فى الفرائض والحساب وكتب الطفيل أرجوزة طويلة فى الطب توجد نسخة منها خطية بخزانة القرويين بفاس .

ومن خلال هذه الارجوزة نتعرف على مدى سعة ابن الطفيل بعلم الطب وعلى معرفته بلغة الاغريق ، وذكر (رينو) فى كتابه (الطب القديم بالمغرب) أن علم الطب كان يدرس فى جامعة القرويين بواسطة كتب ابقراط وجالينوس ولم يكن يدرس الطب رسميا الا دروس يلقيها بعض الاطباء فى جوامع العاصمة ،

وفى بعض مدن المغرب كسلا التى كانت بها مدرسة يـــدرس بها الطـب .

علـم الكـــلام :

أما علم الكلام فلم يكن دأب المغاربة الاشتغال بالجدليات الا أن الفواطم هم أول من مزج العقائد بالفلسفة فاشتغـــل المغاربة فى عهدم بذلك ، ولما نقلوا حاضرة ملكهم الى القاهـــرة نسخ مذهب الشيعة من المغرب ثم لما جاء الموحدون أذاعـــوا مذهب الاشعرى لان ابن تومرت كان يغترف من معينه ويسلم أكثره وترك ابن تومرت (المرشدة) المشهورة ككتاب دراسى وكان من أعلام هذا الفن أبو الحسن على ابن أحمد خليـــد الاندلسى الاشبيلى المتوفى سنة 567 ، وجاء فى الصلة أنه علم الاصول والكلام بفاس ، كما أن من مشاهير هذا العلـــم أبـــو عثمـــان السلالجى الذى يلقب بمنقذ أهل فـــاس من التجسيم كمـــا فى الجذوة ، ومن أعلام علم الكلام أبو الحسن على ابن محمـــد الخزرجى الفاسى المعروف بابن الحصار المتوفى سنة 611 مؤلف البيان فى تنقيح البرهان المترجم له فى الكلمة ، ومنهم أبو الحجاج يوسف عبد الصمد الفاسى المعروف بابن غنى المتوفى سنة 614 ، ودرسوا هذا الفن من بعد كتاب شعب الايمان للقصرى كما فى التكملة ، وقد تابع علماء فاس دراسة التوحيد والعقائد علـــى المذهب الاشعرى فنظموا وشرحوا كثيرا فى هذا الميدان .

مراكـــز الثقافـــة المغربيـــة :

كانت الدراسة مركزة بجامع القرويين فى العصر الموحدى بدليل ما ورد فى ترجمة أحمد بن عبد الصمد بن أبى عبيدة الانصارى الخزرجى القرطبى ثم الفاسى مستوطنها المتوفى سنة 582 قال

فى الديباج : « ولما قدم مدينة فاس الزم أسماع الحديث والتكلم على معانيه بجامع القرويين واستمر على ذلك صابرا محتسبا ونفع الله به خلقا كثيرا » أما النص الثانى فتقرأه عن أبى الحجاج يوسف بن عبد الصمد بن يوسف الفاسى الذى جاء فى أثناء ترجمته من الجذوة (ثم عاد الى بلده عام ثلاثة عشر وقعد للاقراء بعد عوده فى شرقى جامع القرويين الى أن توفى فى الثانى من شهر رجب عام أربعة عشر وستمائة) .

ومن مظاهر جامعية فاس الموحدية ارتفاع عدد الرحالين اليها لاخذ العلم بها عما كان عليه الحال فى العهد المرابطى . ففى ترجمة عبد الله بن محمد بن على الحجرى المرى المتوفى سنة 589 : أنه خرج من المرية بعد تغلب الروم عليها وأجاز البحر الى مدينة فاس وأقام بها مدة ، وبعد صيته وعلا ذكره فكان الناس يرحلون للسماع عليه وفى ترجمة عبد الرحمان بن يوسف بن الحسن الفاسى المتوفى عام 612 كانت تشد اليه الرحال لاخذ مذهب مالك .

ومن الاندلسيين الراحلين للدراسة بفاس الموحدية : عبد الحق بن خليل بن اسماعيل السكونى ، أخذ النحو بها عن أبى بكر بن طاهر وعلم الكلام وأصول الفقه عن أبى عمر وعثمان بن عبد الله السلالجى ثم عاد الى الاندلس وعبد الرحمان بن بن القاسم بن عفير الاموى الاشبيلى المتوفى 580 سمع بها (كتاب الشهاب) على أبى الحسن بن حنين سنة 568 .

وعبد الله بن باديس بن عبد الله اليحصبى الشقرى المتوفى سنة 522 لقى بها أبى الجاج من أهل علم الكلام وأصول الفقه فأخذ عنه .

وأحمد بن عمر بن ابراهيم من عمر الانصارى القرطبى

المتوفى عام 626 لقى بهـا أبا القاسم عبد الرحمن بـن عيسى بن الملجوم الازدى وسمع الحديث .

ومحمد بن على بن يوسف الانصارى الغرناطى المعروف بالطراز المتوفى عام 645 ، سمى فى الجدوة ستة من بينهم اثنان انتفع بهم فى الكلام وأصول الفقه .

وذكر فى المعجب أنه انقطع الى أمير المؤمنين يوسف من الجزيرة من أهل كل علم فحوله حـتى اشتبهت حضرته حضرة بنى العباس فى صدر دولتهم واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه فى عصر من الاعصـار ، وذكر فى أيام ابنه على أنه لم يزل أول امارته يستدعى أعيـان الكتاب من جزيرة الاندلس وصرف عنايته الى ذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك كأبى القاسم بن الجد أحد رجـال البلاغة وأبى بكر محمد بن المعروف بابن القبطرنة وأبى عبد الله محمد بن أبى الخصال وأخيه أبى مروان وأبى محمد بن عبـد المجيد بن عبدون وغيرهم كثير .

الا أن الحظوة عنده كانت لعلم الفروع حتى نسى النظـر فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ودان أهل ذلك الزمان بنقد من ظر منه الخوض فى علم الكلام ، ولعل هذا هو السبب فى اهمال العلوم النظرية ، كما أنه من الاسباب فى عدم تأثر أهل المغرب بالثقافة الاندلسية كما يجب ، حتى أن المهدى لما قدم الى المغرب وجده خاليا من العلـم النظرية ولم يقدر علمـاء فاس ولا علماء مراكش على مناظرته ، ولم يكن فيهم من يعرف ما يقول الا مالك بن وهيب الفاسى كما ذكر فى المعجب ، ولكنه لما استقرت أقدام الدولة الموحدية شجع ملوكهـا العلوم وكان على باب عبد المومن طائفة من الشعراء المجيدين فيهم محمد بن

حبوس الفاسى ، وكان هو نفسه من المجيدين وقد أورد له فى المعجب أبياتا قيمة فى استنفار المجاهدين وكان ولده يوسف من الطامحين الى دراسة الفلسفة وجمع كتبها ، واتصل بأبى بكر ابن الطفيل وابن رشد كما هو معروف وكان ابنه يعقوب يحمل الناس على الاجتهاد المطلق والاستقلال بالنظر فى الكتاب والسنة ويأمر باحراق كتب الفروع ، وكان ابنه المامون علامة أديبا بايغا الى آخر ما هو معلوم فى شأنهم .

المرأة فى عصر الموحدين :

ان أقدم رأى فى تقييم عقل المرأة هو رأى الفيلسوف المغربى ابن رشد الذى قال فى تعليقه على جمهورية أفلاطون أنه لا يوجد اختلاف بين الرجال والنساء فى الطبع وانما هو اختلاف فى الحكم .. أى أن طبيعة النساء تشبه طبيعة الرجال

فهذا الرأى الفلسفى الذى أعلنه مغربى هو أقدم رأى علمى علمى فى الموضوع ينادى بالمساواة بين الرجل والمراة .

وفى العصر المرابطى ظهرت زينب النفزاوية الهوارية زوجة يوسف بن تاشفين التى بنى لها زوجها يوسف مدينة مراكش تقديرا لذكائها وحسن تدبيرها وابنة يوسف بن تاشفين تميمة التى جمعت ثروة مادية أشرفت على ادارتها بنفسها وأعانت بها فى أوجة الخير والبر ..

وكانت السيدة قمر زوجة على بن يوسف تدبر سياسة الدولة ولا يعقد الامير الا اذا استشارها فى كل الشؤون الادارية والسياسية ..

وفانون بنت عمر عذراء المرابطين التى دافعت عن دولتها ضد هجمات الموحدين فاستبسلت فى الدفاع مشهرة سيفها

مناضلة طيلة نصف يوم قبل استسلام اسحاق بن على المرابطى ويذكر تاريخ المرابطين أن امرأة وقفت أمام غزو الصنهاجيين لابناء أعمامهم ونوهت بالقرابة القائمة بين الفرعيين فردوها الى بلدها مكرمة .

.. ويذكر ابن القاضى فى جذوة الاقتباس أن تميمة بنت يوسف بن تاشفين كانت تحفظ الشعر وتطلب العلم وكان لها موكلون عن قضاياها وكتاب لشؤونها كما كانت تناقشهم أعمالهم وتبرز اليهم للمذاكرة غير خجلة .. وقد كان لها كاتب بهت عند ما نظرت اليه مذكرة بالبيت العربى القديم :

هى الشمس مسكنها فى السماء ..
فعز الفؤاد عزاء جميلا

وكانت احدى أخوات الطبيب ابن زهر من ممرضات القصر الموحدى ، ممتازة بمعرفتها لفنها وماهرة فى الطب النظرى والعلمى .. واشتدت حظوة المرأة فى البلاط الملثمى والموحدى حتى كان الشعراء يقصدون الاميرات ويلتمسون منهم الوساطة كما فعل ذلك الشاعر ابن خفاجة حين استشفع بالاميرة مريم بنت ابراهيم ..

التسامح الدينى :

يذكر المؤرخون لهذا العصر عدة مواقف للدولة والعلماء ازاء المسيحيين دالة على التسامح الدينى فمن ذلك أن أبا الحسين بن بن عتيق المرسى السبتى الذى انتقل الى مدينة فاس لما استكتبه السلطان المرينى أبو يعقوب ناظر القسيسى والرهبان بمدينة مرسيه فى موضوع اعجاز القرآن وكذلك تخصص مغاربة والاندلسيون فى الجدل الدينى ووضع أكثرهم رسائل فى المناقشات

الدينية ومن هؤلاء أبو جعفر بن أبى عبيدة القرطبى المتوفـى سنة 582 هـ الذى ألف مطامع هامات الصلبان وقد امتحن هذا الكاتب بالاسر سنة أربعين وخمسمائة وحمل الى طليطلة ، وبها ألف كتابه المذكور ليرد به على القسيسين بطليطلة وتركه بأيدى جماعة من المسلمين الذين كانوا مأسورين هناك ، ومنهم عبد الحق الاسلامى السبتى الذى ترك اليهودية الى الاسلام ثم وضع فى أواخر القرن الثامن رسالة « السيف المدود فى الرد على أحبار اليهود ، ومنهم محمد الانصارى مؤلف كتاب رسالة السائـل والعجيب ، وروضة الاديب لابى زكرياء يحيى ابن زياد وزيـر عبد الحق المرينى ومنهم من المتأخرين سيدى رضوان بن عبد الله الجنوبى دفين فاس من علماء القـــرن العاشر وكان يقـــول خرجت من بيت فرث ودعم يعنى أصل والده من مسيحى جنده وأمه كانت يهودية أسلمت وقد ولد بفاس سنة 912 وتوفى بها سنة 963 وترجم له الرهونى فى مقدمة كتابه كما ترجم لـــه مؤلف السلوة ومنهـــم شهاب الدين أحمـــد الشهير بأفوغاى ، استوطن مدينة مراكش من أواخر عام 1007 هـ وقد كانت له مناقشات دينية فى كل من فرنسا وهولاندا ، مع القسيسين من النصار والاحبار واليهود ، ومع الذين اجتمع بهم خلال سفارته الى فرنسا وكان فى الرد عليهم جميعا يحتج بالانجيل والتوراة ، بعد ما درس ترجمتها لهذه الغاية ويذكر أنه وفق مرارا عديدة ، وقد ألف كتابه « ناصر الدين على القوم الكافرين » باقتراح من على الاجهورى لما اتصل به فى القاهرة

ومنهم يوسف بن عبد الله الاسلامى الذى ترك اليهودية وكان من أحبار اليهود وذلك بعد عام 1020 وألف « النور الباهر » وساق فيه عن التوراة 51 نصوصا بصحة الدين الاسلامى ، وبما أنه لم يكن يحسن العربية فقد هذب لغته عبد الرحمن التامانارتى

ومنهم حم بن عبد الوهاب الوزير الغسانى الاندلسى المتوفى عام 1119 هـ ــ 1703 م فقد ناظر الرهبان الاسبان فى مدريد أثناء سفارته لاسبانيا عام 1102 هـ ــ 1690 م ·

ولا ينكر تاريخ اليهودية ازدهار الفكر اليهودى فى ظلال حكم الاسلام سواء فى المشرق أو فى الاندلس ، وقد كانت أيام اليهود تحت حكم العرب بها من أزهى العصور الذهبية .. حيث برز يهود ابن هليفى الطليطلى فى ميــدان الشعر وكتب مؤلــف (كتابه الحجة) المشهور فى الآداب اليهودية .. كما ألف اسحاق الفاسى 1012 كتابه الفلسفى وحقق ابن ميمون (مايموندس) كتب الفلسفة اليونانية .. ومن ألمع شخصيات الفكر اليهــودى فى حكم الاسلام قاشداين بن شيروت 961 وشاموئيل هانا جيد معلم (ابن غابيرول) ·

وفى كتاب (طبقات الامم) لصاعد الاندلسى وكتاب (ابن العبرى) وكتاب (الملل والنحل) لابن حزم تفاصيل عن الثقافة اليهودية وازدهار علومها وآدابها تحت الحكم الاسلامى وليس من هدف الموضوع الحديث عن التفكير اليهودى والآداب اليهودية فى عهود الحكم الاسلامى وانما الالمام الى التأثير الحضــارى للاسلام فى العقلية اليهودية التى استفادت من ديمقراطية المسلمين ونزاهتهم وعدالة حكمهم سواء فى المشرق فى عهد بنى أمية أو عهد العباسيين أو عهد الفاطميين أو فى الاندلس والمغرب وقــد أصبحت القسطنطينية عاصمة اليهودية بعد اضطهادات أوربا ، وتتحدث اليهودية عن (اليهودى التائه) اخذا من (المهــــدى المنتظر) وشاعت فى أوربا بعد عودة الفوج الاول من الصليبيين الذين رجعوا من القدس ·

وتأثر كتاب اليهود الاسبان فى القرنين الثانى عشر والثالث

عشر بالادب العربى وبالاخص فى الكتابة الادبيـــة والمقامـــات وترجموا الى العربية مقامات شبيهة بها تماما تتخللها أبيات من الشعر ذات طابع دينى أو أخلاقـــى وظهر ذلك جليـــا فى الادب العبرى فى اسبانيا وفى مقاطعة قطالونيا بصفة خاصة ومن كتاب اليهود الاسبان المشهورين فى هذا الميدان ، يوسف بن مائر بن سابرا ، الذى ألف بمدينة برشلونة قبيل سنة 591 هـ ــ 1194 م كتابه المشهور باسم : صفر شا اشنوايم . أى كتاب التعاليـــم المفرحة ، وهو عبارة عن مقامات تشف عـــن مقدرة صاحبها فى الادب وقد عاصر يوسف هذا أديب آخر اسمه يهود ابن سايمان الحريرى ، كان يتقن اللغتين العربية والعبرية ، وترجم سنـــة 602 هـ 1205 م مقامات الحريرى وسماها (مخبروت أتيل) وقد سافر يهودا الحريرى بعد ذلك الى المشرق حيث طاف بأرجائه ثم عاد أخيرا الى اسبانيا وألف كتابه المشهور (تحكمونى) أى الشخص العاقل عارض به مقامات الحريرى وسار على منهجه ، وكذلك قلد الحريرى سليمان بن صقيل فى قصته الهجائية المعروفة باسم (شرين يهودا) والتى مزجها بأبيات شعرية تحض علـــى التمسك بأهذاب الدين ، وقلده أيضا ابراهيم بن صمويل حالبى بن حسداى 638 هـ 1240 م من برلام ويوسافات أو اسطورة بودا فى كتابة قصته العبرية المسماة : (ابن حاملك دوى خنازير) أى ابن الدرويش ، وكتبها على شكل مقامات تتخللها أشعار وعظات أخلاقية . ومنهم يعقوب بن العزار (أوائـــل القـــرن السابـــع الهجرى) الذى كتب مقاماته العربية وترجم أيضا الى اللغـــة العبرية . ومنهم طوب بن يوسف بن فالاقيرا الذى امتاز برقة احساسه وقوة ملكتـــه الشعرية ولا سيمـــا فى مقامته المسماة (صفرحا مبقيش) أى الكتاب الذى يبحث عن الحقيقة .

وكما تأثر الادب العبـــرى فى المقامات وأسلوبها تأثـــــر

الادب المسيحـــى بها أيضـــا . ويرجـــع بلايـــو Menoze Peayan وموسثالث Gonzales Palemia وجود هذا التأثير فى القصة الاسبانية المعروفة باسم القصة البيكارسية ويسميها البعض بقصيـــدة الجوع La nueva Picaressa التى انتشرت من القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلادى أى فى العصر الذهبى الاسبانى ، ففيهـــا ذلك النوع من القصص الذى تربط حوادث شخصية رجل ذكى خفيف الظل ، من طبقة اجتماعية وضعيفة ، خادم ، شحاد ، لص متسول .. الخ وهو المعبر عنه باسم (بيكرو) Picaro وهناك تشابه بين أسفار أبى السروجى بطل المقامات الحريرية ، وبـــين مغامـــرات (1) الاثـــــر ليهـــودى تورمـــــس Manager وقزمان الفرانشى) .

لقد استظل اليهود فى الاندلس بنظام الاسلام وأتيح لهم أن يدرسوا العبرية دراسة صحيحة متأثرين بالتوجيه الاسلامى وحريته الفكرية . بل ظهرت دراسات للتلموذ فى قرطبة على يد وزير عبد الرحمن الناصر يوسف بن حسداى بن عزرا بن شبروط 333 ــ 359 و 945 ــ 970 حيث ظهر موسى بن حانوك كمـــا آلف يهودا بن دورد أول كتاب فى النحو العبرى وآلف ابن جناح 384 ــ 441 كتاب التنقيح باللغة العربية .

ثم ظهر ابن جبيرول الذى تأثر بالفكر الاسلامى وسمـــاه المسلمون أبا أيوب سليمان بن يحيى وألف ينبوع الحياة باللغة العربية كما آلف معاصره يحيى بن يوسف فاخوذا كتاب الهداية الى فرائض القلوب ، باللغة العربية متأثرا فيه بالغزالى .

وظهر بعد هؤلاء موسى بن عزرا ، 532 والشاعر يهودا

(1) راجع دعوة الحق بحثا للدكتور مختار العبادى .

ابن ليفى 477 وابراهيم بن داود الطليطلى 503 الذى حاول أن يوفق الفلسفة واليهودية ..

.. وعرف القرن العاشر الميلادى نشاطا يهوديا فى ترجمة الفكر الاسلامى الى العبرية ونذكر من أنبغ المؤلفين اليهود ، فى هذه الحقبة ابراهيم بن صمويل مترجم (ميزان العمل) للغزالى الى اللغة العبرية ، وموسى بن ميمون الذى نقل الى اللغة اللاتينية كتابه الحائرين .

تمتع اليهود فى المغرب بما يتمتع به المواطن المغربى رغم شعورهم الدائم أنهم جالية عابرة ، ولقد وردوا على المغرب فى فترات عريقة فى التاريخ ثم فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد أن أجلاهم عن خيبر (راجع اسحاق ولنفسون) وعبروا من برقة وطنجة وعند ما عبر طارق بن زياد الى الاندلس كان فى جيشه بعض اليهود حسب رواية (طليدانو) وان كان مؤرخو العرب لا يذكرون شيئا من ذلك لان اليهود لم يعملوا فى الجيوش كمحاربين فى صفوف الاسلام أو فى صفوف المسيحية ، وعندما ورد المولى ادريس الاول الى المغرب وأسس الدولة الادريسية كان اليهود مصدر مشاكل عديدة فقد ظلوا على الولاء للدولة العباسية حسب اعتراف حبر الجزائر ، ولا يستبعد أن يكون ما أشاعوه عن الامير الادريسى (الذى اتهم بالدخول على امرأة يهودية لحمام عمومى) مجرد قصة ملفقة يراد بها تحطيم شخصيات الدولة ، ولم ينتبه مؤرخو المغرب فرووا القصة فى كتبهم رغم أنها تتنافى مع طبيعة المجتمع الاسلامى ومظهر الامارة الاسلامية ، وعند ما ظهر المرابطون ظل اليهود يتمتعون فى عهدهم بحرية فكرية وسياسية حتى اذا جاء الموحدون قاوموا دسائسهم فى الحملة التى أعلنوها لمتابعة العابثين بحقوق المواطنة بدليل مسالمتهم لسكان يهود طنجة

وكذلك على ازدهار المجتمع اليهودى نذكر حركته الفكرية الماثلة فى ألمع رجالات اليهود فى المغرب موسى بن ميمون مؤلف (دليل الحائرين) والسراج ، ورسالة العزاء والذى أقام بفاس مدة طويلة قبل أن يهاجر ، من المغرب الى الشرق — كما كان خلوف المغيلى ممن أخذ عنه الابلى ، معارف رياضية وفاكية وكانت الثقافة المغربية ذا أثر كبير فى تطوير الفكر اليهودى ، كما يبدو ذلك فى فلسفة موسى بن ميمون ، واستعمل المثقفون اليهود فى افريقيا الشمالية اللغة العربية أداة للتعبير ، وفى كتاب تاريخ المغرب (لكودار) أن اليهود كانوا يستعملون اللغة العربية فى كتاباتهم وتآليفهم كما يذكر ما سينيون فى (مجموعة البحوث والمحاضرات) ان كتاب سيبويه كان أساس تجديد النحو العبرى فى فاس فى القرن الرابع ، ولهذا تطورت اللغة العبرية بفضل العربية فطورت فقه التلمود وشروحه والآداب اليهودية بصفة عامة وكان مناجم بن سروق الاندلسى ويحى بن داود حيوج من دعاة احياء لغة العهد القديم بينما كان دنوش من يهود فاس ينادى بفتح المجال للعربية والخضوع لاصولها فى فهم اللغة ، واستطاع أبو الوليد مروان بن جناح القرطبى أن يؤلف فى : تأثير العربية فى اللغة العبرية معتمدا على معاجم اللغة العربية . وتأثرت بذلك اللغة العبرية فى أول القرن الحادى عشر ومن غريب الصدف أن يؤلف داود بن ابراهيم الفاسى قاموسه المسمى (أجرون) بينما وضع أبى اجرام كتابه فى النحو العربى المسمى (بالاجرومية) على أن يحى اسحاق بن يعقوب الكوهى المولود سنة 404 شرح التلمود وعلق عليه بفتاو مكتوبة باللغة العربية ، وترجم أبو سعيد بن يوسف (العهد القديم) الى (اللغة العربية) مضيفا اليه تفاصيل فى الارث عن الفقه الاسلامى ، ومن أشهر الاحبار يهوذا بن نسيم المغربى صاحب (أنس الغريب) المتوفى

سنة 1365 ميلادية وشرح اليهودى أبو طبول (القرآن الكريم) معتمدا على مفاهيمه التلمودية . ومع الاسف فقد تنكر كثير من اليهود للتسامح الاسلامى فى المغرب وكانوا يستغلون نفوذهم للعبث بالمسؤولية كما وقع فى عصر الوطاسيين (أنظر الاستقصا فى عصر بنى مرين) كما أسسوا الاقطاعيات المالية التى ظهرت فى المغرب فى عصر السعديين والتى قضى عليها المولى الرشيد حين حارب اليهودى (ابن مشعل) فى اقطاعيته قرب تازة ، وذكر اليوسى فى محاضراته أن يهوديا ورد لسجلماسة وتظاهر بالصلاح فغرر بخلق كثير مدعيا الولاية والصلاح والاسلام ، ثم ظهر أخيرا تلاعبه .

الصناعات :

يذكر ابن أبى زرع أنه كان بفاس فى عهد المنصور وولده محمد الناصر 116 معملا لصنع الصابون و 12 معملا لتسبيك الحديد والنحاس و 11 معملا لصنع الزجاج و 135 كوشة لتضير الجير و 400 حجرة لصنع الورق و 170 فرانا للخبز .. أما عدد المنشآت العمرانية كالمساجد والحمامات وغيرها فقد بلغ عدد المساجد 785 وأرحية الماء 472 ودور السكنى 89236 والمصريات 17041 والفنادق 4367 وحوانيت التجارة 9082 وسقايات الماء العمومية 80 وعدد دور الوضوء 42 وعدد الحمامات 93 وهذا العدد يعطى فكرة عن العمران ووفرة المتساكنين .

وقد تطورت الصناعات التقنية والهندسية فى هذا العصر . ويذكر المراكشى أن عبد المومن صنع مقصورة من الخشب لها ستة أضلاع وتتحرك بصورة آلية ، ترتفع عند خروج عبد المومن وتنسدل عند دخوله ، وكانت البسط ترفع عن موضع المقصورة

فترتفع الاضلاع فى نفس الوقت وكان باب بيت المنبر مقفلا فاذا قام الخطيب انفتح الباب وخرج المنبر وحده . وكانت هذه المقصورة موجودة أيضا أيام المنصور (القرطاس) وقد وصفها الشاعر يحيى بن مجير :

فاذا أحست بالامام يزورها
فى قومه قامت الى الزوار
يبدو فتبدو ثم تخفى بعده
كتكون الهالات للاقمار

ومن شغف الموحدين بالاختراعات الميكانيكية ما اخترعه لهم أحد المهندسين فى عهد يوسف ، وهو قوس بعيدة المدى تحمل على أحد عشر بغلا .. وصنع أحد المهندسين لتاجر جنوى شجرة مموهة بالذهاب عليها أطيار تصوت بحركة هندسية ، وأهداها الى السلطان يوسف كما صنعت فى عهده ثريا كبرى من النحاس تزن 32 قنطارا وبها 512 مصباحا علقت فى مسجد تازا الذى انتهى بناؤه سنة 693 .

الفلاحة :

اهتم الموحدون بغرس الاشجار وأجروا الماء الى البساتين والدور وذكر الشريف الادريسى (جزء افريقية والاندلس ص 67) أن الماء الذى تسقى به هذه البساتين استخرجه بصفة هندسية المهندس عبيد الله بن يونس الذى قصد الى أعلى الارض فاحتفر بئرا مربعة كبيرة التربيع وشق منها ساقية متصلة بالحفر على وجه الارض تجرى متدرجة من أرفع الى أخفض متدرجة الى أسفله بميزان حتى وصل الماء الى البستان وانسكب على وجه الارض .

وذكر ابن عذارى فى البيان المغرب أن أول من أنشأ المسرة (جنان المنارة الحالى) عبد المومن وكان طول البستان ثلاثة أميال أو قريب منها ، وفيه جميع أنواع الفواكه وقد جلب اليه الماء من أغمات فى جداول هندسية .

ودخلت عادة العنصرة (أو اللامة بالنسبة للشمال) التى كان أهل الاندلس يحتفلون بها فى 24 يونيو فى كل عام . وقد وصف هذا المهرجان الفلاحى ابن عذارى صاحب البيان ج 3 ص 84 وما يزال المغاربة يحتفلون (بالعنصرة) وبالاخص فى المراكز الفلاحية التى اتصل بها المهاجرون الاندلسيون كناحية سلا.

كما عرف المغرب أسماء الشهور الاعجمية التى كانت تستعمل بالاندلس منذ العصر الرومانى وهى الشهور المثبتة فى يومية يوليان التى تطبق فى التقاليد الفلاحية كما ذكر (ليفى برفانصال) فى كتابه اسبانيا الاسلامية فى القرن العاشر ص 172.

وذكر صاحب الاستبصار فى عجائب الامصار ، والمراكشى فى المعجب أنه كانت فى أيام يعقوب المنصور قنطرة بين سلا والرباط مركبة على ثلاث وعشرين معدية عليها قطع خشبية صلبت عليها الالواح وتجوز عليها عتائدها والعساكر والمسافرون وحولها يجلس الصيادون لصيد السمك والشابل وبمد البحر ترتفع القنطرة فتغطى الجسر وتعوم عليه المراكب .

اجتماعيات :

واستعمل المغاربة بطائق الزيارة ويذكر ابن رشد فى ترجمته لابن بكر بن حبيش لدى قوله :

كتبت له بالباب خاء خديمه   يصنفها بالفضل جاء حبيب

ما جرت به عادة الافارقة (أى المغرب الاوسط) من

أن الزائر اذا جاء منزل المزور فلـــم يجده حاضرا خط على الباب حرفا مفردا من اسمه ليعرف به .

الفــن المــوحـــدى :

يقول (ماسى) فى كتابه الفن الاسلامى ج 1 ص 305 : أن الموحدين ركزوا للمرة الاولى وحدة الاسلام السياسية من حدود قشتالة الى ليبيا وساهموا فى تركيز نوع من التوحيد بين عناصر الفن الاسلامى الــذى تســاوت فيه معطيات الفن القيروانـــى والشرقى والبزنطى .

والعجيب أن الدولة الموحدية قامت على أساس التقشــف ومحاربة الفن وبالاخص فى مواقف المهدى ضد الزخارف والنقوش والموسيقى والسماع والرقص ، ولم تلبث أن أصبحت أعظــم حامية للفن المغربى فى عهد عبد المؤمن بن على ، وهكذا ذهب الفن المرابطى فى قبب القرويين ضحية الخوف والقلق وترك عبد المؤمن آثاره المعمارية فى مسجد تازة وتنملل وترك خلفاؤه آثارهم فى مسجد الكتبية كما ترك المنصور أعظم مآثر العمرانية المتجلية فى مراكش واشبيلية والرباط . ففى منار الكتبية طبقات متوالية من الغرف المقوسة السقف منعرج بدون ردج ، والجدران مطليـــة بالجص الكلسى وهو رمادى ضارب الى الصفرة وبه نقوش تعتمد على تسطيرات زهرية ونخلية (هسبيرس مجلة 6 ص 186) ، وفى داخل المسجد قبب مخروطة ، وأفخم قبة ثمانيـــة الهنـــدام مضلعة ومقربصة وأساطين رخامية منها ما جلب من الاندلس ، والجديد فى الكتبية هو ضخامة برج المئذنة وقبتها ، ويمتاز بعظمة الاساكيب والاروقة وصفاء رسوم الاقواس وتجانس الصحـــن المركزى والصحون الجانبية فى وحدة المقربصات وقـــوة الخشب وتناسق الفسيفساء .

وبالكبية منبر جميل يرجع الى عهد عبد المؤمن بن عاـــى فيه خشب متين منقوش بأروع الخطوط ويرى بأسى (الهندسة المعمارية الاسلامية ص 220) أن منبر الكتبية أجمل منبـــر فى العالم الاسلامى .

ومن آثار الموحدين مدينة الرباط حيث تجاوز سورهـــا خمسة كياومترات من باب القصيبة ، وعدد أبراجها 74 .

وتقدمت هندسة الرى فى عصر الموحدين ولا سيما السواقى وجلب المياه ، ففى مدينة الرباط آثار قنوات لنقل ماء عين غبولة الى سلا والرباط .

وأسس المنصور عدة منارات وقناطر وحفر عدة مطافـــىء وأسس الملاجىء من سوس الى بنى مدكود بطرابلس ، ولعـــل اهم منجزاته العمرانية مارستان مراكش الذى كان جنة الدنيا حسب اوصاف للمراكشى فى المعجب .

وشيدت مدينة الرباط بحجارة المعابد الرومانية القديمـــة وعمل فى بنائها اربعون الف مـــن الاسرى مقابل تحريرهـــم ـــ وتجمعوا بعد بناء الرباط قرب شمال مدينة فاس حيث حافظـــوا تخليدا لانتصاراته العسكرية فى اسبانيا ، وكان الغرض بنـــاء مدينة عصرية على غرار الاسكندرية فى مصر ، ويذكر الوزان الفاسى ان المنصور بنى مدينة الرباط فى مدة وجيزة وكانت بالغة الجمـــال بمنازلهـــا وقبابهـــا ومدارسهـــا واسواقهـــــا ومستودعاتها ومستشفياتها .

وتتصف آثار عبد المؤمن بعظمتهـــا ونشاطاتها مع قلـــة الزخارف ، واعتمادها على خطوط متزنة توحى بالوقار ، فكانت مؤسستهم ضخمة لا صغيرة وجميلة وفى آخر عصر الموحديـــن

عادوا الى اقتباس روائع المرابطين ، فقد امــر الناصر الموحدى ببناء باب كبير فى مسجد الاندلس ذى درج بأسفلها شباك رائع من خشب الارز ذى ثلاث خوخات ، وبعــده بياة مــن الحجــر الاصفر ينفجر منها ماء واد مصمودة، وبأعلى الباب قبتان . الاولى مقربصة بالجص ، والثانية خشبيــة ، وبجانب البــاب سقاية ومدخل لمصلى النساء ودار للوضوء على غرار مسجد القرويين ، أما مسجد حسان فمرتفع على البحر ب 30 متر ، والمنارة عرضها وطولها 24 مترا ، وكان المسجد مربع المساحة متساوى السوارى ومحرابه مربع الشكل ، ومن اشهر المهندسين المعماريين فى عصر الموحدين حسان بانــى الصومعــة والمدفــون بالرباط وابــن جبير بانى صومعة اشبيلية .

الاقتصـــاد :

تدارك الموحدون الاخطاء الاقتصادية الــتى عاجلت دولــة المرابطين فسعوا الى تطوير الفلاحة واقاموا منشآت صناعية سواء فى الاندلس أو المغــرب كانشاء صناعة الحرير فى المريــة والورق فى سبتة وشاطبة ، وبنوا بفاس دارا لصناعة السفن فى الجبالات ، كما فى زهرة الآس . وذكر أندرى جوليان فى كتابــه تاريخ افريقيا الشمالية (ص 410) أن خلفاء الدولة الموحديــة جعلوا حدا للاختلال المالى السنوى الذى كــان يعانيه ملــوك الطوائف فاعتنوا بالفلاحة والصناعات وكانت مدينة المرية تنتج الحرير وأوانى النحاس والحديد كما كانت مدينة سبتة مشهورة بورقها كمدينة شاطبة .

وكانت الأندلس تمد المغرب بالخشب والزرع والمنتجات الصناعية والواردات الشرقية أما فى التجارة الخارجية فقد تبادل المغرب مع تونس وبجاية وقسطينة ووهران وتلمسان كما تبادلت

سبتة مع بيزة وجنوة والبندقية ومرسيايا كما بنيت دار للصناعة فى سلا على يد مهندس اشبيلى عربى ، وكان فى فاس فى زمن المنصور 116 معملا للصابون و 12 لسبك الذهب والنحاس و 11 لصنع الزجاج وغير ذلك من المنشآت . وتكلم الادريسى عن تجربة زراعة القطن فى تادلة ، وذكر ابن غازى ان محمدا بن واجباج غرس ايام الموحدين بفاس وتازة ومكناس بحيرات الزيتون ، كما ذكر ابن عذارى ان عبد المؤمن انشأ اجنة نموذجية وهى

القوى العسكرية (الاسطول الموحدى)

لقد انتهى الصراع بين دول غرب اوربا ودول البحر الابيض المتوسط الاخرى الى انتصارها على القوى البحرية الاسلامية وقضائها على البيزانطيين ، ولكن انتفاضة المغرب فى عهد المرابطين والموحدين اعاد للاسلام هيبة بناء اسطول عظيم فى الاندلس والمغرب والجزائر ، وبذلك تحرر شمال افريقيا من غزو الرمان كما تخلصت منه جزر البليار ، ولما صدع المذهب الفاطمى الوحدة الاسلامية ونشأت فى افريقيا دولة مستقلة فى القيروان ثم دولة مستقلة فى المغرب هى دولة الموحدين التى رات نفسها مضطرة ازاء هذا الخلاف المستعير فى صفوف المسلمين الى اعلان انفصامها عن بغداد ، ثم لم تلبث ان اكتسحت دولة القيروان وحاولت الاستيلاء على مصر بعد حملات دعائية موجهة كما فى البيدق معتمدة على اسطولها العظيم .

وقد عظم الاسطول المغربى فى عهد الموحدين باتفاق المؤرخين واستنجد به صلاح الدين الايوبى ليرد عدوان الصليبيين، وتوفر الموحدون على اسطول عظيم لا شك انه من انتاج المغرب حيث كانت دار الصناعة بسلا والرباط ، وكان هذا الاسطول

يسيطر على البحار بل كان أول اسطول عظيم فى حوض البحـــر المتوســـط .

ويذكر ابن ابـــى زرع فى الانيـــس (ص 160 ج 2) ان عبد المؤمن اسس عام 557 اسطولا له قطع متعددة ، منها 400 فىحلق المعمورة (أى المهدية) و 120 فى مرسى معمورة ، وفى شاطىء الشمال الغربى 100 وفى شاطئه الشرقى 100 وبـــلاد الاندلـــس 80 .

القـــوى البريـــــة :

سار الموحدون على غرار اساليـــب التنظيمات العسكرية المرابطية التى اعتمدت الجمل فى حرب الصحراء والفرس فى غيرها والقتال الجماعى وارهاب العدو فى حركة السير المنتظمة التـــى تسير على نغمات الطبول المدوية وكأنها طبول غابات افريقيـــا توحى الى النفس بالرهبـــة .

وكان الجيش الموحدى يعتمد على القبائل البربرية وبالاخص المصامدة الذين هم عصبية الموحدين وتذكر كتب التاريخ احصاآت عن الجيش المرابطى وقوته وعدده وأساليبه ومعاركه التاريخية كمعركة العقاب .. وغيرها ..

الدبيلوماسيـــــة :

كانت الاندلس فى هذه الحقبة وهى تتاخم البلاد الأوربيـــة تبعث بسفرائها الى عدة عواصم غربية من أهمها سفارة الشاعر الاندلسى (الغزال) الى البلاد الانجليزيـــة ، حيث يـــروى فى مذكراتغ التى تناقلتها كتب الادب والتاريخ الاندلسى كثيرا من غزلياته فى اميرات شقروات اعجب بحسنهن واعجبن بذكائـــــه

ودماثة اخلاقه .. أما فى المغرب فان المرابطين طبعوا سياستهم فى الداخل والخارج بكثير من جدية الفقهاء ولذلك فقد اختاروا سفراءهم من اعلام الفقه كابن العربى المعافرى ، وجاء الموحدون الذين ورثوا رسالة المرابطين ، فتلقوا سفراء من المشرق فى عهد صلاح الدين الايوبى الذى استنجد بأسطول المنصور الموحدى لمقاومة الغزو الصليبى ولا نتعرض بتفصيل لهذا الموضوع الذى يحتاج الى كثير من الشرح لتبيان وجهة نظر المغرب فى هذه القضية بالضبط .. كما بعثوا الى بلاط (فردناند) بالسفير ابن الوزير وابى العلاء بن زعرون ، والى البابا (انوصانت) بسفير آخر اليه .. وقد كانت المماليك الاوربية تنظر الى المغرب بكثير من التقدير بعد انتصارات المرابطين والموحدين فى الاندلس وفى تاريخ صقلية نجد (روجار) يقدر الجغرافى المغربى الشريف الادريسى ، ويطلب منه الاقامة بعاصمته استفادة من علمه وخبرته ، ونجد (جون ملك الانجليز) يتسابق ليخطب ود الموحدين الذين كانت سياستهم الخارجية ترمى الى اضعاف سلطة (البابا) والتحالف مع الامارات المسيحية حتى يخف الضغط عن المسلمين فى المشرق الذين كانوا يكابدون عناء الحروب الصليبية .. وقد تحدث لنا المؤرخون المغاربة وبالاخص « ابن ابى زرع » عن محاولة ملك (بيونة) وهى مملكة (بايون) التى كانت مقتطعة من فرنسا وتابعة لفرنسا ، عن قدومه على الناصر وهو يستعد لمعركة العقاب التى تعتبر بداية انهزام دولة الموحدين فى الاندلس .. فقد جاء فى القرطاسى لدى ذكره لدولة الناصر الموحدى ان ملك بيونة جاءه مستسلما خاضعا مستصغرا يطلب صلحه ونيل عفوه وصفحه وانه لما سمع بدخول امير المؤمنين الى اشبيلية ادركه الخوف ، فبادر الى المداراة عن نفسه وبلاده وبعث رسوله اليه يستأذنه فى القدوم عليه ، فأذن له أمير المؤمنين فى

الوصول وكتب الى كل بلد من بلاد الاندلس هى عن طريق هذا اللعين اذا مر بهم ان يضيفوه ثلاثة أيام ، فاذا عزم على الرحيل فى اليوم الرابع يحسبون عندهم من جيشه الف فارس فخرج هذا اللعين من قاعدة ملكه (بيونة) قاصدا أمير المؤمنين ، وهكذا كان كلما وصل الى مدينة اسلامية استقبل احسن استقبال وانتقى من جنوده الف فارس فتخلى عنهـا ليسير تحت ظلال سيـوف الموحدين ، وكانت من هداياه الى الناصر كتاب الرسول الى هرقل محفوظا فى حلة خضراء فى وسط صندوق مملوء مسكا) وقد تلقاه الملك الموحدى فى موكب فاخر من (قرمونة الى اشبيلية) وتولـى ابو الجيوش عساكر الترجمة ، واقتضى البرتكول ان يدخل الملك يوحنا من باب والامير الموحدى من باب آخر حتى لا يقوم الملك الموحدى من أجله .. ودخل معه فى حفلة كبرى مدينة اشبيليـة وكانت نتيجة المحادثات ان الامير الموحدى صالح جون صلحا مؤيدا ما دامت دولة الموحدين .. ويروى الناصرى فى الاستقصاء نفس القصة بعد ذكره لغزوة العقاب وقد تصرف فى الرواية حيث جعل (بنبلنة) بدل (بيونة) ولكن ذكره لكتاب هرقل ونتيجـة المباحثات لا يترك مجالا للشك فى ان المراد يملك (بنبلونة) هـو ملك بيونة وقد يكون حرف الكلمة فى النسخ أو حرفها لانه وجد ذكر (بنبلونة) ولم يجد (بيونة) .. وكيفما كان الامر فـان المؤرخين المغاربة لم يذكروا اسم الملك ولا اسم سفيره ، وانمـا اهتموا بوصف الاستقبال ومظاهر الحفاوة وتركوا التفاصيـل للمؤرخين الغربيين الذين اتموا الاطار لهذه السفارة وأسبابهـا ونتائجها ، وعرضوها فى اطار نقدى لهذا المسيحى الذى يتنازل أمام ملك مسلم والمؤرخون المغاربة يرون صراحة الملك جاء بنفسه ليحظى باستقباله الامير الموحدى ، كما يذكرون انه مهد لذلك بمبعوث خاص . أما فى تاريخ الانجليز فيذكرون ان (يوحنا جان

بدون ارض) ولد بأكسفورد . وملك بلاد الانجليز من سنة 1199م الى 1216 م .. وهو الولد الخامس لهزى الثانى ، وقد تصدى منذ شبيبته الاولى للثورة على ابيه بمساندة ملك فرنسا بعــد موت اخيه رشارد قلب الاسد المعاصر لصلاح الدين الايوبى فى الحروب الصليبية ، وقد خاض مع فرنسا وكانت احدى مقاطعة هذه الاخيرة تابعة لانجلترا وهذه المقاطعة هى (بايونة) التـــى جاءت السفارة منها الـــى الاندلس .

عصـــر بنـــى مريـــن

(القرن السابع الهجرى ـ التاسع الهجرى)
(القرن الثالث عشر ـ الخامس عشر الميلادى)
669 هـ ـ 870 هـ   1270 م ـ 1465 م

ينتمى بنو مرين الى قبائل زناتة البربرية وموطنهم الاصلى بين تلمسان وفكيك فى المغرب الشرقى ، حيث كانوا قبائل رحالا يمتازون على عادة الرحل فى أماكن الرعى أو يغيرون على قبائل أخرى غير متحالفة معهم ابان الجفاف والقحط .

واستعان بهم المرابطون والموحدون فى الخدمات الحربيـــة حيث كانوا يجيزونهم الى الجهاد فى بلاد الاندلس ، ولما انهـــزم الموحـــدون فى معركة العقاب وضعفـــت دولتهم بدأوا يشنـــون هجماتهم على نواحى تازة الى أن تمت لهم السيطرة على المغرب بعد عجز الموحدين عن مقاومتهم .

كانت زعامتهم فى أول امرهم لعبد الحق بن محيو فلما توفى توارثها ابناؤه الاربع من بعده، وكان أشهرهم يعقوب بن عبد الحق الذى كان احد رجالات بنى مرين المشهورين وأول من تلقب بأمير المسلمين وفى عهده بنيت فاس الجديد 674 هجرية وكانت عاصمة بن مرين بعد ان كانت مراكش عاصمة الموحدين، وامتاز عهده بمحاولة استرجاع الاندلس بالاتفاق مع ملوك بنى النصر حيث تعاونت حكومته معهم وأقام بينهـــم وحدة عسكرية لمقاومـــــة المسيحيين الذى كانوا يهودون غرناطة آخر معقل للمسلمـــــين بالاندلس ، وقاوم ماوك بنى زيان العبد الواديين فى تلمسان ، وظلت الحرب بين المغرب وبينهم زهاء ثلاثمائة سنة .

كما ظهر بين ملوك بنى مرين يوسف بن يعقوب بانى مدينة المنصورة قرب تلمسان ، والسلطان أبو الحسن المرينى (752 هـ - 1351 م) وابنه أبو عنان الذى كان أحد بناة الحضارة المرينية التى ما تزال آثارها واضحة فى المدرسة البوعنانية وساعتها المائية وعدة مدارس للطلاب فى فاس ومكناس وشالة ، وسلا .

وقد نمت مدينة مكناس فى عهدهم لانها كانت مقر وزرائهم ، كما جعلوا من شالة مقبرة لملوكهم لانهم التزموا بالجهاد فى الاندلس وجعلوا من مدينة الرباط مقرا ستراتيجيا لبناء الاسطول كما كان الموحدون من قبلهم ، ومقرا للتجمع العسكرى للجهاد فى الاندلس ، ومهما عانت دولتهم من صنوف الفتن والقلاقل فقد استطاعوا ان يبسطوا سيطرتهم على المغرب العربى كله وان ينتصروا على المسيحيين فى معارك فاصلة ولكن خلافاتهم السياسية قوضت وحدة البلاد فخلفهم أبناء عمومتهم (بنو وطاس) الذين كان عهدهم كثير الفتن والفوضى مما عرض المغرب لاطماع البرتغاليين والاسبانيين فتقاسموا الشاطىء المغربى ، واستولى المسيحيون على غرناطة وطردوا المسلمين نهائيا من الاندلس فلجأ أبو عبد الله بن الاحمر الى المغرب وكان محمد الشيخ الوطاسى ملكا على المغرب فلما توفى سنة (910 هـ - 1505 م) خلفه ابنه محمد المعروف بالبرتغالى .

وقد نتجت عن الفوضى فى عهد الوطاسيين تهديد المغرب بالاتراك الذين كانوا مستقرين بالجزائز والذين احتلوا فاس ولم ينقذ المغرب من ازماته الا بعد معركة (واد المخازن) التى اسفرت عن استيلاء السعديين على بلاد المغرب .

ورغم الاضطرابات السياسية فى عهد بنى مرين فقد كان

قمة عصر الادب والفن بعد أن كان عصر الموحدين عهد الفلسفة والفقه ويعتبر ان نتتبع بالذكر مشاهير هذا العصر ولكى يكفى ان نذكر منهم عبد العزيز الملزوزى وفيلسوف التاريخ الاسلامى ابن خلدون ، والموسوعى ابن الخطيب ، والفقيه أبو الحسن الصغير والخطيب ابن مرزوق والقاضى محمد المقرى والرحالة ابن بطوطة ، وغيرهم كثير .

الثقافة الاسلامية فى العصر المرينى

كان هدف بنو مرين الى انشاء امبراطورية اسلامية على غرار الموحدين ، واستعانوا على تحقيق هدفهم بواسطة الزوايا الصوفية ، فازدهرت الشاذلية الجبرية فى عهدهم ، وتفرعت عنها كثير من الطرق بسبب كثرة المرابطين ذوى النفوذ الروحى مما أدى الى تكوين اقطاعيات صوفية جهوية ،وساعد انهزام المسلمين المسلمين فى الاندلس على تكوين روح الجبر والاستسلام كما ظهرت الطريقة الجزولية والتباعية من امتدادات الشاذلية فتحقق للدولة غايتها السياسية على انه بجانب هذا الاتجاه الصوفى كان هناك عمل منظم لاحياء المذهب السنى على الطريقة المالكية لتحقيق تكوين مناعة ذاتية لمقاومة التفسخ الاجتماعى الى احياء مذهب مالك بجانب الحركة الصوفية ، ولذلك اسسوا لتحقيق هذه الدعوة عدة مدارس علمية ، واشرفوا على سير التعليم بها حسب توجيههم الفقهى، وشجعوا الطلبة على الاقامة بعاصمة فاس ليرتووا من معين المذهبية الموجهة ، وزاد فى تمكينهم للقرويين ان كانوا يتسارعون الى الاحتفاظ بما تبقى من تراث الاندلس وايواء خزائنها ، فنقلوا الكتب من الاندلس الى فاس ، ويروى المؤرخون ان ثلاثة عشر حملا من نفائس المخطوطات نقلت الى فاس ، وكما اوت العاصمة الكتب آوت العلماء الواردين على

المغرب ، ومنهم ابن الخطيب وابن خلدون وغيرهما من فطاحل الفكر فى المغرب العربى الذين سعوا الى تحصين الثقافة فى مدن مغربية فى يد العدو ومنها سبتة التى استولى عليها البرتغال سنة (1415 ميلادية) لاذ علماؤها بالقرويين فأصبحت هى مركـز الاشعاع الثقافى فى العالم الاسلامـى ، وتعـددت بها كراسى العلوم خصوصا التى تعتنى بالدراسة الدينية حفظا وفهما مع الايثار الايثار للحفظ ، وتعددت المدارس حيث زاد المرينيون على ما بقى منها فى عهد المرابطين والموحدين ، وكان لكل مدرسـة استاذان يراجعان مع التلاميذ ، كما تعددت الخزائن الكتبية بها ولذلك ازدهرت القرويين فى عصر بنى مرين ازدهارا كبيرا ، ويقول ليفى بروفنصال : ان بفضل ملوك بنى مرين لم تكن عاصمة فاس فى القرن الرابع عشر لتحسد العواصم الاسلامية الاخرى .

بل ان (باديا ليليبيش) المعروف بعلى العباسى اعتبر فاسا بمثابة اثينا افريقيا ، وذكر مثل قوله الدكتور رينو فى كتابـه « الطب القديم بالمغرب » : حيث اصبحت القرويين ملتقـى الاجانب من مختلف الجنسيات والديار كما قال دو كمبو . وذكر كابريال شارمس فى كتاب « سفارة المغرب »ان مدارس فاس كانت طوال مدة مديدة أولى مـدارس العالم ، ومنها انبثـق ما يسمى بالحضارة العربية التى شع نورها فى اسبانيا فأضاء جوانب اوربا ، وشجعت الحركة التعليمية تشجيعا منقطع النظير، وكان الاساتذة يتقاضون علاوات وكل ما يحتاجون اليه طوال السنة ويتمتعون بحق السكنى مجانا كما ورد ذلك عن الحرشاوى احد علماء الجزائر الذين درسوا بفاس فى القرن التاسع عشر م ، فقد روى عنه دلفار زيادة على ما ذكر ان الاساتذة كانو ملزمين بالمكث فى فاس ، وبنى ابو يوسف المدارس والمعاهد ورتب لها ،اجرى المرتبات على العلماء ، والطابة فى كـل شهر كما بنـى

المدارس والمعاهد ورتب لها الاوقاف واجرى المرتبات على العلماء . والطلبة فى كل شهر كما بنى الزوايا فى الفلوات النائية واوقف عليها الاوقاف ، وسار المينيون على منواله فأنشأ ابو الحسن فى كل بلد من بلاد المغرب الاقصى والاوسط (مدرسة) سواء فى فاس وتازة ومكناس وسبتة وطنجة وآنفا وأزمور وأسفى ومراكش والقصر الكبير وتلمسان كما جاء فى (المسند الصحيح لابن مزوق ص 35 من مجلة هيسبيرس عام 1952) ، وقــد وقف محمد الابلــى العبدرى استاذ ابن خلدون ضد بناء المدارس ، ولاحظ ان العلم اذهبه بناء المدارس ، وايده احمد بابا السودانى الذى ذكر بأنه أصبح يتعاطى القراءة على الكراسى من لا يحسن العلم حيث صار ذلك بالتوارث (نيل الابتهــاج ص 246) . وقد حبســت اوقاف على تشجيع بعض العلــوم . ففى نشر المثانــى ان من احباس جامع الاندلس قراءة التفسير وقراءة صحيح مسلم وابن كراسى العلم فى التفسير وقراءة صحيح مسلم وابن الحاجب وصغرى السنوسى والرسالة ونظم ابن زكرى لها احباس خاصة، وفى نيل الابتهاج ان من احباس فاس وقف على استيفاء ابن حجر على الصحيح .

وكان الطلبــة يقيمون فى احــدى المــدارس الاربع عشرة ويتقاضون خبزة فى اليوم ، ولاحظ ابن مرزوق ان انشاء المدارس كان فى المغرب غير معروف حتى بنيت مدرسة الحلفائيين بفاس وهى الصفارين المؤسسة عام (670) .

ثم انشا ابو سعيد مدرسة العطارين ، والبيضاء والصهريج والوادى والمصباحية ، ويظهر ان المقصود من ملاحظة ابن مرزوق هو انتشار المدارس ، والا فقد ذكر عبد السلام القادرى أن يوسف بن تاشفين اسس مدرسة الصابرين بفاس ، وفى الجذوة ان مفضل العذرى صاحب الشرطة والحسبة بفاس هو أول من سن بنــاء

المدارس ويظهر ان أول مدرسة بنيت بالمغرب قبل هذا العهد يرجع تاريخها القرن الخامس حيث أسس وجاج ابن زلو اللمطى تلميذ ابن عمران الفاسى دار المرابطين لطلبة العلم كما ذكر صاحب الانيس المطرب .

التعليم فى العصر المرينى :

لقد جمد اسلوب التعليم فى أول العصر المرينى واصبح كما عبر عنه ابن خلدون بقوله : « وقد انقطع لهذا العهد تخريج شىء من الاحاديث واستدراكها على المتقدمين ، وانما تصرف العناية لهذا العهد الى تصحيح الامهات المكتوبة وضبطها بالرواية عن مصنفيها .

وخمدت الحركة الفكرية والحرة التى بثها الموحدون ولم ولم تبق منها الا بقايا ضئيلة محفوظة عند بعض العلماء المبثوثين فى عدة مدن من الذين تسلسل فيهم النبوغ المغربى كالحضرمى وابن خلدون وابن الخطيب وغيرهم ، على انهم بلغوا القمة فى الشروح والحواشى الفقهية ، وكان من نبغاء علماء الاسلام فى هذا العصر العبدوسى وابن الصباغ الذى املى فى حديث ابى عمير اربعمائة فائدة ، وصرف العلماء فى هذا العصر همتهم الى (التلخيصات والاختصارات) وقد وفقوا فى بعضها ولم يوفقوا فى بعضها الآخر ، ولعل من اهم المحاولات ما كتبه ابن آجروم فى ذلك المختصر الصغير لدراسة النحو العربى ، وكتابه يعتبر تجربة للتبسيط والاختصار والاخذ بمختلف المذاهب النحوية ، فلم يتقيد بمدرسة البصرة أو الكوفة فهو يرى الاعراب معنويا على عادة الكوفيين وقسمه الى اربعة اقسام منها الجزم على طريقة البصريين .

على ان اهم علم نبغ فيه المغاربة هو علم القراءات فقد

اشتغلوا به واتقنـــوه ، ويقول عنه الدكتـــور العزيز الاهوانـــى بأن هذا هو الميدان الوحيد الذى سيطر عليه المغاربة سيطرة تامة .

ولعل عناية العلماء المغاربة بالفقه فاقت العناية بأى علم آخر واصبح مختصر خليل هو المدونة الجديدة التى يعذب الكلام فى حل رموزه ، وقد ادخل مختصر خليل ابن اسحاق المالكـــى المتوفى سنة 767 هـ . الى فاس الفقيه محمد الفتوح التلمسانى المتوفى سنة 818 بمكناس ، وكتبـت عليه عـشرات الشروح والحواشى والتعليقات واستنبطت منه الفتاوى والاحكام ، كما يبدو فى تأليف المفتين بهذا العصر ، واصبح كتاب (العمل الفاسى) للزقاق الفقه الرسمى فى افريقيا الشمالية كلها ، واخذ القرشـــى نفس الطريقة عن الزقاق ، ورغم ان الثقافة المغربية الاسلاميـــة اجتازت عـــدة قرون فـــلا نجد محاولات فى تغيـــير الاساليـــب والمناهج الا ما يلاحظ من شدة الاقبال على العلم ونشاط بعض فروع المعرفة ، ولدينا وثيقة مهمة جدا عن سير الدراسة وبرامج التعليم ومناهجه فى القرويين على عهد الوطاسيين وهى (الرسالة المجازة فى معرفة الاجازة) التى الفها الصوفى المغربى الكبـــير أبو الحسن على بن ميمون المولود سنة (854) الذى درس بفاس سنة (887) ، ويذكر المؤلف انه اقام بفاس ايام الوطاسيـــين ذاكرا انه اقام بفاس بقصد الدراسة فى القرويين طيلة اربعـــة عشرة سنة حيث اقام فى بعض مدارسها ثم خرج قاصدا الحجاز وجال فى الشام واستوطن فى الاخير مدينة بورصة بتركيا وكان صوفيا سنيا واشتهر بهذه السيرة وهذا المذهب وتصدى للرد على خصومه فى عصره ، ثم رجع الى الشام حيث توفى بها سنـــــة (917) وترك عدة مؤلفات اهمها « الرسالة المجازة » وكتـــاب

---

(1) مجلة معهد المخطوطات العربية ، الجزء الاول المجلد الاول .

« بيان غربة الاسلام » وهى فى الرد علـى مفتقرة اهل مصر والشـام .

ويظهر من هذه الرسالة ان العلوم الشائعة فى هذا العهد بالقرويين هى الفقه المالكى والحديث والتفسير والنحو والفرائض والحساب والتوقيت والتعديل والتوحيد والمنطق والبيان والطب وباقى العلوم العقلية ، وإن الدراسة كانت تعتمد على حفـظ النصوص ، ولا يقدرون مـن الطلبة والاساتذة مـن لا يحفظ النصوص ، وكان شعارهم (من لم يحفظ النص فهو لص) ، ويروى مؤلف السلوة عن هـذه الرسالة التى اقتطـف شذرات منها بأن مؤلفها ابن ميمون جال فى تلمسان وبجاية وتونـس والحجاز ومصر فلم ير فى علماء هذه المدن واشياخها من يصل الى درجة علماء (مدينة فاس) ، ويستفاد من هذه الرسالة بأن التلميذ قبل الدخول الى القرويين كان لابد ان يكون حافظا للقرآن والرسم والتجويد وحافظا المصنفات والمنظومات وهى ذلك منظومة فى الفرائض والحساب ورسالة ابى زيد القيروانى .

وكان الشروع فى الدراسة يبتدىء من الفجر الى ما بعد العشاء ، ويذكر ابى ميمون انه كان يشرع فى وقـت مبكر ولا يستطيع العودة الى المدرسة لتناول الغذاء ، بل لا يتنـاول الا وجبة العشاء فقط ، وكان الاسلوب المتبع فى درس الحديث هو النقل الغزير ودراسة رواية العلماء وانسابهم مع ضبط المتـن لغويا ونحويا وفقهيا واشتهر كتاب الجزولى عـلى الرسالة فى الفقه اما المدونة فكانت تدرس بالنقل الكثير من كلام مشايخ المدونة من اولهم الى آخرهم ، وكان التجويد بالمدخل للامـام الجرومى المصمودى والفقيه ابن مالك .

وقبل وقت العصر كان الطلاب ينصرفون عادة الى خزانة

الكتب (1) حيث يطالعون الكتب التى يوزعها عليهم الوكيل ، ويذكر المؤلف ان الخزائن بفاس لدى عهد كانت ثلاثة تشتمل على كتب كثيرة لا تكاد تحصى .

أما الحساب والفرائض فكانا يعلمان يوم الخميس والجمعة ، وهكذا يقضى الطلبة ايامهم الدراسية الى ان يحصلوا على العلم الوافر ويصبحوا فى عداد الاساتذة (2) .

ويتكلم الوزان الفاسى المعروف بليون الافريقى الذى كان حيا سنة (964) فى كتابه وصف افريقيا عن كيفية التعليم بفاس ذاكرا انه توجد بفاس (فى عصره) مائتا مدرسة لتعليم الاطفال وهى عبارة عن قاعات واسعة داخلها محاط بالدكاكين لجلوس التلاميذ ، والمعلم يعلم القراءة والكتابة على الواح واسعة يكتب التلاميذ فيها جزءا من القرآن فى كل يوم ويسيرون على ذلك فيختمون القرآن فى سنتين أو ثلاثة ويعيدون ختمه مرات عديدة حتى يحفظونه عن ظهر قلب واقصى ما يقضون فى ذلك سبع سنين ويتعلمون مع ذلك مبادىء قواعد الرسم ، ويدرسون هذا الفن بسائر المدارس العلمية مع النحو وله نظامه واجرة المعلم طفيفة واذا ختمه اقام الاب حفلة لابنه حيث يأتى راكبا على جواد رفيع (يعيره من عامل المدينة) بسلاحه الثمين (الى آخر ما وصفه من حفلات الكتاب كحفلة عيد المولد مثلا) ، والتعليم الثانوى يكون فى المسجد ويمكث الطلبة الافاقيون

---

(1) اسس ابو عنان المرينى خزانة كبرى فى القرويين جاء وصفها الجزنائى قائلا : اودعها من الكتب المحتوية على انواع من علوم الابدان والاديان واللسان والأذهان وذلك سنة 750 هـ

(2) كان علماء القرويين يؤدون علوم الآلة من نحو وصرف وبلاغة فى الصباح والمساء داخل القرويين ر أما الرياضيات والطب والادب والتاريخ فيؤدونها فى المدارس ، أما يوم علوم الطب والموسيقى ففى منازلهم .. وفى جامعة ليدن بهولندا تقليد من هذا النوع .

فى المدارس ولم لهم فى عصره جرايـات وانمـا يتعيشون ممـا يتصدق عليهم به اهل البلد واهل نواحيها .

وكانوا من قبل يقيمون سبعة اعوام سكنى واكلا وكسوة ولكن حروب ابى سعيد عثمان ابى العباس آخر ملوك بنى مرين قبل ولده عبد الحق اتت على مداخل المدارس بينما كان الطلبة فى عهد ابى عنان من اعز الناس واكثرهم عددا ورزقا كما ذكر صاحب نيل الابتهاج .

وينتقد المقرى فى ازهار الرياض التآليف المكتوبة بعاصمة المغرب (فاس) بهذا العصر بأنها ضئيلة سواء فى فى التلخيصات أو الارتجال ، وانما تظهر تآليف فاس فى النسخ فقط وبقـى التآليف على ما هو عليه كما فى مدونة ابن الحسن الزرويلـى الصغير المتوفى سنة (719) وكما فى الديباج ، ثم جاء طلبـة الجزولى الذى نسبت اليه تقاييد فى الفقه وان كانت فى الواقع من تقاييد تلامذته ، على ان المقرى يتأثر بآراء ابن خلدون فى كون صناعة التعليم أو ما يسمى اليوم بالبيداغوجية لم تبلغ الـى فاس ، وانما رسخت اقدامها فى تونس ، ويذكر بعد ذلك السلسلة العلمية الفقهية المبتدئة من الامام المازرى ، أما العلوم النظرية فلاحظ للتونسيين ولا للمغاربة فيها على السواء الى أواخر القرن السابع حيث رحل ابن زيتون وحملها الى تلمسان .

ويروى لسان الدين ان الصبيان كانوا يدربون على حمل السلاح كما يحفظون القرآن ، وهذا يدخل فى الوعى الوطنى بهذا العصر وكذلك شاعت المحاضرات فى العصر المرينى ، فقد سافر عبد القادر بن سوار المحاربى الى غرناطة سنة 757 والقى بها عـدة محاضرات .

وفى الاعلام بمن حل بمراكش واغمات من الاعلام لابن ابراهيم

(الجزء الثانى صفحة 22) ، ان أبا عبد الله محمد الملقب بجار الله خروف التونسى شيخ الامام القصار كان قرا فى تونس ومصر وغيرهما ، واقام بفاس يعلم المنطق والاصليين والبيان ، فهو مجدد تعليمها ، وتوفى بفاس سنة 966 .

الفن فى عهد بنى مرين (الموسيقى)

فى اوائل عصر بنى مرين ولد على بن عبد الله النميرى التشترى اللواتى سنة (610) حيث عاش متنقلا بين فاس ومكناس ومراكش وتوفى بدمياط وترك ديوانا ضمنه ازجاله وموشحات من انتاجه فى حلقات الصوفية ، والتشترى تأثر فى فنه بأبى قزمان وفى صوفيته بابن سبعين المتوفى سنة 660 . ومن ازجاله نوبات المألوف الاربع عشرة نوبة الموضوعة على نغمات الحجاز أو العشاق والسيكة والحسن والدوكاه والحجاز واست والشاركة والعراق . وترك تلحينا لقصيدة الامام البوصيرى وما تزال ازجاله وموشحاته تردد فى حلقات الذكر فى الزوايا بتونس والمغرب وبالاخص فى زاوية محمد بن عيسى دفين مكناس .

ويعرف له فى تونس أثر واضح فى الاغانى الشعبية ، بل ان تلاحين الششترى تعتبر مدخلا وتمهيدا لحفظ وصلات (المؤلوف) فى تونس ، ويعتبر الششترى من رواد (الفنون المحببة) اى الفن الشعبى الفولكلورى وله اثر فى الرقص والموسيقى الافريقية (انظر ما كتبه البارون دو لانجى مؤلف المألوف والفولكلور الاندلسى) .

واصل الموسيقى المغربية عربى صميم ، تمت تحت تأثرات فارسية ورومية مكنتها من الاسس العلمية التى ارتكزت عليها ،

وعندما حملها زرياب الى الاندلس تأثر بالطابع المغربى واثرت فى الموسيقى الكنيسية الكريكورية .

وقد اشتهرت الموسيقى الاندلسية فى تونس باسم (المالوف) وفى الجزائر باسم (غرناطى) اما فى المغرب فنظرا لوحدته مع الاندلس اعتبرت الموسيقى الانذلسية وليدة فيهما معا وهى تتألف من مجموع وحدات موسيقية تسمى كل واحدة (بالنوبة) ويكون لها نغمة خاصة تسمى بالطبع وعدد الطبوع 366 ، وعدد ميازينها اربعة : البسيط ، والقائم ونصف ، والبايحى والقدام وزاد المغاربة الذرج .

سكان المغرب فى عهد بنى مرين

يلاحظ ابن خلدون تقهقر نمو بلاد البربر واثر الطاعون فى القضاء على تزايد السكان ويقول فى مقدمته :

وأما لهذا العهد وهو آخر المائة الثامنة ، فقد انقلبت احوال المغرب الذى نحن نشاهده ، وتبدلت بالجملة واعتاض من اجيال البربر اهله على القدم بمن طرأ فيه من لدن المائة الخامسة من اجيال العرب لما كسروهم وانتزعوا منهم عامة الاوطان ، وشاركوهم فيما بقى من البلدان لملكهم ، هذا الى ما نزل بالعالم شرقا وغربا فى منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذى تحيف وذهب بأهل الجيل ...

الاقتصاد :

كان الدينار المغربى فى عهد بنى مرين يعادل وزن الدينار الموحدى ، أما شكله فكان مدورا بينما كان الدينار الموحدى مربعا ويساوى الدينار المرينى 15 درهما و 400 حندوسا ... وكانت

العملات الرائجة فى هذا العصر هى (الدوبل) رواجه بهسكورة و (السكودو) بفـــاس ، و (الدوكا) بتنسيفــــت . والدرهم) بسجلماسة و (الحندوس) المربع بفاس وسوس .

وذكر ابن بطوطة (1792) فى رحلتـــه ان دراهم المغـــرب صغيرة وان فوائدها كثيرة اى ان لها قوة شرائية كبرى ... وقارن المؤرخون اسعار المغرب باسعار مصر فى هذا العصر فلاحظـــوا ان الدرهم الفضى بمصر كان يشاوى ستة دراهم من دراهم المغرب .. اى ان الاسعار بمصر بلغت ثلاثـــة أضعاف اسعـــار المغـــرب .

الفـــن المعمـــارى :

اهتم المرينيون اهتماما كبيرا بالفن العمرانى فشكل الفن المرينى مدرسة قائمة الذات تمتاز بهندسة معمارية دقيقـــة وهندسة فنية ، ففى المدرسة بيوت للطلبة موزعة توزيعا هندسيا ، والفن يمتاز بدقة النحت والنقش والنخر والاعتناء بالساعات المائيـــة (كالبعنانيـــة) ويمتاز بتزويق الحائط بالفسيفســـاء والزليج واشتغمال الخشب ونحته وتصفيفه ، وقد قل الاقتباس والتقليد القديم ، واعتمد عـــلى المدارس الفنيـــة (الانذاسية) النحـــت عـــلى الخشب والرخـــام بالتلويـــن والتذهيـــب ، واعانهم الخط العربى بجمال أشكاله وبساطتها على جمال النقش كما اعتمدوا على (الكايزات) فى البناء لان الواحها تريح الجزء السفلى فى البناء وتحمل العلوى لئلا ينكسر الحائط .

المرأة المغربية فى العصر المرينى :

نبغت فى العصر المرينى عدة نساء مـــن اشهرهن الادبيـــة الشاعرة صبح المشهـــورة فى أدب الشاعر الجزناتى والمحدثـــة

الشاعرة ام هانىء العبدوية والشاعـرة سارة الحلبية والعالمة صفية العزفيـــة .

الاسطـول المغربـى :

. ضعف الاسطول المغربى فى أوائل العهد المرينى بالنسبـة لما كان عليه أيام الموحدين (400 قطعة) حتى لم يكن يرابط فى سلا وانفا سوى (15) سفينة بينما كان لابى حاتم العوفـى أمير سبتة (45 قطعة بحرية) .. ولم يلبث السلطان يعقوب أن قوى الاسطول بعد حروبه مع (الاسبان) فى شواطىء سلا والمهدية كما حصن المراسى الساحلية ، وبنى بسلا السور المغربى المقابل للوادى .. وقد كان الاسطول المغربى ينافس الاسطول الاسبانى المسيطر على البحر الابيض المتوسط والبحر الاطلنطى واذا كان اكتشاف امريكا ساعد على تطور بناء الاساطيل وتطوير الملاحة البحرية فقد كان للمغاربة أثر فى هذا الفتح نظرا لتجربة المغامرين فى البحر من قدماء العرب والاندلسيين كالاخوة المغرورين الذين اعتمد على تجربتهم رجال البحرية الاوربية .

ولم يلبث الاسطول المغربى فى عهد بنى مرين أن اصبـح قويا . وذكر المقرى فى نفح الطيب أن أبا الحسن المرينى رحل الى تونس فى اسطول تبلغ وحداته 600 قطعة وقد غرقت كلها فى كارثة بحرية وهلك فيه كثير مـن رجالات الدولة والعلمـاء والنفائس والاعلاق والكتب .

وتوفقت دار صناعة السفن التى بناها الموحدون فى سلا فى أول العصر المرينى ، وكان الخشب يجلب اليها من غابة المعمورة على حلق الوادى ، ويذكر ابن القاضى أن الذى بناها هو مهندس اشبيلى عربى ماهر فى علم الحيل ، ونقـل الاتقال بالطـرق

الميكانيكية . وكانت بسلا جداول لاستقبال السفن وارجاعها الى المرسى تعمل بطريقة هندسية تعتمد المد والجزر البحـــرى .... وما تزال معالمها واضحة ليومنا هذا ولم يخل أسطول المكتشفين لامريكا من عناصر مغربية . ولا شك أن اكتشاف امريكا كان ذا اثر عظيم على حياة حوض البحر الابيض المتوسط . فالصراع المستمر بين الشرق والغرب حول هذا الحوض فتح للغرب طريقا جديدا وعالما آخر ... واذا كانت القوى العالمية اليوم تتسابق لارتياء الفضاء فقد كانت القوى العالمية آنذاك تتسابق لارتياء عالم المحيطات وكان عمل المغرب تطبيقا وتنفيذا لما ذكره الملاحون المغاربة والاندلسون .. ولهذا فان علماء المغرب سبقوا الى اعطاء معلومات حول اكتشاف امريكا ، ومن المعروف قديما ان الفنيقيين طافوا حول العالم ووصلوا الى البرازيل التى ما تزال تحتفـــظ بحجـــارات منقوشـــة باللغـــة البونيقيـــة وهى لغة افريقيـــا الشمالية فى عهد الفنيقين والقرطاجنيين .. كما يظهر أن قدماء المصريين أو من تأثر بحضارتهم عبروا من اسفى الى امريكا على قارب مبنى بجبال البردى ، وأيدتها تجربة المكتشف النرويجى فى رحلة (رع) التى انطلقت من أسفى الى امريكا الجنوبية .

الاختراعـــات الحربيـــــة :

يذكر المؤرخون ان الامير يعقوب حاصر ثوار مدينة المهدية سنة 1205 م ضرب اسوارها بمختلف الآلات والقنابل ، وبالات لم يرها الناس من قبل ، فكانت كل واحدة منها ترمى قذائف كبيرة من الحجارة وقنابل مع الحديد فتسقط فى وسط المدينـــــة ويقول (جوانفيل) مؤرخ الحملة الصليبية التى قادها لويـــس التاسع (949 — 950) : « وذات ليلة تقدم المماليك بآلة مـــن الآت فظيعة ... ووضعوها قبالة قاذفات القنابل .. ولقد أطلقوا

من هذه الآلة كميات هائلة من النار ... وهذه النار كانت كالبراميل المشتعلة ومن خلفها ذيل طويل ، وأما الصوت الذى كانت تحدثه عند انطلاقها فكأنه الرعد .. ويذكر ابن خلدون فى وصف معركة استعملت فيها المدافع : وعند ما عزم السلطان أبو يوسف فتح سجلماسة سنة 973 من ايدى بنى عبد الواد نصب عليها الات الحصار من المجانيق . وفى تاريخ (الاذفونش 1) . أن مغاربة المدينة كانوا يقذفون كثيرا من الصواعق على الجيش فيرمون عليه عدة قنابل كبيرة من الحديد كالتفاح الكبير ، وذلك الى مسافة بعيدة من المدينة فيمر بعضها من فوق الجيش ويسقط بعضها عليه وكان بالمعركة كونت درجى وكونت ساسبرى الانكليزيان وشاهدا نتائج استعمال قوة البارود المتفجر ، ونقلا هذا الاختراع الى بلادهم ، وبعد أربع سنوات من هاته الواقعة استعمله الانكليز فى معركة كريس التى حدثت سنة 1346 . ويعقب المؤرخون الاوربيون بأن هذه الواقعة هى الاولى من نوعها فى اوربا التى استعمل فيها البارود لغاية الحرب ... وقد استعمل العرب الاندلسيون (البارود) فى حروبهم ضد حركة الاسترجاع توفى بيزا باسبانيا سنة 1323 م ، ولا تزال المدافع التى استعملوها محفوظة فى أحد متاحف اسبانيا الى اليوم ، وأول كتاب وصف المدفع وتحدث عن كيفية استعماله مخطوط عربى يرجع تاريخه الى سنة 1304 م ، وظل المدفع مستعملا فى اوربا الى أن اخترع ريتشارد جاتلنج الامريكى فى سنة 1861 المدفع السريع الطلقات . كما أن العرب هم أول من استعمل القنابل من الزجاجات المملؤة بالنفط سنة 934 م وقد استعملوا اسطوانات نحاسية لقذف المواد المتفجرة وقذائف البارود .

المواصـــــلات :

اهتم المرينيون بالمواصــلات وساروا على غرار الموحدين ، وجعلوا من جبل طارق قاعدة عسكرية مهمة ، وقد سلف ان حصنه عبد المؤمن بن على سنة 555 هـ ، واستغلــه بنو مرين كنقطــة للمواصلات مع الاندلس بطريق الحمام الزاجل ، وكانت فـــاس تتصل شرقا بتلمسان على طريق تازة ، وهى الطريق التى دخــل منها العرب والفاطميون ، وطريق الفجيج (فكيك) ، ومنها الى سجلماسة مارا بصفرو ، وطريــق يصل مراكش بفاس عــن طريق الجبل ، وطريق بين اغمات واسفى ، ومراكش ودرعة وبين مراكش وأكادير وبين سجلماسة وتمكتو على فجيج (فكيك) .

الضرائـــــب :

أما الضرائب فقد فرض أبوسعيد عثمان بن عبد الحق على من أطاعه من الناس قدرا من الخراج ، ومن امتنع فرض عليه الضريبة كاملة ، ثم فرض على امصار المغرب كفاس ومكنـــاس وتازة ضريبة سنوية فى مقابل اصلاح طريقها وتأمينها .

وقد توفر لبنى مرين (رصيد مالى) وازدهار اقتصادى ، ويظهــر من الهدايــا التـــى كانوا يبعثونها الـــى جــــيرانهــم وحلفائهم مدى غناهم وثروتهم .

التسامـــح الدينـــــى :

اليهود فى عصر بنى مرين

كان اليهود يمثلون جالية كبيرة فى عواصم المغرب سيما بعد طردهم من اسبانيا على يد (ابزابيــلا) وقد أحسن المغاربـــة استقبالهم ولكنهم مع ذلك كانـــوا يستغلون نفوذهـــم للعبث

بالمسؤولية ، كما وقع فى عصر الوطاسيين (انظر الاستقصــاء عصر بنى مرين) وكانت لهم (اقطاعيات) كالتــى ظهــرت فى عصر الوطاسيين والسعديين ، التى قضى عليها المولى الرشيد حين حارب اليهودى (ابن مشعل) قــرب تازة ، وذكــر اليوسى فى محاضراته ان يهوديا ورد لسجلماسة وتظاهر بالصلاح فغـــرر بخلق كثير وادعى الولاية والاسلام ، ثم ظهر أخيرا تلاعبـــه بخلق الله ، وفى تاريـــخ اليهود لاسحـــاق ولنفسون ذكر لمآت العائلة اليهودية التى اندمجت فى المجتمع الاسلامى ، والتـــى بقيت محتفظة بطابعها الخاص ... كما يذكر من قبله البكرى فى المسالك والممالك (ص 115) ان فاسا كان يسكن فيها خلق كبير من اليهود ، وشاهد المغــرب بعض المدن التــى تجمعت فيهــا الجاليات وكونت بها كثرة ساحقة . كدبدو وصفرو ، والصويرة . وميســـور .

وكان الاسلام ذا أثر كبير فى تطوير الفكر الفلسفى اليهودى، كما يبدو ذلك فى فلسفة موسى بن ميمون ، واستعمــل المثقفون اليهود فى افريقيا الشمالية اللغة العربية أداة للتعبير ، وفى كتاب تاريخ المغرب لكودار ، أن اليهود كانوا يستعملون اللغة العربية فى كتابهم وتآليفهم ، ويذكر (ماسينيون) فى مجموعة البحوث والمحاضرات إن كتاب سيبويه كان أساس تجديد النحو العبرى فى فاس فى القرن الرابع ، ولهذا تطورت اللغة العبرية بفضل العربية فطورت معه التلموذ وشروحه والآداب اليهودية بصفة عامة ، وكان مناحم بن سروق الاندلسى ويحى بن داود حيوج من دعاة احيــاء لغة العهد القديــم ، بينما كان دنوشى من يهود فــاس ينادى بفتح المجال للعربية والخضوع لاصولها فى فهم لغـــة العهد القديم ، واستطاع أبو الوليد مروان بن جناح ان يؤلف فى تأثير العربية فى اللغة العبرية معتمدا على معاجم اللغة العربية .

العربية والثقافة اليهودية وكان ابو زكريا حيوج الفاسى من مؤسسى فقه اللغة بالعبرية فى أول القرن الحادى عشر ثم مروان بن جناح من بعده الذى الف فى قرطبة (التقريب والتسهيل) ومن غريب الصدف أن يؤاف يهوذا بن ابراهيم الفاسى قاموسه المسمى (أجرون) بينما وضع المغربى ابن ابن اجروم كتابه فى النحو العربى المسمى (بالجرومية) . على ان يحى اسحاق بن يعقوب الكوهن المولود سنة 404 هـ شرح التلموذ وعلق بفتاو مكتوبة باللغة العربية وترجم أبو سعيد بن يوسف (العهد القديم) الى اللغة العربية مضيفا اليه تفاصيل عن الارث فى الفقه الاسلامى ، ومن اشهر الاحبار يهودا بن نسيم المغربى صاحب (انس الغريب) المتوفى سنة 1365 ميلادية وشرح ابو طبول (القرآن) معتمدا على مفاهيمه النورانية ، ومع الاسف فقد تنكر كثير من اليهود للتسامح الاسلامى فى المغرب .

ومن اشهر علماء فاس فى هذا العصر الجنوى الذى اشتهر ضريحه بها مزارا معروفا ، وهو متولد عن أب مسيحى وأم يهودية، فكان كالحليب خرج من بين فرث ودم (حسب تعبيره) وعندما تكالبت محاكم التفتيش على اليهود فى أروبا وردت جاليات منهم سواء من ايطاليا أو انجلترا أو هولاندا أو فرنسا على المغرب فآواهم واحسن اليهم فنشروا بين اقوامهم معاهد العلوم الدينية التلموذية واعتاد اليهود أن يسكنوا فى احياء خاصة بهم تسمى (بالملاح) .. واشتغلوا بحرف خاصة بهم كذلك .

النظام القبائلى :

النظام القبائلى نظام عضوى يشد الافراد بعضهم ببعضهم بوشائج الدم والعادات والتقاليد ليجعل منهم مجموعة متماسكة تخضع للوحدات أكثر من خضوعها للعقل والمصالح

العامة .. وهو نظام يجعل السلطة فى يد شيخ القبيلة الـذى يتمتع بنفوذ واسع لا يقبل المناقشة والرفض ... وقد عـرف نظام القبيلة فى عدة أمم فى أولية نشأتها قبل الانتقال الى الحالة الحضرية وسكنى المدن حيث تظهر أسباب أخرى للتكتل .

وكانت القبائل المغربيــة فى القديم منتمية الــى العنصر البربرى الذى يرجع فى أصله الى الجنس العربى القديم ربما كان من العرب البائدة التى سكنت باليمن وهاجر بعضها الى الشام وآخرون الى مصر ، ومنها عبروا الى المغرب .

ولهذا تجد وحدة فى نظام القبائــل واحلافها بين العــرب والبربر .

ودعت الضرورة فى النظام القبائلى الى استمرار التآزر مع القبائل بعضها ببعض ولذلك اعتمدت القبائل على نظــام الاحــلاف أو الحلف الذى عرفه العرب قبل الاسلام ، كحلــف الفضــول مثلا وعرفتــه القبائل البربريــة فى المغرب قبــل الاســلام ، ثــم تحالفــت هــذه القبائــل مع العــرب استعادة لما عرفوا فى تاريخهم ، ولعل اقدم حلف مكتوب فيما نعرف هو حلف زناتة والعرب الذى وقع فى عهد الولاة فقـد استمرت الاحلاف بين القبائل حفظا للتوازن وجاء عهد المرابطين ليعيد السيادة لصنهاجة ولمتة فتحالفت قبائلها لمقاومة حلف زناتة كما جاء عهد الموحدين ليعيد السيادة لمصمودة ، ثم تحالفت قبائل زناتة فى عهد المرينيين للقضاء على وحدة الصنهاجيين ، ولاغراض سياسية واجتماعية تحالفت قبائل فى جنوب المغرب على اسس جديدة اجتماعية ودفاعية نذكر من هذه الاحلاف حلف آيت عطا فى الصحراء . فقد كان استيطان آيت عطا محدودا فى الشمــال بخط دادس وتودغا ، وفركلا ، وغريس ، اما فى الشرق فبتفيلالت،

وداعورة ، وفى الغرب بدرعة ، بينما نجـد فى الجنوب القبائـل الصحراوية حيث يسود داخل البلاذ سلسلة جبل سارغو ونخيل تازارت . وايـت عطـا فى اغلبهم برابرة مـن صنهاجة التـى تساكن بعض العناصر العربية من بنى معقل ، التى تبربرت لغويا وجد ايت عطا الذين يلقبون به هو (داده عطا) وهو شخصية بارزة فى القرن السادس عشر نجح فى تكتل العناصر البربرية الرحل التى كادت ان تضعف بسبب غزو عرب معقل الذين كانوا يعتبرونهم اتباعا (1)... ونظام المحالفة لا يكون جديا الا عندما يكون تهديد ، وقد برزت احلاف فى بداية القرن الثامن عشر عندما كان العلويون يحاربـون فى درعـة وتافيلالت لتوحيد الجنـوب « وللمحالفة نظامها الخاص » فهى تجدد فى كل سنة بانتخاب « شيخ » عليها يكون اختياره حسب النظام فى كل « خمـس سنوات » وللشيخ سلطة تنفيذية كما ان وظيفته ان يكون حكما فى المنازعات بين القبائل وفى تحديد الرحلة فى طلب الكلأ ، وهو الذى يدير السياسة الخارجيـة للحلفاء مستعينا بجماعة مـن الاعيان لترشـده ولتراقبه أيضا ولديه اعـوان تنفيذ يدعـون (مزرج) ج (مزاوج) يمثلونه فى القبائل ، اما نفقات الحلفـاء فتوخذ من الغرامات وللحلفاء نظام قانونى مستمد من العـرف يعتمد على المحكمة العليا التى يكون مركزها فى « اغرم ايمازدر » حيث تحتفظ هناك بالرسوم القديمة للاتحاد) وبقانون (العرف القديم) وفى بعض النواحى بالواح خاصة ، وكل حكم تقضى به الجماعات أو المحكمون قابل للاستئناف ، وتذكر من هـذه الاحلاف حلف (التكنا) وهو اتحاد عربى بربرى ، بين قبائل

---

(1) اعتمدت فى هذا الفصل على ما كتبه ذ آدم فى محاضراته بالمدرسـة الادارية . وهو بحث فى النظام القبائلى البربرى بصفة عامة . ولا يخلو من هفـوات .

مستقرة واخرى رحل فى الجنوب الغربى للمغرب وللصحراء ، ولهذه الجماعة المتحالفة أفراها فى جنوب الاطلس الصغير بوادى نون ، وبالواحات الغربية لجبل بانى ، وبين وادى نون ووادى درعة الاسفل ، وخيامها تنتقل بين حدوذ قرآها فى الشمال ، والى ما بعد الساقية الحمراء فى الجنوب وتحد بالمحيط فى الغــــرب وبجنوب خط عرض تيندوف فى الشرق وكانت تسكن هذه البلاد فى الاول قبائل رحل بربرية هى امثة التى اعتمد عليها عبد الله بن ياسين ، وقد اتحدن فى القرن الرابع الهجرى مع صنهاجـــــــة موريطانيا الذيــن توسعوا فى الشمـــال باسم (المرابطــين)ــ وانهزموا فيما بعد على يذ الموحدين واصبحوا عاجزين عن ان يواجهوا فيما بعد غزو بنى معقل الذين توصلوا اليهم سنة 1218 وقد اختلطت لمطة مع قبيلة معقل ، وبنى حسن ، واصبحت عربية واخذ هذا الاتحاد فيما بعد اسم (تكنا) التى تتكون من قبائل الرعى وفلاحين ، وتجار ، ومن رحل اليهم له وكانوا يحافظون على امن القوافل ويحمون الواحات ، ويجدر ان نلاحظ وجــود طبقات اجتماعية ، ففى المقدمة بنى حسن المنحدرين من محاربى معقــل ثـــم « الزوايا » مـــن اهــل صنهاجـــة الذيـــن يدفعــون الجبايــا ، ثم المعلمــين وكذلــك من (الحراطــين) الذين يمكن ان يكونوا بقايا سكان الصحراء السود القدمــاء أو (الاحباش) كما فى رحلة (هانون) البحرية أو العبيد الســود القدماء المستجلبين من الجنوب وتخضع هذه القبائل لرئيــس يتولى الحكم عن طريق التوراث . أو بمجلس اعيان ، وفى بعض الاحيان يوجد المجلسان معا الامر الذى يدل على اصل تكنـــا المزدوج المتآلف من (عرب وبربر) وكان الرؤساء فى غالب الاحيان يوجد المجلســان معــا الامــر الذى يدل عـــلى اصل تكنــا

المزدوج المتآلف مـن (عرب وبربر) وكـان الروساء فى غالـب الاحيان مقيمين أو رحلا صغارا .

واتحاد هذه القبائل ليس له نظام خاص بل هو عبارة عن دائرة تضم قبيلتين كبيرتين وهما قبيلة ايت جمل وايت عثمان (ايت يلة) اللتين تنافستا على السيادة حيث ظل هذا التنافـس يسود كل حياة تكنا السياسية وربما كان أصل الاصطدام الذى وقـع بين الغـزاة والرحل (آيت جمـل اصحاب الجمـال) وبالمخميين الذين لم يخضعوا لهم ولتحقيق الترابط والتحالف توجد عادة الذبيحة) وهى عادة تربط به القبائل بعضها ببعض .

التنظيم الاجتماعى والسياسى :

تحتاج القبائل الرحل الى تجمع ، ومن يعش حياة الرحل يجد فى عزلته قساوة تقضى على الحياة ولضرورة المحافظة على سلامة القبيلة وضرورة توفير قوتها فمن الضرورى ان تتحالف مع جيرانها متى امكن ذلك لتوفيـر حماية كافية ضد الغـزو ، والغزاة والغزو عبارة عـن حملة للنهـب والسلب ، غايتهـا الانقضاض على قطعان القبيلة المجاورة كما كان ذلك شائعا فى البلاد العربية فى العصر الجاهلى وترجع هذه الحملة فى طبيعتها الى البحث عن العيش ولذلك يتجنب ، كلما امكن ، اسالة الدماء ولقـد اصبح للغـزو وضع له مزايـاه الخاصـة كالفروسيـة والشجاعة والمروؤة فالغازى منضبط وملتزم فى فرقة منظمـة على أهبة الاستعداد والحذر يحمى المراعى والخيام ، وقد تولد عن هذا النظام الحاجة الى رئيس أو شيخ لتنظيم هجرة القبيلة وتحسين المرعى واسلوب استخدام مختلف انواع المراعى حسب ما يتفق والفصول السنوية .

(الوحدات الاجتماعية) :

(الخلية الاجتماعية) الاسرة هى الخلية الاجتماعية وليست هى العائلة التى تكون فى المنطقة معسكرا مـن خمسة أو ستـة خيـام متدرجة فى صف (المكتـر) ومرتبة حسـب اصحابهـا والاسرة هـى المعتمدة عـلى القرابـة اى « ابنـاء العـم » اصحابها والاسرة هى المعتمدة على الغرابة اى « ابناء العم » الذين يتألف معسكرهم من عدة خطوط لخيام متوازية وتكـون منحدرة من جد مشترك ويمكن ان تضم ايضا لاجئين اليها ، وفى هذه الاسرة تظهر قوة الرجال واضحة بينما يتفق الجميع عـلى حماية المرأة ، والدفاع عنها وحفظ كرامتها .

أما الفخدة فهى اصغر وحدة سياسية ويمكن ان تعرفهـا بأنها جماعة تقبل ان يكون لها رئيس عام ، لان الفخدة التى تفقد رئيسها تتلاشى وتتفرض وتحمل جمال كل فخدة علامة واحدة مشتركة ، وتنتقل كل الخيام التى تتكون منها الفخدة فى وقـت واحد ، وكل اعضائها يعتبرون انفسهم اقارب على الرغم من ان بينهم عناصر اجنبية عنهم تكون جزءا منهم أما القبيلة فعبـارة عن اتحاد فخدات (اى من 6 الى 10) تنحدر فى جد واحد ، يهتف باسمه فى حرب القبيلة ، ويعتبر الاصل الذى تتكون منه عناصر القبيلة اشد اختلافا من اصل الفخدات وتتخذ القبيلة فى السعادة رئيسا (شيخا) من احدى الفخدات الذى يكون له نوع مـن السلطة نظرا لغناه أو لشجاعته أو لدهائه ، ويتسـع نفوذه أو يضيق بحسب السلطة الشخصية التـى يملكها عـلى غيره مـن بقية رؤساء الفخدات الاخرى .

واهم ما يميز القبيلة عن غيرها من الوحدات الاصغر منها هو استطاعتها ان تنقسم الى فرقتين أو الى حلفين الذى يسمى

فى جزيـــرة العـــرب اليـــوم «شنيـــك» وفى بـــــلاد المغـــرب « الصـــف » أو (اللف) وقـــد اكتسبت هــذه الظاهرة فى تاريخ العرب والبربر صفات واضحة متميزة مثــل « الصفـــان » الكبيران فى بلاد العـــرب وهما اليمن وقيـــس اللذان انتشرا فى الاندلس والمغرب والصفان البربريان ، صنهاجة وزناتة ومن هناك نشأت اهمية النسابين وشجرات علماء النسب للبحث عــن الاصــول فى الواقع ذات اعتبـــار أدبى بـــــل اقتصادى أيضا ، وذلك للبحث عن المراعى ومكانها واين يقيم « الاقارب واولاد العم » ولو تمادوا فى البعد فى النسب ، ليكون حظهم منها شرعيا (1) .

الاتحـــاد القبائلـــى :

الاتحاد أو الحلف ليس له وضعيات قانونية ، خاصـــة ، متميزة ، فهو فى بلاد الشمال يعتمد فى الغالب على عاطفة اتحاد جنس (مثلا الذين يدعون انهم كانوا من اصل واحد) ، أو على اتحاد ذكرى ، بطولية سابقة وعلى العكس من ذلك فى شمـــال افريقيا بالمحالفات الكبرى ظلت قائمة رغم قدمها وقد امكــن ان يستمر حلف القائل رعاة الاغنام وان ينتقلوا من حياة اصحاب الجمال الى حياة أصحاب الاغنام من غير ان يفقدوا قوة اتحادهم رغم الرقعة الواسعة التى انتقلوا فيها .

(النظام القبلى فى الاطلس المتوسط) ولقد ظل الاطلـــس المتوسط الى عهد متأخر مسرحا للاستيطان ، وقد عرفت القبائل التى كانت تقيم به من اصل القبائل الرحل فى اقصى الجنوب ، وهم فى اغاب الاحيان جبليون ، وقد تـــرك بنو مطير وآيـــت

(1) محاضرات . د. آدم بالمدرسة الادارية المغربية .

يوسى جانبا منهم فى وادى زيز الاعلى ، وتركت آيت واراين جانبا منها كذلك فى قصر السوق ، وارتحلت زايان الى سهل « ايخلف امان » نحو سنة 1000 م واستوطنت كروان تافيلالت والمرج قبل القرن العاشر وهذا يفسر جوانب خاصة فى نوعية (حياة القبائل) ذات الرحلات القصيرة فى الاطلس المتوسط .

أما من الناحية اللغوية فنحن نجد بعض القبائل لها لغة تمت الى لغات زناتية كآيت سغرشن وآيت واراين ، ولغة بعضها الآخر يتصل بصنهاجة كبنى مجليد ، وآيت يوسى ، وزايان .

(الاقامة والسكنى) يعيش اغلبية قبائل الرحل حياة الخيام لكنها تملك ايضا منازل أو « قصبة » حيث توجد مخازن للفحم واسطبلات للماشية ، واسم الخيمة عند البربر ماخوذ من (اخام جمع اخامن) واتعشوت وهى خيمة صغيرة خاصة بالراعى (واعششابو) وهى خيمة كبيرة خاصة بالاغنياء والاثرياء وهذه كلمات عربية الاصل بخلاف اسماء المعدات المتعلقة بداخل الخيمة فهى من اصل بربرى ، والحقيقة ان الخيمة عربية اخذها البرابر من العرب ايام الفتوح الاسلامية بواسطة زناتة ولكن مع استعمالهم طريقة اخرى فى سكناها اذ لم ينسوا تماما ابنيتهم القديمة ...

أما الدوار ، فلم تعرفه القبائل ذات الرحلة المحدودة فهى تستعمل لفظتين « سون جمع ايسون وايساون » (وهو مشتق من مصدر يعنى الدو ران) وتستعمل على الخصوص لفظه « تيجمى » جمع تيجوما » وهى التى يراد بها المنزل ، والشكل المعتاد فى الدوار وفى الدار هو الشكل الدائرى وتصطف الخيام فى الربيع على خط أو خطين متوازيين أو تنعزل فى المناطق الزراعية الفلاحية فى بعض الاحيان ، وسمى

وسـط الـدار اسـم « تـادار أسـون » ولفـظ « تـادار » بشق من « دار » الذى كان مستعملا عند العرب الجاهلى وكان معناه « المركز » وجاء فى شعر امرئ القيس (دارة جاجل) ، ويكون بجانـب الدار فى المغـرب الاسلامى وبلاد البربـر « تيمزجيدا » من كلمة « مسجد » أو « الجامع » وهو لفظ عربى كذلك ... واذا فان القبائل الرحل ذات الرحلة المحدودة عندما ترجع تعود الى محل اقامتها « تادارت » .

أما الايغرم فهو عندما تكون المنازل مجتمعة تولف قرية (وهى ايغرم) جمع ايغرمن تصغير تيغرمينت جمع (تيغرماتين) ولها شكل مربع محاط بسور (يكون مضعفا فى بعض الاحيان) تبنى فيه ابراج فى كل زاوية ، وله باب محصنة ، والسور مـن اللبن وتمتد المنازل « الايغرم » الخاص بالقبائل المقيمة علـى طول زقاق محورى محاط بأزقة جانبية « وايغرم » القبائل ذات الرحلة المحدودة يتكون من ساحة مركزية تصطف حولها المساكن . والقرى المحصنة عبارة عن قصور حربية يستوطنها الايمازيغـن لكن توجد ايضا قرى مفتوحة (كازرو وعين اللوح) التى يقيـم فيها تقريبا الاجانب عـن القبيلة مـن الواردين من الجنـوب والذين يعيشون من استغلال الغابات كالفحامين والحطابين أو من الزراعة والرعى (كالخماسة والرعاة) ومع التطور نحـو الاستقرار والاقامة وانتشار المناطق الفلاحية قلت الاراضـى المختصة بالرحلات وقد استغنى كثير من الافخاذ التى لديهـا وفرة علف لتقدمه الى اغنامها فى الشتاء .

(التنظيم العرفى للاسرة) .

تعتبر الاسرة الخاية الاجتماعية التى تعيش تحت الخيمة ، وهى تتألف من الاب والام والابناء والاحفاد وتتألف كذلك من

اعضاء اجانب فى بعض الاحيان كالخدم أو الضيوف .

والاب أو الجد هو رئيس العائلة ، وهو عضو من « الجماعة » التى يمثل عندها العائلة .

ويستطيع الابناء متى تزوجوا ان ينفصلوا عن آبائهم ، ينقلون عندئذ نصيبهم وحقهم الارثى وينصبون خيمتهم بجانب الاب فى نفس « التيجمى » ولا يخرج البنات من الخيمة الابوية الا عندما يتزوجن ، ويكون الزواج من نفس « التيجمى » أو فى دائرتها ، وقلماء يكون من الجار أو أو من قبيلة اخرى .

والمرأة تعيش وضعا حسنا اذ ان على الابوين ان يزوجا ابنتهما فاذا رفضت هذا الزواج فالعادة ان تفر من منزل الزوج ، وهذا مما يسبب المس بشرف العائلة ولهذا فكان الاباء يتحرون فى تزويج بناتهن حتى يكون وفق رغبتهن .

والمرأة المتزوجة تتحمل مسؤولية العائلة فاعمالها شاقة فى الغالب وهذا لا يمنع من تقديرها واحترامها ، وكانت المرأة حرة فى منزلها ولها نفوذ قوى وسلطة واسعة فى تدبير شؤون الخيمة ، وليس من حق الرجل ان يعاقب زوجته الا اذا ارتكبت خطأ ما ، أما اذا تعمدت خيانته فليس امام الرجل سوى ان يطلقها حفظا لشرفه وكرامته . والابناء دائما تحت رعاية الاب ، والبنت لاترث، فالتبعية الاسروية هى دائما ابوية .

وقد تكون العائلة تضم بعض العناصر الاجنبية عنها وذلك مثل الولاء عند العرب اما فى البلاد البربرية فيسمى الاجانب « الأمحارس » جمع (ايمحوراس) ولا تنضم هذه العناصر الا بالاتفاق مع الجماعة ، ويزوجه رئيس العائلة باحدى قريباته ويمكنه ان يفوز بنصيبه من الاراضى المشتركة ، ويحارب دائما

الى جانب أولئك الذين ربوه ، وهناك أيضا الادجير (جمـــع ادجارن) من اصل عربى (الجار) ووهو اجنبى يحتمى بعائلــة قوية فيقدم (ذبيحة) ويبنى خيمته بجانب خيمــة حامية ، ولا يساهم فى الحرب بخلاف (الاعراس) الذى يساهم فى الحروب وأعلى من الاسرة (الريف) الذى يضم عائلات تصعد بقرابتها الى جيلين او ثلاثة ، ويمثله « امازاى » ولفظ الريف ايس مستعملا لدى كل القبائل فى الاطلس المتوسط ، وله شخصية اقتصادية ، وهو ايضا اصغر الوحدات السياسية ، وله « جماعة » الخاصة به وعرفه وتقاليده وهذه الوحدة هى التى نجدها فى أساس النظام السياسى لدى كل البربر والتى تطلق عليها اسم دوار أو قرية .

(نظام الجماعة فى تاريخ القبائل) .

تحكم مختلف الوحدات فى وقت السلم بنظام جماعى وهذا النظــام ليـــس ديموقراطيا ، غير انــه حكــم اغلبيــة يطلق عليها اسم الجماعة ، أو مجلس الاعيان (أخاطر جمــع اخاطارن) وهى اتحاد جماعة من الرجال من ذوى الحيثيـــات للتعبير عن آرائهم ، وانواع الجماعة المهمة هى التى تكون فى « التيجمى » أو فى التاقبيلت ، وجماعة التيجمى هى التـــى تجتمع كثيرا وتختص بالنظر فى اكبر عدد من الحالات ، كما انها التى تنظر فى مختلف القضايا وتشرف على ابرام بعض العقود كالسلفيات والمبيعات وعقود الزواج الخ . ولها دور قضائى فهى التى تقوم بدور المصالحة اما مباشرة واما بتعيين حكم .

وكانت جماعة التاقبيلت هـــى الهيئة الحكومية القبيليــة الصغيرة التى تكون مؤلفة من مندوبى جماعات (الايخــص) السياسية الدخلية والخارجية للقبياة .

وتعتمد الجماعة على (الايمازيان) ، وهو بمثابة ضامن مسؤول ويوجد واحد فى كل « ريف » وتختارهم الجماعة بين اغنى العائلات وارقاها فيكونون المتكلمون بلسان مواطنيهم ويضمنون تنفيذ قرارات الجماعة كما يكونون أيام الحرب الوسطاء المسؤولين بين امغار والافراد .

ووظيفة الامغار تظهر فى وقت الحرب وهى وظيفة يعين مساعديه الضامنين المسؤولين لكل طائفة (وهو الذى يعين واجبات كل منهم والعقوبات اللازمة ، وعندما يتفقون عليه يجمع كل نفر من الحاضرين حفنة من الحشائش الخضراء (تويا) ويرميه بها ، ومن هنا اخذ اسم رئيس الحرب (امغارن ــ تونا).

وينتخب عادة اما لعام ، أو لمدة الحروب ولا اجرة له على عمله لكن له الحق فى السخرة ، وفى الغرامات المحصلة من أولئك الذين لا يطيعونه ، أو الذين يخالفون العرف ، ويعين امغار «امزيا» على رأس كل ايخص ، وهذا الامازان الخاص بالحرب يمكنه اما الاحتفاظ « بالامازايا » الخاصين بالتيجمى واما تبديلهم ، اذا رآهم ليسو نشيطين فى تادية اعمالهم .

القبائل المقيمة

القبائل المتكلمة باللغة البربرية (الشلحة) بسوس تقيم فى البلاد التى يطلق عليها المخزن والمورخون العرب دائما يطلقون (سوس) على مجموعة المناطق الجبلية التى بالاطلس الاعلى والاطلس الصغير ، (وسيروا) بين درعة والمحيط ، بما فى هذا السهل الداخلى وتتفاوت حياة الانسان بهذه المناطق باختلاف المناخ ، فقربها من الصحراء يجعلها منطقة حارة وجافة ، والامطار ضعيفة وغير منتظمة السقوط ومحصولها ضعيف فى الغالب ، مما

يجعل (المجاعات) تظهر كل خمس سنوات أو عشر سنوات ... ولا يخفى ان ذلك يسبب فى تشجيع الرحالات القبائلية ومع ذلك فهو لا يصلح لحياة القبائل الرحل ، اذ لا يتوفر على المسافات الشاسعة الصالحة لحياة الرعى ، ولم يستطيع السكان القادمون من الصحراء ابدا ان يحافظوا فى هذا المجال على حياة القبائل الرحل .

ويمتاز الاطلس الكبير الذى يطلق عليه (ادران — ديرن) (جبل الجبال) بسبب قممه العالية بالامطار الغزيرة وذوبان الثلوج التى تحدر سيولا تستمر حتى الخريف ، ويكون الاطلس الصغير ، ذو السطح الاكثر قدما واستهلاكا ، مساحات زراعية أوسع ، لكن الاطلس الكبير يحصر الامطار فى شمال هضبة سوس ، واغنى المناطق هى هضبة سوس ، ودادس ، ووادى درعا العليا ، حيث يلاحظ وجود شريط الحدائق والاجنة .

ويلاحظ ظهور الجفاف والمجاعات فى فترات من التاريخ والتى دفعت سكان سوس الى الشمال .

ثم كان من نتيجة الاختلاط ان ضعف الرباط الذى كان قويا فى القديم والف بين قبائل مصمودة وصنهاجة العظيمة ، وتلاشت الكراهية بين القبيلتين ، ولم يعد اسم (مصمودة) بارزا ضد (صنهاجة) .

(الاقامة والسكنى) ان المراكز المهمة الوحيدة البربرية هى القرى الكبيرة وتظهر على سفح الاطلس على طول خط العيون ، أو باعلى مدخل الطرق الكبرى التى تؤدى الى شعاب (امزميز) ، (ايمن — تانوت) منيزله ، بوالعجلات ، تالجونت .

وهى اسواق تقع عند نقطة الاتصال بين السهول والجبال ، كما انها مولفة فى الغالب من دشور متفرقة كانت تمثل قديما

وحدات سياسية صغيرة متعارضة بعضها مع بعض وفى هضاب الاطلس يتفرق السكان بين دشور مكونة من 10 الى 20 منزلا وينحدرون مع خط السيل ، وقلما يسكنون اماكن دفاعية طبيعية على قمة الجبل مثل قبائل (جرجورة) .

والوحدة السكنية هى الدشر الذى يسكن به جماعة تربطهم القرابة ... اما القرية الكبيرة ، فهى عبارة عن اجتماع عـــدة « دشـــور » .

وتسمى القرية فى الاطلس الكبير « تادشرت » (من العربية دشر) وفى الاطلـــس الصغير « اموضـــع » (اسم عربـــى ايضا الموضع) ان المدشر مؤلف من منازل يسمى المنزل فـــى تاشلحيـــت تيجمســـى (مـــن تجمـــع العربيـــة) وهـــو على اشكال مختلفة ، وهو مبنى اما بالحجر الصلب والتـــراب الملتك ، أو الحجر والمرطوب (والتجميت) ، هو بيت الاعيان ويبنى من التراب الملتك ففى زواياه ابراج اربعة وبه غرف وقاعـــة الاستقبال (تامصريت) من العربية المصر فى الاعلى اما منزل « الفقير » فيسمى « تادارت » وهو عبارة عن عشة بدون طبقة عليا ويبنى من الحجر الصلب ، وتوجد فى بعض مناطق الاطلس الصغير منازل بادوار عليا ذات شكل هندسى معقد يشبه المنزل الرومانى .

وتعتبـــر (القرية) اصـــل الوحـــدة السياسيـــة وتولف عدد من القرى « تاقبيلت » اى القبيلة الصغيرة الـــتى كانت تولف فيما مضى مركز حكم مستقل ويوجد كذلك نظام التكتـــلات (حاحـــا ايداوتنانـــت الـــخ ..) الـــذى يجمـــع اما قبائل واما اقاليم ، لكن هذه التكتلات فقدت قيمتها منذ زمن قديم ، ولم تعد الا ذكرى تاريخية . على ان انشط وحدة سياسية

هى « تاقبيلت » وكانت فى وقت « السيبة » دولة صغيرة ، ومنطقتها ذات مسافة كافية فمساحتها فى اغلب الاحيان تشمل 20 الى 50 كيلومترا مربعا ، وهى المسافة التى تتيح لاعضاء « الجماعة » ان يجتمعوا فى مدة يوم واحد) .

وتنقسم البلاد الى حلفين كبيرين أو (اللف) جمع « لفوف » الاسم البربرى هو « امكون » بحيث يولف قسمين من قوة متساوية وكل تاقبيلت تنخرط فى هذا أو ذاك من (الليفس) التى التى تختلف اسماؤه بحسب المناطق (مثلا) : فى الاطلس الصغير ايجيزولين ضد اهوجوة ، وفى الاطلس الاكبر الغربى اندعريت ضد امسيفرن) وتدل خريطة (الليفس) على اهتمامهم بايجاد توازن بين الاقاليم ، ولقد كانت بمثابة نوع من الضمان ضد اعتداء (تاقبيلت) على غيرها ، ففى حالة الحرب تسرع تاقبيلت المهاجمة الى ارسال « تامانارت » اى علامة الانذار ، المتفق عليها فيقدم حلفاوها (اللف) الى نجدتها ، وقد لعب الليفس دورا مهما فى تثبيت اركان السلطة الشخصية كما ان الدولة كانت تحسب لهم حسابا (1) .

ويجب ان يستقر الذين يريدون اقامة طويلة فى تاقبيلت بصفة (سكان) فيضعون انفسهم تحت حماية رجل غنى وهو بصفته الشخصية المسؤول عن التصرفات السيئة التى يمكن ان تبدو من جانب الضيف ، ويظل هؤلاء أجانب مدة طويلة فى عرف سكان الجبل اما فى السهل فنجد السكان اكثر امكانات فيمكن لهؤلاء الضيوف ان يسكنوا فى المدينة بعد اقامة قصيرة ويتصادف احيانا ان يتقدم الاجانب فى جماعة من حدود تاقبيلت ويكونون عبارة عن مطرودين من الحروب الداخلية ، فاذا غلبتهم الجماعة

(1) المصدر المذكور .

فانهم يستقــرون فى قسم الهضبــة ، ويبنون كفرا لكنهــم ولا يساهمون فى حكومة تاقبيلت .

واعيان تاقبيلت هم الذين يقومون بعمل الشرطة ولا يتقاضون اجرا على ذلك وهناك أسواق اهم من هذه على الطرق الكبــرى للمرور أو على حافة الجبل عند اشجار الغابات الخاصة بالزيتون ، وهى محلات المبادلات بين الاقتصاد الجبلى واقتصاد السهــل وهى غالبا محاطة بسور ، وتشمل فى بعض الاحيان على بضــع مئات من الدكاكين مفسمة الى أحياء (الرحبة) وتكون فيهــــا ومخازن ودكاكين مستمرة فى بعض الاحيان ومسجد على الدوام حيث ينصب لاداء اليمين فى حالة عدم التصديق . وقد تكلم ابن خلدون عن هذه الاسواق التى كانت منتشرة فى المغرب وذكر بعض امكنتها كمــا ان نصــوص القانــون العــرفى هــى الــــتى تعين الغرمات التى تقع على السارقين وقطاع الطرق ، والمحصلون الذين يحصلون حقوق الاسواق يستقرون دائما بدكان ويحكمون فى الحال فى الجرائم التى يرجع أمرها اليهم ويعتمد فى أغلــب الاحيان على رجل غنى وذى نفوذ ويهىء وجود سوق كبير على هذا النحو ، وتقام المعارض الكبرى فى الربيع والخريف بجانب الاضرحة المقدسة وهى (موجار) وأهمها (موجار) سيدى احمد وموسى ولى سوس الكبير فى تازروالت الذى يجلب السكان من القبائل الكائنة على بعد عدة أيام من الطريق .

وتوجد (اجادير) أرحب حيث ان قرية بأكملها أو حتــى تاقبيلت تضع حبوبها فى مخزن واحد ، وهى تحصينات حصينة تثبت فيها ابراج فى الزوايا ، وتضم مسجدا ودكان الجماعة ، ودكان الفقراء ، وغرفة للحراسة ومنزلا مخصصا لمذاكـــرة الاعيان ، وينتسم (الاجادير) الى شوارع صغيرة ضيقة يفتح عليها صفان من الحجرات اقيمت على 3 أو 4 أو حتى 5 طبقات

فاذا قامت الحرب جاء كل واحد يبحث عن ملجأ فى هذا الاجادير بصحبة عائلته فى حالة الخطــر ويكون بها صهريج واسع المــاء الامطار يخزن الماء وللاجادير دور جماعى ، لكن له دور اقتصادى يضا وهو دور مهم تدل عليه أوضاع الحياة ، فلا يمكن الخزن الا لدى جمع الاحتياطات فى سنة الانتاج الجيد التى هى قليلـــة بالنسبة لسنوات الجفاف ويقام فى بعض الاحيان سوق ببابــه ، وكانت اجادير تقوم بدور شبيه بدور (الابناك) فالاعراف تقــر الرهونات والسلفيات على المحصول ويعتبر عمل اجادير منظما بقانون حقيقى هو (اللوح) الذى يشتمل احيانا على 200 أو 300 بند وهناك موظفون خصوصيون مكلفون بتطبيقه منهـــم (امين) (حاجب) (ومجلس اعيان) وهم (حكام) اجاديــر وهؤلاء الحكام الذين يتكونون من رؤوساء العائلات التى هــى مقاما غيرها ، كانوا يتمتعون بتأثيرهم على حياة القبيلة وكانوا يطبقون فى مجلسهم قاعدة الاغلبية التى نجدها غير معروفة فى الاعراف البربرية بالمناطق الاخرى ، وكان يحدث فى بعض الاحيان ان يعتبر اللوح و (الاجادير) حكمهم الخاص ويديرون مــن هذه الناحية كل حياة القبيلة .

وقد أخذت وضعية الاجادير فى الانعراض منذ ظهور الحكم الفردى وقد بدأ هذا الانقراض يحدث قبل خضوع القبائل لسلطة مركزية ولهذا بعض الاسباب السياسية التى أهمها ضرورة الوحدة الوطنية وبعض الاسباب الاقتصادية أيضا .

ويعتبر (الاجادير) امتدادا لعصر قديم حيث كان السكان المقيمون محافظين على حياة الرحلة ، فيجعلون منه مركزهـــم القــارة (1) .

(1) ملخص (علم الاجتماع والسلالات المغربية) (القسم المتوسط الثانى) منشورات المدرسة الادارية المغربية .

الحضارة المغربية

فى القرنــين العاشر والحــادى عــشر الهجريـــين

القرنــين السادس عشر والسابع عــشر الميلاديــين

916 هـ – 1070 هـ

1510 م – 1659 م

السعديـــون

تقديـــم :

ظهرت دولة السعديين على يد أبى عبد الله محمد القائم بأمر الله فى بلاد سوس ، وذلك عندما استفحل نفوذ البرتغاليين على الشاطىء الغربــى المغربى ، وعجـــز الوطاسيون عـــن مقاومتهم .. اجتمعت قبائــل سوس واتفقت على بيعة أبــى عبد الله القائم بأمر الله بتوجيه محمد الاقاوى .. فجاء الى درعة سنة 916 وأقام فى (تيدسى) قرب تارودانت .. ثم ظهـــرت دعوته وبايعته القبائل الوافدة عليه .. ويرجع نسب السعديين الى ذرية الامام على (رضى الله عنه) ويروى المقرى فى نفح الطيب أنهم عرب من بنى سعد بن بكر ، ومنهم من يرى أن أصاهم ينحدر من قبائل غير عربية .. وايا ما كان فان ظهور السعديين فى الجنوب

كان عودة لظهور صنهاجة المرابطية الممزوج مع الصحراء (1) بالقبائل العربية المتساكنة معها جنوبا .

---

(1) ذكر الجغرافيون القدامى كابن سعيد فى كتابه (بسط الارض فى الطول والعرض) ، والادريسى فى كتابه (النزهة) ، لدى كلامهما عن وصف افريقيا ، ان موقع الصحراء لا تعنى المنطقة الرملية ، وانما يراد بها شبه الصحراء التى يسقط فيها مطر ضئيل لا يتيح للسكان زراعة منظمة، وانما يتيح لهم حياة بدوية قائمة على التنقل والترحال ، وكذلك يقصد بالصحراء المناطق الزراعية الواقعة على حافة هذا الاقليم شمالا وجنوبا، فيبدأ الحد الشمالى للصحراء عند النهاية الجنوبية للمغرب والجزائر وتونس ، والحد الجنوبى للمنطقة الواقعة شمالى نطاق الغابات الوسطى الممتدة من مصب نهر السنغال الى اقليم برنو فى غربى حوض النيل ، والحد الغربى هو ساحل المحيط الاطلسى • اما الحد الشرقى فهو ساحل البحر الاحمر ، لان هذا الاقليم يتخطى وادى النيل الى الصحراء الشرقية ، وكذلك السودان .

والصحراء المغربية وهى المدخل الى بلاد السودان التى يراد بها (السنغال ومالى) لان الجغرافيين المغاربة اطلقوا على بلاد السود أو افريقيا (السمراء) كما نسميها اليوم بلاد السودان . وقد تكلم تكلم ابن بطوطة فى رحلته الى مالى عن الطريق الصحراوى وحدود بلاد الزنوج . كما تكلم ابن فاطمة الذى زار كدالة، وبلاد الزنوج عن عادة هؤلاء السكان . وكانت (السنيغال) و (مالى) موطنا لقبائل صنهاجية ، وبالاخص لقبائل (مسوفة) . وفى كتاب الماضى المغربى لموريتانيا للكاتبة (لاوديت دونو يغودو) وصف جغرافى لطرق الصحراء وممرات القوافل .

وعندما نحاول معرفة توزيع القبائل فى هذه المنطقة ، فان صنهاجة كانت فى الصحراء الساحلية التى تسمى اليوم الساقية الحمراء وكانت لمتونة متوغلة الى نهر النيجر وذكر ابن خلدون ان رباط عبد الله بن ياسين كان لبحر النيل ويعنى به نهر (النيجر) الذى كان يختلط عند الجغرافيين العرب بنهر (النيل) ظنا منهم أن نهر النيجر فرع من من النيل بدليل (وحدة الاسم) .

ونقل طيراس عن دولاشابيل الذى درس تاريخ المرابطين دراسة ميدانية ان الجزيرة التى أوى اليها بن ياسين تقع ساحليا مواجهة للساقية الحمراء . ويرى الدكتور حسين مؤنس ان رباط عبد الله بن ياسين يقع على حدود الصحراء فى تارودانت ، وهو يعتمد على البكرى ومؤلف الاستبصار بينما يستبعد بعض المؤرخين ان يكون رباط عبد الله بن ياسين على ساحل المحيط الاطلسى اعتبارا ان يحيى بن عمر لا يمكن أن يختار جزيرة قريبة عن قبيلته جدالة التى كانت متمركزة فى القبيلة المطلة على المحيط ، والتى ثارت على عبد الله بن ياسين حين دعاها

الى التمذهب السنى ، والاقتلاع عن الفهم السطحى البسيط للاسلام ، وكان ذلك سببا فى هجرته للبحث عن رباط يأوى اليه ويشير تابـــير هيرمنخيلدو الاسبانى فى مجلة .A.D.E (عدد 4 السنة 4 — 1946) ان عبد الله بن ياسين اتخذ (الداخلة) رباطا لاقامته ، معتمدا على وصف هيرودوت لتاريخ القرطاجنيين الذين وصلوا جزيرة سيرانيـس Ciranis الواقعة ببـــلاد جيزنة (جزولة) . ونقل نـــص وصفه لهـــذه الجزيرة .

ويقول تابير : ان هذه الجزيرة التى يتحدث عنها هيرودوت تتطابـق مع جزيرة الداخلة التى يبلغ طولها 30 كلم ، وعرضها 3 او 4 كلم . وهى تتصل بالقارة ببرزخ رملى منخفض هو « المزوك » الذى يصل الى حد الاختفاء فى أوقات المد كما يلاحظ وجود منخفض بداخل الجزيـــرة يبلغ طوله 1 كلم ، وعرضه 50 ، 1 م وقعره ما بين 2 و 5 ، 2م ويمكن أن يكون هذا المنخفض هو البحيرة التى تحدث عنها هيرودوت ، وفى وسط المنخفض يقع بئر يسمى « تهاويرت » اى بئر الذئبة مما يشير الى أن الحكاية لا تعدم صلة مع الحقيقة .

ويتساءل تابير : كيف يمكن تصور بلد مكسو باشجار الزيتون والكرم فى حين انه قحل وجاف ؟ ويرد على ذلك بأن الحروب المتوالية وغارات أهل (الجزر الخالدات) اتلفت كل معالم تلك الثروة الطبيعية التى فقـــدت مناعتها بسبب التخريب التى توالى عليها وجعلها أضعف من أن تصمد أمام تيارات الريح القوى الذى عصف بمعالمها .

وتذكر الحكايات ، والتاريخ يؤكد جزئيا ما تذهب اليه ، ان عبد الله بن يس الجزولى ، انتبه الى اللامبالاة التى كان يلقاها من صنهاجة ، فقرر هجرتهم والتوجـــه الى الســـودان الا ان الامــــير يحيى بـــن ابراهيم لم يقبل هذا الانفصال . واقترح على فقيهه أن يلتحقا معا بمكان منعزل ، وقال : « فى شواطئنا هذه توجد جزيرة يجتاز لها على الاقدام فى أوقات الجزر ، وبالمركب فى أوقات المد . وليس فيها الا الاكل الحلال من الاشجار وفواكـــه وطيور وزواحـــف واسماك لنذهب اليهـــــا ونعيش فيها نتعبد الله الى أن يحين اجلنا » . وقبل الفقيه ذلك ، وانتقلا الى هناك ، يتبعهمـــا سبعة من اهل كذالـــة ، وابتنوا هناك رباطـــا اعتكفوا فيه .

وبعد مدة قليلة انتشرت فى الصحراء اخبار صلاح الفقيه وتقواه ، ومن كل صوب قصد الناس الجزيرة لسماع تعليماته ساهمت صنهاجة بما لا يقل عن 1000 مريد التحقوا بالرباط وسماهم عبد الله بن ياسين بالمرابطين هؤلاء الذين كتبوا صفحات مشهورة فى التاريخ . والذى أميل اليه أن عبد الله بن ياسين اتخذ رباطه فى (سان لوى) بالسنغال وأن النهر الذى كانوا يلجأون اليه للصيد هو نهر النيجر الذى يعتبر اقصى حدود صنهاجة .. كما ذكرت ذلك بتفصيل فى كتابى الحضارة المغربية عبر التاريخ . « تاريخ قيام دولة المرابطين » وابن خلدون .

التعليم الاولى والتعليم العام .

كان الاطفال فى الكتاتيب يحفظون القرآن والمتون ، ويتعلمون الصناعات اليدوية بالنسبة لبعض الأقاليم ، وكان من عادة سكان تطوان وبقى ذلك الى وقت متأخر ، ان يعفى الطفل بعد حفظ القرآن من مزاولة الدرس ليتعلم حرفة من الحرف، ويرجع القرآن من مزاولة الدرس ليتعلم حرفة من الحرف ، ويرجع ذلك لاسباب اجتماعية اشار اليها مؤرخ تطوان محمد داود فى كتابه (تاريخ تطوان) اما التعليم العام المهتم بالدراسة الدينية فكان يلقى بالمساجد فى حلقات تجمع الطابة والعمال والصناع ليرفعوا عن أنفسهم عار الجهالة بأمور الدنيا والدين ، وكان بالقرويين كرسى خاص بذلك ويعتبر ولاية كبرى ، زيادة على الحلقات المتعددة لتعليم مختلف العلوم وكان من أصحاب هذا الكرسى الونشريسى قاضى فاس ومفتيها وصاحب التدريس بالقرويين المتوفى سنة 955 ، كما كان من هؤلاء محمد ابن ادريس العراقى الذى انتصب أيضا لتدريس كتاب سيبويه على الكرسى الخاص بمن يدرس النحو (توفى سنة 1142) وقد ألف رسائل كثيرة فى النحو . واعتمد المربون فى تعليمهم على الذاكرة ، فكان التعليم يرتكز على الحفظ . ولذلك اشتهر العلماء بقوة الحافظة ومن هؤلاء محمد الرقادى بن أحمد المدعو القيوم بن عمر الكنتى الذى كان يحفظ ألف مجلد ، وكان الجزولى يحفظ فرعى ابن الحاجب والمدونة ، وقد رحل فى القرن العاشر على بن ميمون لتلمسان وبجاية وتونس والشام والحجاز وقال مقارنا بين علماء القرويين وعلماء غيرها :

« ما رأيت فى سائر المغرب لا فى مدينة تلمسان ولا بجاية ، ولا تونس ولا اقليم الشام بأسره ، ولا بلاد الحجاز ، فانى (رأيت ذلك كله بالمشاهدة) ولا بمصر على ما تقرر عندى من

العلم اليقين بمشاهدة اناس من أهلها ، وبرؤيتي لبعض كتب ارباب الوقت ، ما رأيت مثل فاس ، ومثل علمائها في حفظ ظاهر الشرع العزيز بالقول والفعل ، وهذا الحفظ لنصوص أمامهم الامام مالك وحفظ سائر العلوم الظاهرة ، من الفقه والحديث والتفسير وحفظ نصوص كل علم مثل النحو والفرائض والحساب والتوقيت ، والتعديل والتوحيد والمنطق ، والبيان والطب ، وسائر العلوم العقلية ، ثم لابد فيه عندهم من حفظ نص ذلك الفن ، ومن لم يستحضر النص عن مسألة ما في علم العلوم لا يلتفت الى كلامه ، ولا يعبأ به . ولا يحسبونه من طلبة العام ويحدثنا (اكيسار) وهو بلجيكي زار فاس سنة 1540 م . (في عهد السلطان أحمد الأعرج السعدي الذي حكم سنة 548 هـ) ، وكتب مذكرات عن وصف فاس ، والقرويين التي أمها ، وقرأ بها ، وتعرف على حياة طلابها ومدرسيها ، وعلى أساليبهم التربوية وطرائقهم التعليمية وعن العلوم المتدارسة بها فيذكر منها : التفسير ، الحديث ، الأصول ، الحساب ، التنجيم ، الكلام ، التصوف ، اللغة ، التصريف ، التوحيد ، التاريخ والجغرافيا ، الطب ، القضاء ، الأدب .

ويعتمد المؤرخون لتاريخ الحركة الفكرية في هذا العصر على عدة مصادر ، منها كتب الفقه كالمعيار للونشريسي ، ومعيار الوزاني ، وكتب التاريخ كذرة الحجال لابن القاضي ، ومناهل الصفا للفشتالي ، والنزهة لليفرني ، وكتب الرحلات كمحاضرة اليوسي ، ورحلة العياشي ، وكتب التراجم ، كمرآة المحاسن للفاسي ، والدرر المرصعة ، ونشر المثاني ، والدر الثمين لميارة ، وفهارس العلوم كالقانون اليوسي والاقنوم لعبد الرحمن الفاسي .

وتقاسم الدلائيون والناصريون النفوذ العلمي في عدة أقاليم مغربية وفي البادية بصفة خاصة ، وظهر الدرقاويون في الاطلس،

وكان نشاطهم ثقافيا صوفيا ، وهناك عوامل جديدة حفزت الى تطوير الثقافة المغربية تلك العوامل التى تتلخص فى عدة مظاهرة منها (انتشار الزوايا) (2) وسيطرتها على توجيه البلاد ، ومنها الهجرة الاندلسية وما حملت الى المغرب من تأثيرات جديـدة . ومنها الاتصال بالاتراك والتأثر بأساليبهم ، أما الزوايا لقد كانت تارة بولى ، وتارة بدون ولي ، وتضم مجالس علمية مؤسسـة على جلب الناس بالاوراد والاذكار ، وتطورت الحلقات فى بعضها الى رقص وسماع ، وظهر ذلك فى زاوية مولاى العربى الدرقاوى تقليدا للمشارقة بل ان أصحاب الطريقة العيساوية أخذوا بالشطح والتعرض للنيران والسموم وقد أخذوا ذلك من الرفاعية الشرقية المصرية ، ومنها أخذت البيارق والاعلام والطبول والمزامـير .. وظهرت الزوايا بعد الاربطة ولكن بتوزيع جغرافى مغاير لما كان عليه نظام الاربطة من قبل ، لأن الزوايا كانت منتشرة فى داخل

---

(2) الزاوية

خلفت (الزاوية) نظام (الربط) واصبحت هى المجال الحيوى لتكوين المتصوفة وتربية الشعب بمنهج حركى وفكرى وعقائدى . وكانت الطوائف والطرق الدينية لها زوايا خاصة بها تعددت بتعدد الطرق والطوائف كما كانت (الزاوية) مكانا للعبادة والزهد والاوراد ومن العادة أن توزع الزوايا حسب خطة قبائلية واقتصادية للتركيز على مجال التجمع البشرى.
والزاوية تتكون من بيت خاص لاسكـان شيخها ، وبيوت خاصـة بالضيوف وتهتم الزاوية بتعلم الاطفال ، كما يكون المسجد والمدرسـة لدراسة القرآن الكريم ومساكن الخدم ومخازن لحفظ المؤدن واصطبل ومتجر وحجرة خاصة بالفقراء الذين لا مأوى لهم وهنك أراضى بعضها مزروع والبعض الآخر للرعى .
ومهمة الزاوية هى الصياغة العقيدية والفكرية والتربوية ، وتعتبـر الزاوية بحق أهم ركيزة التصوف وانتشاره ولصياغة منهجية حركية تهتم بعدة أمور قد تعجز عنها الدولة فهى خلية اجتماعية يرتادها الاهلون لقضاء حوائجهم كما أنها مكلفة بذاتها من جميع النواحى الاقتصادية .. ويؤم الشباب الزاوية باعتبارها جامعة عليا تلقى فيها الدروس الشرعية على أيدى خيار العلماء ، وهو الى جانب ذلك يتلقى المقعد القديم فى التربية وكانت الزاوية تغرس فى نفوس الشباب روح الجهاد ، لذلك اهتمت الزوايا كذلك بعنصر التدريس العسكرى .

المغرب ، وكانت تتلقف التلاميذ والطلبة ليتلقوا بها المبادىء الدراسية الاولى قبل متابعة دراستهم فى العواصم والمساجد الكبرى وساعد نموها اختلاف النزعات السياسية والصوفية كما ساعدت الزوايا فى الحروب ضد الغارات الاستعمارية ، مما يقتضى مراكز معتمدة نائية عن العواصم لمجابهة غارة القرصان ، والمستعمرين وظهرت فى أعقاب الدولة السعدية عدة زوايا وأهمها زاوية الدلائيين فى تادلة ، وكانت ذات أثر كبير فى تركيز الثقافة الاسلامية وتقويتها ، وهذه الزاوية تعتبر من أهم الزوايا وأشدها أثرا فى البلاد المغربية ، أنشأها أبو بكر محمد بن الوجادى الزمورى من قبيلة صنهاجة فى أواسط القرن السادس عشر الميلادى ، وكانت طريقة مؤسسها تعتمد التادلية الجزولية ، وخلفه ابنه محمد بن محمد الملقب بالحاج ، وقد هدمت الزاوية الدلائية سنة 1668 ولم يبق من أثرها الا اطلال ورسوم ما تزال بارزة فى جبال الأطلس المتوسط ، وفى أيام الشيخ محمد الحاج خرجت الزاوية من عزلتها العلمية واهتمت بالسياسة ، وشمل نفوذها فاس ومكناس والرباط والغرب ، واضطر المولى الرشيد لمحاربتها ، ولما انتصر عفا عن رجالها كما فى (الترجمان المعرب ص 7) ونقلوا الى فاس ثم الى تلمسان ، ويقول الناصرى فى الاستقصاء : « ان زاوية الدلائيين كان بها من معاطاة العلوم ، والدؤوب على دراستها ، واقرائها وقراءتها ليلا ونهارا ما تخرج به جماعة من صدور العلماء وأعيانهم حتى كانت اليها الرحلة فى المغرب لا يعدوها الطالب ولا يأمل سواها الراغب » .

وكان عميد الزاوية الدلائية الشيخ محمد بن أبى بكر من أعلام هذا العصر الذى تألق فيه اسم الحافظ أبو العباس يوسف الفاسى والامام محمد بن عاشر والعلامة محمد ميارة ...

وفى كتاب (البدور الضاوية فى محاسن الزاوية الدلائية)

لسليمان الحوات ذكر لاعلامها وتراجم لرجالها .. وكذلك ظهرت زاوية علمية أخرى انقلبت الى حركة سياسية ، وهى زاوية الشيخ الزعرى التى ينتمى اليها ابن أبى المحلى المولود سنة 997 بسجلماسة ، وقد ثار هذا الفقيه ضد السعديين وفتن الناس حقبه من الزمن الى أن قتل فى احدى المعارك على أبواب مراكش وترك أبو المحلى عدة تآليف منها : القسطاس ، ومنجنيق الصخور . فى الرد على أهل الفجور ، والهوذج ... ومن الزوايا المعروفة فى هذا العصر زاوية السملاليين بسوس ، ولم تكن زاوية ذات ولى وهى منسوبة الى أبى حسون السملالى الذى ثار ضد السعديين ، وحاول تأسيس دولة سملالية ، ولكن مولاى محمد الشريف نازله فى عدة وقائع وانتصر عليه ، ومن اشهر الزوايا المغربية الناصرية المنسوبة الى مؤسسها محمد ناصر الدرعى من قرية تمكروت ، وقد اطنب فى الحديث عنها المؤرخ الناصرى فى كتابه (طلعة المشترى ، فى النسب الجعفرى ، ومن (الزوايا) السياسية التى ظهرت فى هذا العصر زاوية أبى عبد الله العياشى الذى قاوم قرصنة الاسبان والبرتغال ودافع الاستعمار عن البلاد وكان العياشى فقيها مصلحا ، ومن اتباعه ابن سعيد الدكالى القاسمى صاحب زاوية دكالة ، ومن الزاوية المشهورة أيضا الزاوية العياشية ، أو الحمزاوية فى ناحية ميدلت ومنها العياشى صاحب الرحلة التى ترجم فيها لعدة رجال هذه الزاوية ، وقد ألف اليوسى فى نقد العكاكزة وتقاليدهم وانحرافاتهم ، وكانوا موزعين فى عدة مواطن بالمغرب .

وفى كتاب (حاضر العالم الاسلامى) اشكيب أرسلان ذكر دور هذه الزوايا فى تاريخ المغرب من الوجهة السياسية والاجتماعية فقد أسدت الزوايا وبالاخص الناصرية والدلائية والشرقاوية معونة فى الثقيف ونشر الوعى الدينى فى سائر البلاد ،

وكان فى زاوية محمد بن سعدون سيدى موسى مئات الطلاب ، وانتهج نهجه كثير من رجل الزوايا وأصبحت البرامج الدراسية تحتوى على دراسة مادة التصوف ، فعبد الله السوسى كان يفضل كتب السيرة على كتب التصوف ، لان فى الاولى سيرة الصحابة ، والثانية سيرة المتصوفة والغريب أن محمد الشيخ مؤسس الدولة السعدية لم يلبث أن انقلب على الزوايا ، رغم ما أستدته لدولته ، فامتحن أربابها سنة 908 ، وسجن عبد الله الكوشى ونفاه الى فاس ، واتهم باقى أصحاب الزوايا بأنهم يحفظون فى فى زواياهم ودائع بنى مرين ، وفرض عليهم الضرائب بعد ما كانوا معفين منها ، كما اقتضت سياسة المنصور الذهبى نفى على باحمد بن موسى السوسى بتارودانت ، ولكن محاولات السعديين باءت بالفشل ، فقد تصدى الصوفى العياشى مجاهد سلا لحربهم ، وقويت شوكة الزاوية الدلائية ، وكان أبو المحلى من مشاهير الثوار الصوفيين ضد السعديين حيث احتل درعة ، كما قتل السلطان محمد الشيخ المأمون بن أحمد المنصورى العضاوى البقال لانه تصدى له بجارح القول واتهمه بالتهاون فى الدفاع عن العرائش ، ولم يمنع ذلك أن يكون المنصور السعدى متصوفا فقد قيل انه لبس خرقة التصوف على يد شيخه المنجور ... والواقع أن السعديين مدينون لرؤساء الطرق الصوفية الذين قاوموا بنى مرين وهدموا دولتهم لانحلالهم وعدم مقاومتهم للغزاة المسيحيين للشواطىء المغربية ، ومن هؤلاء عبد الله عمر الساسى المدغرى ، وعبد العزنز القسمطينى ومحمد بن مبارك ، وهم الذين مهدوا لدولة محمد الشيخ السعدى بعد أن أيدوا ثورته بالسوس ، وذكر مؤلف (زهرة الشماريخ) بأن محمد ابن المبارك هو الذى أمر قبائل السوس بالانقياد للسعديين ولقد كان أثر الزوايا عظيما ولذاك لا بدع أن يقول مؤلف النشر : لولا ثلاثة لانقطع العلم من

القرن الحادى عشر ، وهم محمد بن ناصر رئيس زاوية درعة ، ومحمد بن أبى بكر المجاطى رئيس زاوية الدلاء ، وعبد القادر الفاسى ، وقد ألف كثير من علماء التصوف فى هذا الفن ، من أشهر ما كتب فى ذلك (دوحة الناشر بمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر) الذى لخصه وير فى كتاب عنوانه (مشايخ المغرب فى القرن السادس عشر ، بعد تجريده من التصوف) والكتاب لابن عسكر ، وهو أول مؤرخ للحركة الجزولية المتصلة بالشاذلية ــ كما يقول بروفنصال ــ التى تفرعت عنها معظم الطرق الصوفية فى العالم الاسلامى و (البدور الضاوية فى الزاوية الدلائية) للحوات ، و (الدرر المرصعة بأخبار اعيان درعة) لمحمد المكى الدرعى ، و (تحفة الاخوان لمناقب صلحاء وزان) لمحمد الطاهرى وكتاب الحضيكى المسمى (طبقات الحضيكى) ، وكاد أن يختص بصوفية سوس ، وألف ابن القاضى فى القرن العاشر (درة الحجال) ، و (الجذوة) وهى تحتوى على تراجم لكثير من الصوفية وطوائفهم كالطائفة اليوسفية ، والطائفة الاندلسية والعكاكزة ، والجزولية ، ويلاحظ هنرى باسى فى كتابه (أدب البرابرة) ان مصنفات التراجم اهملت الاساطير الشعبية المنسوبة للصوفية . وقد تصدى كثير من العلماء لمقاومة الزوايا بدعوى أن رجالها يدخاون بدعا فى الدين حيث يؤلفون جماعة تعتمد توجيها خاصا تتعصب له وتعتقد أن من تمسك به نجا ومن خرج عنه ضل السبيل ، بل ان بعض المشعوذين يستغلون بساطة الدهماء فيجعاون منها مادة صالحة للاستغلال والعبث بثقتها أو تكييف جهودها حسب مصلحتهم وأهوائهم . وألف الشيخ أحمد ابن عبد السلام بنانى المتوفى سنة 1234 فى الرد على بعض الطوائف التى ظهرت بالمغرب فى عصره كتاب المعيار المعرب عن فضيحة الطائفية التى أحدثت بالمغرب.

وفى كتاب المعيار للونشريسى ذكر حركة الفتـــاوى الفقهية التى تعرف عن حملة العلماء ورجال الدين ضد الطائفية كفتوى العلامة القباب ضد اتخاذ شيخ فى طرق الصوفية ، وكفتوى عبد العزيز القيروانى ضد الطريقة والطائفية .

وألف الزيادى كتاب (سلوك الطريق الواربة) ، وألـــــف أبو عبد الله محمد بن عبد السلام الناصرى المتوفى سنة 1239 عن الطائفية سماه (المزايا فيما حدث من البدع والزوايا) وهو كتاب يرد فيه على الحسن بن يوسف بن الشيخ محمد الدرعى الذى دعم نظام الزوايا فى ذلك الاقليم كما فى طاعـــة المشترى ، وشن المؤرخ الناصرى مؤلف الاستقصا حملة شعواء على الطوائف وارباب الزوايا فى تاريخه المشهور ، وألف الفقيه عمر الرجراجى كتاب (هداية من تولى ، من غير الرب والمولى) تحدث عنه !الامام الامام المنجور فى المنهاج ، ونقد العلامة الهبطى المجتمع المغربى فى عهده واصفا ما فيه من البدع والطرقية كما وقف ضد الزوايا أبو العياش أحمد الشاهد بن التهامى حيث انتقد فكرة الطائفية كما فى النشر وعرف المجتمع المغربى أواخر السعديين صراعا طيفيا ضد الميز الاسروى .. ويذكر المؤرخون أن الامام المنجور قدمه علمه فقام ليؤم بالسلطان فقال اليحمدى : « ان كان قدمه علمه فقد أخره نسبه » بل قتل القاضى أبو النعيم الغسانى بعد حكمه ضد (البلدين) فى خلاف نشأ بينهم وبين خصومهم ، ويعتبر ابن ابن زكرى اشهر من تولى الدفاع عن الاسلاميين فى عصره ، وقد أيده عدد من علماء وقته ، ورد عليه آخرون كالشيخ بنانى مؤلف (تحلية الآذان والاسماع) وكتاب (الوجد المغرى) ، وكانت الأحاديث التى ساقها ابن زكرى للدفاع عن نظريته كحديث (من دخل هذا الدين فهو من العرب) سببا فى تدخل رجال الحديث كأبى العلاء العراقى الذى أيد ابن زكرى .

وظهر عامل جديد فى تلقيح الثقافة المغربية فى هذا العصر ذلك ان الأندلسيين بعد الجلاء تفرقوا فى كل مكان ، وتوزعتهم البلاد وساحوا فى الارض ، وكان نصيب المغرب منهم وافرا ، فقد حلوا بمختلف المدن الافريقية كالرباط وتطوان ووهران والجزائر وتونس ، ولعل نصيب تونس كان منهم كثيرا أيضا ، حيث بنوا بها أكثر من عشرين قرية ، وكذلك أقاموا ببنزرت والقسطنينة والشام ، ويتحدث المؤرخون الاقليميون المغاربة دائما عنهم ، فمؤلف الاعلام بمن حل بمراكش واغمات من الاعلام يترجم لعدد من الاعيان الذين اقبروا فى مراكش ، ويذكر الكانونى مؤلف كتاب آسفى وما اليه عدة من هؤلاء الأندلسيين الذين وصلوا الى الجنوب المغربى ، ومؤرخ فاس محمد بن جعفر الكتانى فى السلوة يترجم لمن أقبر منهم بفاس ، وأبو جندار فى كتاب الاغتباط فى تاريخ الرباط يترجم لعديد من الأندلسيين ، بل ان المنصور السعدى لما فتح السودان ألف منهم جيشا جرارا أمرهم بالمقام هناك فى ضواحى البلاد السودانية تثبيتا لسلطانه وظلوا به الى الآن كما يتبين ذلك الرحالة المعاصرون وكان هذا الجيش تحت قيادة جؤدر بن عبد الله الذى ولى السفارة فى لندن سنة 1637 وتوجد صورة له فى متحف لندن ، ومن السودان وصل فريق الى جزائر الخالدات (جزائر كناريا) حيث نشروا مدنيتهم بها ، وكان انتشارهم بنواحى الريف أوفر وأكثر لأنها طريقهم الى المغرب ، وكما انتشروا فى جنوب الجزيرة الأندلسية انتشروا فى نابل وفرنسا ، فاجتازوا جبال البرينية ووصلوا الى فرنسا ، ولا سيما فى المقاطعات الجنوبية منها ، وما تزال عائلات تعرف (من سلالة السرازين) كما توجد عائلات فى سويسرا تنتمى الى السلالة العربية أيضا ، وكلمة (السرازين) محرفة عن (السراجين) أى بنى سراج وهى أسرة أندلسية مالكة حكمت بغرناطة ونزحت

الى أوربا واشتهرت بها ، وكان (شاتوبريان) الأديب الفرنسى من الكتاب الذين كتبوا عنهم ، كما يحتفظ التاريخ الفرنسى باسم العلامة أبا زيد الذى سكن (تلوز) بعد أن تنصر أهله واعتنقوا البروتستانية ، وكان من جملة المهاجرين الى جنيف لما اصدر لويز الرابع عشر أمره بطرد البروتستانتيين ، كما كان صديقا لروسو وفولتير ، وما يزال بجنيف شارع يحمل اسمه الى اليوم ...

لقد هاجر الأندلسيون (3) جزيرتهم لاسباب سياسيـــة

---

(3) هاجر الاندلسيون الى المغرب هجرة كبرى فى حقبتين (الأول) فى عهد الدولة الادريسية يوم تأسست مدينة فاس بعد ثورة (الربض) بقرطبة، فجاءوا الى مدينة فاس وبنوا بها شطر المدينة (عدوة الأندلس) ، ونقلوا اليها ثقافتهم وحضارتهم وعبقريتهم وهاجروا مرة ثانية بعد سقوط غرناطة بعد حروب دامية ضد المسيحية ، حيث تم جلاؤهم فى جماعات كبرى ، وحيث كان عزمهم أن يعودوا مرة ثانية بعد حروب جهاد بحرى مرير لم ينته الا بمكاييد الكنيسة . وفى هاتين الهجرتين تدفق سيل من المهاجرين الى المغرب فرادى وجماعات ، فاندمجوا فى البلاد المغربية التى كانت احدى العدوتين . اما بالنسبة للهجرة الاولى ، فقد كان كثير من الفقهاء الاحرار يهاجرون بلادهم الى أوطان أخرى تمسكا بمواقفهم ... ومن ومن هؤلاء الاندلسيون الذين جاءوا الى (فاس) بعد أن دشن بناءها المولى ادريس ، فكانوا من أول العناصر العلمية التى دخلت الـــى المغرب ومنهم المفكرون الفقهاء والصناع الذين رفضوا (الحكم الاندلسى)، فقد اتبع الحكم الاموى سياسة الامويين الشرقية ، وفرض ضرائب أثرت على اقتصاد الاندلس التى لم تتعود ذلك ، فارتفعت الاسعار وزاد ارتفاع غلاء المعيشة ، فتصدى الفقهاء للحكم الاموى مؤيدين حقوق الشعب اعتمادا على أن الزيادة فى المكوس غير شرعية وبالتالى لا يلزم اداؤهـــا .

فاصطدام الحكم مع الحدادين والفقهاء ، وعبر الثائرون جسر (شقندة)، فتصدى لهم جند الحكم واتخن فيهم ، وطرد من بقى من الفقهاء خارج الاندلس ، واعلن الحكم بن هشام بمواطاة بعض الفقهاء شرعية عمله بتشريد خصومه رغم أنه اضرم النار فى الربض ليفك الحصار عنه ، وطرد الفقهاء من أرضهم .. فجاءوا الى المغرب ونفوسهم تضطرم غيظا وتشوقا الى مجتمع عادل منصف ..

بالاضافة الى (القيروانيين) الذين جاءوا لفاس بعد مظالم الاغالبـــة تلاقح العنصر الثائر القيروانى بالعنصر الثائر الاندلسى .. وكانـــت ثمرة ذلك التلاقى بناء اسس جامعة علمية تركز الاسلام السلفى الحق والديمقراطية فى الحكم والعدالة فى المجتمع .

اجتماعية واقتصادية ودينية فنزل معظمهم بالرباط وتطـوان . ويذكر مؤلف خلاصة تاريخ العرب أن الكثير منهم اجتازوا جبال (البرنية) واستقبلهم (هنرى الرابع) ، على أن هناك بقيـة اندمجت فى الاسبانيين بعد ان اعتنقت المسيحية ، وذكر الوزير الغسانى المتوفى 1119 فى رحلته انه لقى فى اسبانيا كثيرا ممن تجرى فى عروقهم الدماء العربية ، وعندما دخل الأندلسيون الى المغرب استعجم الناس أخلاقهم ولغتهم وفى رحلة (مويط) ان الرباطيين كانوا يتكلمون بالاسبانية ، وكل هذا كان سببا فى حدوث نفرة بينهم وبين جيرانهم وألف عبد الرفيع سنة 1052 هـ كتابا فى الدفاع عن اسلام الانداسيين . والمهم أن للاندلسيين أثرا عظيما فى حفظ الصناعة والثقافة والملاحة الأندلسية ، وقد لعبوا دورا فى القرصنة البحرية ، ولم يمض على مكثهم بالمغرب مدة قليلـة حتى ظهر أثرهم جليا فى الحياة الاجتماعية المغربية وفى الأدب بصفة خاصة ، فكونوا مدرسة ثقافية تمتاز بخصائـص الأدب الأنداسى من رقة وصفاء ، وقدرة على مزج العاطفة بالطبيعة ، مع سحر الالفاظ وتناسق فى انتقاء التعابير ، وفى مقدمة (سوق المهر) ذكر لنماذج من هذا الأدب المغربى الذى يذكر دائما بأدب الفردوس المفقود ، كما يضم تاريخ تطوان للمؤرخ محمد داود وصفا حيا لحياة المهاجرين الأندلسيين الى تطوان وأدبهم بها ... وتجاوز هذا التأثير ميدان الادب الى ميدان الفن ، حيث عملـت يد الصناع على بناء ما يذكرهم ببلادهم ، وكذلك حملوا معهـم الموسيقى الاندلسية بأطباعها المختلفة ، وحملوا أساليبهم فى الرى ولم ينسوا أن يحافظوا عاى مظهرهم الاجتماعى الأندلسى سواء فى حفلاتهم وأعيادهم ، أو فى لباسهم ، أو فى فنون خياطة الملابس لنسائهم من تخريم وطرز وغير ذلك ، وظلوا متمسكين بتقاليدهم لم يفرطوا فى شىء منها ، بل انهم حملوا معهم الى الرباط توابيت

علمائهم وصلحائهم فدفنوها من جديد لتعيش معهم فى أرضهم الجديدة ، ولمعرفتهم بلغة الاسبان والفرنج ومعرفتهم بعوائد الغرب وانظمته فقد كان منهم السفير الى البلاد الاوربية وفى (الاغتباط بتراجم قضاة الرباط) لأبى جندار ذكر لعدة علمائهم وادبائهم وشعرائهم ...

كما كانت لهم اليد الطول فى الأدب والعلم والصناعة والزراعة حتى ضايقوا أهل البلاد وقطعوا أرزاقهم ، وكان لا يستعمل بلدي ما وجد أندلسى ، ويذكر ابن خلدون عن رحلتهم الى المغرب وأثرهم القوى فى انقراض حضارتهم فيه فى مقدمته بقوله : : (والقت الأندلس بأفلاذ كبدها من أهل تلك الملكة بالجلاء الى افريقيا ، ولم يلبثوا ان انقرضوا وانقطع سند تعليمهم فى هذه الصناعة لعسر أهل العدوة لها وصعوبتها عليها وعوج ألسنتهم ورسوخهم فى العجمية البربرية) . وكان بالرباط كثير من النسوة المنحدرات من الاسر الاندلسية كآل يلانبو مثلا ينسجن انواعا من التعايق والستور عجيبة التشبيك وفى الفلاحة حمل الاندلسيون الواردون على الرباط خلاصة تجاربهم الفلاحية وبالرجوع الى كتاب الفلاحة الأنداسية للطنفرى (زهر البستان ونزهة الاذهان) وكتاب الفلاحة الاندلسية لابى زكرياء يحيى ابن العوام الاشبيلى (4) نجد تحليلا دقيقا لفن الفلاحة الذى يعتمد على اختيار الارض والمياه والغراسة ، وتربية واختزان التين ، والتفاح ، والكمترى ، والسفرجل ، والاترنج والرمان والاجاص ، والقراسيا ، والعنب ، والقسطل والفستق ، والبلوط . ومن تطعيم وتلوين الزهور والتثمير فى غير الابان ومن عادة الاندلسيين الرباطيين بان يهتم المسلمون بتعليم الصبيان آخر

---

(4) انظر تعليقنا عليه فى الجزء الحادى عشر من المجتمع العربى الدمشقى .

رمضان أساليب تزويق الالواح بدوائر وخطوط هندسية يلونوها بمختلف الأصباغ لتدريبهم على مبادىء الهندسة .

وتحول الموريسكو فى اسبانيا المسيحية بعد نشاط محاكم التفتيش ضدهم الى مزارعين يعملون فى الاقطاعيات التى يملكها النبلاء ... ونظرا لخبرتهم ونشاطهم فقد أصبحوا عمدة الفلاحة والغراسة والاقتصاد بصفة عامة .. مما جعل النبلاء يقاومون الكنيسة فى حملتها التنصيرية لما يفقدها ذلك من مزايا اليد العاملة ... وعندما ظهرت حركة العمال لمقاومة النبلاء كانت دعوتهم الى تنصير المسلمين ليضعفوا قوة النبلاء ولكن المسلمين آثروا العبودية وخدمة النبلاء بدل (التنصير) المفروض عليهم ، وبعد سنة 1521 عادت الكنيسة من جديد الى حملة التنصير بطريق محكمة التفتيش وانهت فضائعها باجلاء (الموريسكو) عن الاندلس ... ولم يمنع ذلك كله من بقاء كثير من المسلمين باسباب ، تنصروا ظاهريا فقط حدثنا عنهم الغسانى فى رحلته (افتكاك الأسير) وبعد انتصار الجمهوريين باسبانيا جاهر كثير من الاسبان بأصلهم فتفرقوا فى أوربا وكانوا من أعلام الفكر بجامعاتها ، وفى امريكا الجنوبية ، وبالاخص بالارجنتين والبرازيل ، وفى أرخبيل الفلبين حيث ما تزال بقية منهم فى جزيرة (مور) ... كما استوطنوا افريقيا الشمالية والسنغال التى ما تزال تحتفظ ببقايا منهم ... ولم يمنع ذلك كله من بقاء كثير من المسلمين باسبانيا الذين تنصروا ظاهرا فقط .. آخذا بمذهب التقية .. وسمح لهم بالبقاء لأن البلاد لا تستغنى عنهم ، كما يقول المثل الانسانى :

« حيث لا عرب لا فائدة » «Mi entras mas moros mar ganancia...»

وقد حدثنا عنهم الغسانى فى كتابه (افتكاك الاسير) ... وبعد انتصار الجمهوريين باسبانيا جاهر كثير منهم بأصلهم

العربى ، وطالبوا بأراضيهم المغتصبة فى فترة محاكم التفتيش ... ويذكر شكيب أرسلان فى كتابه حاضر العالم الاسلامى (44 ج 2 طبعة دار الفكر) أن ظهور كراهية النبلاء والرهبان بين هؤلاء ليست نتيجة رواج المبادىء الشيوعية أو الاشتراكية بل ثمة عرق عربى عاد فنزع فى الاندلس بعد اعلان الحكم الجمهورى .

وقد حمل علماء الأندلسيون الى الغرب عدة مصطلحات عربية فقد كانوا يلجون الجامعات الاوربية سواء الاسبانية أو الفرنسية أو غيرها وحتى الجامعات الاسبانية فى أمريكا اللاتينية، ، عندما هاجر اليها الاسبانيون فنقل هؤلاء كل معطيات الحضارة فنقل هؤلاء كل معطيات الحضارة الاسلامية الى أوربا وكذلك نقل الموريسكو عندما هاجروا الأندلس الى المغرب كلمات اسبانية مما يعتبر من آثار التداخل الثقافى Interprenetation culturelle ومن الكلمات التى حملوها الى المغرب فيزتا ، وسبيطار ، ويوماضة ، وليموناضة ، وبورفة ومن ذلك الفرطيون (المثلث) والمصطلحات النباتية والحيوانية مثل بريباو وأسماء الأطعمة مثل بسطيلة ، وفداوش Fideros وباناضح Panadas ومسبان Massepan واسماء الملابس مثل سباط وبلوزة وماريون .... الخ

وكذلك تأثر المغرب فى هذا العصر بثقافة الترك العثمانيين فقد كان المنصور السعدى معجبا بالامة التركية ونظامها وحاول أن يقادها فاصطنع لنفسه جيشا على شكل الجيش التركى ، وادخل التقاليد الملكية التركية الى البلاط السعدى ، وبعث الى الاستانة سفراء تأثروا مثله بالحضارة التركية ، ومن هؤلاء محمد بن على الفشتالى وعمر التمغروتى مؤلف النفحات المسكية وأبو العباس أحمد بن على الهوزالى سفير المنصور الى مراد الثالث ، وابن القاضى مؤرخ الدولة السعدية ...

إن وفرة الزوايا وهجرة الاندلسيين ، الى المغرب والاتصال بالملكة التركية سواء ذلك الاتصال الجغرافى على حدود تلمسان أو الاتصال الديبلوماسى والعسكرى ، والـذى استفاد منـه السعديون وتأثروا به الى حد كبير ، كل ذلك أثر فى الثقافة المغربية فى العصر السعدى .

وفى الرباط بالخصوص ذكر مؤلف (سوق المهر) أن قدماء المهاجرين الاندلسيين ساروا فى البلاد ونشروا ما حملوا من علوم وآداب ، (ورغم سقوط دولتهم فان حياة الافكار كانت متوقـدة مشبوبة ، لان سقوط الدولة لم يكن عن هرم طبيعى ، وانما أودى بها الشقاق وعجل بدمارها الافتراق) .. وفى كتاب بلاغة العـرب فى الاندلس أن الافتراق .. وفى كتاب بلاغة العرب فى الاندلـس أن الدولة زالت على اثر الاضطرابات السياسية والحياة العقلية فى عز مجدها ، وعلماؤها وأدباؤها كانوا لا يزالون فى ابان نشاطهم ونشوة يقظتهم العقلية حين انتشروا فى البلاد ، فأفاضوا عليهـا من فضل علومهم ما كان له اثر نافع عند الأمم التى نزلوا فيها والواقع أن الموريسكو الذين خرجوا عند الجلاء الاخير بعدمـا ساكنوا الاصبان بغرناطة وأعمالها نحوا من مائة وعشرين سنة كانوا فيها تحت سيطرتهم ولهذا فلا تعتقد انهم ما زالوا على ثقافتهـم الاندلسيـة اذ قد ضيـق عليهـم فى لهجتهـم وعقيدتهم فكيف بالعلوم والآداب .

الاقتصاد فى عصر السعديـين

استفاد السعديون من ثروة المغرب الفلاحية فى تنميـة البلاد واعطائها مظهرا حضاريا جديدا . فعلاوة على تطور زراعة قصب السكر واحداث مصانع فى جنوب المغرب وبالاخص فـى تارودانت وشيشاوة لصناعة السكر فقد صرفوا اهتمامهم الـى

الاكتشافات المعدنية ، وقد استغلوا مناجم الحديد والقصدير والملح وطوروا وسائل الاستغلال ومعالجة الركاز وبذلك جعلوا من بلاد المغرب حقلا اقتصاديا كبيرا .

والواقع أن المغاربة القدماء استفادوا من مراكز المعادن كما يحدثنا عن ذلك البكرى والادريسى والوزان وابن خلدون .

ويشهد الجيولوجيون ومهندسو المناجم المعاصرون بقدرة المغاربة القدماء على الاستفادة من مناجم الفضة والنحاس والحديد والذهب . وقد كانت هذه المعادن موجودة فى جنوب المغرب وبالاخص فى الجبال ، ولم يتوقف العمل بها الا فى بداية عهد الحماية ، وما تزال هذه الاوراش معروفة الى يومنا هذا ، ولعل من اشهرها مناجم تاتاوتى بالاطلس الصغير وتايجت الذى كان معروفا بالذهب ، ومركز تاعدانت كما كان الحديد يستخرج من عدة مناجه فى الريف الشرقى .

فهذه الثروة المعدنية ساعدت دولة السعديين على انشاء حضارة ظلت معالمها بارزة فى قصر البديع بمراكش .

ويذكر (أندرى جوليان) فى تاريخ افريقيا الشمالية ص 475 ان المغرب احتكر الصناعات ورخص لليهود والمسيحيين باست4غلال أرحاء السكر ، كما استغل مناجم الملح فى تغارة ، وتدفق الذهب على مراكش . ويحكى الرحالة (لا درنس مادوك) الذى كان عاملا لشركة تجارية بمراكش انه شاهد بعينه ثلاثين بغلة مثقلة بأحمال الذهب ، وجاء فى مجلة تطوان (العدد 4) فى بحث . عن العلائق التجارية بين المغرب وانجلترا . ، ذكر لتأسيس شركة تجارية فى مراكش اشتد الاتصال بين الانجليز والسعديين حتى فكر المنصور فى احتلال اسبانيا أو اقتسامها مع اليزابيت التى آثرت ان تصرف جهودها نحو الهند .

ولا شك ان اتصال السعديين بالانجليز اتاح لهم ان يجلبوا المواد الكمالية من الطنافس والاوانى التركية والهندسية الشيء الكثير ، بل بنى المنصور قصرا متنقلا واهم صادرات المغرب كانت من المعادن والسكر الذى ما تزال معامله فى حاحا ، وكما اتصل المغرب بالانجليز عقد صفقات مع هولندا التى اقترضت منه عدة مرات وكان لها فى المعمورة وآسفى مراكز تجارية مهمة.

لقد أمر السعديون أولا قبائلهم فى (سوس) أن يأتوهم ببيضة عن كل عائلة فاجتمع لهم من ذلك آلاف من البيض ، ثم أمروا الذين جاؤهم بالبيض ان يأتو بالدراهم بدلها ، ففعلوا فتحصل لديهم مبلغ كبير من المال أصلحوا به شان البلاد والجيش ، وكانت تلك أول نائبة فرضت فى دولة السعديين ، ثم تطورت النائبة الى ضريبة مقدارها صفحة من الشعير وعشرين مدا من القمح لكل نائبة وصاعا من السمن ، وكبشا لكل اربع نوائب ، ولما جاء المنصور أخذ يتقاضاها دراهم .... ولا شك ان انصراف الاسبان والبرتغال عن الشواطئ المغربية ساعد على الاستقرار فى المغرب ، فقد اكتشفت امريكا وتوجه البرتغاليون الى البرازيل لاحتلالها ، ولما عادوا من جديد لهجاماتهم على المغرب تصدى لهم المغاربة فى وادى المخازن .

وكان المغرب فى عهد السعديين ينتج السكر الذى كانت معامله منتشرة فى (حاحة) و (شيشاوة) ويصدر الجلود ، والزيت واللوز والتين والعسل والعنب ، ويجلب الزعفران والتبغ الذى دخل المغرب عام 1007 ، على يد تجار السودان ، فأولع الناس به ، كما كان يجلب المنتوجات والاوانى من أوربا ، وكانت (سلا والعرائش) فى جبل طارق مراكز تجارية للاصدار الى الخارج ، وأهم دول المعاملة هى : الانجليز والهولانديون والاسبان وفرنسا .

وعندما استولى المنصور على السودان واستحوذ على مناجم الملح فى تغازة قرب تاودنى الحالية ، كثر الذهب فى المغرب. وقد استفاد المنصور من السودان ثروة طائلة من الذهب الخالص، فلذلك لقب بالذهبى ، وقد ذكر جولبان (ص 480) تاريخ افريقيا الشمالية ان العملة المغربية ارتفعت قوتها الشرائية حتى صار التجار الانجليز يتهافتون عليها ، وتدفق ذهب السودان على عواصم المغرب الاقتصادية وسارع البرتغاليون الى تقديم اثارات جزيلة للدولة لفداء اسراهم مما ساعد على انشاء عدة مؤسسات .

وكذلك كان السعديون مغرمين ببناء القصور المنتقلة وتحدث صاحب النفحة المسكية عن قصر بناه المنصور من خشب ، وربط اجزاءه بالصفائح المفضضة وأحاطه بسرادق من نسيج الكتان، ونظم فى داخله قبابا مزينة بأبهى النقوش ، ووصل القباب بدهاليز وتعاريج ، فصار القصر كمدينة تنتقل بانتقال الملك وكان من أثر تدفق الذهب على عاصمة السعديين ما كون لهم رصيدا ماديا ضخما ، كما كانت الاتاوات الجزيلة التى يقدمها البرتغاليون والاسبان وغيرهم لفداء الاسرى مما ساعد على نمو مالية الدولة .

العمران :

بناء قصر البديع

فى عام 986 هـ شرع المنصور فى بناء (قصر البديع) واستمر الى عام 1002 ، وقد جلب السلطان المهندسين والصناع من اوربا ، ويذكر الفشتالى فى مناهل الصفا أن سوقا تأسست قرب القصر حين بنائه قصدها التجار ببضائعهم لكثرة العمال .

وقد جاب المنصور الرخام من بلاد الروم مقابل ما كـان يصدره اليها من السكر وزنا بوزن ، واستورد كثيرا من مواد البناء من مختلف البلاد كالسودان وكان يوسع للعملة فى اجورهم، وقد وصف القشتالى قباب البديع وضروب التطعيمات الذهبية التى موهت بها جدرانه ، ووصفه أيضا أيضا صاحب النفحـة المسكية ، ذاكرا ما كانت تزين البيوت بأصناف النمارق والحائطات والطنافش والامراش الزجاجية التركية والانجليزية وصفائـــح الذهب والفضـــة .

وقد كان قصر البديع وحدة مستقلة ، وغلب هذا الطابـع على القصور المغربية التى تطورت الى وحدات مستقلة كل قصر يضم ما يحتاجه من مواد مما يجعله قادرا على الاكتفاء مـدة طويلة كلما داهم المدينة خطر خارجى ..

وشاهد المغرب فى العصر تأثرات حضارية نتيجة اتصـال المغرب بالبرتغاليين فقد بنى هؤلاء معاقل عسكرية شاطئية اتسمت بضخامة البناء وبساطته واعتماده على الحجارات فقـط دون الاخشاب ، وبناء آبار ومضفيات كما فى (الجديدة) ومرافىء لاصلاح السفن وأبواب سرية تصل القلعة البحرية بالبحر حتـى يتمكن المستعمرون بسلامة الفرار ، كما فى بناء الحصون البحرية بأسفى والجديدة .. وقد تأثر السعديون بذلك كله وادمجوه فى بنائهم المعمارى .

الرايـات السعديـة

كان البياض شعار الموحدين ، وكانت الويتهم بيضاء الا الالوية الثانوية فهى ملونة بالاحمر والابيض والاصفر امـا اقبية الخليفة فقد كانت حمراء . وقد جملوا اركان خزانة المصحف

العثمانى الذى حملوه من قرطبة الى مراكش بالالوية كما يذكر عبد الملك بن صاحب الصلاة فى كتابه (المن بالامامة) .

فلما جاء السعديون أصبح جيش المنصور المكون من القبائل ، وجيش السود ، يحمل اللواء المنصورى وهو شعار الدولة المرينية ، وقد وصفها القشتالى بقوله .

(جيش الصباح على الدجى متدفق
فياض ذا لسواد ذلك ممحق)
(وكأنه رايات عسكرك التى
طلعت على السودان بيضا تخفق)

طائفة فى اعلام هذا العصر :

فى فهرس اليوسى وهو من الزاوية الدلائية ، ذكر للعلماء الذين اخذ عنهم بسجلماسة ودرعة والسوس ومراكش ودكالة وقد عدد شيوخه فكان منهم أبوبكر التظامى ، ومحمد بن عبد الله الحسنى ، وعبد العزيز الفيلالى ومحمد التجمعتى وأبو مهدى عيسى السجستانى ، ومحمد المزوار ، ومحمد الهشتوكى واحمد الاعرج بن محمد القائم بأمر الله الذى كان عالما مدرسا بالقرويين وذا كرسى للتدريس بها ، ثم خاض ميدان السياسة (ولد سنة 891 ومات سنة 951) — ومن اعلام هذا العصر احمد المنصور الذهبى الذى كان متضلعا فى الحديث والفقه والرياضيات والجبر والمقابلة له ارجوزة جيدة مدونة (ولد سنة 956 ومات سنة 1012) ، وعبد الواحد الحميدى واحمد القدومى واحمد المنجور ، وسقين الذى عده القصار من المجددين للاسلام على رأس القرن العاشر ، وكان داعية للاسلام فى افريقيا دخل بلاد السودان (وتوفى سنة 956) ، وابو القاسم بن ابراهيم وهو علامة ومفسر (مات سنة 978) ، وعبد الله الورياغلى

وهو مجتهد اصولى ، مرابط (مات سنة 954) ، وأو القاسم الحسانى ابن خوخو (مات سنة 956) وعثمان اللمطى (المولود سنة 888 والمتوفى سنة 954) ، ومحمد بن غازى محدث ومؤرخ الف فى القراءات والحديث والنحو وله شرح خليل والمدونة (توفى سنة 919) ، ورضوان الجنوى الذى كان فقيها ومحدثا (ولد سنة 910 ومات سنة 991) ، وابن القاضى وهو مهندس وعالم مفكر الف عدة كتب اشهرها « المنتقى » والجذوة و « المنتقى » والجذوة و « الدرة » و « الغنية » و « المدخل لعلم الهندسة » (مات سنة 1025) ، ومحمد بن على القنطرى وهو اديب شاعر محدث وفارس عسكرى (مات سنة 1018) ، وعبد الواحد ابن عاشر فقيه مربى (مات سنة 1046) ، ومحمد بن قاسم ابن زاكور حافظ اديب وطبيب له مؤلفات شتى اشهرها شرح ديوان المتنبى وتذييل ارجوزة ابن سينا (مات سنة 1120).

الخزائن

اسس المنصور الذهبى خزانة عظيمة سميت بالخزانة المنصورية ، وقد جمعت كتبها من مختلف الاقطار حيث كان سفراؤه يحماون اليه من البلاد النائية مختلف الكتب وضمت الى خزانة القرويين بعد وفاته ، كما اشتهرت خزانة الدلائيين بنفائسها وخزانة تمكرورت وزاوية العياشى بذخائر الكتب النفسية .

الفهارس والمكتبات

من أهمها : فهرس يحى السراج الحافظ المفسر ولد سنة 1007 . ومحمد المرابط العالم الفقيه توفى سنة 1008 ، له كتاب فى النحو . ومحمد بن ابى القاسم ابن القاضى فقيه رحالة

فلكى ، وفهرستا المنجور المتوفى سنة 995 ، وفهرست العميرى .

المســرح الشعبــى

ان الثقافة وليدة البيئة وتفاعل الانسان معها فى تحديــه وحواره الدائم وهذا التحدى والحوار يستمر فى تجاذب عقلــى أو وجدانى ينشأ عنه العلم والادب والفن ، وكما يتحدى الفــرد الطبيعة بعقله ووجدانه تتحداها الجماعة الانسانية كذلك ، واذا عبر الفرد عن تفكيره بالكلمة فــان الجماعة تعبر بما بالفـــن الجماعى ، وما يتبعه من عادات وتقاليد هى التى تسمى بالفلكلور اخذا من الكلمة الانجليزية (Folk-Lore) اى علم الشعب .

وقد عرف المغرب المسرح الشعبى ، الذى كان تعبيرا عــن عن طبيعة المغربى السريع النكة ، والنقد البرىء ، ولم يكــن يتخذ من المسرح مدرسة اخلاقية لان المسجد يطبع الاخــلاق الاسلامية بالطابع الاصل ، فلم يعن الفن المسرحى الا بالتعبير الكوميدى عن فرحة الشعب ونقذه المتستر . ولهذا نجد فى المغرب مسرحا يسمى (بالبساط) ، واصل الكلمة من مكان البســـط والانشراح فلها نفس معنى المسرح العربى ، وكان متنقلا يظهر فى تسلية أبى هيضور ، وبو بطانة .. كما كان يشخص بعــض الادوار الهزلية فى صورة الحيوانات وفى مظهر أشبه بالكرنفال وكان البطل يسمى (يوهو) ، والغريب أن المثلين فيه يسمون عادة بالمسيحين (من السياحة) وما يمكن ان يطابق اليوم كلمة البوهيمــى ...

ويرجع تاريخ البساط فى المغرب الى عهد عريق فى القــدم ويظهر أنه من آثار المسرح الرومانى الذى كان متأثرا بالمسرح الرومانى عم كل المدن المغربية كشالة ووليلى وغيرهما كما جاء وصف لمسرح قرطاج فى كتاب المسالك والممالك للكبرى .

ويعرف تاريخ اليونان ان اثينا كانت تقيم مسرحيـــات فلكلورية فى اعياد (ديونيسيات) حيث كان الممثلون يطوفون فى المدينة الى ان يصلوا الى (الثيميلى) كما يفعل رجال (السرك) فى هذا العصر وكان (الكوريفى) هو بطل الرواية وكبير المجموعة، مما يطابق دور (البوهو) ويطلق على هذا النوع من التمثيـل (كوموس) وكانت طبيعة هذه الجولة تقتضى الغناء والانشاد والخطابة . فكان (ديشيرامب) ينشد وتعزف له المجموعة حينا ، وأحيانا يتكلم تلقائيا هزلا كما يتفعل فرقة (البوهو) فى البساط .

ولهذا (فالبساط) فى المغرب متأثرا بالكوموس اليونانـــى فيما يظهر ، الا انه لا تصل المجموعة الى مسرح ، وانما تصل عبر الازقة الى ساحة عمومية ، والى القصر ، أو دار الباشـــا ، حيث يشرع الممثلون فى التمثيل المتعمد عـــلى الرقص والغناء والفكاهة والهجو ، ويشمل (البساط) عدة فنون لا تختلف فى ادائها انما تختلف فيمن يقوم بهذه الادوار ، واشهر ما بقـــى من اسماء الفرق التمثيلية (سيدى الكتفى) الذى كانت تؤدى الادوار جماعة المعلمين الخرازة والذين ألفوا نقابة بهم تضـــم اثنى عشر فردا عليها عميد يسمى المقدم ، وله خليفة ، ويمثلون اذوارهم بانتظام فى المنازل دون ان يعبروا الشوارع فى شكل البساط ، ويبتـــدىء عميد الفرقة المسرحيـــة باداء هزلى كلـــه نقـــد وتهكم .

وبجانب هذا المسرح كان هنـــاك مسرح بالشعر الملحـــون الـــذى يعتمد على الموسيقـــى فى الاداء ، وقـــد كانت مسرحيـــة (الفراجة) تعزف بها روايات هزللية شعرية بلغة الملحون ، وربما شخصوا (الحراز) وهو قصيدة طويلة جدا تصور عاشقا يحتال للوصول الى حبيبته ، وياتى الى منزلها فى صور مختلفة ويظـــل بتحايل حتى يصل الى رغبته أو يشخصون قصائد (الضيف) أو

(القاضى) التى يصور فيها الشاعر أنه يحاكم عشيقه عند القاضى ، ويقدم حجج حبه وهواه وقد ترك لنا الشاعر الشيخ الجيلالى قصيدة رائعة فى هذا الموضوع ، وتارة يكون الموضوع المسرحى مفاخرة عدة فتيات جميلات مختلفات البيئات والالوان والاعمار ، كالبدوية والحضرية والحرة والامة والعجوز والشابة والبيضاء والسمراء وهى مأخوذة عن مقامات الحضرمى المشهور ، ويحتفظ الشعر الملحون بالملحمة الشعرية (الايوبية) نسبة لصلاح الدين الايوبى ””” وهى ملاحم طويلة نصف الغزوات والعروب مع الكفار ، واشهر شعراء الملاحم سيدى عبد العزيز المغراوى صاحب الشدادية ، والشاب الغسانى ومن شعراء الملاحم سيدى مبارك ابو الاطباق صاحب غزوة الصيد بن سلامة المخزومى ، والاسرائلية و (الراحة) وفتوح افريقيا ، ومحمد بن يخلف التلمسانى صاحب قصيدة الراهب والضيافة وابن زيد البسطامى مع رهبان الدير .

الفن :

ينتقد (طيراس) الفن المغربى فى عصر السعديين ويرى انه فى متجه الى الماضى لم تستطع التأثيرات الجديدة التى تلقاها عن الاجانب ان تغيره أو تأتى بشىء ، فهو فن لا تذكيه روح ، وقد حاول الفنانون ان يعوضوا هذا الاسترخاء الفنى بأنواع الزينة والالوان ، ولكنهم لم ينقذوا الى الاعماق ولعل افخم مآثر السعديين تتجلى فى قصر البديع الذى وصفه الفشتالى بأنه يضم الكثير من أصناف الرخام الابيض والاخضر والمرمر والزليج المزوج بالذهب الخالص وتخطية الجدران بالصفائح الذهبية والنقش على الجيص ، وقد شارك فى بنائه فنانون من سائر الدول والاقطار .

ومن مآثرهم مسجد باب دكالة بمراكش الذى يحتفظ بالفن المرينى والشكل الموحدى ، والصومعة السعدية ، ومسجد المواسين بمراكش ، ويتجلى اقتباس الفن السعدى عن المرينيين فى الجناحين المتقابلين فى صحن مسجد القرويين ، الذين يشبهان جناحى قاعة الاسد بقصر الحمراء الى حد كبير ، ولا شك ان بقايا الفنانـــين المرينيين بفاس ساعد السعديين على تخليد الاثر الجليل بالقرويين حيث يحتوى كل جناح على مكان للوضوء ، وتحتفظ مدينة مراكش بمقبرة السعديين ، تلك المقبـــرة الملحقة بجانب القصبة عـــلى غرار مقبرة المرينيين بشالة ، ومـــا تزال بقببها ذات النقوش الزاهية والرخام المنقوش والمواعظ والاشعار الحكيمة المكتوبة فى زواياها والتى توحى للنفس بجلال الموت وعجز الانسان عن مغالبة الفنـــاء .

وترك السعديون تأثـــيرا فى الذوق والملابـــس والاطعمـــة والحفلات والمواسم والمهرجانات ذات الاصل التركى التـــى اقتبسها المنصور السعدى (الذهبى) من بلاد الاستانة التى اقام بها واعجب بحضارتها ، فهو أول من لبس الرداء الشفاف على القفطان ،،، ونسب اليه فقيل له (المنصورية) ، وأول من نظـــم فرقة الموسيقة العازفة على الطراز الجديد ، واستعمل المظلة الملكية واستغل غراسة قصب السكر وطور معامله بتارودانت وغيرها ، وغير نظام الاسوار التى اصبحت معززة بالبروج الصالحة لنظام المدفعية ، كما فى برج تازة ، وبرج فاس وغيرهما ، وظلت هذه الدولة معتنية (بالحدائق) والتشجير ، والاهتمام بالزهور فى فى اكدال فى مراكش وللامينة بفاس وحمرية بمكناس واكدال بالربـــاط .

وظل الفن الجديد القائم على ازدواج الطابع الاندلســـى والاسبانى المسمى بالفن الموريسكى ، يصطبغ بلون خاص يهدف

الى ضمان متانة الهيكل مع التنميق والزخرفة ، فيه تسطيرات ناتئة ومقربصات وتلوينات وايصال فى التوريق والنقش وانعدام توازن الاجزاء وعدم جودة المواد ، ويرى (اندرى جوليان) فى « تاريخ افريقيا الشمالية ص 466 » انه فن واضح المعالم متوازى النسب تتجانس نقوشه تجانسا رائعا ضمن الجيز الذى يملؤه .

وقد جلب المنصور الرخام من ايطاليا ومن مناجم (انوكال) المغربية و (كيك) واعتمد على مهارة الجباص فى نحت مزيج الكلس والرخام ومهارة النجارة فى برى المواسير الخشبية التى تتكون منها قطع المقربصات ، ومهارة الزلايجى فى تلوين الفسيفساء والاستيحاء من النباتات الفارسية التى تزين السقوف والزهيرات بالقرنفل والسوسن فى تخليد آية الفن المغربى .

الموسيقى :

واستمرت العناية بالموسيقى الاندلسية خصوصا بعد ورود الاندلسيين على المغرب ، وقد كانت مجموعة من التواشى تؤدى بدون كلام ، فعمد الشاعر العلامة حمدون ابن الحاج فملأها شعرا غنائيا لطيفا .

ومنها توشية غريبة الحسين :

هل لى من مداوى الهوى　　يداوى سقامى عاجلا
قلبى بالهوى اكتوى　　ودمعى تراه سائلا
نجمى فى الهوى هوى　　وحبى تراه مائلا
عن لقائى ما نوى　　ان يكون لدى واصلا

بغيـــــــتى منيـــــــتى
عالـــج يا طبيـــب سقمـــى ودائـــــــى
عســى عـــن قريـــب نبلـــغ هنائـــى
عالـــج يا طبيـــب قلبـــى الكئيـــــب
بوصل الحبيب عسى اجمع من غير رقيب
فى روض منعــــــم خصيـــــب
يقول الاديب قولى ما أبدع يعجبنى الاريب
(الزهر ، معتبر ، للنظر لمن حضر)

الدبيلوماسيـــة :

عملت الكنيسة فى روما جهدها لتوحيد المسيحيين لمواجهة المسلمين فى المغرب ، فقرر البابا اقتسام الشاطىء المغربى بين اسبانيا والبرتغال توحيدا لجهودهم فى ضرب العالم الاسلامى الغربى .. ولم يستجب البروتستانت لرغبة البابا فشجعت على ضد قراره ، ولذلك احدثت شركة للتجار فى بلاد الهند .. والمغرب، واخذ الاسطول الهولاندى يعبر الى الى الهند عن طريق الرجاء الصالح منذ سنة (1593 م — 1007 هـ) . وعقدوا معاهدة تجارية مع المغرب سنة 1010 لتأمين التجارة الانجليزية .. واذ كـان الهولانديون اخذوا ينافسون الانجليز ، فقد اتحد معا لمحاربة اسبانيا عدوهم المشترك نظرا للخلافات السياسية والتاريخيـة والدينية بين البروتستانت والكاتوليك . ومن هذا المنطلق ارتكزت الدبيلوماسية المغربية لتحرز انتصارات اقتصاديـة .

وصرف المنصور السعدى اهتماماته لغرس قصب السكر الذى كان معروفا فى افريقيا حسب المألوف فى تاريخ الفلاحة الافريقية . ولكن المنصور طور فلاحته وأنشأ معاصر للسكر فى

شيشاوة وتارودانت . كما استغل المغرب مناجم المعادن الموجودة قرب سجلماسة للنحاس والذهب .. وراجت صناعة الحرير والقطن في الجديدة على يد الانجليز سنة 1864 كما ازدهرت مصانع الثوب المعروف (باالطلس) .. واعطت هذه السياسة الاقتصادية ثمرتها فأصبح السكر المغربي مطلوبا في اسواق فرنسا وانجلترا واطاليا بالاضافة الى ما يصدره لاوربا والشرق من جلود وزيوت ونحاس ورصاص وكبريت وحديد وملح البارود ، وبذاك أصبح (الدينار المغربي) هو العملة الصعبة في أوربا . ، وأخذ المغرب يقرض الدول الاوربية ، حيث ساعد هولاندا وغيرها بقروض مالية .

ومن هنا استطاع المغرب ان يفرض دبلوماسية هادفة الى استرجاع الاندلس حيث كان يعتبر دولة المواجهة التى فشلت في حرب الاستنزاف في غرناطة والجزيرة ، فعمد الى الوسائل الدبلوماسية التى كانت اسبانيا تستغلها ضد المسلمين أيضا ، اذ ما كادت تسقط غرناطة حتى توجه آخر قضاتها ابن الازرق فسافر الى عدة دول اسلامية يطلب العون والمدد ، كتونس ، والقاهرة ، والحجاز ولكن هذه الدول التى كانت تعيش المنافسة فيها بينها خشيت أن يستغل (العثمانيون) توجه جيشها للمغرب فتحتل اراضيها ... وهي نفس المخاوف التى راودت العثمانيين ، واكتفى المصريون بتعيين القاضي ابن الازرق قاضيا بالقدس وبارسال وفد من المسيحيين ليحادث (البابا) في روما و (ايزابيلا) في اسبانيا .. وعاد الوفد وهو مطمئن على مصير المسلمين باسبانيا .

ويظهر ان اقدم سفارة فرنسية بفاس هي سفارة الكولونيل دوبيرتون في عهد مولاي عبد الله السعدي ، وكانت العلاقة

السفارية قوية بين المغرب واجلترا رغم بعد المسافة واتساع الفوارق ، وكان أول سفير عوادمون الذى ورد على المغرب عام 1577 فى عهد المولى عبد الملك ، واستقبل بالقصر الملكى حيث قدم اوراق اعتماد الملكة وامر السلطان يخرج البرتغاليين والاسبان لاقتباله خارج المدينة ، وذكر فى رحلته انه شاهد العاب الكلاب الانجليزية والثيران وصيد البرك ، ويظهر ان هذه الالعاب لم تعرف الا فى عهد المولى عبد الملك الذى كان له ولوع بالعادات الاوربيــة .

كما ان الوفد الاسبانى الذى ورد على المغرب بتهنئة احمد المنصور غداة معركة وادى المخازن يتركب من ستين شخصا زيادة على السفير ، لابسين حللا مظمعا بالجواهر والذهب يحمل هديته التقليدية ، وفيها ياقوتة بقدر كف اليد علقت بها جوهرة بقــدر جوز قيمتها ثلاث الآف دينار مع زمرة بقدر النفاحة تتدلى منها زمردة اخرى طولها اصبح مع عقد انتظمت فيه اثنتا عشر ياقوتة تخللها ستة وثلاثين جوهرة مع مئة وعشرين اوقية من الجواهر ، وكلف كيوم بيرارغــذاة معركة وادى المخــازن بتهنئة احمــد المنصور والتذكير بروابط الود التى استوثقت بين فرنسا ومولاى عبد الملك والعمل على تحرير الاسرى ، وفتح المراسى المغربية للسفن الفرنسيــة واستيراد ملح البــارود .. كما وجه احمــد المنصور عام 1600 الى اليزابيت ملكة انجلترا وفدا كان الغرض الظاهر منه الابحار فى مركب انجليزى ، الى الاسكندرية لشراء الجواهر ، والغرض الحقيقى هو القيام بمامورية سرية ، مــن اجل تحقيق التحالف الانجليزى المغربى ضــد البلاد المتآمــرة على المغرب .

وسافر الكولونيل .. بيرتون فى عهد مولاى عبد الله السعدى،

وكانت العلاقة السفارية قوية بين المغرب وانجلترا رغم المسافة واتساع الفوارق ، وكان من اهم سفرائها السفير (هوادمون) الذي ورد على المغرب عام 1577 فى عهد المولى عبد الملك واستقبل رسميا بالقصر الملكى ، حيث قدم اوراق اعتماده للملك ، وامـــر السلطان بخروج البرتغاليين والاسبان لاقتباله خارج المدينة ، وذكر فى رحلته انه شاهد العاب الكلاب الانجليزية والثيـــــران وصيد البرك ، ويظهر ان هذه الالعاب لم تعرف لا فى عهد المولى عبد الملك الذى كان له ولوع بالعادات الاوربية .

وكان انتصار السعديـــين فى واد المخازن يؤذن بنشـــــاط دبيلوماسى ، وقد طلبت من السعديين ملكة انجلترا ان يساعدوا انجلترا ضد انتفاضات امريكا .. وكان للمنصور فضل عظيم على الدبلوماسية لاستخدمه للسفرة وعقده لعدة اتفاقيات اقتصادية المعروفة بدبلوماسية (السكر) الذى ازدهر انتاجه فى المغرب .

حتى اذا سقطت غرناطة ، وأصبح المغرب يواجه اروبا على اساس حفظ التوازن للحفاظ على ذاتيته بدا ذلك جليا فى مواجهته لاسبانيا ، فاعترف (بهولانذا) وهى من الـــدول التى اعلنـــت استقلالها عن اسبانيا سنة 1576 ، وأخذت هذه الدولة الجديدة تتقرب الى الملوك السعديين فى المغرب لتحفظ كيانها واستقلالها، وتجعل من المغرب حليفا لها ليصـــد تيارات الغزو السياســـى ليصد تيارات الغزو السياسى والاقتصادى من المسيطرين القدماء عليها .. وقد ظهر عامل قوى فى المغرب أفقد هذا التوازن ، وهو السيطرة التركية على الجزائر ، وتهديدها للحدود المغربية مما جعل من الضرورى اتخاذ حلفاء من المعسكر الاوربى لمواجهـــة أى خطر محتمل ، وهذا ما جعل المنصور السعدى يهادن الدولة الاسبانية وينأى عـــن السياسة التقليدية المتبعة طيلة عصـــر المرابطين والموحدين والمرينين والتى كانت تساند الاندلس وتعزز

مواقفها . دلهذا سالم اوربا ، وولى وجهه الى جنوب المغرب مما جعل كثيرا من الذين لا يعرفون الاتجاهات السياسية فى عصره ينتقدون عليه بعنف سياسته ازاء اسبانيا التى سالما وتربص بها الى حين ... وقد صرح بذلك فى التماسه لسلطان مكة ان يدعو له بالتوفيق لخوض معركة الاســلام .

وفى نفس الوقت لم يكن فى وسع السعديين الا ان يساندوا موقفهم بحليف أوربى من الذين يناوئون اسبانيا وهذا ما جعلهم يتجهون الى هولاندا التى عقدوا معها احلافا تجارية واقتصادية، وقد وجدت هولاندا فى هذه العلاقة ما تؤيد بها موقفا فى اوربا ... فهذه الاحلاف تسمح للهولنديين بدخول سفنهم البحرية الــى الشواطىء المغربية تتظل الامن والاطمئنان فى سواحله كلمــــا روعتها سفن اعدائها ، ثم من الوجهة الاقتصادية تساعدها هذه الاتفاقيات على التبادل التجارى بين البلدين ، حيث تستــورد من المغرب الجلود والزيوت واللوز والسكر والشمع والفواكــه كالبرتقال والتين والعنب فى مقابل تصدير النسيج والمرايا والعتاد الحربى ، والحديد والحرير وقد كان المغاربة فى العصر السعدى مقبلين على انشأ قوة عسكرية برية وبحرية لهذا فقد كانوا فى حاجة الى تجهيز سفنهم وجيوشهم واذا عرفنا ان الصراع الذى استمر بين المغاربة المسلمين والمسيحيين فى الاندلس ، كما استمر بين المسلمين فى الشرق والصليبيين المعتدين عليهم عرفنا مدى الخناق والحصار الذى ضربته البابوية على كثير من البلاد المسلمة حتى لا تستمد العون الاقتصادى وتحقق التبادل لحفظ التوازن بين الصادرات والواردات ، ولكن نهضة الفكر الغربى وخروجه من التعصب الصليبى وظهور المماليك المستقلة على قومية جديدة فتح الباب لخلق صلات بين الدول الاسلامية والدول الاوربية وهذا ما جعل هولاندا تتصل بالمغرب لاقامة علاقة سياسية تضمن

تطورا اقتصاديا فى بلادها على أساس التبادل مع المغرب . وفى اكتوبر سنـــة 1596 كلفت حكومـــة هولاندا احـــد تجارها فى المغرب أن يقدم اوراق اعتماده للملك المنصور الذهبى ، وقـــد سعى هذا السفير ان يحقق تعاونا اقتصاديا ليسمح للهولانديين بامتيازات العمل التجارى فى المغرب ويحدث التاريخ ان السفير الهولاندى قدم للملك المنصور اسيرا من اعيان المغاربة القاطنين بفاس حرروه فى حصارهم لمدينة قادس باسبانيا كعربون على صادق الـــولاء .

وبموت المنصور دخلت البلاد المغربية فى آخر عهد السعديين فى عهد الاضمحلال لاسباب مبسوطة فى التاريخ ، وذلك ان كثيرا من الثائرين طمعوا فى الحكم وتخلوا على خدمة البلاد فقادوها للفتنة والانحلال وانتشرت الاوباء والمجاعة . وظهرت ولايـــات مستقل بعضها عن بعض ، بل يحارب بعضها ، ومنها ولايـــــة شاطـــىء ابـــى رقراق وفعـــلا اخذ هـــؤلاء يقيمون اتصـــالات ديبلوماسية مع هولندا . أما علاقة المغرب مع فرنسا فقد كانت علاقة لها جذور قديمة مع الدول الاسلامية والدول العربيـــــة القديمة ، وأولى هذه العلاقات ما كان بين الخليفة الرشيد العباسى وبين الامبراطور شارلمان من سفارة الود ، وهديه الساعـــــة العجيبة الصنع ، ثم ما كان من هنرى الرابع ملك فرنسا مـــع الاندلسيين يوم الجلاء عن الجزيرة ، فان كثيرا منهم عبر جبال البيرنى ودخل تراب فرنسا ، فقبل الملك نزولهم ، وجاد عـــــلى بعضهم بالمسكن والزراعة وعلى بعض آخر بوسائل السفر الـــى مرسى (غنية) و (مرسى أندوك) ثم ما كان بين دولة السعديين وبينهم من سالف العهود التى جددها الوليد بن زيدان فى عقده وما كان بين ابى عبد الله بـــن محمد العياشى من تجديد العهـــد القديم على يد نائبه ابراهيم بن على العربى الاندلسى بثغر سلا .

من مشاهير نساء فى هذا العصر :

(مسعودة الوزكتية) التـــى اعتنت باصلاح السبـــل وعمارتها فشيدت الخانات بالامكنة الخالية وبنت القناطر ، ووكلت الى نفسها العناية باليتامى والارامل ، وأسست فى مراكـــش مسجد باب دكالة ومدرسة للغرباء ومكتبة للمطالعة ، وجعلـــت جمرتى صومعة مسجد الكتبية من الذهب الخالص . وهى فى العصر السعدى مثل خناثة بنت بكار فى العصر العلوى التى كانت لزوجها وزيرة صدق يستشيرها فى امور الدولة تصدر عنها ظهائر فى بعض الشؤون القبائلية ورقيـــة بنت الحاج ابن العايـــش الاستاذة الكبيرة وصفيعة بنت المختار الشنجيطيـــة ، العالمـــة المشهـــورة .

سمعـــــة المغـــــرب :

كانت معركة وادى المخازن معركة فاصلة كما يقول (هزى طبراس) بين المسيحية والاسلام،حيث حطمت مطامع ملك البرتغال (سبستيان) الذى لم يترك وارثا فخلفه عمه ملك اسبانيا الذى دمج البرتغال فى مملكته وتحرر العالم العربى فى الشرق مـــــن سلطة البرتغال الذين انجلوا عن منطقة البحرين بعد أن احتلوها قرنا كاملا ، وعن الشط العربى سنة 1649 م 1059 هـ ... ورغم محاولات العثمانيين لفك الخليج العربى فى البرتغال فان القدر هيأ معركة وادى المخازن للقضاء على الاستعمار البرتغالى ، تلك المعركة التى عبأ لها البابا المسيحيين عموما لخوضها انتقاما عن حكم العرب للاندلس .

الحضارة الاندلسية وتأثيرها في العصر السعدي

الجاليــة الاندلسيــة :

كانوا يؤثرون ان يسموا بالاندلسيين ، وكــان المؤرخــون العرب يسمونهم بالمهاجرين الاندلسيين ، وأحيانا يلقبون بالغرباء. أما المسيحيون فكانوا يلقبنهــم (بالموريسكــوس) وأحيانـــا (بالمدجنين) وهم الذين كانوا موزعين فى اسبانيا قبل سقــوط غرناطة وضواحيها ، والذين يعيشون فى كنف الممالك الاسبانية منذ عهد المرابطين ، وكانوا أرقى حضارة من المسيحيين .

وكلمة (الموريسكوس) — Mariscos تصغير لكلمة Moros وهو لقب يطلق عــلى جميع المسلمين الذيــن كانوا يحكمــون الاندلس ثم غلبوا على أمرهم فصغر اسمهم تهوينا لهم .

ويرجع أصل هذه الكلمة الى اللغة البربرية (امور) وتعنى المغرب ، ودخلت اللغة اللاتينية فأصبحت كلمة Mauri - Maurus وتعنى سكان المغرب ، حيث كان جنوب المغرب يسمى بموريطانيا، ومنذ القديم أطلق سكان (لبيريا) كلمة (موريطانيا — تنزانيا) على المغرب العربى ثم أصبح الوافدون عايهم من هؤلاء يسمون (بالمورس) مختصرا عن موريطانيا ، وأخيرا أطلقوا هذا الاسم على كل عربى ومسلم ، لان المغرب باب الوافدين على اسبانيا ، ولهذا فتترجم الى عارب أو متعرب .. أما كلمة (الموريسكوس) فتعنى المسلمين والعرب (والمدجنين) الذين ظلوا منتشرين فى اسبانيا والبرتغال قبل سقوط غرناطة ، وأصلها (مــور) وهى بربرية الاصل من (أمور) وتعنى المغرب .

لقد كان أجداد هؤلاء جميعا بناة الحضارة الاسلامية فى أوربا بصفة عامة ... وفى الانداس بصفة خاصة .. وبعد حروب

الاسترجاع المتعصبة أخذت تتداعى العواصم الاسلامية فى الاندلس واحدة بعد أخرى .. وأخيرا فقد المسلمون غرناطة وضواحيها العظيمة ، فسلبوا من الاستقلال الذاتى والحرية السياسية ، ونتج عن ذلك الهوان والاستسلام ، والفقر والضعة، وتحمل شتى أنواع الاضطهاد الاجتماعى ، والاستسلام لطلب لقمة العيش من يد الاعداء المنتصرين .

واذا كان عالمنا المعاصر بما فيه من وسائل الاعلام المتعددة الاتجاهات ، فى كل بلاد ، وبما يتوفر عليه من منظمات سياسية وهيئات متعددة للدفاع عن الانسان وحقوق المواطنين .. اذا كان هذا العالم يرزح تحت نير الظلم والاضطهاد ، ومآسى التجهيز والنفى الجماعى ، فما أحرى ان يكون أولئك المنهزمون من فلول الاندلسيين المسلمين الذين سقطوا تحت وطأة الدونية على يد خصوم متعصبين من رجال الكنيسة وبالاخص من رهبانية (الجزويت) والفرق المتعصبة وبالاخص كذلك من الذين لم يكونوا رجال دين مسيحى بقدر ما كانوا حاقدين متعطشين الى الدماء تحت ستار ديانة الرحمة والمحبة ، والايمان والزهد .. فما أحرى ان يلاقى هؤلاء المسلمون من صنوف القتل والتعذيب والضعة والهوان دون أن يتحرك احد لنجدتهم والتشهير بأعمال أعدائهم ، وكشف النقاب عما يلاقون من عذاب .

لم يكشف المنتصرون من سلب المنهزمين المسلمين أموالهم وديارهم ومتاعهم وتوزيعهم فى البلاد وحرق كتبهم ووثائقهم ، ومن أمر بتغيير زيهم وعاداتهم ، ومحو تراثهم وتعطيل أعرافهم .. بل أمروهم ان يتخلوا عن معتقداتهم التى كافحوا من أجلها قرونا بل لم يكتفوا بذلك ، فأمروهم باعتناق المسيحية اذ بدت مصلحة فى تعميدهم ثم اتهامهم بالصبوة الى دينهم ليعملوا خدما فى حقولهم .. وأخيرا شق على هؤلاء المنتصرين ان ينظروا الى هؤلاء

المنتصرين ان ينظروا الى هؤلاء الذين يحمل وجودهم تاريخا عظيما ، فشردوهم فى البلاد ، وقطعوهم فى الارض أمما ، وقدموا بهم الى البحر ليلاقوا من قرصنتهم ما بقى عليهم ان يلاقوا من المحن بعد ان سلبوهم ما لهم من مال ومتاع ، وقدرة صحة على مواجهة الخطوب .

وما تزال الحفريات الاسبانية تطالعنا من حين لآخر عن كشوف المقابر الجماعية لهؤلاء المعذبين فى الارض .. وقد نقلت الينا Le Matin de Paris فى شهر يوليوز آخر هذه الكشوف .

لقد سلطت الكنيسة محاكم التفتيش أو ديوان التحقيق الذى أعطى صفة القداسة وتأييد العرش الكاتوليكى على هؤلاء، فعذبتهم سرا وعلانية بما أغذقه الخيال المسيحى على محترفى المسيحية .. فكانت أعظم مأساة عاشها (الانسان المسلم) فى بلاد لم يقدم لها الا ثمرة حضارة انسانية سامية .

وتبدأ مأساة الموريسكوس ، عندما سقطت غرناطة فى يد ايزابيلا وفرديناند ، حيث شعر الشعب المسلم ببداية المأساة رغم الوعود الكاذبة باحترامهم ، وأخذ كثير من المسلمين يغادرون بلادهم الى المغرب كلما تنكر لهف الدهر ، كما وقع يوم ثورة (الربض) على الحكم الاموى .. ووصف لنا مؤلف (أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر) المؤلف سنة 947 هـ — 1540 م هجرة الاندلسيين بعد سقوط غرناطة حيث كانوا يتركون ديارهم الى بلاد المغرب فى (جماعات) تستقر كل واحدة منها بمدينة من المدن المغربية ، بعد أن يبيعوا ما خف من المتاع بأبخس الاثمان ، فيؤثرون السكن فى المغرب (بالمدن) الصغرى أو (القرى) وأحيانا المدن المهجورة حتى يستطيعوا ان يكونوا مجتمعا ملائما لحياتهم .. فسكان مالقة اختاروا مدينة (باديس) ، وأهل مرية

مدينة تلمسان ، وأهل الجزيرة مدينة طنجة ، وأهل بلش مدينة (سلا) ، وأهل طريف مدينة آسفى وأزمور .. واستأذن المنظرى فى تعمير مدينة (مرتيل) وبناء مدينة (تطوان) .

ان هجرة هؤلاء جميعا بعد سقوط غرناطة دليل على شعورهم بما سيلاقون على يد (الكنيسة) المتلهفة الى السفك والتعذيب والايقاع بالمسلمين وسلب ثروتهم ، واستغلال مقدرتهم وعملهم ثم تشريدهم ونفيهم .

لقد كانت الفترة الاولى من سقوط (غرناطة) ، فترة اعتدال سياسى أراد بها (فرديناند وايزابيلا) أن يهضما الى حين (الانتصار الكبير) لينقضا على الفريسة بكل قواهما .. كما كانت فترة اندماج بعض عناصر البرجوازية الغرناطية التى اختارت اعتناق المسيحية والتخلى عن المسلمين ، وهى جماعة من الامراء والوزراء والمترفين .. الذين تنكروا للشعب الغرناطى المسلم وأخلصوا بعد ذلك للمسيحية والعرش الاسبانى ..

وبعد هذه المرحلة أصبح من السهل أن تدمر (معاهدة السلام) التى أعلناها (فرديناند) و (ايزابيلا) قبل تسليم غرناطة والتى يلتزمان فيها بتأمين المسلمين على أنفسهم وأمتعتهم واحترام دينهم وشعائرهم .. فقد كانت مجرد عهود كاذبة .. المسيحية عن مقاومتهم وتفريق كلمتهم ، حتى اذا اطمأن الى وخداع ليستسلم المسلمون بعد ان عجزت السلطة ضعفهم سلط عليهم الكردينال خمنيس بتنظيم الارهاب (العقائدى والدينى) وقتل (النخبة) ، واحراق الكتب والخزائن ، وتدمير الجماعة الاسلامية بالنفى والتهجير والتعذيب .. بعد استنزاف طاقاتها وقدراتها الفكرية والمالية والادبية .

لقد أدان المؤرخون المسيحيون أنفسهم أعمال (خمنيس)

الاجرامية .. ولكنها ادانة (لفظية) فقط ، فما يزال خمنيس يعتبر فى تاريخ رجال الكنيسة الاسبانية من الآباء الروحيين ، وهو الذى حاكم (الكتب) الاسلامية كما حاكم المسامين ، واحرقها كما أحرقهم ، وأباد أمجاد ثقافة انسانية ليحل مكانها الاسترقاق والظلم ، والاغتصاب والجهالة والانحراف .

وهكذا ظهر (الموريسكوس) كشعب مسلم يقاوم فى السر والعلن مظاهر الابادة الفردية والجماعية فى اصرار لا مثيل له . فلجأت الكنيسة والعرش الاسبانى الى الاغراء وذلك بالابراء من القيود المفروضة على الموريسكوس على كل من تنصر ، تلك القيود التى تعنى (ضريبة الرأس) و (الغرامة) المفروضة على كل الموريسكوس .. ومضايقتهم جميعا بالدخول على منازلهم فى كل وقت وحين ، وعدم الاعتراف بعقودهم المحررة باللغة العربية ، وفرض الخدمة عليهم وعدم السماح بتنقلهم ، ومنعهم من حمل السلاح ، واقامتهم بحى خاص بهم . وفعلا تنصر سكان حى الموريريا Moreria فى غرناطة وبسطة وأهل وادى الكرين ، عساهم ينجون من العذاب . ورغم هذه (المؤامرة) الهادفة الى الى ابادة الشعب المسلم .. فقد ظل (الموريسكوس) صامدين فى وجه الكنيسة والحكم الاسبانى .. فقرر ملك اسبانيا سنة 904 هـ اجبار التنصير ..

ولجأ (الموريسكوس) الى مذهب (التقية) الشيعى ، فتظاهروا بالمسيحية واستبطنوا الاسلام ، وكان العالم الاسلامى فى صبب الانحدار فلم يستطع استنهاض الهمم لمقاومة (التنصير) ولم يزد الكتاب والحكام من ترديد الآهات على ديار الاسلام !!!

وأعلن ملك المسيحيين فى اسبانيا ان (الاسلام بها) ولهذا

فقد كان مبدأ (التنصير) يخفى أعظم جريمة عرفها التاريخ ، وهى جريمة ابادة شعب والقضاء على حضارة انقذت أوربا من التخلف الفكرى والدينى والثقافة البدائية وعصر السحر والكهانة .. ولذلك فقد حرر (ديسا) المحقـق العام تشريعا لحرب الابادة وسمـاه (محكمة التفتيش) أو (ديوان التحقيق أو التفتيش) يضم لجنة ملكية للتحقيق ، كما هو الشأن فى (قرطبة) .. وكانت (محكمـة التفتيش) تعنى الظلم والافتيات والتآمر ، والاهانة واغتصاب النبلاء والجيش وحتى الرهبان لاعراض المسلمات .. كما كانـت وسيلة لاستعباد النـاس وعملهم بدون مقابـل الا بالاحتقـار والاهانـة ..

ووجد (الموريسكوس) أنفسهم أمام مؤامرة جديدة فقرروا (الثورة) الداخلية .. و (الاستعانة) بتدخل الدول الاسلاميـة ومؤازرتها ومساعدتها من جهة الشواطىء الاسبانية .

فقد لجأ القاضى ابـن الازرق الـى تونس ومصر لطلـب المعونة من قبل ، ولكن الخلافات بين رؤساء الدول الاسلامية فى مصر وتونس ، والخلافة العثمانية حال بين التدخل الفعلى ، ولم يزد الخليفة العثمانى عن ارسال وفد يطلب من السلطة المسيحية المتغطرسة بحق الرعاية فكان الـرد ببعث وفد لتطمـين الملـوك المسلمين على مصـير (الموريسكوس) المنكوبين ! .

وركب (!! الموريسكوس) الطريق الصعب ، واعلنوا الثورة التى ذكرت (المسيحيين) بأمجاد المسلمين الحربية .. فأخمـدت الثورة باعلان العفو عن الثوار شرط اعتناق المسيحية فى ظـرف ثلاثة أشهر ، أو مغادرة اسبانيا متنازلين عن أملاكهم .

وبعد ذلك مارست محاكم التحقيق أبشع صنوف الارهاب والتزوير وتلفيق الحجج وانتزاع الاعترافات بالخديعة والمكر ،

وقبول شهادة الاطفال والعبيد والنساء وأعداء المتهم اذا كانت عليه علامة بل حتى (الاعترافات) التى يدلى بها المضطهدون سرا (للرهبان) تعتبر تهمة يحقق فى شأنها . ومنذ سنة 1242 م ومحاكم التفتيش تطارد المسلمين الاندلسيين ..

و (ديوان التحقيق) يهدف الى سحق (الموريسكوس) حيث يعمل بشرعية تامة وموافقة (البابا) الذى أصدر منشورا باقراره سنة 1478 م ، وتابعت الكنيسة الاسبانية تنظيم مجلسه وتنظيم وظيفة المحقق العام .

والعجيب ان (ديوان التحقيق) أصبح أعظم جهاز فى اسبانيا المسيحية ، حيث مزج فكرة القومية بالدين المسيحى ، ووجه السياسة الاسبانية ، وملا (الخزانة بالاموال المسلوبة ..

ولقد تعودت الكنيسة الرومانية أن تحول الاضطهاد العسكرى الرومانى المألوف الى (اضطهاد فكرى) بدعوى المحافظة على صفاء العقيدة ..

واستعملت لذلك كل أساليب الارهاب والتعذيب كما كان فى عصر الوثنية الرومانية تماما ، ثم تكونت محاكم للتفتيش توالى الاشراف عليها الآباء الدومنيكيون والفرنسيسكانيون الذين حولوا الاديرة الى سجون للتعذيب والارهاب حتى يقيدون المتهمين (بالاغلال) الثقيلة فى بيوت مظلمة عفنة ، وأحيانا يبنون على (المتهمين) أسوار حجرية ليلاقوا (المصير) فى عذاب الاختناق والجوع والعطش ..

واستفادت الكنيسة من مصادرة الاموال ، ثروة طائلة ، كما استكانت الى الخزعبلات من مقاومة رجال الفكر الاحرار الذين كانوا يلاقون العذاب باسم المروق عن الدين ، وأصبح منصب (المحقق العام) أعظم منصب دينى وسياسى ، متوفر

على قوة مالية عظيمة مشرعة من الشعب المسلم مع اغتصاب أعراض النساء وسلب الاموال ، والتهديد .

كما أصبح (ديوان التحقيق) يصدر أحكامه بالقتل والحرق دون مبرر أو تشريع الا بأبسط التهم ، وكان توماس (دى تركيمادا) المتوفى سنة 1498 م أكبر قس تولى كبر الظلم والاضطهاد ، بوسائل التعذيب المعروفة فى القرون الوسطى ، كتمزيق الارجل ، وكسر الفك ، وسحق العظام ، وسيل العينين .. ثم يتم الحكم بالحرق الجماعى فى الغالب فى حفلات كبرى حيث يسير الضحايا فى موكب الاوتودافى Auto-Dafe يتلى الشعب ورجال الكنيسة (بالحرق الجماعى) .

ورغم جهود ديوان التفتيش لتنصير المسلمين ، فقد ظل هؤلاء مخلصين سرا للاسلام ، يظهرون عندما يعبدون فى الكنيسة، ولا يعرفون للرهبان بأسرارهم . ولذلك صدرت وثيقة تدين المتنصرين وتحاكمهم من جديد بدعوى الصبوة الى دينهم القديم ، اذ اتهموا انهم قالوا بأن المسيح ليس الاها ، وانما هو رسول ، أو اذا تنظف أو أكل اللحم يوم الجمعة ، أو رفض أكل الذبائح المسيحية ، أو ختن أولاده ، أو أنشد أغانى عربية ، أو أقام حفل رقص عربية ، أو غسل الموتى ، أو كفنها .

والواقع ان المتنصرين لم يستسيغوا الديانة المسيحية وقد عبر عن هذا الاغراب الشاعر الموريسكى خوان الفونسو حين قال :

أيها الغراب الاسبانى الملعون
يا ناشر الوباء ، أيها السجان البغيض
ها أنت واقف برؤوسك الثلاثة
على أبواب الجحيم ..

وقد أمر المعذبون ان يتعلموا اللغة الاسبانية القشتالية ، ويعرفون (بالخميادو) أب المستعجمين ، وسمى أدبهم Al Aljamia (بالعجمية) .

وقبل طرد المسلمين بأكثر من ثلاثين سنة ، أمر أسقف غرناطة ان يازم أبناء المسلمين ابتداء من الخامسة من عمرهم الى سن الخامسة عشرة بتعلم الاسبانية وتلقى تعاليم المسيحية ..

لقد عانى (المتنصرون) من صنوف الغدر والتعذيب ما يشيب لهوله الصبيان ، وكان فرديناند هو الذى يتولى كبر سحق الشعب المسلم فى اسبانيا ، وممالاة محاكم التفتيش على أعمالها .. وكفى ان يكون نموذج السياسة الميكافيلية فيمجده ميكيافيل نفسه فى كتابه (الامير) ويتخذه مثالا يحتذى .. فلما توفى سنة 516هـ م وجد (المسامون) الفرصة سواء من العمال أو المزارعين فى الحقول ، للعودة الى تيه (الاطمئنان) فقدموا (لشارلكان) ملتمسا للتخفيف عنهم وعدم الاعتراف (بالتنصير) بالاكراه ... فكان الجواب بعودة الكنيسة الى الاضطهاد من جديد، وكانت الثورة فى ضاحية بانسية التى أخمدت بقوة النار والحديد .

والغريب ان النبلاء والاقطاعيين فى ولاية (الاراجون) تدخلوا لئلا ينتصر المسلمون فى هذه الولاية ابقاء على المزارعين والصناع خدما لا يرقون الى درجة (المسيحية) . ولم تلب الكنيسة مطلبهم الانتهازى أمعانا فى سحق الاسلام فى الاندلس ! .. بل حرم عاى (الموريسكوس استعمال لغتهم ولباس زيهم القومى ، والاستجماع وفتح منازلهم أيام الجمع وألا يتسموا بأسماء عربية .

ورغم ان (شارلكان) واعد المنتصرين (بالمساواة) مع المسيحيين ، فان هذا الوعد لم يتحقق قط ، بل ظلوا يكونون طبقة

مضطهدة مستغلة ، بل حرمت الهجرة الى ديار الاسلام لحاجة المسيحيين لليد العاملــة .

ولم تنفع (التقية) الدينية الــتى آمن بها علماء العــرب الغرباء المؤمنون من ملاحقة محاكم التفتيش ، ولم تمنع مــن التنصير الجماعى والفردى ومن المطاردة والمحنــة .

وكانت (التقية) توجيه دينى سنى للحفاظ على الايمان بالقلب وتاويل القول والتستر فى العبادة وتنايمات التشريــع الاسلامى ، فى العبادة والمعاملات والاحوال الشخصية . كما كان (التنصير) يهدف الى تحقيق مرحلة تغريب العقيدة واللغة والعادات ثم اذابــة المسلمين كطبقــة مستضعفة فى الكيــان الاسبانــى .

ولما عجزت (محاكم التفتيش) عــن محو هذا الشعــب وابنائه وتفويــت حضارته وغســل دماغه وتعطيل شريعتــه ، استصدرت من السلطة قانون تحريم اللغة العربية والثيـــاب العربية والثياب العربية بصفة صارمة قاسية وذلك سنة 1566 م .. وأعطى (للموريسكوس) ثلاثة أعوام لتعلم القشتالية ، ثــم تمنع كتابة العربية بعد ذلك فى العقود والالتزامات والرسائل .. ويحظر على المرأة الحجاب والزى الاسلامى .

وحاول (الموريسكوس) ان يستنجدوا بالمغرب الذى كان يعانى أزمة سياسية حادة بعد سقوط دولة بنى مرين ، كمــا حاولوا الاتصال بالاتراك ، وامراء تونس وحكام القاهرة .

وكان المغرب مضطربا سياسيا واجتماعيا . بعد انحــلال دولة بنى مرين وبالاخص عندما تكونت امارة بن عبد الواد فى (تلمسان) وبعد استيلاء العثمانيين على الجزائر .

فلما جاء السعديون ، عزم المنصور على تحرير الاندلس الاندلس بالتعاون التام مع الاندلسيين .. ولكن (المنصور) لم يعمر طويلا ، فدخلت الدولة السعدية بعده مرحلة الانهيار .

وجاء (العلويون) ليجدوا كثيرا من المدن الشاطئية سقطت فى يد الاسبان ، والبرتغال ، فلم يستطيعوا الا مؤازرة الاندلسيين فى الجهاد البحـــرى . وسعوا الـــى استيراد الكتب الاسلاميـــة التى سلمت من الحرق . فأرسل المولى اسماعيل رسالة الى دون كارلوس الثانى (كما فى الاتحاف ج 2 ــ ص 63) ليبعث اليـــه بالكتب الاندلسية الموجودة فى غرناطة وقرطبة وغيرهما فى مقابل تحرير مائة أسير اسبانى .

كما توجه الى اسبانيا السفير المغربى الوزير الغسانـــى ، 5ففك الاسرى المسلمين ، وحمل كثيرا من الكتب الاندلسية .. كما فى كتابه (رحلة الوزير فى افتكاك الاسير) ، وكان !الاسرى فى الغالب من (الموريسكوس) المأسورين فى الجهاد البحرى .

ووجه المولى محمد بن عبد الله رسالة الى (كارلوس الثالث) لفك الاسرى المسلمين ..

وتحدث محمد بن عثمان المكناسى فى كتابه (الاكســـير فى فك الاسير) فى القرن الثانى عشر الهجرى عن ذلك ، وهكذا لـــم لم يبذل المغاربة جهدا فى مساعدة (الموريسكوس) نظرا للوضع الحرج الذى كان يعانيه (العالم الاسلامى) بعد خروج أوربا من (العصر الوسيط) ومحاولتها لاستعمار البلاد الافريقية والسيطرة عـــلى البحـــار .

وكان وضع العثمانيين فى عهد السلطان أحمد الاول (1603 ــ 1617) حرجا ، بسبب هزائمه البحرية فى حروبه مع النمسا ومع فارس .. كما كانت الدولة تعانى ثورات فى عدد من الولايات

العربية والاوربيــة .. سيما وقد ظهرت قوة بحريــة اسبانيــة وكرنسية وانجليزية فكان على الدولة العثمانية تعمــم علاقات طيبة مع هذه الدول حفاظا على مركزها وموقعها الدقيق وعندما قررت أسبانيــا تصفية (الموريسكــوس) باشراف (الــدوك دولرم — Duc De Lerme) و (الكونت سالازار Conte De Salzare

ارتاعت دولة العثمان التى كان يكاتبها الموريسكــــوس والوسطاء مثل (جارونيموانرفاز Jeronimœnriguez .. ولا شك ان الدولة تدخلت سريا لنقلهم بالاساطيل والسفن البحريــــة بدليل هجرة بعضهم الى الدول العثمانية ووجود حى خاص بهم باسطمبول ، والمعروي ان السلطان أحمد الاول بعث بالامــــير ال خليل باشا فى مهمة الى المغرب فوصل اليه بتاريخ 2 سبتمبر سنة 1613 كما ورد فى كتاب :

(Chntal de la Veronne « Relation entre le Maroc et la Turquie dans la seconde moitié de «6è siècle et le dóbut de 17è siècle » en Revue de Loudent Musulman de la Méditerranée N° 15-16 Aix en Provence, 2è semestre 1973, P. 398).

ولا شك انها كانت فى موضوع محنة (الموريسكوس) لان الاتصالات السرية كانت مكثفة بين العثمانيين والموريسكوس .

كما سعى السلطــان أحمد الاول لدى بريطانيا وفرنســا والبندقية لتساعدهم وتسهل لهم الهجرة الى الدولة العثمانية .

وكلــف السلطان (ابراهيــم انما) بالتوجه الى لنـــدن ، ومقابلة الملك جاك الاول لمساعدة (الموريسكوس) على الانتقال الى أراضى الدولة العثمانية ، ولكن ملك انجلترا نظرا لمعاهــدة السلم بينه وبين اسبانيا ، وخوفا من اثارة غضب الكنيسة ، لم يستجب رغبته . وأرسل كذلك الى ملكة فرنسا مارى دى ميدسيس Marie de Medecis الوصية على ابنها لويس الثالــث عشر ،

رسالة بطلب مساعدة الموريسكوس المقيمين بجنوب فرنسا وتوفير وسائل نقلهم الى أراضى الدولة العثمانية فلبت الدعوة .

كما راسل دوق البندقية فى مساعدة (الموريسكـــوس) ، اجتياز الهجرة الى الاراضى العثمانية عـــن طريق بلاد مــــع مساعدتهم وعدم التعرض لاحوالهم وذويهم . كل ذلك فى مقابل مصالحة البندقية وتمديد المعاهدة معها .

ولا شـــك ان الاتصـــال كـــان جاريا باستمـــرار بـــين (الموريسكوس) و (الدولة العثمانية) بدليل وجود وثيقة محررة بتاريخ جمادى الاولى سنة 1023 تؤكد ان رغبة الموريسكوس فى سبب الهجرة الى الدولة العثمانية برا لا بحرا ، نظـــرا لان لان (لصوص البحر) يعترضون طريقهم .

وقد أثار الفقهـــاء فى المغرب جدلا عـــن جواز هجـــرة الموريسكوس الى بلاد الاسلام أو المدجنين ، كما كان المغاربة يسمونهم . وألف الونشريسى كتابه (اسنى المتاجر فى بيان أحكام من غلبه على وطنه النصارى ولم يهاجر ، وما يترتب على ذلك من العقوبات والزواجر) .

ومـــن رأى الونشريسى ان الهجرة مـــن أرض الكفر الى أرض الاسلام فريضة الى القيامة ، وكان بعض العلماء يفتى بعدم الهجرة ووجوب المقاومة .

وقد آثر الموريسكوس الاخذ بحديث (ان لا هجرة بعـــد الفتح) فقد بقى (الموريسكوس) فى الاندلس صامدين ينتظرون الفرصة المناسبة لاعلان الثورة بقيادة فرج بن فرج ، لتكون آخر مقاومـــة ..

وعمت الثورة انحاء الاندلس ، تحت قيادة (الدون فرناندو) ، وتمركزت بالبشرات (الارض الوعرة) المليئة بالقرى الموريسكوسية ، وهو من سلالة بنى أمية حيث توج سنة 1568 ، تحت اسم محمد بن أمية ، وانتخب ابن فرج وزيرا وابن جوهر قائدا عاما للجيش ، وفشلت الثورة للمقاومة الوحشية التى لقيها الثائرون حيث مثل بأبطالها فنزع لحمهم عن عظامهم أحياء ، وذبح الاسرى والسجناء ، ذبحا (جماعيا) وشردت الاسر بتفريق الآباء عن أبنائهم ، والامهات عن بناتهم فى البلاد الاسبانية ..

وبعد قتل محمد بن أمية خلفه ابن عمه مولاى عبد الله ، فعين فليب الثانى (الدون خوان) لسحق ثورة الموريسكوس . فاستسلم مولاى عبد الله سنة 1570 م ثم عاد للمقاومة اليائسة، والتحريق والدمار والتشريد ومصادرة ما يملكون ، وتوزيعهم على البلاد الاسبانية كلها :: وقتل قائد الثورة على يد بعض الخونة وحمله الى غرناطة لاعدامه (وهو المقتول) بصفة رسمية .

فسحقت (الثورة) ولكن الثقافة الاسلامية ظلت تتأجج فى عقل الشعب المسلم المغلوب على أمره ، فعبروا عن هذه الثقافة بأدب (الخميادو) أى باللغة القشتالية المكتوبة بالحروف العربية.

وتول (الموريسكوس) الى شعب يعمل باستمرار فى ميدان الاقتصاد والتجارة والفلاحة ، وظلوا متماسكين يحيرون السلطة الاسبانية بذكائهم ودأبهم وتكاثرهم ، بل كانت لهم حملات سرية ، فاتهمتهم السلطة (بتزوير العملة) وتخريب الاقتصاد الاسبانى .

ولم يمت هذا الشعب فى (اسبانيا) نفسها ، بل ظل متمايزا بشخصيته وثقافته ، يمارس دينه فى سرية وتكتم ويؤلف فى مختلف فروع المعرفة ، وكانت الثقافة (الالخامية) Aljamia ذات طابع

عريق ، وظهر أدبهم (الرومانى) كأروع أدب اسبانى ، وظلوا يكونون (جماعة) ذات اتجاه سياسى مشبع بروح الثـــورة والحريـــة .

بل ألف الموريسكوس (بالاخمادو) (رحلات حجازيـــة) مما يدل على أن بعضهم كان يحج (سرا) الى الديار المقدسة . ومما نعرف من هذه الرحلات ، رحلة (حاج بوى منتون) التى قام بها صاحبها من بلده الى بلنسية فتونس فمصر مع وصـــف لمكة والمدينـــة .

كما كتبوا قصصا فروسية كحكاية المقداد . وقصة مدينة النحاس والقماقـــم ، وقصـــص الصالحـــين ، وقصة يوســـف وزليخا ، ، وقصة ذو القرنين .

ونشر (الموريسكوس) زجلهـــم الغنائى فى الاندلـــــس وابطاليا وانجلترا وفرنسا ، وكان خوان رويت الموريسكـــــى Juan-Ruiz نائب الاسقف بناحية هينا من المع الكتاب فى هذه الموضوعـــــات ، ومـــــن أمثلة ذلـــك الرسالـــة التى وجههـــا (تروتاكونفيينتوش) الى المرأة المغربية ، ومن الالحان والاشعار التى وضعها للراقصات الموريسكيات ، ومن أشهر انتاجه قصيدة (القديسة مارية) .

ومن أشهر الاغانـــى الموريسكيات ذات التأثـــير فى الادب الاسبانى أغنية العربيات الثلاث :

عشقت ثلاث فتيات عربيات فى جيان
عائشـــــة وفاطمـــة ومريـــــم
ثلاث عربيـــات بالغات الجمـــال
ذهبـــــن يجمعـــن الزيتـــــون

فوجدتـــه قـــد جمـــع فى جيـــان
قلت لهن من أنتن ايتهـــا الفتيـــات
عائشـــة وفاطمـــة ومريـــم

وفى ديوان (كالدرن) أنشودة باكية يقول فيها :
فيهـــــا :

على الرغـــم مـــن الاســـر التعـــس
الذى أراده الله لنا بتقدير خفى عـــادل
فاننا نبكـــى عزلـــة الدولـــة الافريقية

وظل الموريسكوس على اتصال مستمر بالمسلمين فى افريقيا كما كانوا على اتصال مع هنرى الرابع ملك فرنسا ، وأنشـــأوا سفنا جهاديـــة خارج الأندلس لتهاجم المملكة المسيحية الاسبانية، واعانتهم السفن التركية والمغربية على الانتقام المسيحى ، وحمل الموريسكوس الى ديار الاسلام .

وظهرت حركة التحرير فى البحر بقيادة زعماء الموريسكوس، مثل بلانكو وأحمد أبو على وغيرهم كثير .

وأصبح (الجهاد البحرى) ميدانا خصبا يفتح باب الآمال .. وحاول (الموريسكوس) أن يساعدوا المولى زيدان السعدى لغزو الاندلس بعد ان ارتكب اخوة الشيخ المامون خطأ طلب مساعدة فليب الثالث للحملة على أخيه زيدان مقابل تسليمه العرائش ، (كما وقع فى معركة وادى المخازن) .

وفى نفس الوقت عجزت (محاكم التفتيش) عن قتل هذا النفس العظيم ، فقر رأى السلطة المسيحية فى اسبانيا ان يتخلصوا من الموريسكوس ، الا باغراقهم جميعا فى البحر أو حرقهم جميعا أو أخذهم للعمل فى السفن ومناجم الهند .

وتمت اصدر مجلس الدولة الاسبانية سنة 1609 م أمرا بنفى الموريسكوس جميعا من بلاد اسبانيا الى افريقيا وأوربا مع استنقاء ستة فى المائة للعمل فى حقول الارز والسكر وتنظيم الرى وصون المنازل ، وهكذا أخذ (الموريسكوس) يشدون أمتعتهم وتحملهم السفن الى بلاد افريقيا وجزر الخالدات كما تحمل السفن اليوم الفتناميين الضائعين فى البحر الهادى تتقادفهم الامواج ليلاقى من نجا منهم الى المراسى الامر بالعودة للموت فى أعماق البحار .

وكان معظمهم يسير فى قوافل للشواطىء ليهاجروا الى المغرب ، حتى تهاجمهم العصابات ، لتفتك بالاعراض وتقتل الصبيان وتبيع الفتيات والفتيان فى سوق النخاسة .

استقبلتهم اوربا فى عهد هنرى الرابع الذى سمح لهم بالاقامة وراء نهر الجارون . واستقبلت الثغور الايطالية بعضا منهم ، وكانوا يلاقون الاضطهاد من المسيحيين اينما حلوا وأين ارتحلوا ..

بل ان جماعات منهم نزلت فى وهران فاعتدى عليها الاعراب بالساب والنهب .

وتجاوز عددهم ثلاثة ملايين حسب بعض الروايات أو تجاوز (المليون) ولكنهم ظلوا يمثلون شعبا عريقا يستحيل تدميره .. وانتشروا فى العالم كله ، فقد حملتهم السفن (بأسماء) اسبانية مسيحية الى أمريكا الجنوبية ، والى جزر الهند الشرقية ، والى جنوب افريقيا .. وكانوا يعيشون (أمراء) البحر الاسبانى بتقارير ضافية وخرائط بحرية علمية ، فاكتشفت اسبانيا العالم الجديد ، بفضل تقاريرهم ومغامرتهم .. ونسبت تلك الكشوف الى أمراء البحر المشهورين .

ان مسلمى (الفلبين) من هؤلاء وجزيرة (المور) تحمل اسمهم وتؤكد شخصيتهم بوضوح ... كما ان عديدا منهم بالارجنتين والبرازيل وغيرهما من بلاد أمريكا الجنوبية .

ونزح بعضهم الى (أمريكا الجنوبية) ، بعد اكتشافها أوائل القرن السادس عشر سنة 1516 م ، وبالاخص فى الارجنتين ، وقد كان هؤلاء هم المخططين لهذه الاكتشافات للبحث عن عالم جديد يأويهم بعد ان ضاقت بهم الحياة فى اسبانيا أو بعد ان رفضوا الدخول بقلوبهم الى المسيحية ، فوجدوا فى هذا العالم متنفسا لعقيدتهم وكان منهم نفر من بنى رزين حكام شرق الاندلس . وقد تابعت الكنيسة هؤلاء وضيقت عليهم الخناق وذوبتهم فى هذه المجتمعات الثابتة ، وما تزال (الارجنتين) تأوى التقاليد الاسلامية العربية ذات الطابع الاندلسى الى يومنا هذا .

ولست أدرى كيف غفل المؤرخون ان يربطوا بين نفى الاندلسيين ، وهزيمة المسيحية فى معركة وادى المخازن على أرض المغرب فمعركة وادى المخازن كانت معركة فاصلة بين المسيحية والاسلام وكان مشروع السعديين هو العودة الى الاندلس .. وخشيت اسبانيا من التعاون بين الاندلسيين فى الداخل والمغاربة وتوقعت الهجوم من الخارج بمؤازرة الداخل ، فانتظرت قليلا لتتلخص نهائيا من المسلمين .

وتأخرت (اسبانيا) بعد نفى (الموريسكوس) من أرضها، ويقول (ريشليو) الذى عاصر مأساة نفى الموريسكوس : « ان مأساتهم أشد ما سجلت صحف الانسانية جرأة والبربرية مما عرفه التاريخ فى أى عصر سابق » .

ويقول الدكتور لى : « ان تاريخ الموريسكوس لا يتضمن

فقط مأساة تثير أبلغ عطف ، ولكنه أيضا خلاصة لجميع الاخطاء والاهواء التى أعدت لتتحدر باسبانيا فى زهاء قرن من عظمتها أيام شارل الخامس الى ذلتها فى عصر كارلوس الثانى » .

والحق ان (اسبانيا) باتفاق المؤرخين عانت أعنف الازمات بعد نفى الموريسكوس . حتى ليقول المثل الاسبانى (حيث لا عرب لا فائدة) .

لقد ظلت (الحضارة الاسبانية تسير فى نفس الحضارة الاندلسية التى ذبلت بعد نفى (الموريسكوس) وتأخرت الفلاحة والصناعة وضعفت التجارة ، وقلت الموارد المالية وبقيت ملامح الثقافة الاسلامية باهتة متحولة الى ثقافة (فلكلورية) وصفها السفير الغسانى (سنة 1691 م) ، عوائد الاندلسيين المسيحيين التى ما تزال به مسحة اسلامية كالذبح يوم عاشر ذى الحجة ، وتحجب النساء وغير ذلك ، كما ذكر شكيب أرسلان فى حاضر العالم الاسلامى ، كثيرا من هذه الحالات بل ظلت بعض القرى الى القرن التاسع عشر تتكلم باللغة العربية .

ولا يمكن ان نقدر عدد المسلمين الاندلسيين تحت حكم اسبانيا ، فاذا كان عدد المسلمين فى عهد بنى أمية يقدر بين عشرين وخمسة عشر مليونا ، حسب الاحصاءات العصرية المعتمدة على عدد المدن والاستهلاك المحلى للسكان ، فان تقديرات السلطة الاسبانية لعدد المسلمين فى الاندلس بعد احتلال غرناطة لا تخلو من تقليل عددى لشأنهم تهوينا لامرهم ومكانتهم .

ويذكر مؤلف خلاصة تاريخ العرب ان عدد المسلمين المطرودين من اسبانيا بعد فتح غرناطة ثلاثة ملايين نسمة .

بعد وفاة احمد المنصور السعدى ، وفد على المغرب أمواج عظيمة من اللاجئين الاندلسيين ، وحظيت تطوان والرباط وسلا

بعناصر نشيطة منهم ، وقد ساهموا فى كثير من الاعمال البحرية ، كمـا شارك الموريسكـوس بحظ وافر فى الميدان الاقتصـادى والتجارى ، وبالاخص فى المغرب وتونس .. وبلغ عدد ما استقبل المغرب منهم حوالى 60 الى 80 ألفا منهم سنة 018ف — 1609 م حيث انبثوا فى أجزاء كثيرة من البلاد التونسية كسهل مجـردة وكرمبالية والسلوكة وناحية تونس وغيرها ، فعبأوا الطـرق وزرعـوا البساتين ، وأحدثـوا عدة زرعـات وصناعـات كما فى J. Pignon, Initiation a la Tunisie p. 103 وكذلـك عملـوا سواء بالمغرب أو تونس على تنشيط التجار مع الدول ، عن طريق البواخر التجارية ، غير أن نشاط حركة الجهاد البحرى كان أكثر أهمية بالنسبة لاى قطر .

ولم ينطفىء (الاسلام) ولا خمدت ثقافته فى قلـوب (الموريسكوس) بل ظلـوا يتسترون باسلامهم ، يصلـون فى الكنيسة ، ويقرأون سرا سورة (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) ويستظهرون فى بيوتهم ويقتلون بعد خروجهم مـن الكنيسة .. ويؤلفون كتبا مبسطة فى القصة والتوحيد والتفسير والسيرة النبوية والقصص القرآنية . وجاءت تفاصيل ذلك فى عدة مصادر (تاريخ الموريسكوس) مع تثبيت المعاجم والتآليف (أنظر تاريخ الفكر الموريسكوس) ، بلاسوس) .

وبعد سقوط الملكية الاسبانية المتحالة مع الكنيسة ، واعلان الجمهورية انتشرت الحرية الى حد ما ، وجهر كثير من الاندلسيين بأصلهم العربى وطالبوا بأرضهم وممتلكاتهم التى انتزعتهـا الكنيسة غصبا وظل العرب فيها مزارعين فى نظام اقطاعـى متعصب ، واستجابت الحكومة لطلبهم بل طالبوا بالاستقـلال الذاتى .. بل ظهروا فى ميدان السياسة والحكم ويقال ان رئيس

جمهورية اسبانيا Alkala Zamora من أصل عربى (القلعة زمورة) .

وبرزت فى الاندلس حركة ثقافية لاحياء التراث العربى الاسلامى فى الاندلس ، فنصبت تماثيل لابن رشد وابن حزم وابن الخطيب ، وقدم احد نواب (مجريط فى عهد الجمهورية مشروع اعادة مسجد قرطبة الى الاسلام .. واسست فى اسبانيا (الجمعية الاسبانية الاسلامية) .

ومن الخطأ أن نساير المرخين الذين يزعمون نهاية الثقافة الاندلسية بماساة (الموريسكوس) وتشريدهم . والحق ان الثقافة الاندلسية الاسلامية ظلت تلتهب قوية جبارة تطور العالم كله وتسير به الى استشرافية التقدم والنماء .

لقد كانت مأساة المثقفين والعاماء الاندلسيين ، ولم تكن مأساة الثقافة والعلوم الاندلسية ، ذلك ان النظريات الاصلاحية فى السياسة والاجتماع ، وملفات الاختراعات ، انتزعت من يد أصحابها واستغلها اعداؤهم معفين على اسمائهم وعبقريتهم .. والمهم ان العالم مدين لهؤلاء الاندلسيين فيما عرفت أوربا من نهضة علمية ، وما عرف فى افريقيا وآسيا والمحيطات من اكتشافات وفتوحات ، فقد كان المسلمون الانداسيون ، أعظم المفكرين فى العصر الوسيط حيث كانت أوربا ذات ثقافة بدائية ، ويشهد مؤرخو الفكر العربى ، ان قيام التأليف العلمى فى أوربا يرجع للمسلمين الاندلسيين سواء فى الطب أو الرياضيات أو العلوم بل ان (اسبانيا) خضعت خضوعا علميا للغة العربية التى كانت لغة المصطلحات العلمية ، وخلال حكم (الفونسو السابع (1126 — 157ف م ، انكبت اسبانيا على نقل التفكير الاندلسى الفلسفى والعلمى والادبى والقصصى الى أربا بصفة

عامة بترجمته الى اللغة اللاتينية .. وكان (رامن لل) ودانتى والفرايلى ..

ويثبت التاريخ العلمى لاسبانيا وأوربا ان الفلسفة والآداب والاخلاق والشعر والقصة نقلت عن الاندلسيين نقلا حرفيا اما بصفة صريحة أو بصفة ملتوية . وان كل هذه الآثار كان وراءها (الغرباء) الاندلسيون الذين عذبوا وامتهنوا واختلست آثارهم، وأرغموا على العمل فى الحقول للزراعة وفى المدن للتجارة ، وفى الكنائس والمعاهد لاعطاء عصـــارة التجربة العلمية والادبيـــــة لجماعة من المتبجحين بالمعرفة والالقاب العلمية .

فقد اخترعوا (البارود) اثناء حـــروب غرناطة وطـــوروا استعماله ، وانقض اعداؤهم على ثمرة الاختراع وزعموا ان الفضل لهم فى الاكتشاف . انتزعوا (الاكتشافات البحرية) من العرب وزعموا ان كريستوف كولمب هو المكتشف .. وقد اثبت التاريخ الحديث ان كريستوف استعان بالكتب العربية ، والبحارة المسلمين وبمشروع (خوة المغرورين) لاكتشاف العالم الجديد .

وكان للجالية الاندلسية عمل عظيم فى أوربا المسمـــــاة (بكوليج) محرفة عن اسم كتاب (كليات ابن رشد) الذى كان معلم أوربا ، وكان أبو زيت (أبوزيد) المنتصر على الطريقـــــة (البروتستانتية) من الموجهين لفولتير ، وروسو ، ونيوتـــن ، وليبينتز . كما كان (موروجاميرى) (المغربى الجعفرى) نائب كورسيكا أعظم فقيه فى فرنسا ..

وكانت صناعة المدافع الاولى بمراكش على يد موريسكى من مدريد ، كما كان بها مصنع للبارود من أوائل دولة السعديين (زيانى ، ترجمان ، ص 352) واغلب جهاز المدفعية من الاتراك والعلوج والموريسكوس ، اما فرق التخريب وانشاء الفنادق ونقل

المدفعية فهى من سكان الجبال الذين يدعون ـ ابنو درارن وبعد انهزام الاسطول المغربى وفقد كثير من وحداته سنة 741 ـ 1340 بعد ان فقد 600 قطعة فى سواحل الجزائر على اثر عاصفة هوجاء ، ومنذ ذلك توقف عمليا كل تدخل رسمى للمغرب بالاندلس عن طريق البحر وقد اهتم السعديون ببناء أسطول جديد بكيفية تدريجية حتى بلغ منتهى قوته فى عهد المنصور . وكانت القيادة العامة للاسطول تسند غالبا الى عنصر الموريسكوس .

وكذلك كانت الجالية الاندلسية عظيمة بثقافتها وتفوقها الحضارى فى العمران والبناء وفى التنظيمات الاجتماعية واقامة الحفلات والولائم ، والتمتع بالموسيقى والطرب ، ومعرفة التصوير والنحت على الخشب والجبص .. ومما لاشك فيه ان الفن العمرانى المرينى والسعدى والعلوى مدين للصناع الاندلسيين ، بل ان صناعة (الزردخان) من الذهب والحرير الرائجة بفاس ، كانت عن عمل الجالية الاندلسية المقيمة بفاس كما ذكر ذلك ابن خلدون .

قوة الموريسكوس البحرية :

هدف (الموريسكوس) وراء اختيارهم للاقامة بالرباط الى تكوين قوة هجومية للعودة الى بلادهم والانتقام لانفسهم .. والغالب ان المنصور الذهبى واعدهم سرا باعانتهم على العودة وذلك يبدو من خلال تصرفاته الدبلوماسية ، وتصرفاته التنظيمية، فقد كان المنصور الذهبى يتوسل الى الله ان يحقق العودة الى الاندلس على يده كما يظهر ذلك من رسالة بعث بها فى موكب (الحج) لتلقى على قبر الرسول يبث فيها آماله وطموحه ، كما انه حاول السيطرة على مالى والسينغال لقطع الطريق على البرتغال حتى لا يحتلوا هذه البلاد ويحاصروا المغرب من جنوبه

و (ثالثا) لانه ابرم اتفاقية مع انجلترا للتضييق على المملكة الاسبانية .

أما من جانب (الموريسكوس) فقد انضموا الى جيشه فى غزو الجنوب سعيا وراء اكتساب أموال تساعدهم على تنظيم شؤونهم المادية وتقوية مركزهم العسكرى كما انهم نظموا أمور جهاد البحر حتى يستطيعوا مهاجمة (اسبانيا) فبنوا فى الرباط دارا لصناعة السفن وانشأوا مدرسة ملاحية للدراسة البحرية وصناعة السفن واصلاحها ومعرفة طرق البحر ليلا بواسطة حركة النجوم . وقد كان منهم أساتذة نبهاء مارسوا المهنة وأبدوا كفاءة ومقدرة .. وفعلا سيطر (الموريسكوس) على البحر الاطلسى والمتوسط ونسقوا عملهم مع مراكز الجزائر ، وليبيا ، وهم جميعا من (الموريسكوس) المتوافدين على هذه المنطقة .

وقد ذكر المؤرخ الرباطى (الضعيف) ان السلطان محمد بن عبد الله كان يريد اخراج أهل الرباط للصويرة لحصارهم أخاه بالقصبة ، ولكنه عدل عن ذلك لانه رأى فى خروجهم فراغا ، ولن يجد من يقوم مقامهم بشؤون البحر .. سيما وقد كانت الدولة المغربية تعتمد على خبرتهم فى شؤون البحر ، والتقنية المدفعية .. كما كانت تعتمد عليهم فى السفارات الدبلوماسية لمعرفتهم باللغات الاجنبية كالانجليزية والاسبانية والايطالية والفرنسية حيث كان أغلب السفراء منهم ، كالسفض ابن عبد الله ابن عائشة، سفير المولى اسماعيل الى لويس الرابع عشر ، وكالسفير التهامى المدور فى بلاد السويد والمستيرى فى انجلترا وغيرهم كثير .

كما كان منهم (أمراء البحر) كالبعودى وبربيس والمستيرى والعربى حكم والعنفى ولبريس وغيرهم .

وكانت للاندلسيين سفن كبيرة كسفينة (الكوار) وسفينة

المشارى ، وفى كتاب (الضعيف) تفصيل لحركة الجهاد فى البحر .. الى ان جاء السلطان عبد الرحمن الذى أراد احياء الجهاد البحرى ، واذن لرؤساء البحر بالعدوتين بالخروج منها ، وغنموا بعض سفن (النابريال) لعدم ادلائهم برخصة العبور فهم (النابريال) على العرائش ، فقررت الدولة المغربية العدول عن تشجيع الجهاد فى البحر لتأييد الممالك الاوربية ضد الاندلسيين والافارقة والعرب والمسلمين بصفة عامة .

ولم تكن لدى موريسكيى أبى رقراق أول الامر أكثر من أربع بواخر سنة 1617 م (ف026 هـ) ثــم أصبحت فى سنــة 1036 هـ (ف626 م) تبلغ الستين . واقترح قائد أسطول فرنسى عــلى ريسيليو وزير فرنسا المشهور أن يسمح باغراق باخرة فرنسية فى ميناء أبى رقراق حتى يضطر السلطان الى عقد اتفاق مع فرنســا من شأنه ان يوقف الجهاد الموريسكى وهكذا يضطر القراصنة الى تحرير الاسرى الفرنسيين وعلى الرغم من ان الاسطول الفرنسى طبق هذه الخطة فعلا فانها لم تؤد الى نتيجة .

ثم قل البواخر الاندلسيــة ، فأصبح 22 سنــة 1044 هـ (1635 م) والى عشرين سنة 1058 هـ (1647 م) ، وكانــت بواخرهم تجلب فى الغالب من أوربا ، كما كانوا يصنعون عددا منها بمساعدة الهولانديين فى الرباط ، وكانوا يصلون فى مغامرتهم الى الشواطى الانجليزية ويهاجمون السفن الاجنبية .

وكانت للموريسكيين علاقات دبلوماسية مع كل من هولاندا وفرنسا وانجلترا حيث كان لليهود دور بارز فى السمسرة التجارية بين الموريسكيين وهولاندا ، وكان هؤلاء يضايقون أشد مضايقــة سائر المراكب التى تخرج للصيد فى عرض المحيط الاطلسى ، مما فرنسا تفكر فى عهد لويس الثالث عشر سنة 1038 هـ (1629 م)

و 1039 هـ (1630 م) فى أمر يقضى بارجاع كل باخرة احتزها احد الطرفين من الآخر ، وإن تفتح موانىء كل من الفريقين لتجـارة الطرف الآخر ، ويسمح باستقرار قنصل فرنسى بالرباط ، ولا يباع الاسرى الفرنسيون بسلا .

ومنذ سنة 626ف م قدم مبعوث عن البلاط الانجليزى جون هاريس قصد الاتصال بالمجاهدين حول القيام بهجوم مشتـرك ضد اسبانيا ، وكان ملك انجلترا فى ذلك الوقت هو (جاك الاول) ، ومن ضمن شروط الاتفاقية تحرير اسرى الانجليز وتسليم أربعة عشر مدفعا مع ذخيرة الى المجاهدين ، وقد عاد المبعوث فى السنة الموالية يقدم ستة مدافع وكمية من الذخيرة ، ولكن قضية الحلف ضد اسبانيا لم تقبلها الحكومة البريطانية التى لم ترتح اذ ذاك لمساعدة المجاهدين الذين كانوا قد قطعوا علاقتهم مع السلطان زيدان ، وحينئذ تم تحرير أسرى الانجليز بعد أن توصلت امارة أبى رقراق فى مقابل ذلك بالاسلحة المتفق عليها .

وفى عاشر ماى 1036 هـ (1627 م) تم الاتفاق بين الامارة وجون هاريسن على أن تفتح كل موانىء الطرفين لترويج بضائع الطرف الآخر مع عدم التعرض لسفن أى منهما ، والتزام انجلترا بتحرير جميع الموريسكيين الاسارى بمملكتها ، وتعهد امـــارة أبى رقراق بمساعدة انجلترا حربيا على أعدائها . وامضى الاتفاقية عن الامارة ابراهيم بركاش ومحمد باركو ، غير ان شارل الاول رفض توقيع الاتفاق . ولم يمض قليل حتى استولت السفـــن الانجليزية على باخرة للمجاهدين ، ورد الموريسكيون بالاستلاء على عدد من البواخر الانجليزية ، وعلى الرغم من أن جون هاريسن عاد الى المغرب يؤكد باسم ملكه أنه يتبرأ من مسؤولية تصرفات السفن الانجليزية التى استولت على الباخرة الموريسكية ، فان

المجاهدين رفضوا أن يسمحوا (للمبعوث) بالنزول من باخرته ، وقد قضى جون هاريسن ست سنوات فى التردد بين أبى رقراق وبلاده (من سنة 1626 — 1631) عسى ان تحسن العلاقات بين الجانبين ، ولكنه لم يوفق الى ذلك .

هذا وما تزال مدينة الرباط وتطوان وغيرهما ، تحتفظ بعائلات كثيرة من هذه الجالية تحمل أسماءها الاسبانية والبرتغالية ، ولا شك ان محاكم التفتيش حملت العرب والمسلمين على تغيير اسمائهم ، ولذلك فأسماؤهم اما عربية محرفة أو اسبانية . أما الاسبانيون والمسيحيون بصفة عامة الذين كانوا يدخلون للاسلام ، فانهم كانوا يغيرون اسماءهم العائلية باسماء عربية واسلامية .

وما تزال اسبانيا الحديثة تحتفظ بعائلات أندلسية تحمل اسم (موريسك) .

و (الاسبان) كانوا يعرفون المغرب العربى باسم لاتينى هو (مورتيانا تنوانيا) أى (موريتانيا وطنجة) ثم أصبحوا يطلقون على الوافدين من المغرب ويسمونها (مورس) مختصرا عن (موريطانيا) وأخيرا يطلقونه على كل (مسلم) وعلى كل عربى ، لان المغرب باب افريقيا والاسلام والعروبة .

وباختصار ، فان الجالية الاندلسية كانت عظيمة بتفوقها الحضارى وتجريبتها التاريخية ، وكانت متفوقة فى الميدان الاجتماعى والتجارى والفلاحى والعسكرى ، ومتمرنة على الثقافة البحرية ، كما كانت متفوقة فى ميدان صناعة الزجاج والاوانى وحياكة الثياب مسيطرة على الاقتصاد الداخلى والخارجى بما يستورد وتصدر من منتجاتها .

وكان طموحهم لا حد له ليحققوا انتصارات فى البحر والبر

وليعودوا الى وطنهم منتقمين لما لحقهم من جور بل ان النفـــى والتغريب ربط آصرتهم وألف بـــين قلوبهم زيادة على تفوقهـــم العلمـــى ..

واذا كان (الاندلسيون) يهاجرون الى المغرب لنشر العلم وطلبه ، ويقيمون فى مختلف البلاد والقرى ، فقد كانت اعظـــم جالية من (الموريسكوس) استقرت فى (رباط الفتح) الذى كان عاصمة استراتيجية ايام المرابطين والموحدين للجهاد فى الاندلس .. فكان الامل ان يستقروا فيه لتوحيد صفوفهم وبناء اسطول قوى يعينهم على العودة الى بلادهم .

وكان رجال العلم والفقهاء يعطفون على الجالية الاندلسية ويدافعون عنها ويلتمسون الاعذار لبعـــض مواقفها السياســية والاجتماعية ، ويروى عبد الله بن عبد الرفيع الاندلسى المتوفى سنة 1052 م فى كتابه الانوار النبوية .. ان الاستاذ القطـــب ابو الغيث القشاش قال له فى احدى رسائله (لا يحبكم الا مؤمن ، ولا يبغضكم الا منافق) .

وقرب عبد الله الغالب هذه الجالية اليه ، وكون بها جيشا اسند قيادته الى سعيد بن فرج الدغالى الغرناطى ، وهو عبارة عن وحدات اندلسية استقرت بكل من فاس ومراكش ، وكونت اهم فرق جيش الغالب ، وكانت ثكنتهم فى مراكش بحى روض الزيتون والذى كانت تحيط به البساتين والحقول ، ولم يقبلوا الخضوع لاى ضابط غريب عن وسطهم ، كما حدث ذلك ايـــام عبد الله الغالب . ثم اعيد تصنيف الفرق وتنظيمها واعيد تنظيم الحرس الخاص وكـــان العنصر التركـــى يكون فرقة مستقلـــة ، بينما كون جيشا ثان يجمع العلوج والعناصر الاندلسية وغيرها من الفرق التى تساهم فى العمليات الحربية ، وجعل المعتصـــم

الرماة من الموريسكيين فى معركة وادى المخازن فى الصف الاول بربر جزولـــة .

وكان سعيد ابن فرج الدغالى قائدا لجيش الاندلس ايـــام الملك المعتصم ، ومن كبار القادة فى عهد ابن مروان ايضا ابو على الغورى وحسين العلج الجنوبى ، وعلى بن موسى ، واحمد بن موسى ، وابو طيبة وحاجبه رضوان العلج ، وكلهم ساهموا فى فى معركة وجاء الموريسكوس من بلنسية وقشتالة واسترامادور Estramaduro حيث وفدت جالية من هرناشو Hornacho وهـــى مدينة بشرق ماردة ، كما جاءوا من اراكون ، وقطلونيا ومرية .

واستقر الهرناشيون بقصبة الاودايـــا ، واستقر معظـــم الموريسكوس بالرباط كمـــا استقر بعضهـــم بسلا .. وعـــرف الهرناشيون بثروتهم المادية لتفوقهم فى تزييف العملة الاسبانية اتلافا للاقتصاد الاسبانى ، كما كانوا متفوقين فى استخـــدام الاسلحة النارية ، فاعانوا زيدان السعدى فى حروبه الدخلية ضد السملالـــى .

وقد سعى الهرناشيون الى اقامة جمهورية نصف اعضائها من الرباط ، والنصف الآخر من سلا . وكانت أول جمهورية مغربية بحوض ابى رقراق ابتداء من سنة 1614 ، واستمرت ثلاثـــين سنة ، وخضعت لدستور ينظم شؤونها الداخلية والخارجية الا الحكم بالاعدام الذى كان الحق فيه للسلطان .

وتعاظم نفوذهـــم فى البـــــر والبحر واضطر القبطـــان الانجليزى Mainwaring ان يفاوضهم فى شراء الاسرى المسيحيين، وكانت موارد الجهاد تقسم بين الديوان وصاحب المركب وقائد

المدفعية والجراح والبحارة والضباط واحيانا يتقاضى منهم السلطان الخمس الشرعى .

ونبغ منهم ضباط كبار ، نذكر منهم يوسف (بسكاينو) وفى مقدمة (الفتح للمؤرخ ابى جندار) ذكر لعدد من امراء البحر المشهورين ، ولتأسيس مشيخة أو جمهورية حسب تعبير المؤرخين الغربيين تعتمد انتخاب مجلس صغير يسمى (بالديوان) ينتخب رئيسه كل سنة . واعترفت بهم انجلترا ، وانضم الاندلسيون الوافدون على الرباط الى هذه المشيخة ، على اساس ان ينتخب كل من الطرفين نصف اعضائه واختلفت الجمهورية الرباطية مع (العياشى) ، سنة 1631 م — 1040 هـ ، ثم اختلف الهرناشيون والاندلسيون ودخلوا فى صراع فيما بينهم ... واخيرا انقسم (المجاهدون البحريون) الى ثلاثة فرق ، احداهما بزعامة القصرى ، والثانية تناصر السلطان ، والثالثة تناصر العياشى .. وبعد ذلك هاجمهم العياشى فانتصروا عليه .

وجاء فى رحلة مويط الاسير بسلا عام 1670 فى الفصل الثانى عند كلامه على مدينة الرباط :

وقد كانت هذه المدينة (يعنى الرباط) جمهورية مستقلة سنين عديدة وذلك منذ طرد ملك الاسبان لجالية الاندلس من غرناطة بسبب ما اثاروه من الفتن عليه ولما وصلوا الى سلا عقب تلك الفتن وكانوا يريدون ان يعيشوا احرارا مستقلين وراوا انفسهم اكثر عددا واشد قوة من سكان سلا الاهليين وارغموهم على عدم الاعتراف بأى سلطان كان وخلع طاعة الحكام الوقتيين كابن ابى بكر الدلائى الذى كان دخل الى بلاذهم ووعدهم ببيعته فحاصروا ابنه عبد الله امير القصبة ، وكان عمره اذ ذاك لا يتجاوز 15 عاما فدافع عن نفسه مظهرا الشجاعة والشهامة

بضع سنوات وكان يعينه على ذلك ملك البرتغال والدوك مدينا كلى سينيورد بورسانط موى قرب قادس ، ويمد انه باليرة والسلاح ويبعثان اليه بالسفن المشحونة بالذخائر الحربية والاقوات لأن اباه ابن ابى بكر كان قد وجه سفراء الى اسبانيا والبرتغال مستنجدا بهما وحيث كان مدخل الوادى ممنوعا على اهل سلا بسبب اشراف القصبة المحاصرة عليه ، وكان اهل البادية يعاونونهم ، فاشتدت عليهم المعيشة فجلب اليهم عدد من التجار المسيحيين سفنا مشحونة بالقمح وانزلوها على الساحل الكائن ما بين المعمورة وسلا فربحوا بذلك اموالا طائلة لأن الاندلسيين المهاجرين كانوا يشترون القوت منهم بما جلبوه من الحلى والجواهر التى جاءوا بها من الاندلس ، فاستولوا على ثروتهم بسبب ذلك) .

واذاً ففى هذه الحقبة كان الحكم فى العدوتين (الرباط وسلا) جمهوريا (مشيخيا) ولم يكن جنوحهما للمخزن سوى سوى صورة فقط ، واصبح الاوربيون انفسهم لا يعتبرون من مملكة المغرب سوى مقاطعة سلا وتبادلوا مع رؤساء العدوتين من المعاملات التجارية المعاهدات السياسية . وتوجد وثائق بامضاء اربعة من رؤساء سلا والرباط وهم عامر بن محمد وابو الطيب بن عبد الرحمن عبدون والحاج يوسف السنسياض والامين سعيد اجنوى ، وذلك بتاريخ ثامن رجب عام ثلاثة وخمسين والف وتوجد معاهدة اخرى بتاريخ الف وستين 1060 وعليها امضاء المذكورين ما عدا امضاء عامر بن محمد ثم زيادة امضاء عبد الله القصرى ومحمد بن طلحة والحاج محمد الزيدى .

ويذكر دوكاسترى بان اسطول الجمهورية كان يسطو على على اساطيل البحار وقرصانهم كما كان الحكم قويا وان القوة البحرية انشاها الاندلسيون كانت اشد تأثيرا على اوربا من

البحرية الجزائرية التى كانت للاتراك بالجزائر ، كما يذكر لان المراكب الشراعية الاندلسية كانت اكثر عددا واوفر مددا وكان بحارتها وعساكرها اشد جرءة وازيد خبرة بالمراوغة البحرية وبفنون الملاحة والرماية ، ثم يذكر المؤرخ دوكاسترى فى كتابه الوقائع البحرية التى كان يقوم بها الاندلسيون الغزاة المعروفون عند الافرنج باسم لصوص البحر أو لصوص سلا مستدلا ان ما كان يسمى باللصوص هم من اهل الاندلس ساكنى القصبة ، لانهم استقلوا وانشأوا اسطولهم صرفوا عزمهم الى التضييق على اهل اوربا وشن الغازات عليهم انتقاما من ظلمهم .

وذكر المؤرخ الرباطى (الضعيف) ان السلطان محمد بن عبد الله كان يريد اخراج اهل الرباط للصويرة لحصارهم اخاه بالقصبة ، ولكنه عدل عن ذلك لانه راى فى خروجهم فراغا ، ولن يجد من يقوم مقامهم بشؤون البحر .. سيما وقد كانت الدولة المغربية تعتمد على خبرتهم فى شؤون البحر ، والتقنية المدفعية .. كما كانت تعتمد عليهم فى السفارارت الدبلوماسية لمعرفتهم باللغات الاجنبية كالانجليزية والاسبانية والايطالية والفرنسية حيث كان اغلب السفراء منهم ، كالسفير ابن عبد الله ابن عائشة ، وكالسفير التهامى المدور فى بلاد السويد والمستيرى فى انجلترا وغيرهم كثير .

كما كان منهم (امراء البحر) كالبعودى وبربيس والمستيرى والعربى حكم والعنفى ولبريس والمستيرى .. وغيرهم .

وكانت للاندلسيين سفن كبيرة كسفينة (الكوار) وسفينة المشارى ، وفى كتاب (الضعيف) تفصيل لحركة الجهاد فى البحر .. الى ان جاء السلطان عبد الرحمن الذى اراد احياء الجهاد البحرى ، واذن لرؤساء البحر بالعدوتين بالخروج منها ، وغنموا بعض سفن (التايريال) لعدم ادلائهم برخصة العبور فهم

والنابريال) على العرائش ، فقررت الدولة المغربية العدول عن تشجيع الجهاد فى البحر لتأييد الممالك الاوربية ضد الاندلسيين والافارقة والعرب والمسلمين بصفة عامة .

ولم تكن لدى موريسكيى ابى رقراق اول الامر اكثر من اربع بواخر سنة 1617 م (1026 هـ) ثم اصبحت فى سنة 1036 هـ (1626 م) تبلغ الستين . واقترح قائد اسطول فرنسى على ريشيليو وزير فرنسا المشهور ان يسمح باغراق باخرة فرنسية فى حوض ميناء ابى رقراق حتى يضطر السلطان الى عقد اتفاق مع فرنسا من شأنه ان يوقف الجهاد الموريسكى وهكذا يضطر القراصنة الى تحرير الاسرى الفرنسيين ، وعلى الرغم من ان الاسطول الفرنسى طبق هذه الخطة فعلا فانها لم تؤد الى نتيجة .

ثم قل عدد البواخر الاندلسية ، فاصبح 22 سنة 1044 هـ (1635 م) والى عشرين سنة 1058 هـ (1647 م) ، وكانت بواخرهم تجلب فى الغالب من اوربا ، كما كانوا يصنعون عددا منها بمساعدة الهولنديين فى الرباط ، وكانوا يصلون فى مغامراتهم الى الشواطىء الانجليزية ويهاجمون السفن الاجنبية .

وكانت للموريسكيين علاقات دبلوماسية مع كل من هولندا وفرنسا وانجلترا ، كما كان لايهود دور بارز فى السمسرة التجارية بين الموريسكيين وهولندا حيث كان هؤلاء يضايقون اشد مضايقة سائر المراكب التى تخرج للصيد فى عرض المحيط الاطلسى ، مما جعل فرنسا تفكر فى عهد لويس الثالث عشر سنة 1038 هـ (1629 م) و 1039 هـ (1630 م) يقضى بارجاع كل باخرة احتجزها احد الطرفين من الآخر ، وان تفتح موانىء كل من الفريقين لتجارة الطرف الآخر ، ويسمح باستقرار قنصل فرنسى بالرباط ، ولا يباع الاسرى الفرنسيون بسلا .

العلويون

1659 م — 1070 هـ

القـــرن الحادى عشـــر الهجـــرى
القـــرن السابـــع عشر الميـــلادى

تقديـــــم :

عانى المغرب فى اعقـــاب العصر السعدى ازمة الطائفيـــة والقبلية ، فظهرت مقاطعات منفصلة عن بعضها تخضع لحكـــم محلى (كالزاوية الدلائية) التى اسسها ابو محمد الدلائى وخلفه ابنه محمد بن ابى بكر ، وقد انقلبت من زاوية ذات نزعة دينية الى زاوية سياسية بدأت نشاطها بحرب البرتغاليين فى الجديدة وازمور ، وكمقاطعـــة (سوس) التـــى خضعت للسملاليـــين ، ومقاطعة الشمال تحت حكم الخضر غيلان ومقاطعة تابوعصامت فى الجنوب بتافلالت ، ومقاطعة على بن رشيد من قبل ، فى الشاون الذى جعل من هذه المدينة مركزا لمواصلة الهجوم على المراكز البرتغالية والاسبانية فى السواحل المغربية ... وكمقاطعة ســـلا التى كانت تخضع لامرة العياشى ، ومقاطعة الرباط الخاضعـــة للمشيخة الاندلسية بالاضافة الى بقايا السعديين بمراكـــش . ومقاطعة سجلماسة تحت حكم العلويين التى سرعان ما نجحت فى الشمال وبايعت المولى محمد اميرا عليها فى سنة 1050 هـ ثـــم جاء المولى الرشيد ليؤسس الدولة ، وبعده أخوه اسماعيل الذى ركز اسس الدولة فى الداخل والخارج ، فجرد القبائل من السلاح ووجهها لاصلاح الارض ، ثم شيد القلاع والحصون التى بلغت

سبعين مركزا ، وألف بين القبائل ، وفتح طنجة سنة 1095 وكانت بيد الانجليز بعد تنازل البرتغاليين عنها ، والعرائش 1101 هـ واصيلا 1102 والمهدية 1109 وبقيت سبتة ومليلية بيد الاسبان ... واسس جيش الودايا ، وجيش البخارى .. وبموته دخلت البلاد فى اضطرابات متوالية من جراء تدخل الجيش فى السياسة الداخلية فى البلاد ...

وعندما توفى المولى اسماعيل خلفه المولى العباس احمد بن اسماعيل المعروف بالذهبى فقضى عهده فى مواجهة الجيش الذى حاول والده ان يجعل منه درعا لمواجهة الاحداث والفتن ولكنه لم يلبث ان اصبح كما وقع فى عهد العباسيين منتظما يثير الفتن، وخلع الجيش المولى احمد وبايع ابن مروان ثم عاد الى تتويج المولى ابى العباس من جديد الى ان جاء المولى عبد الله فبويع سنة (1141) وبقى فى الحكم يعانى ازمات التنطعات والفتن الى ان جاء أبو الحسن على بن اسماعيل فبويع سنة 1147 ، ثم عاد المولى عبد الله من جديد الى السلطنة ، وبعد فتن دامية بويع محمد بن اسماعيل ثم فى غمرة الاحداث عاد ابوه من جديد، واخيرا انتقل الى المستضىء بن اسماعيل ، ثم عاد المولى عبد الله من جديد الى الحكم محاربا المولى المستضىء وفى سنة 1163 تسلم العرش المولى محمد بن عبد الله فنظم الاقتصاد ونظام الجبايات العامة ، ووظف على الموازين والابواب والمحصولات الفلاحية والمواد التجارية وطهر الجهاز الادارى من الانتهازيين ، كما نظم الجولات الاستطلاعية ، وكرس جهده لبناء اسطول قوى، وعمل على تجديد الدراسات واحياء العلوم .

الاطـــار الاقتصـــادي

لقد عــرف حــوض البحــر الابيــض المتوســط نشاطــا

اقتصاديا رائعا حيث كانت السفن تحمل البضائع والمواد المختلفة من الهند والصين التى عواصمهم شواطىء المتوسط كما تحمل على متنها الرجال والنساء وما يعتلج فى قلوبهم جميعا من وجدان، وفى عقولهم من علم ، وفى ضميرهم من دين واخلاق مما مزج بين هذه الحضارات المختلفة وأثر بعضها فى بعض عاى ان (الاقتصاد) كان المحرك الاول لهذه الهجرات التى تجر وراءها الربح المادى والادبى وتكون منشأ الحروب والسلام ، وما تجره من انتصار واسترقاق وعبودية وتسخير وما يتبع ذلك من بناء حضـــــارى متلاحق بين الاجناس .

وكان المغرب مجالا واسعا للنشاط الاقتصادى الفينيقـــى والرومانى والبيزنطى ثم تغيرت شبكات الاتصال الاقتصادى فى هذه المرحلة التاريخية التى نحن بصدد الكلام عنها ، وكــــان التشكلات الاقتصادية أخذت تتغير بعد التدخل الاوربى فى أواخر القرن الثامن عشر ولعل التشابه واضح بين ما جرى فى الهند وما جرى فى المغرب حسب التحليل الماركسى لتغير البنيات الاجتماعية تبعا للتغير الاقتصادى . فقد رأى ماركس سنة 1853 بخصوص الهند ان السيطرة الاستعمارية الانجليزية غيرت الاسس المادية للنظام الرأسمالى فى الهند ، ويستنتج من ذلك ان التشكيـــلات الاقتصادية والاجتماعية فى ابتكار النمو الرأسمالى بدون تدخل اجنبى ، هذا ما وقع فى المغرب أيضا حيث ان المغرب خرج من عزلته وانفصل على العالم الغربى الذى كان فى اوج توسعــــه ورغبته فى البحث عن المجـــالات الحيوية للاقتصاد .. فوجـــد الاستعداد كاملا فى المغرب الذى كانـــت البنيات الاقتصادية فى حاجة الى تطور سيما بعد فشل المشروعات الانمائية .

الاقتصـــــاد :

ذكر اكنسوس ان المولى الرشيد ضرب 1078 أول سكـة علوية ، واقرض تجار اهل فاس قرضا عموميا ، وبذل المولـى اسماعيل جهودا لرفع المستـوى المالى للبلاد ، فزاد فى جميـع جميع الواردات والصادرات والمصاريف الجمركية ، واستـورد المغرب المنسوجات كالملف الموسلين والمرايا والساعات والاسلحة وبعض المعادن كالكبريت ، كما استوردت (الرايط) وادوات الطبخ والسكاكين ، وفى سنة 1261 عانى المغرب ازمة اقتصادية بسبب سياسة الباب المفتوح للتجارة الاجنبية وزاد الازمة استفحالا الديون التى استدانها المغرب من الخارج .

ولما استتب الامر للمولى اسماعيل وحرر المراسى التـى كانت بيد الاجانب الا (البريجة) التى ظلت بيد البرتغاليين الى الى عهد حفيده المولى محمد بن عبد الله ، فانتشر الامن فى البلاد حتى كتب المؤرخون عباراتهم التقليدية (ان المرأة والذمى يخرج من وجدة الى وادى نول فلا يجد ان من يسألهما من اين ، ولا الى اين) وساعد هذا الاستقرار والامن على ازدهـار النشـاط الاقتصادى ، وذكر الزيانى فى (البستان) ان ثمن القمح بلـغ ستين أواق للمد والشعير ثلاث وراس البقر من المثقال الـى المثقالين والسمن والعسل رطلان بالموزونة والزيت اربعة أرطال بها ، وكانت جنان حمرية تحتوى على مائة الف من شجر الزيتون وقد حبس المولى اسماعيل غلتها على الحرمين الشريفين . وكانت البضائع تفرض عليها واجبات جمركية فى المدن والمراسى ، وترقب على طول الطريق لفائدة الولاة المحليين ، وقد ذكر المؤرخون ان اثمان البضائع ، كانت ترتفع بازدياد المسافة ، فمـن مكناس مثلا الى السوس يرتفع ثمن (اى 59 كيلو) من الزيت من دوكا ونصف ويروى اندرى جوليان عن احد المؤرخين الفرنسيين وصف

عمل المولى اسماعيل وجهوده فى سبيل توسيع ثروة بلاده بالتجارة التى كانت تحتل اذ ذاك مكانا سياسيا فى الاقتصاد المغربى فكان بيت المال يتقاضى عن جميع الواردات والصادرات عشرة فى المائة ، بل تصل هذه الواجبات الجمركية الى 25 فى المائة فيما يخص الصمغ ، وقد وصف السفير الفرنسى (آولون) الذى زار المغرب عام 1693 الاقتصاد المغربى اذ ذاك ، فلاحظ ان اليهود والمسيحيين كانا يحتكرون التجارة عمليا ، وكان فى مدينة فاس نحو الخمسة آلاف من اليهود يحركون التجارة فى مجموع بلاد المغرب .

العمران

اذا كان المولى اسماعيل اعظم بناء فى هذا العصر حيث تجلت مآثره فى مدينة مكناس وبالاخص فى باب منصور العلج وغيرها ، وفى بناء المعامل والحصون فإن ولده المولى عبد الله بنى بفاس مسجدا ملكيا عظيما كما بنى محمد بن عبد الله جامعا بالرباط ، وشيد قصرا عظيما بمراكش والقصر الابيض انها توزع على ثلاثة فروع :

1) النقط المعززة حول بعض القبائل (السائية) .

2) وسلسلة معاقل تادلة وملوية لحصر قبائل الاطلس المتوسط .

3) والقلاع المتسلسلة فى الطرق الرئيسية من تازة الى تارودانت .

ومن بقايا هذه القصبات ، قصبة (خشان) وتادلة ، واحميدوش ، وأبو لعوان . والقصبة عبارة عن بناية محاطة بجدران سميكة مع مخارج مربعة وتضم دارا ومسجدا ودكانا

وذخائر . كما بنى العلويون عدة قناطر اهمها قطرة سبو (طولها 150 مترا مع عشرة اقواس) وبنوا عدة سقايا ودورا للوضوء ، واسسوا عدة مساجد ومدارس وصفها بدقة المؤرخ ابن زيدان فى كتابه مفاخر العلويين ، وفى كتابه الاتحاف فى تاريخ مكناس .

وكان من نتيجة احتكاك المغرب بالدول الغربية ان اخـذ الاقتصاد المغربى يتأثر بالمناهج التعبة فى الغرب من بيع الاراضى والمراسى لغير السكان المجلس فما كـاد ان تخلق اقطاعيـات جديدة فى المغرب ، غير ان المولى الرشيد العلوى كان حذرا من هذه المناورات الخطيرة يقضى على ابن مشعل .

الفلاحـــة

عرف المغرب منـذ العصر الرومانى بأنـه ارض الفلاحة والغابات ، لذلك فقد ظل دائما مصدر الحبوب الى اوربا ، كما كما عرف بغراسة الاشجار ولاسيما بعد خروج الاندلسيين مـن الاندلس واقامتهم بالرباط وتطوان ، حيث طوروا فى الغراسـة بهما وغرس المولى اسماعيل أكداه مكناس باشجار الزيتون ، وعندما زار ادريان اقليم مراكش سنة 1641 وصف جنان بأنها أجمل مكان فى الدنيا ، اذ زرع فيها على الاقل (15000) شجرة من الزيتون .

الاسطـــول

ذكر « جان بابتيست » فى مذكـراته عن اسطول مـولاى اسماعيل ان قطعة لم تكن تتجاوز الست ، منها اثنتان فى ملـك السلطان ، واربع فى ملك الافراد . وكانت بسلا وحدها 12 سفينة تحت امرة عبد الله بن عائشة الذى اصبح سفير المولى اسماعيل فى بلاط لويس 14 .

السكـــان

ذكر الحسن الوزان اعداد تقديرية لعدد الدواوير فى !المغرب فى القرن العاشر فذكر انها كانت تبلغ 1165 دوارا مقاتلتها من المشاة 694000 ومن الفرسان 65300 ويرى ما سينيون ان تطبيق قاعدة كاريتى على ذلك ان عدد السكان يعرف عادة باضافة عدد المقاتلة الى ربعه من العاجزين ، فيصير ذلك ثلث عدد السكان (لان الباقى فيه اطفال ونساء وشيوخ غير قادرين على القتال (لان الباقى فيه اطفال ونساء وشيوخ غير قادرين على حمل السلاح)، وطبقا لهذه القاعدة يكون عدد سكان البادية 2850000 . وقــد احصى قبائل البربر الحسن الوزان فكانت 75 قبيلة وقدر عدد مقاتلها ب 285000 . وقد احصى قبائل البربر الحسن الوزان فكانت 75 قبيلة وقدر عدد مقاتلها ب 1085000 ، فيكون عدد السكان حسب قاعدة كاريتى 4071 000 مــن البربر ... وذكر دوفونطان فى كتابه « اسماعيل الاكبر امبراطور المغرب » فى رسالة الراهب فرنسى حوالى القرن الحادى عسر (انه كــان بناحيتى مراكش وفاس 16 مقاطعة و 250 مدينة جميلة اصغرها تحتوى من السكان على ثلاثين ألف نسمة تقريبا ، وكان فى مدينة فاس وحدها بالضواحى 1600000 نسمة تقريبا .

عصر السلطان محمد بن عبد الله :

امتاز عصر محمد بن عبد الله وهو ملك مثقف عالم ، (يعى بحق مشاكل عصره) بمحاولاته المتعددة لبعث حركة اصلاحيــة شاملة ، فى كل مرافق الدولة .

أخذ المولى محمد بن عبد الله يعمل جاهدا لتطوير معامل الاسلحة فى المغرب ، وقد بعثت الدولة العثمانية ببعض العمال

التقنيين ليكونوا اطارا للصناعة الحربية فى المغرب . وتوزع العمال فى المدن المغربية ، فكان معلمو (القنابل) بتطوان ، ومعلم (المراكب) بسلا ، ومعلمو (الرمى) بالرباط ، واصحاب المدافع بفاس (كما فى الاستقصا) .

واعتمد المولى محمد بن عبد الله ، على الرباطيين والسلاويين لخبرتهم الجهادية ضد القراصنة فى هذا الميدان . ويذكر مؤلف مقدمة الفتح تفاصيل عن تطور الاسطول فى هذا العصر . وقد بلغ عدد المراكب المغربية فى العهد المحمدى (20) قطعة كبرى و (301) ، فركاطة ، وعدد رؤساء البحر (60) ، والجيش البحرى 4000 .

وبعد تفكك أوصال الامبراطورية المغربية التى كانت تمتد من طرابلس الى الاندلس ضعفت السيطرة على البحار ، ازدهرت القرصنة ، وقد أصبحت المهدية وكرا للقراصنة فى أيام بنى مرين وضمت اخلاطا من مختلف الاقطار ، فيهم المسيحيون ، وفيهم المسلمون بل ان المسيحيين كانوا اغلبية كما يقول دو كاسترى ، وبعد ظهور العلويين استرجع المغرب مكانته ، غير ان استيلاء خير الدين على الجزائر حول محور التجارة الدولية من المشرق الى الغرب اثر الاكتشافات البحرية الكبرى ، فاصبح مضيق جبل طارق (الطريق التجارى) ، وقد ازدهرت القرصنة بسبب الاندلسيين الذين كانت تذكيهم المغامرة البحرية ، فوجدوا فى هذا النظام ذريعة للانتقام من اعدائهم الاسبان .

وكان مبدأ حرية التجارة فى البحار وسلامة التجار وجعلها فوق الاعتبارات الدينية مما ساعد على الازدهار ، وقد درس المستشرق سيموند Simondi ولاطرى Latre قضية القرصنة ودفعا للاجراءات الموجهة ضد المغرب فى شأن البضائع المرتكبة

باسم القرصنة البحرية . أما عبد المولى الحسن عقدت النية على احداث اسطول جديد للمغرب واشتريت قطعتان من الخارج ، ولكن الاستعمار الغربي كان بالمرصاد باحبط هذه المحاولة .

بنـــاء مدينـــة الصويـــرة

كان تأسيس مرسى الصويرة عملا سياسيا واقتصاديا يرمي الى جلب الاجانب الى المراسى لتنشيط المبادلات التي كان من شأنها ان تنعش ميزانية الدولة غير ان التجار المسيحيين هجروا الصويرة لان ابناء المرسى كانوا يفرضون عليهم رقابة صارمة ، وكانت لهذه المدينة جالية يهودية لها صلة وثيقة بجاليات سوس والاطلس ، وما لبثت ان استولت على تجارة اقصى الجنوب وبذلك اثرت على الاقتصاد المحلي وابرزت نشاطهم جميعا ، نظـــرا لاعتمادها على اساليب ربوبه .

ميزانيـــة الدولـــة

لما بويع المولى محمد بن عبد الله وقف على مختلف والده 200000 دينارا عبدلوية ، ومن الذهب ما يساوى 400 000 ريال ووجد كذلك 285 000 ريال و 20000 موزونة وكان بيت مال السلطان ينتقل معه على ظهور البغال حيث ما ذهب ، وقد كان جاء فى مذكرات (سنيى) فى موضوع الحالة العامة لتجارة فرنسا مع ساحل المغرب عام 1767 « ان المراسى العامة هى العرائش وسلا واسفى والصويرة واكادير وقد استقلت هذه المراسى فى سنة 1767 (16) سفينة متقلة بالمنسوجات والسكر والحديـــد وحملت المراكب الفرنسية وحدها من المغرب الزروع والاصواف والجلـــود والزيـــوت والصمـــغ واللوز بما قيمتـــه 647000 جنيه فبلغت صادرات المغرب الى فرنسا فى غصون تلك السنة

ضعف وارداتها وضيق المغرب نطاق المراسى فلم يفتح فى سنة 1773 فى وجه المراكب التجارية الفرنسية سوى العرائش والصويرة وقد بلغت قيمة الصادرات اذ ذاك 860 000 جنيه وكانت الواجبات الجمركية المفروضة على الواردات لا تتجاوز العشر بينما كانت الواجبات الموظفة على الصادرات تتغير تبعا لنوع البضاعة وحالة الحصاد كما جاء فى كتاب (ملوك فرنسا والمغرب) لشارل بنز (ص 114) وكان بيت مال السلطان ينتقل معه على ظهر البغال حيثما ذهب كما كان لكل مرسى بيت مال خاص بفتح على رأس كل ثلاثة أشهر .

وذكر محمد الدكالى فى (الاتحاف الوجيز) عن تأثير الانتاج الاوروبى على الانتاج المغربى البدوى اذ ذاك كان رخيصا بالنسبة للانتاج المغربى المعتمد على اليد العاملة ولهذا فان معامل القطن والكتان وطرازتهما بالعدوتين تاخرت فى عهد المولى سليمان وبقيت فى سلا فقط دون الرباط ستمائة معمل مهملة .

وصف بريتوارت فى كتابه « تاريخ المغرب » حالة البلاد عام 1727 م . فذكر ان مقاطعات الجنوب يسهل فيها زرع القطن والتوابل والسكر ، وان ذلك يدل على ثروة البلاد التى يوجد فيها النحاس ومعادن الفضة والذهب .. وذكر ان مقاليد التجارة بيد اليهود والمسيحيين لان المغربة لا يفهمون التجارة مع الخارج . فكان مما يجلبه التجار الاوربيون الى المغرب من ثياب والحديد، والكبريت ، والبارود ، والاسلحة ، والرصاص مقابل اللوز والتمر والصمغ والجلود والنحاس والعسل، وذكر ان قوافل مغربية تذهب كل سنة الى غينيا فى عدة آلاف من الجمال قاطعة المسافة الفاصلة بين البلدين فى ظرف عشرين يوما ، وترجع مثقلة بالابريز والعاج وريش النعام والعبيد .

أزمـــة الاقتصاد المغربى

استسلمت الحياة الاقتصادية والاجتماعية المغربية بعـــد الاستعمار الفلاحى للاراضى المغربية لهجمات الغرب الاقتصادية الاستعمارية ، ويمكـــن ان نجعل مدينـــة فاس كأساس للتغيـــير الاقتصادى لتواجد البرجوازية وعلماء الدين لمواجهة الاستعمار التى استفاد اكثر منهم فى هذه المواجهة .

وكانت نشأة (البورجوازية) التجارية المحلية فى أواخـــر القرن 19 فى اوج تطورها الى درجة انها كانت تفرض نفسهـــا كعنصر مسيطر داخل السلطة . وكانت تتميز علاقتها الجديـــدة بالمخزن طيلة القرن 19 وبالخصوص تلك المتمركز فى فاس لسببين : ضعف السلطة المركزيـــة فى القضاء عـــلى (السيبة) وعلى رد الهجوم الاستعمارى المتكرر على المغرب ابتداء من سنة 1818، وهذا ما مكن البرجوازية الاوربية مـــن توسيع نفوذها حتـــى أضحت الشريك المتساوى للسلطة السياسية ، وظهور ثلاثة مصادر جديدة للتراكـــم الاقتصـــادى فى المغرب : أ ــ نشوء الملكـــة الخاصـــة وتوسعهـــا : ب ــ تحالـــف البرجوازية الاوربيـــة ، عمليا فى شكل امتيازات ورساميـــل (للبورجوازية الاوربيـــة) التابعة للرأسمالية الاوربى ، وظهرت هذه التبعية فى البدايـــة عندما أصبحت غالبية (تجار) المغرب فى منتصف القرن التاسع عشر وكلاء رئيسيين للتصدير نحو أوربا ثم الاستيراد المنتوجات الاوربية وتوزيعهـــا فى مختلف انحاء البلاد مـــع ظهور نظـــام (الحماية) وتحولت المدن مع بداية النصف الثانى من القـــرن التاسع عشر الى مركز للتدخل الاوربى فى المغرب بحيث بدأت القوى الاوربية بواسطتها تفويض اسس الاقتصاد المغربـــى ، واستبدالها (الاسس) (بميكانزمات) التبعية المفروضة على المغرب.

الضمان الاجتماعى (مساعدات اجتماعية)

جاء فى (درة السلوك) ان المولى محمد بن عبد الله انفق ايام الغلاء الذى وقع عام 1189 الى 1895 خمسمائة الف الف دينار اى نصف مليار ، ويذكر المؤرخون ان السلطان رب الخبز فى جميع نواحى المغرب فكان يوزع على المعوزين فى كل حومة سواء فى الحاضرة أو البادية حيث وزعت اموال طائلة على القبائل فى شكل سلف يؤدى زمان الخصب والرخاء وتنازل السلطان للقبائل عن ذلك مؤكدا انها كانت منحة من أول وهلة وانما ذكر السلف ليلا يستبد بها الاشياخ والاعيان ، واسقط فى تلك المدة جميع الضرائب عن قبائل وكان يعطى للتجار الحاضرة ، أو البادية حيث وزعت اموال طائلة على القبائل فى شكل سلف يؤدى زمان الخصب والرخاء ، وكان يعطى التجار الاموال ليجلبوا بها الاقوات من الديار الاوربية وبيعها باقل من ثمنها .

المبادلات التجارية

ذكر « جيرمان مويط » ان التجار الفرنسيين كانوا ينقلون الى المغرب البضائع الاوربية المختلفة : فمن اسبانيا الفضة ، ومن انجلترا الثياب الرفيعة ، والحرير ، والصوف الملون ، ومن هولندا مختلف المنسوجات . وكذلك من روان وبريطانيا ومن البرازيل وبوردو القطن والتبغ ، كما يجلبون السكر والكبريت والاصباغ والورق والفولاذ والحديد والرصاص والاوانى والسكاكين والمقصات والابر والاقفال والمرايا والمشط . اما صادرات المغرب ، فهى الجلود والعنب وصفائح النحاس والصمغ والقصدير والصوف . ولم يكن المغرب يصدر الحبوب والماشية ، لان ذلك كان محظورا الا فى ظروف خاصة ، وفى مقابل البارود والعتاد الحربى .

العلقـات مـع الخـارج :

... كان من الواجب يسعى المغرب جهده ليقيم علاقـــات دبيلوماسية مع الدول الاوربية رغبة فى خلق بيئة سليمة ، حتى يتاح له الاستقرار والاطمئنان فى البلاد ، ولذلك وجه الى اسبانيا الوزير الغسانى للعمل على فك الاسرى المسلمين ، واستجلاب كتب علماء الاندلس والمغرب من اسبانيا .. وليسعى الـى اقامة معاهدة مع اسبانيا .. وقد حاصر المولى عبد الله مليلية سنة 1188 كما يقول ابن عثمان فى رحلته أو فى 1185 كما يقول الناصرى فى الاستقصاء ، وفشل الحصار لان اسبانيا رأت فيه مخالفة للمعاهدة بين الدولتين ، وقد احتمى الغزل نظرا للبس فى نص المعاهـدة مـع ان النص الرسمى فى خزانة تطوان واضـح دون تحريف فيما يظهر ...

وعقد المولى محمد بن عبد الله طحا مع السويد سنة 1176، معاهدة السلام مع فرنسا ، وهذه المعاهدة تعتبر امتدادا لمعاهدة المولى اسماعيل مع لويس الرابـع عسر .. كما عقد معاهـدة سياسية تجارية مع الدنمارك سنة 1181 . وتجاوزت المعاهـدة النشاط الديلوماسى الى النشاط التجـارى ، وخصص الروسى (تشولكوف فى كتابه (نظرة تاريخية الى التجارة الروسية) فصلا عن التجارة بين روسيا والمغرب ودعا فى كتابه ان يوسع التجارة الوس افـق التجـار) وان يصدروا الـى المغرب المصنوعـات الحديدية والزجاجيـة والجلد الاحمـر والخسب عـن مـرسى (ليفورن) .

وبجانب هذه الوثائـق الدبلوماسيـة الدالة على مـــدى نجاح العلاقات الاقتصادية بين المغرب وروسيا ، نجد وثائـــق اخرى كمعاهدة صداقة بين روسيا والمغرب ، فى بداية سنة 1792

الموقعة فى (جاسى) والتى تنص على حماية السنن التجارية الروسية من قراصنة البحر الابيض المتوسط حيث كان الاسطول المغربى قادرا ومسيطرا على الجانب الغربى لهذا البحر .

وجاء عهد المولى سليمان (1792 – 1822) الملقب بعالم الملوك الذى بويع سنة 1206 . وكان داعية سلم ، فلم يحارب الاتراك حين احتلوا وجدة ... وانما اقنعهم بالتنازل عنها كما تنازل عن تلمسان حين ثار اهلها بالاتراك راغبين الدخول فى حكمه ، وقد اقام علاقة مع السلطان مصطفى بن عبد الحميد العثمانى ، ومع والى تونس حمودة باشا ، ودعا للحركة الوهابية فى المغرب ، ثم جاء بعده المولى عبد المولى عبد الرحمن الذى انضمت تلمسان فى عهده الى المغرب . ثم تنازل عنها ، وخاض معركة اسلى وتطوان ، غير ان التوسع الاستعمارى الذى اخذ يهدد المغرب كان بلغ الاوج ، مستغلا صعب اجهزة الدولة فى داخل المغرب وضعف وطنية بعض التجار والعملاء الذين آثروا عن جهل وقلة وعى ، مصالحهم الشخصية على مصلحة البلاد العامة .

جاء عهد المولى سليمان بعد ركود دبلوماسى فى فى عهد المولى يزيد والمولى مسلمة اللذان لم يطل حكمهما طويلا ، وقد ورث المولى سليمان عبئا ثقيلا فى ميدان الدبلوماسية المغربية ، ذلك ان اوربا كانت تواجه حملات نابليون العنيفة حيث كان القائد الفرنسى يهدف الى حصار القوات الانجليزية ليفل من حدتها .

لقد كان نابليون يحلم باحياء روما القديمة ليسوس العالم عسكريا ، لذلك انهى عمليا عهد الثورة الفرنسية يوم اعلن عن تسميته قنصلا أولا حيث اخذ يحاول التحكم فى اوربا ومصيرها

ولا شك انه كان يفكر فى المغرب كما فكر فى غزو مصر ، ولكــن المولى سليمان كان يسلك سياسة الحياد الايجابى ، ولذلك وقف فى وجه اعتداء نابليون على اسبانيا ، كما وقف فى وجه اعتداءات امريكا على طرابلس ، وفى كتاب (مييج) عن الدبلوماسية المغربية توضيح لهذه المرحلة الدقيقة مــن سياسية المولى سليمــان ، وايا ما كان فان الشعب الاسبانى قاوم الحملة الفرنسية بما لديه من قوة ، وكذلك وقفت النمسا بزعامة مترنخ لتقاوم نتائج الغزو النابليونى ، وادى ذلك الى ظهور القوميات فى اوربا وكل هذه الحركات العنيفة فى اوربا كانت تردد صداها فى السياسة المغربية الخارجية التى التزمت الحياد ، ونادت بحرية الشعوب فى تقرير مصيرهــا ، ولذلــك لم يكــن نابليــون راضيــا عــن سياسة المغرب وقد خامرته فكرة مواجهته ، ولكنه عدل عن ذلك، وكتــب الى المولــى سليمان يطلــب منــه خيــلا مغربيــة يوجهها اليه على يد سفيره بطنجة .

الــزوايــــا :

قضى المولى الرشيد على الزاوية الدلائية، وحاول متابعة الزاوية الناصرية ولكنه عدل عن ذلك لمسالمتها له ، وضايق زاوية وزان . كما سجن المولى اسماعيل احمد التسناوى (ناظم رجال الحليــة ورجال التشوف) ، وتصدى المولى سايمان لمحاربة الزوايــا والطوائف والمواسم فى خطبة مشهورة متداولة متأثرة بالحركة السلفية والوهابية وبالاخص بعــد ورود السنوسى من بــلاد الشرق وتدريسه بالقروين ، ولم يمنع هذا ان يكون السلطــان سليمان متأثرا بالصوفية السلفية كما يتبين ذلك من اجازتــــه المتصلة بالسنــد الجزولى ، وكذلك الــف خطبة ضد المواســم والطوائف ، وجدد المولى اسماعيل صريح احمد الشبلى وعبد الله

القصرى ، واسس السلطان محمد بن عبد الله ضريح سيـــدى محمد بن عيسى وكان فى نفس الوقت عالما سلفيــا ينشر كتــب الحديث ، غير ان ذلك لم يضعف من شأن الزوايا فى أول هــذا العصر ، ويلاحظ لفى بروفنصال فى كتابه (مؤرخو الشرفاء) ان كتابة التاريخ توقفت بعد القرن الحادى عشر وخلفها فن التراجم نظرا لاستفحال الطرقية فى القرن الحادى عشر ، على انه فى آخر هذا العصر ضعف نشاط علماء التصوف اثر ظهور الحركة الوهابية ومساندة المولى سليمان لها بما ألي من كتب فيها وتصدى العلامة السنوسى لتأييدها فى القرنين .

وأشهر ما كتب فى التصوف والتراجم فى هذا العصر :

مرآة المحاسن لمحمد العربى الفاسى . والمنح الصافية فى الاسانيد اليوسفية لاحمد بن ابى المحاسن . والمنح الباديـــة لمحمد الصغيــر بن عبد الرحمن الفاســى المتوفى سنة 1134 . وابتهاج القلوب باخبار الشيخ ابى المحاسن وشيخه المجذوب . وصفوة من انشر فى اخبار صلحاء القرن الحادى عشر . ودرة الحجال فى مناقب سبعة رجال للافرانى ، وبدل المناصحة فى فضل المصافحة لاحمد السوسى البوسعيدى .

وكان ابو المحاسن الفاسى يدرس قوت القلوب والاحياء والشريشية فى آداب السلوك بالقرويين . والف محمد العربى بن الطيب القادرى عدة كتب صوفية ، اهمها تحفة اهل الصديقية ، وكذلك الف اخوه عبد السلام اغاثة اللهفان ، والمقصد الاحمد ، ومعتمد الراوى فى مناقب سيدى الشاوى .

ونظم عبد الرحمن الصوفى فى الملحون الشعبى وجمع ذلك (دو كاسترى عام 1896) فى كتابه Gromes de Sidi Abderrahman كما الف ابن القصيرة كتابا فى العشق وهو صاحب كتاب مناقب

ابن عمر ، على ان فى محاضرات اليوسى وصفا للحياة الصوفية بالمغرب وذكر لرحلة ابى عبد الله ناصر الى الشرق وتلقينه الطريقة الشاذلية للمصريين ، وكذلك تضم الرحلة العياشية نتفا عن حركة التصوف المغربى فى العصر العلوى .

وكتب الشيخ احمد الناصرى رحلة فيها معلومات صوفية ، وقد ترجم نتفا منها بريوجير تحت عنوان :

(De l'Algérie et des Etats Barbares que de l'Ouest de l'Est)

وكان لابد ان تظهر حركة ضد المتصوفين المنتشرين هـذا العصر ، واهم من نقد هؤلاء ابن عبد السلام الناصرى فى كتاب (المزايا فيما أحدث فى ام الزوايا) ، وكتب محمد بن عبد الكريم المغيلى كتابه (تنبيه الغافلين بدعوى مقامات العارفين) ، وكشف قناع الالتباس عن بعض ما تضمنته بدع مدينة فاس لمحمـد لصباغ ، وألف اليوسى المحاضرات المصنفة (سنة 1095) ، والف المهدى الفاسى ، كتاب تحفة اهل الصديقية ، وصفع القفا لم يتبع سيرة المصطفى . وقبله فى القرن التاسع صنف احمـد الماجرى كتاب (المنهاج الواضح) ، كما ألف ابن الخطيب ، الرد على اهل الاباحة ، وسد الذريعة . وفى القرن التاسع كذلك ألف الشيخ زروق محتسب الصوفية كتاب عدة المريد الصادق .

الفـــن المعمـــارى :

عمد العلويون فى أول الامر الى الجمع بين التقاليد المرينية والسعدية ، ويتجلى ذلك فى منشآت مكناس كمدينة الريـاض والقصر الابيض ومسجد (للا عودة) ومسجد (الروا) ودار مخزن مراكش بقببها « الستينية » واجنحتها المتعددة ، ويمتاز البناء العلوى باتساع رقعته وفخامته ومتانة الاسوار والعلـو الشاهق واستعمال عناصر الفن التقليدية ، ويتسم (مسجد الروا)

بخلوه من كل ممر اساسى ، وعدم وجود اى رواق فى ساحتـــه وعدم تناسق توزيع ابوابه مما يحمل على الظن ان عنصرا هندسيا جديدا مستوحى من الغرب ويعسر أن نذكر أعلام الفكر فى هذا العصر ونكتفى باشهرهم وهم :

البعقيلـــى 1009 وهـــو عالـــم فلكـــى ، لـــه تعليقـــات وتعقيبات فى علم الفلك ، وهو الذى انشا الساعة الرخامية بجامع (تارودانت) والف روضة الازهار ....

ومنهم الرحالة العياشى مؤلف الرحلة العياشية المشهورة ..

ومنهم الطيب العلمى المعلق على النزهة للشيـــخ داود ، والمذيل لارجوزة ابن سينا ، ومنهم المسناوى 1059 ومنهـــم عيـــارة 1072 شارع ابن عاشـــور والتحفة ونافد ابن زكرى ، ومنهم عبد القادر الفاسى 1007 ومنهم عبد السلام القـــادرى 1110 مؤلف المقصـــد والاقتباس وهـــو شاعر (وبيوغرفـــى) مشهور ، ومنهم الشاعر القصصى محمد العلمى صاحب الانيس ، وصاحب الموشحات ، ومنهـــم احمد واعـــاى السوسى 1046 م مؤلف رحلة الزلفى ، ومنهـــم ابن جـــلال ، والحبابى صاحـــب المقامات والامداح النبوية والسيير الصقيل ، ومنهم احمد بـــن ناصر الدرعى مؤلف الاجوبة ، والرحلة ، ومنهم العلامة الطيب الزبادى مؤلف بلوغ المرام ، ومنهم اللغوى الازمورى ، والشاعر سليمان الحوات ، والعلامة الرودانى والعلامة الشركى .

واخذت الزوايـــا فى الظهور من جديـــد فبرزت الزاويـــة (الحراقية) المشهورة فى تطوان باستعمالها الطرب بالآلـــة الموسيقية ، وكالزاوية (الوزانية) لمؤسسها عبد الله الشريـــف الذى جاءت تفاصيل عنها فى كتاب (تحفة الاخوان فى شرفاء وزان)

وكزاويــة الشيخ ماء العينــين فى الساقية الحمــراء بشنقيط ، وكالزاوية التجانية بعين الماضى لمؤسسها السيد احمد التجانى دفين مدينة (فــاس) .

ويذكر أوجين لوبان (Engen Subin) فى كتابه مغرب اليوم Morocco Qfpody) صفحة 34) ان القديس فرنسيس نفسه ارسل أول بعثة فرنسيسكانية الى المغرب حيث استقرت بمراكش بالاضافة الــى بعثات مسيحية اخــرى ظلت بفاس ومراكــش والصويرة واسفى وازمور والجديدة وعدة قرى اصبحت الان مدنا كالخميسات وازرو ، وكانت البعثة فى مراكش اسكتلاندية بروتستانتيــة يشرف عليها احــد اتباع الكنيسة المسيحيــة فى (غلاسغو) وقد استغل المستعمرون عمل البعثات وجعلوهــم حلفاء الاستعمار .

فظهر رد فعل لمقاومة المسيحيين والشك فى نوايا الكنيسة التى انحرفت داخل الانحراف وفى ربيع سنة 1930 وكان نشاط حركة التبشير الكاتوليكى متجليا فى الظهير البربرى الذى فضح أمره وقاومه المغاربة قاطبة بعنف ...

تأسست أول مطبعة حجرية بفاس سنة (1868) وقــد بدأت المطبعة عملها فى شكل بسيط ، تطورت فى عهد محمد بــن عبد الله ، وظهرت مطابع حجرية متعددة تأزرت على نشر التراث المغربــى ، وطبــع كتب العلمــاء للالمعى فى عصرهم كمطبعــة (الازرق) ومطبعة (بن عبد المولى) ومطبعة الذويب ، ثــم ظهرت المطبعة الحفيظية وبعد ذلك المطبعة الملكية ، بالاضافة الى طبع الكتب المغربية بمطابع القاهرة كمطبعة (بولاق) فى القاهرة .

الدبلوماسيـــة :

كان التطور الاقتصادى فى أوربا والبحث عن المادة الخام من الاسباب التى أأثرت التجربة الدبلوماسية فى أوربا والمغرب ، ومنذ اكتشاف امريكا الجنوبية واستيلاء البرتغال والانجليز على سواحل وجزر فى افريقيا وآسيا والصلات تشتد فى الدول الغربية والمغرب ، اذ أن طريق السفن والمواصلات وحفظ توازن القوى الاقتصادية كان يرتكز على أسس سياسية تنمو باستمرار فى المغرب والدول التى يهمها الامر ... ولا شك ان الصادرات المغربية الى الخارج كانت فى حاجة الى تنظيم اسواق وفتح مجالات وبحث عن الزبناء بالاضافة الى الصادرات التقليدية من جلود ولحـــوم وثمار وفواكه وعسل وسمن وريش كما ان القطن وللزرابى كانت صادرات أخرى ظهرت فى عصر السعديين كالسكر الذى كان يصنع فى شيشاوة ومراكش وتارودنت .

لذلك ظهر عامل جديد فى ميدان الدبلوماسية المغربية وهو الصلات التى تربط بين زعماء الطوائف وبين ممالك اوربا منذ بداية انهيار الدولة السعدية ، حيث كان فى هذا الترابط ما يضمن لهؤلاء صداقة تمدهم بالعون المادى كشراء الاسلحة والعون المعنـــوى كاستنادهم الى دولة من الدول الكبرى .. ولذلك لا بدع ان نرى صلات دبلوماسية بين السعديين ، والاندلسيين الدلائيين . اما مع السعديين فيذكر دوكاستر فى الجزء الثانى ص 106 من السلسلة الاولى من هولاندة ان زيدان السعدى حين انتصر عليه ابو محلى اضطر الى مغادرة آسفى والتجأ الى مرسى أكادير (سانت كروا) فاكترى فى شهر جوان ــ 1612 باخرة القبطان جان فيلبـــى دوكاستيلان ، (ليذهب لى فرنسا ويلتجىء الى ملكها لويـــس 13 ليمده بالاسلحة (وكانت وردت المغرب وحملت اليه رسائل من لويس الثالث عشر والذوق دوكين) بحملها أمتعته ولكن الباخرة

فرت بسرعة فى الشاطىء الى فرنسا وقد سرقت السفينة أيضا من طررف اسبانيين فحمل ما فيها الى اسبانيا ومن جملة ذلـك خزانة كتبه التى كان عددها يتجاوز ثلاثة آلاف مجلد فأهداهـا الملك فيليب الثالث الى خزانة الاسكوريال ، وضعفت من أجل ذلك ثقة السعديين فى فرنسا فاكترى المولى زيدان باخرة هولندية من مرسى أسفى وحملها اهله وعددهم مائتان الى أكادير والمهم ان ان المولى زيدان كتب رسالة الى حكومة هولندة بتاريخ 27 ربيع الثانى عام 1020 يذكر ان سفينة فرنسية وردت الى المغـرب وعليها سفير فرنسا القبطان جوهان فيليب ، الذى وقع اتفاقية صلح بين فرنسا والمغرب وبمقتضاها فكت الاسرى الفرنسيين . واستعمات الباخرة لنقل أمتعة السلطان السعدى الى فرنسا ولكن ربانيها فرا دون سبب معقول ، ولذلك أوفد زيدان السعدى سفيريه القائد احمد الجزولى وناصر قرطة ليذهبا الى فرنسا عن طريق هولنـدة .

والسفير الجزولى هو أحمد الجزولـى قاضى تارودانت وسوس كما يذكر دوكاستر مذكرة من القائد يوسف بيكاستـر سفير المولى زيدان الى حكومة هولندا بتاريخ 31 يوليوز 1624 فى موضوع خيانة جام أبوت الذى باع سلعة للمغرب ثم غـادر البلاد دون ان يدفع السلعة التى اخذ ثمنها . وكان ممثل المغرب فى هولندا (صامويل بلاش) وهو يهودى من أسرة معروفة بالمغرب وكتب الى المولى زيدان اقتراحات على هولندا وردت عند دوكاستر (ص 55 ج الثانى ، السلسلة الاولى) وفى نفس السلسلة ج 3 ص 290 مذكرات (رووبل الهولندى 15 ابريل 1623) يذكـر فيها بيع التاجر النيرلندى لاسلحة الى أصحاب بودمعة وفى نفس السلسلة (ص 4 و 5 ج 4) سرد ليوميات التاجر الهولنـدى ادريان ماتان الذى جاء الى المغرب فى 1646 على ظهر الباخـرة

(جينلورلاند) وكان بها السفير الهولندى لابى دميعة (انطوان ليدركيك) ليفاوض فى اطلاق سراح النصارى المأسورين بسوس — وصاحب اليوميات يتكلم عن سوء معاملة الاسرى ناسيا ما يلاقيه المسلمون فى بلاد اوربا من محن الاسر والتعذيب والاسترقاق .. والغريب ان السفير الانجليزى (هريسون) يتحدث فى مذكرته المؤرخة فى اكتوبر سنة 1630 على ما ينعم به تجار النصارى من حرية وامن فى بلاد سوس . وفى نفس السلسلة ص 575 ج 5 يروى عن البحار هو دو لوستر (الهولندى) الذى كان يعمل فى البحرية الهولندية فى سفينة (سالاماندر) حياة الاسرى وافتداءهم لستة عبيد هولنديين كانوا فى طريقهم الى البرازيل . ويروى فى نفس السلسلة ص 571 ج 5 حكايات عن رحلة لوتير مقتبسة من حياة لوتير بقلم جرار براند وهى مطبوعة بأمستردام سنة 1698 . وفى نفس السلسلة أيضا ص 470 ج قرار من حكومة هولندا ولاهاى فى موضوع الباخرة اراسموس التى تحطمت بشاطىء المغرب بسوس فوجهت الحكومة الهولنديد رسالة الى سيدى على بتاريخ 21 ماى 1639 اعتمادا على الاقتراح الذى قدمه السفير اسحاق بلاش الى حكومة هولندة الذى يرى ضرورة احياء علائق هولندا مع المغرب ونفوذ المغرب على غينية التى بها شركة الهند الغربية ، وفيها ما يشعر بأن الحكومة المغربية كانت تعرف مدى تلاعب اليهود بالعلاقات مع اوربا ودفاع اليهود عن مصالحهم .

أما عن علاقة هؤلاء مع انجلترا ، ففى السلسلة الاولى فى رسالة من وليام باحى الى ملك انجلترا هز الرابع بتاريخ 1543 ان الفرنسيين يفكرون فى أخذ المعدن من المغرب لصنع المدافع .

وفى ص 71 ج 1 نقل عن رحلة جامس طوماس الى المغرب بتاريخ 1552 وبها ذكر للتجارة ونقل البضائع وزراعة قصب السكر . وفى السلساة بالجزء الاول ذكر للمراسى التى تتعامل معها

انجلترا وعلاقة البرتغال وانجلترا بالمراسى المغربية والمـــــواد التى يشتريها المغرب وفى مقدمتها الاسلحة .

وفى الجزء الاول نقل عن رحلة الانجليزى هزى روبير بتاريخ غشت 1585 وتمثله للمكة اليزابيط فى المغرب ومفاوضته مـــع السلطان السعدى ووزيره ابراهيم السفيانى وتوجه السفيـــر المغربى الثالث فى السلسلة الاولى من رسالة من سيدى على الى شارل الاول ملك انجلترا فى موضوع الاسرى بتاريخ صفـــر سنة 1040 موافق 1630 .

وفى ص 235 ج 3 عريضة للتجار الانجليز القاطنين بالمغرب الى حكومتهم فى موضوع احتجاج هؤلاء على اعتبار سيدى على ، على السعديين ، وبه تقرير أيضا مـــن (بينو) الانجليـــزى فى موضوع التجارة الانجليزية مع المغرب ، ثم تقرير آخر كتبـــه (سكوت) فى نفس الموضوع .

وتحدث دوكاتسر عن العلائق مع فرنسا فجاء (فى السلسلة الاولى ص 303 ج 1) نص اتفاق تجارى بين روان الفرنسية فى فى شأن باخرة سمسون الفرنسية التـــى تحمل السلع وتأتـــى بالسكر ... و (فى ص 544 ج 3) نقل عن رحلة مارج الفرنسى ويذكر هذا الرحلة انه حضر مقابلة السفير المغربى جوذر بـــن عبد الله الملك انجلترا بلندن . وهذا السفير برتغالى الاصل . سافر الى انجلترا صحبة (روبير بلاك) .

ويذكر دوكاتسر فى السلسلة الاولى (ص 414 ج 3) معاهدة لويز الثالث عشر والسلطان الوليد الزيدانى بتاريـــخ 1631 فى موضوع عدم تفاوض فرنسا مع الثائر بن على الملك .

وفى صفحة 358 ج 3 ذكر لبيعه المولى عبد الملك السعدى من مراكش وفاس وسوس وكاكو ، ووادى النيجر .

وظلت السياسة الخارجية المغربية على هذا النمط حتى اذا جاء المولى اسماعيل كان البطل الذى وحد المغرب شمالا وجنوبا شرقا وغربا على أساس شبكة من القلاع والحصون ونقل القبائل من جهة الى أخرى لخضد شوكتها ، بما سماه الزرهونى فى رحلته (باللف) وتكوين جيش مغربى تعتمد عليه الدولة لمواجهة الغزو الخارجى ، والفتن الداخلية بدل الاعتماد على القبائل . وكان من نتائظ هذا الاستقرار خلق حوار دبلوماسى مع مختلف الدول وتبادل سفراء معتمدين مع المغرب .. وسأعرض باختصار الى الدبلوماسية المغربية من وجهة المغرب فقط ، حتى تكون النظرة الموجزة متكاملة على الاقل ، وقد يكون المولى اسماعيل من الذين ركزوا الدبلوماسية المغربية على أسس عريقة ، فقد بسط له فى العمر ، واتيح له ان يحكم مدة طويلة ، وفى عصر حافل بالاحداث سواء فى فرنسا حيث لويس الرابع عشر — 1715 — 1643 — أو فى انجلترا ، حيث الخلافات المستفحلة بين البروتستانت والكاثوليك أو فى روسيا القيصرية حيث عصر كاترين (1729 — 1786) أو فى الدولة العثمانية التى كانت فى أوج عظمتها وعزها ورغبتها فى السيطرة على الشمال الافريقى كله ..

واذا كان الاستعمار بمفهومه الاستغلالى للارض وسكانها والاتجار فى انتاج القارات اخذ يستهدف بعنف كلا من افريقيا وآسيا ، فان عدة بلدان أخذت التحرر بالقوة ، وكان من جملتها امريكا التى اعلنت الانفصال عن انجلترا ، وأخذ الامريكيون يقاومون الاستعمار وبدأت المقاومة يوم اعلنوا الاضراب عن (الشاى) وعقدوا أول مؤتمر فى مدينة فيلادلفيا سنة 1774 ليقرروا فيه الصمود ضد المستعمرين والاستعداد للحرب ، وفى المؤتمر الثانى المنعقد فى نفس المدينة سنة 1775 انتخبت واشنطن قائدا عاما وأعلن عن ميثاق الانسان .. وكان العالم الاسلامى

وضمنه المغرب يتطلع الى تحرير المستعمرات ، ليتحرر من تربصات الكنيسة وحنقها على العالم الاسلامى بعد هزيمتها فى الحروب الصليبية ، ولهذا كان المغرب فى طليعة المؤيدين لتحرير الانسان واعلان ميثاق حقوق الانسان التى أعلنت فى الواقع منذ عهد الخليفة عمر رضى الله عنه الذى قال : « متى استعبدتم وقد ولدتهم امهاتهم احرارا » ؟ وبدأ الغرب يتطلع الى الشرق وافريقيا بعد هزيمته فى الحروب الصليبية ، ويمكن ان نعتبر سنة 1534 فى عهد فرانسوا الاول بالنسبة لفرنسا أول محاولة حكومية رسمية لارتياد العالم بحثا عن مجال اقتصادى . حتى اذا كانت سنة 1604 بدأ الاستعمار الفرنسى على يد شامبلان Champlin الذى انشأ مستعمرة سماها (أكاديا) المعروفة الآن (توفا سكوشيا) ثم سنة 1608 مستعمرة (كوبيك) .. ثم انشأ مستعمرات اخرى فى خليج المكسيك سنة 1682 المسمات بلويزيانا نسبة الى الملك لويس الرابع عشر ثم وقعت حرب السنين السبع سنة 1756 واشتركت فيها فرنسا ضد روسيا محاولة تركيز جهودها بين سياستها فى أوربا ، وسياستها فى المستعمرات ، فأضاعتهما معا على يد (بت) الذى كان يسعى لقهر الاسطول الفرنسى .. وفى هذا العهد العصيب كانت فرنسا تخطب ود المولى اسماعيل الذى عرف كيف يحتفظ بالصداقة بين فرنسا وانجلترا ليبنى لبلاده مجدا سياسيا ومكانة اقتصادية فقد كانت (أوربا) على عتبة نهضتها الكبرى ، مستفيدة من التجربة الاسلامية ومن الثقافة العربية المنتشرة آنذاك فى اكسفورد والسربون وسلامانكا وسالرنو ، وكانت نهضة اوربا مدينة للمفكرين الاحرار المعارضين لتوجيه الكنيسة والمتأثرين بالفلسفة اليونانية المترجمة والمشروحة بواسطة العرب ، حيث كان منهم فولتير ، وروسو ، وبيكون ، والعالم الانجليزى (نيوتن) للمولى

اسماعيـــل معاصرة مطابقة تمامـــا لمولده ووفاتـــه ، أى سنة 1643 ـ 1727 وهو قائد الفكر التجريبى التحررى فى أوربا، وهو فكر استفاد من آراء التجريبيين العرب وكان (لابــلاس) Laplace 1759 ـ 1827) العلامة الفرنسى الفيزيائى المشهور من اساطين تحرر الفكر الغربى واطلاعه على حضارة الشرق كما كان منهم منتسكيو الذى كانت له جولات فى كتب ابن خلدون ، وكان لهذا التحرر الفكرى تأثير على السياسة وأساليب الحكـم فى أوربا فعاشت انجلترا سنواتها الاولى فى التجربة البرلمانية ضد شارل الاول 1625 ـ 1649 ثم جاء جيمس الثانى سنة 1687 فأصدر لائحة التسامح الدينى على حساب البروتستانية وتدخل السلطان المولى اسماعيل فى الموضوع معلنا ان البروتستانية أكثر تقربا للاسلام من الكاثوليكية .

ولا شك ان الخلاف فى انجلترا من جهة وفى فرنسا واسبانيا من جهة اخرى اثر فى المستعمرات الامريكية ، مما أدى الــى استقلال امريكا واعتراف المغرب بهذا الاستقلال ليخضد شوكة الاستعمار الانجليزى والفرنسى ، والبرتغالى ، وبينما كان الغرب المسيحى يبحث عن مجالات للتوسع الاستعمارى ، ويعيــش فى تناقض مع المبادىء الحرة التى أعلن عنها كتاب القرن السابع عشر ، ويحاول تحقيق الانظمة البرلمانية فى نهاية عصر اويــس الرابع عشر الذى كان يعيش قمة عهد التفويض وفى نفس هذه الحقبة كان المغرب يعيش عهد اسماعيل الاول باحثا عن اداء رسالة انسانية ، وتحقيق وحدة داخلية ، ومقاومة الغزو الاستعمــارى الجديد .. أما من وجهة النظم التشريعية والحكم فقد كان المولى اسماعيل ـ وهو أعظم حاكم طبع عصره ـ لا يصدر فى آرائه الا عن فتاوى الفقهاء والعلماء صيانة لدينه ، فكان المجاصى واليوسى وغيرهما من أقرب العلماء اليه ، يبذلان النصح ويقيمان الحكم

على أساس اسلامى ، وكان المولى اسماعيل يحاول دائما ان يقنع الغرب برسالة الاسلام فقد بنى قلعة خاصة لمن يسلم من اسرى المسيحيين فى المغرب ليحتفظ سكانها بتقاليدهم ، ووجه رسالة الى ملك انجلترا ينتقد المسيحية ويرى ان البرتستانية احسن من الكاثوليكية على اى حال ، وقد اهتم الكتاب المسلمون فى عصره بالمقارنات بين المسيحية والاسلام مبدين سماحة الدين الاسلامى وآخذين على المسيحية نزعة التقليد والاستسلام والخرافة وانظمة الكهنوت .

وشهد السفراء الذين وردوا على المغرب امثال استيورت والكومندار استيفار (كما يتمتع به عصر المولى اسماعيل من استقرار وتفتح وعمران ، حتى اذا جاز ان نقارن بين عصر لويس الرابع عشر وعصر المولى اسماعيل نرى انهما طبعا عصرهما بطابع القوة والفن ، فكانت قصور مكناس ببساطة فنها المعمارى ، لا تقل مكانة عن قصور فيرساى وعبقرية الفنان الفرنسى مع اختلاف ذوق الفنيين .

واذا كان المولى اسماعيل أسس للمغرب داخليا فقد كانت قضايا الحدود الشرقية مما يثير المشاكل السياسية ولذلك كاتب ابراهيم الشريف فى تونس ليضيف على الاجانب الذين اخذوا يتسربون الى الشمال الافريقى ويقيمون خلافات مع جيران المغرب .

وفى سنة 1103 هجرية ارسل لحاكم الجزائر سفارة لعقد الهدنة وكان من اعضاء الوفد المغربى المولى عبد الملك وكاتبه . فأرست معاهدة صلح وحسن جوار ، وقد كانت معركة العرائش التى خاضها المغرب ضد الاسبان اعظم اعلان عن سياسة الحكم الجديد الذى لا يهادن فى قضية الوحدة المغربية ولذلك ارسل اليه

كارلوس الثانى وفدا سفاريا فيه (منديل) للمفاوضة فى قضيـــة اسرى العرائش وكان رده ان بعث اليهم (سنة 1109) عمر بن الوهاب الغسانى لتحرير اسرى المسلمين من جهة ، وأخذ الوثائق الاسلامية التى بقيت بالاندلس بعد نهاية حكم العرب بها ، أما مع انجلترا فقد وجه الى المولى اسماعيل (شارلس الثانى) لعقـــد تحالف يضايق به فرنسا ويقطع الطريق على منافسه جيمـــس الثانى وقد وقف المولى اسماعيل مع جيمس الثانى ودعاه الـــى الاسلام ، ويوجد نص هذا الكتاب بعدة مصادر مغربية وغيرها ، كما توجد وثيقة سياسية توضح السياسة الاسماعيلية فى الحلف بين فرنسا وانجلترا رغم ان علاقته مع لويس الرابع عشر كانت اقوى من اية علاقة مع دول اخرى ، لأن لويس الرابع عشر كان راغبا فى الاتصال مع الدول الافريقية محاولا بذلك سد الطريـــق أمام الانجليز حسب المناهج التقليدية للسياسة الفرنسية ، ولذلك تردد كثير من سفراء المغرب على فرنسا كعلى الريفى ومحمـــد تميم وعبد الله بن عائشة ، الذى اشتهر فى بلاط لويس الرابـــع عشر بذكائه ودعابته وخفة دمه حتى ليقال انه خطب ابنة لويس الرابع عشر للمولى اسماعيل تمتينا للصلات بين المغرب وفرنسا .

وفى عهد السلطان المولى محمد بن عبد الله توجهت سفارة الى الحجاز لتعرج على الاستانة ، وفى كتاب احراز المعلى لمحمد بن عثمان تفاصيل عن هذه السفارة التى كان على رأسها المولى عبد الملك بن ادريس والكاتب محمد بن عثمان وتوالت السفارات الى الدولة العثمانية التى كان فيها ابو القاسم الزيانى ، ومحمد الزوين الرحمانى .

وكما قويت صلاته مع العثمانيين قويت مع سلطان مكـــة الشريف سرور حيث صاهره بتزويجه كريمته وكانت هذه الرابطة من اقوى ما يمتن الصلة بين المغرب والمشرق ورفع سمعة البلاد

وذكره فى مختلف الاوساط الشرقية وتأكيدا للتضامن الاسلامى الاسلامى وجه الى ولاية طرابلس مراكب تجارية محملة بالمؤن الغذائية وذلك بعد ان حلت ازمة اقتصادية بطرابلس ، ومـــع الاسف فقد تصدت الاساطيل البحرية من نابل للمراكب المغربية ولذلك رأى ان يؤمن فى الطريق البحرى بعد هذه الحادثة فيهادن دول البحر الابيض المتوسط .

واذا تركنا الشرق وافريقيا الشمالية لنرى الدبلوماسيـــة المغربية فى اوربا نجد ان المولى محمـــد بن عبد الله أبرم عـــدة اتفاقات ومعاهدات وكان يواجـــه فى ذلك صعوبة جمة أولهـــا للخلافات المستفحلة مـــع الدول الغربية فيمـــا بينها وثانيـــا على المجالات الاقتصادية وثالثا مشاكل القرصنة البحرية التـــى كان المغاربة يردون هجماتها المستمرة ويتهمون دائما بين الدول الاوربية باعتداآتهم وقد ساق القرصان المغاربة سفينة فرنسية فهاجم الاسطول الفرنسى مدينة سلا والعرائش ، واضطـــرت فرنسا ان تخاطب الحكومة المغربية لفداء اسراها وكان ذلك بداية المفاوضات مع لويس الخامس عشر وعقد الكونت دبرنيـــــون معاهدة مع المغرب تضم عشرين مادة ، وتوجه بعد ذلك عـــــلى مرسيل الى باريس لتنفيد الاتفاقية . واقامت فرنسا مفوضا عنها بطنجة وهو (برطلمين دبطنير) وفى عهد لويس السادس عشر توجهت بعثة دبلوماسية برأسها الطاهـــر فنيش وسهرت هـــذه البعثة على تنفيذ شروط الاتفاقية المتعلقة بتبادل الاسرى مظهرة الجوانب الانسانية فى القانون المغربى ورغبة حكومة المغـــرب فى الازدهار والامن والسلام العالمى . هذا عن السياسة المغربية مع فرنسا ، أما مع جارة المغرب اسبانيا فقد توتر الجو بـــين الدولتين لاسباب كثيرة ، اهمها مآسى حروب الاسترجاع وثانيها الغزو الصليبين على الشواطىء المغربية وعندما اصبح المغرب فى

ظلال وحدته قويا منعا حظيت اسبانيا وده واتباعا لذلك توجه احمد الغزال سفيرا للملك كارلوس الثالث وقد ترك لنا السفير كتابه (نتيجة الاجتهاد) ابرز فيه ملاحظات تاريخية وسياسية وهو يتم عن ذكائه ولباقته .

وتوجه سفير آخر الى اسبانيا وهو ابن عثمان الذى الف فى موضوع رحلته (الاكسير فى افتكاك الاسير) وقد نجح فى سفارته موفقا .

ونظرا لمكانة المغرب بين دول الشرق والغرب فقد ظلت اسبانيا من السفير المغربى ان يتدخل فى قضية أسرى اسبانيا بالجزائر ، كما سعت من جهتها ليراعى ملك نابولى سيادة الاسطول المغربى فى حوض المتوسط .

ويذكر التاريخ فرسان رودس الذين كانوا يحكمون مالطة كما كانوا صليبيين متعصبين القرن الثامن عشر الذين طالما اغاروا على الشواطىء الافريقية وقد فكر المغرب فى قطع دابر عملهم على الصعيد الدبلوماسى وكان (محمد الحافى) خير من انتدب لهذه المهمة والسفير ابى عثمان كذلك حيث اتصل برئيس هذه العصابة (منويل درويلد) كما اتصل بملك نابولى (فرنادى) وفك سراح اسرى المسلمين التونسيين والطرابلسيين .

وكذلك توجه للسويد الحاج التهامى لعقد معاهدة مع حكومتها كما عقد مع الدنيمارك معاهدة ابرمها القنصل الدنماركى كوشرب .

ووجه الى انجلترا القائد العربى المستيرى ليبرم اتفاقا مع جورج الثانى على اساس المعاهدات المغربية الانجليزية . وتوجد وثائق ورسائل متبادلة بين محمد الثالث وجورج واشنطون عن التوسط فى خلاف بين ليبيا وتونس من جهة وأمريكا من جهة

أخرى ، ومنها رسالة شكر من جورج واشنطون الى محمد بن عبد الله كما بحث فيها الوثائق يصدر الحاج عبد الرحمن ان سفير الباشا الفرمايلى ليشكر السلطان المغربى على الوساطة الموفقة .

ويمكن ان يجعل من سنة 1777 فترة تحول فى السياسة المغربية حيث شعر الملك المولى محمد بن عبد الله بمدى خطورة الغزو التركى لافريقيا الشمالية وايمانا منه بالخلافة الاسلامية أخذ يدعو للاتراك على المنبر بتأييد حمايتهم للاسلام ، وأصدر فى ذلك الوقت قرارا يدعو فيه الدول القوية الى السلام ، وكانت روسيا تحت حكم كاترين الثانية التى بلغتها دعوة المغرب فكان ذلك بداية عهد دبلوماسى مشرق ، اذ فى سنة 1878 وقع اتصال بين ممثلى روسيا وممثلى المغرب ، كما وقع اتصال بين ممثلى المانيا وفرنسا وانجلترا وباجيكا واسبانيا لتسليم دعوة التعايش السلمى .. وبالنسبة للروسيا فقد وقع فى التاريخ المذكور اجتماع بين قائد الاسطول الروسى (كوزليااينوف) والسفير المغربى محمد بن عبد الملك ، حيث اجتمعا معا فى مرسى (ليفورى) وابلغ القائد الروسى السفير المغربى امر كاترين الثانية باتخاذ موقف ودى ازاء المغرب، كما ابلغه السفير المغربى قرار الملك محمد بن عبد الله بفتح الموانىء المغربية أمام السفن الروسية ، وتبادل القائد الروسى والسفير المغربى صكوك عهد التعايش السلمى والتبادل الاقتصاوى وتنص الوثائق المتبادلة على ضرورة التعايش السلمى والتبادل الاقتصادى لازدهار البلدين ، وتنميتها ، وتنفيذا لمقتضيات المعاهدة وضع القائد الروسى بارجتين (بافل) و (كونستنزا) اللتان اقلتا الوفد المغربى من (ايفورن) الى طنجة ، واستقبلتا فى المغرب بحفاوة . ورجع الوفد يحمل رسائل من ملك المغرب سيدى محمد بن عبد الله الى كاترين الثانية ونائب رئيس سلك الامبرالية وتدعو الرسائل الى تأكيد الدعوة

الى التعايش السلمى وتوثيق عرى الصداقة .

أما عن علاقته مع اسبانيا فقد عقد معها معاهدة مكناس ذات ثمانية وثلاثين مادة على يد السفير ابى عثمان .. وقد حاول جهده ان يضيق من حرية التجارة الاوربية فى المغرب فيمنع المغاربة من الذهاب الى اوربا للتجارة ليضايق حرية التجارة الاوربية فى المغرب ، آما مع انجلترا فقد ابرم السفير الانجليزى جيمس ماريه سفير جورج الرابع والسفير المغربى عبد الرحمن عشعاش واحتوت المعاهدة فى احدا واربعين مبدأ حيث ابرمت بفاس سنة 1081 م .

وابرم مع حكومة السويد معاهدة وقعها من الطرف المغربى عشعاش الى تبادل الهدايا حيث وردت عليه مدافع حربية وبعث المغرب اسدا وخيلا عربية وقد تعود المغرب ان يهدى لاوربا الاسد والزرافات والخيل وكانت هذه الهدايا تتطلب رعاية كاملة ووسائل لنقلها ومرودين لحراستها ، ولطالما ارتفعت نفقاتها الى ما يعادلها .

إن المشاكل وبالاخص الدبلوماسية التى واجهها المولى سليمان هى قضية الحدود الشرقية وبالاخص فتنة عرب تلمسان والترك ، نظرا لرغبتهم فى الانضمام الى المغرب وكانت هذه القضية تتطلب كثيرا من اليقظة واللياقة فى حلها وفى سنة 1181 عقد المغرب مع الدانمارك معاهدة تجارية حضر بموجبها على تجار الدانمارك الاستمرار فى شركتهم التجارية ، وكان قد ترتب فى ذمتهم 12500 ريال ـ كما عقد المغرب معاهدة مع السويد .

وعندما نشبت الحرب بين العثمانيين وروسيا ساعد فى هذه الحرب فمنع السفير الحرية الروسية من الدخول الى البحر

الابيض المتوسط وكان الاميرال المعطى فلوريس حارس البحر المتوسط ليقف فى وجه السفن البحرية وقد تجنب الروس الدخول الى البحر المتوسط ثم غنم المغرب بعد نهاية الحرب سبعة عشرة سفينة لم يخضع لشروط المعاهدات البحرية أما الشرق فقد كان مقبلا على نهضته الكبرى حيث ظهرت الحركة الوهابية ذات النزعة الاصلاحية وكان المولى سليمان من المؤمن يجدون دعواها حيث اعلن منشورا فى بلاده متفقا مع خططها واذا كان عصر بنى مرين قد بلور خلاصة تجربته السياسية ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع فى مقدمة كتابه فان عصر المولى سليمان اعطى تجربة تاضحية للمؤرخ الزيانى الذى طالما تنقل فى عواصم الشرق والمغرب فى سفارات ناجحة مبرزا فهما عميقا للمشكل الشرقى والاسلامى امام تهديد الغرب وتقدمه ومغامراته .

وجاء المولى عبد الرحمن (1778 – 1859) ليجد العالم مقبلا على صراع أشد مما كان يعانيه فى عصر المولى محمد بن عبد الله والمولى سليمان من بعده ذلك ان أوربا اجتازت مرحلة الصراع الداخلى فيما بين ممالكها الى مرحلة الاصلاح السياسى والتوسع العسكرى خارج أوربا فكان مترنيخ منظم النمسا محافظا على سلطته كما كان فردريك وليم الرابع يحاول فى المانيا الاحتفاظ بسياسة مما ادى الى ثورة 1848 التى أقصي بها عن الحكم وثورة المانيا التى تداركها فريدريك .

وكانت هذه الاحداث فى اوربا تساير عهد ازدهار فى الكشوف العلمية مما دفع اوربا الى التوسع الاقتصادى والبحث فى مجالات لهذا التوسع . ففتح الانقلاب الصناعى باب الاستعمار الاوربى حيث اضطرت المعامل للبحث عن المواد الخام ، فما كان من اسباب الاستعمار واختلاف نوعيته بين قطر وآخر ، وفرضه بالقوة الضارية والاحتلال العسكرى وابادة المقاومة المضادة

والتدخل المباشر واستغلال البلاد اقتصاديا .

وحسب مراسيم متبعة ذكرها بعض السفراء فى مذكراتهم وذكرها المؤرخ ابى زيدان فى العز والصولة فقد كانوا يحظـــون بمقابلة الملك بحضور الحاجب وهيئة الوزراء ... وكم حاول بعض السفراء ان يشذ عن هذه القاعدة فما استطاع الى ذلك سبيلا .

وجاء السلطان محمد بن عبـــد الرحمن ليجد نفسه وجهـا لوجه أمام تحدى أوربا السافر أيضا وامام دول مستبججة بقوتها العسكرية ، ودهائها الدبلوماسى ، ومكايدها المتربصة . وادرك لساعته ان القضية رهينة يتطور المغرب اجتماعيا وعسكريا وتقنيا ، كما ادرك الكتاب المغاربة المعاصرون ان على المغرب ان يواجـــه اوربا بسلاحها ، فألف الكردودى تأليفا فى الحرب النظاميـــة الواجبة على الامة ، والف فى نفس الموضوع المؤرخ اكنسوس .. فوجه السلطان محمد الرابـــع بعثات الـــى اوربا للتخصص فى التقنيات وفرض التجنيد العسكرى واهتم بالمعارف التقنية وتكوين الاطارات .

لقد واجه الملك محمد الرابع مشاكل سياسية داخل البـــلاد وخارجها ، فقد كان المغرب يعانى ازمة التخلف الاقتصادى بسبب كساد العملة ومضايقة نظام (الحمايات) الاجنبية لبعض الافراد المغاربة الذين استغلوا هذه التدخـــلات فتعاونوا مع الاجانـــــب واصابوا عن غير قصد سيادة المغرب فى الصميم كما كانت هزيمة كما كانت هزيمة (اسلى) قد جرأت كثيرا من الدول الاجنبيـــة لتقتحم عرين المغاربة ظانة ان قوة البلاد قد انهارت امامهم ، ودون ان يدركوا أن هزيمة (اسلى) كانت ترجع لعدم تنظيـــم الجيش تنظيما جديدا ، أما روح الجيش ومعنويته فقد كانـــت أقوى من ان تمتحن .. ولذلك اضطر محمد الرابع أن يخوض مع

اعداء البلاد حربا ضروسا فى الشمال ليظهر لهم مزايا الجيش المغربى ومعنوية الشعب رغم رداءة الاسلحة وهلهلت اساليب الدفاع ، فواجه فى نفس الوقت عدة عراقيل تغلب عليها بعزم واخلاص ودهاء . فقد سن نظام التجنيد الاجبار فى البلاد ، واهتم بتكوين الطلاب والمعلمين على اساس جديد لتتوفر البلاد على أطر صالحة . وبهذه الوسيلة أعاد للبلاد هيبتها ومكانتها فى الخارج وظل على اتصال مع رجاله الذين بثهم خارج المغرب ليعرف نقط الضعف فى السياسة الخارجية للدول التى كانت تهجمه وكان يبدى اعجابا كبيرا ببسمارك وسياسته ... وكان للانجليز مصالح اقتصادية فى المغرب تصادم مصالح الانسان كما كانت فرنسا فى الجزائر ذات مطامع فى المغرب . وفى هذا الجو الحالك استطاع أن يبعد عن المغرب شبح الغارات التى تهدده وان يقيم بين المتنافيين مشاكل عصفت باتحادهم ، وواجه الدبلوماسية الاسبانية مع المواجهة العسكرية فى رد طلباتها لتعويض الخسارات المزعومة مما لحقها من القبائل الشمالية ، والواقع أن الحرب التى ادت لدخول الاسبان لتطوان ولمعاهدة صلح كانت السياسة المغربية تسعى لتخفف من وطأتها جهد المستطاع .

وكانت المعاهدة التى عقدت مع الاسبان لتنظيم تعويضات ما يدفعه المغرب بتاريخ شوال سنة 1276 موافق ابريل 1860 . تنص على جعل نصف دخل المراسى للاسبان ويحضر مع امناء المغرب بعض المراقبين الاجانب ... كما عقد فرض مع دولة الانجلتر لدفع المعجل مع التعويض وكان هذا أول فرض اقتضره المغرب من الخارج نظرا لضعف موارده والتالب المغربى عليه ... ثم وقعت الحكومة المغربية مع الحكومة الاسبانية معاهدة تجارية حضر للمفاوضة فيها من الجانب المغربى المولى العباس الذى

كان قائد الجيش المغربى فى الشمال وكانت المعاهدة فى مدريد سنة 1278 الموافق لسنة 1861 وتشمل هذه المعاهدة اربعا وستين مادة ، وهى اطول معاهدة مغربية كما يقول المؤرخ ابن زيدان حيث ابدى فيها المتفاوضون حرصهم الشديد على ضمان حقوقهم ثم تلت هذه المعاهدة اتفاقية مكملة لها . وبعد هذه المعاهدة تحسنت العلائق مع الاسبانيين فتوجه الوزير ابن ادريس الى ملكة اسبانيا ابزايلا ، لخلق جو من حسن الجوار والتفاهم وردت اسبانيا بسفارة ود ومجاملة .

وكما استطاع المولى محمد بن عبد الرحمن ان يطور العلاقة مع اسبانيا الى جو من التفاهم فقد وجه كاتبه السفير ابن ادريس الى نابليون الثالث ليهنئه بمناسبة تنصيبه امبراطورا على فرنسا ثم مفاوضة الحكومة الفرنسية فى توضيح علاقتها مع المغرب ولم تكن الحدود الشرقية مطمئنة بعد الاحتلال الجزائر فكانت قضايا الحدود مما يثير التدخلات الاجنبية وحسبما لذلك وجه الى حكومة باريس سفارة يرأسها الحاج عبد الرحمن العاجى وثانية تضم القائد عبد الكريم الشرقى وابن سعيد وثالثة يرأسه وزير الخارجية محمد بركاش .

وبعد ان حقق الصلات الودية فى فرنسا ليضمن استقرارا محكما فى المجال الاوربى وجه الى انجلترا الكاتب عبد الرحمن الشرقى . وكانت الغاية الاستفادة من خبرات الانجلتير الانجلتير واقامة علاقة ودية ليحفظ التوازن فى السياسة الخارجية وبذلك يضع حدا للمطامع التوسعية ويتمكن من العمل لبناء المغرب الجديد ذى الاطر الحية القادرة على مواجهة التطورات الحديثة وقد استهدفت سياسة المولى محمد بن عبد الرحمن الى استغلال التنافس الاستعمارى واقحام الدول ذات النوايا السيئة اتجاه المغرب الى تنافس حاد فيما بينها قصد ربح الوقت لبناء الداخل

وقد استعان بالصراع المرير الذى كان بين بسيمارك ونابليـــون الثالث ، كما استعان بين الانجليز والاسبان سواء فى مجـــال القارة السوداء أو فى مجال السيطرة على البحار وقد عرضـــت عليه دولة الانجليز مساندته لرد عدوان الاسبان بشرط التضييق على نشاط القنصل الالمانى (ويبر) بينما كان يرى فى بسيمارك خصما عنيدا للفرنسيين المتاخمـين فى الحدود تقرب اليـــه (جون كلش) ليزعج الفرنسيين . واعانته تقارير (وانفـرن) على ابراز نشاط بيع الفرنسيين والاسبانيين للاسلحة بالمغرب لاغراء المفسدين القارة الافريقية والاسيوية والامريكية لاستغلالها واستعمارها حتى اذا كانت سنة 1797 وقع خلاف بين فرنســا وداي الجزائر ، واشتدت معارضة شارل العاشر ملك فرنســا ، فصرف الشعب عن المعارضة باسال حملة الى الجزائر سنة 1830 ثم تدخلت فى شؤون تونس سنـــة 1869 وبهذا اصبح المغــرب مهددا بالاستعمار الغربى فكان على السياسة المغربية فى عهـد المولى عبد الرحمن ان تجابه الموقف بكل ما لديها من مقـــدرة ودهاء ، سيما وقد فشلت المقاومة العسكرية فى معركة (اسلى) واصبح المغرب فى حاجة الى فترة من الزمان مديدة ليدرب جيشه على الاسلوب الحربى الجديد

وقد حاول المولى عبد الرحمن ان يكون خير معين للامير عبد القادر الجزائرى ولكل انهيار مقاومته ودخوله الى الحدود مما اثار بسرعة التدخـل الفرنسى المسلح فاضطر المولـــى عبد الرحمن ان يعقد معاهدة مع فرنسا لصيانة الحدود المغربية وتولاها ابو سلهام زطوط من طرف المغرب ، وثانية لولاها القائد حميدة الشعى من المغرب والجنرال دولار من فرنسا .

أما مع البرتغال فقد أمضيت معاهدة للسلام والصداقـة واخرى مع الحكومة الاسبانية وثالثة مع الحكومة الانجليزيـة

ورابعة مع الولايات المتحدة وخامسة مع نابولى ، ووقع اتفاقات تنازل مع السويد والدنمارك . وكان كل ذلك ليكسب المغرب صداقة الدول الاوربية ويتوجه الى الداخل لينظم البلاد تنظيما عصريا يواجه به التحدى الاستعمارى العسكرى اذ كان المغرب ضعف عسكريا أمام قوة التسلح الغربى وتطوره العسكرى فان الدبلوماسية المغربية احتفظت فى احرج أوقاتها بتقاليدها واتجاهاها واهدافها ولذلك لم تضعف قط امام التسلط الاجنبى مما جعل دهاقنة الاستعمار يعجبون بقوة شخصيتها ، فقد كان على السفراء مهما كانت قوة الدول التى يمثلونها ان يخضعوا لمراسيم التقاليد السفارية المغربية فكان عليهم الاقامة بطنجة ثم التوجه الى مقابلة الملك فى احدى عواصم المغرب فى فاس أو مكناس أو الرباط أو مراكش بعد ان يؤذن لهم ثم عليهم ان يقيموا فى المدينة قبل التشرف بالمثول بين يدى الملك مدة أيام التطهير وعليهم ان يوضحوا المطالب ليتقدموا بها وعليهم ان ينتظروا المناسبة ليقتبلوا فى موكب رسمى تعزف فيه الموسيقى وتدق الطبول .

وفى هذا العهد اصدرت الجالية الاوربية فى (الجديدة) صحيفة للتعرف بالمغرب فلم يضايقها وانما استعان بها لتحقيق التنافس ــ كما لم يساعد شركة تجارية لبناء خطوط السكة الحديدية فى المغرب لما عرف من آمالها المفرضة فى استغلالها لمساعدة المفسدين ، فتقاعس عن مساندتها وشهد الثلث الاخير للقرن الثامن عشر ميز علاقة قوية بين المغرب وروسيا ، وفى الوثائق التاريخية سواء المغربية أو الروسية ما يزال فى الاراشيف والسجلات دليل على ما اكتسبه المغرب من سمعة ناهضة فى بلاد الروس ، مما جعل الصحف الروسية الصادرة فى بطسبرج ، الصحيفة المشهورة (اخبار بطرسبرج) تكتب مقالات عن

حالة المغرب مستندة فى ذلك الى تقارير القنصل الروسى فى جبل طارق الكونت فورنستوف الذى كان له اطلاع على اخبار المملكة المغربية ، ويظهر من هذه الوثائق ان الحروب استمرت بين بلاد تريد الحفاظ على استقلالها من غزاة مجاورين وتريد حليفا اسلاميا مرهوب الجانب .

وتحتفظ الخزانة المغربية بصورة لاستقبال محمد الرابع للسفير البيريطانى جان درمنضو سنة 1859 .

(العلاقة الديبلوماسية مع فرنسا) :

كانت لفرنسا علاقة قديمة مع الدول الاسلامية والدول العربية وأولى هذه العلاقات ما كان بين الخليفة الرشيد العباسى وبين الامبراطور شارلمان من سفارة الوداد ، وهدية الساعة العجيبة الصنع ، ثم ما كان من هنرى الرابع ملك فرنسا مع المسلمين الاندلسيين يوم الجلاء عن الجزيرة ، فان كثيرا منهم عبر جبال البيرنى ، ودخل تراب فرنسا ، فقبل هذا الملك نزولهم ، وجاد على بعضهم بالمسكن والزراعة وعلى بعض آخر بوسائل السفر الى مرسى (غينة) و (مرسى لنجدوك) ثم ما كان بين دولة السعديين وبينهم من سالف العهود التى جددها الوليد به زيدان فى عقده ، ثم ما كان بين (ابى عبد الله بن محمد العياشى) وبين دولتى فرنسا وانكلترا ، مع تجديد العهد القديم على يد نائبه ابراهيم بن على العربى الاندلسى ، بثغر سلا ، الى ما كان بين ملوكهم وبين ملوك العلويين من راسخ التقدير للمغرب وطالما عقدت بينهم السفارات ، وأولها ما كان بين المولى اسماعيل وبين لويس الرابع عشر ، وكان من سفرائه على بن عبد الله الريفى ، عامل تطوان ، والحاج عبد الله بن تميم عامل تطوان ايضا ، وهو متولى عقد الصلح بين الدولتين ، والامضاء على شروطه بمدينة

(سان جرمن) ومن اشهر سفرائه اليه قبطان البحر الحاج عبد الله بن عائشة الرباطي ، الذى كان من جملة ما قال فى شأنه السلطان المذكور فى بعض رسائله التى فى هذا الصدد : (وهو ان كان معروفا برياسة البحر ، فله المقام العلى ومزيد عناية ، وكريم خطوة) ، ومن المنسوب اليه الفندق والصقالة بالرباط لغاية اليوم، وكان من نتائج ذلك التعارف ان الامبراطور لوزير الرابع عشر اعان المولى اسماعيل على فتح العرائش من يد الاسبان باسطول ذى خمس قطع حاصرها بها بحرا ، ثم ما كان فى أيام المولى محمد بن عبد الله من بعث قائد الرباط ورئيسه ابن الحسن على ما رسيل الى الوزير لويز الخامس عشر لعقد الصلح المشهور وكان قد سبق قدوم سفيره الى مراكش بهدية نفيسة وبمتحف اللوفر سيفا مرصع القبضة بنفيس اللؤلؤ من هدية المولى محمد بن عبد الرحمان وعهد اويز وفليب أوفد اليه سفيره عامل تطوان الحاج عبد القادر بن محمد اشعاش عنوانا على تشييد الوداد بين الدولتين ثم فى عهد المولى محمد بن عبد الرحمان وعهد نابليون الثالث بعث اليه كاتبه ابن ادريس العمراوى الشهير يهنئه بالامبراطورية واجاب السلطان برسالة يعبر فيها عن ارتياحه لهذه السفارة ، ثم اوفد اليه قائد جيشه ابا عبد الله محمد بن عبد الكريم الشرقى وعامل سلا محمد بن سديد السلوى فى شأن المفوضين المبعوثين الى المغرب فتحفى لها الملك ووزراؤه واحتفلوا ومما راج فى هذه الرحلة مما ينبىء بشغف الملك المذكور بالعلم انه رغب الى السفيرين ان يبحثا له فى كتب التاريخ بالمغرب عن تاريخ بناء رومة واسم بانيها ويظهر لى ان الذى دعاه الى هذه المناقشة ما كان فى ذلك العهد من توالى البحوث الاثرية عن ذاك لما ان المؤرخ الافرنسى لويز دوبوفور كان قد فند عاميا الاساطير التى كانت تملى فى شأن تأسيسها . وقد انتجت تلك

البحوث انها كانت قرية ذات اكواخ على تل مربع يحصنها سور بداخله قلعة يلتجأ اليها عند الخطر ، ثم انما تضخمت تبعا لنمو حركة الحياة فيها سنة عدة مدن قديمة تطورت على هـــــذا الاســــاس .

ثم فى عهد المولى الحسن ورياسة المريشال مكماهون كاتب أول دولة بعث اليها سفيره الحاج محمد بن الطاهر الزبـــــدى الرباطى ومعه الامين السيد بناصر بن احمد غنام الرباطى برسم الكتابة فى شأن تجديد الوداد وتعديل قضية الامتيازات القنصلية ثم فى عهد الرئيس الريفى بعث أيضا القائد عبد بن على السعيدى وكاتب حضرته السيد عبد الواحد بن المواز لتشييد صرح الصداقة الى ما كان اليها من البعثات لتلقى العلوم العصرية ودرس الفنون الحربية كل هذه وثائق تاريخية تنبىء بسبق التعارف وحســـن التآلف .

وصرف المولـــى الحســـن الاول جهوده لاصــــلاح وزارة الخارجية فخصص عملها فى النظر فى أمور المحبسين ... والوساطة بين السلطان وسفراء الدول وعقد الشروط والمعاهدات ، وتولى شؤون الاجانب .. وأحدث بطنجـــة قنصليات خارج المغــــرب كقنصلية القاهرة وقنصلية جبل طاريق .. واستهدف من اعماله فى وزارة الخارجية مقاومة الاحتلال سياسيا ودبيلوماسيا ، وتطوير العلاقات المختلفة مع الدول ، والتعريف بقوة البلاد المغربيـــــة وقدرتها على الصمود وعلاقتها التاريخية ...

ولجأ المولى الحسن الاول الى الاستفادة من الـــــصراع الاستعمارى فبعث عددا من سفرائه الى أوربا ، ولذلك أوفد بعثة دبيلوماسية برآسة الحاج احمد الزبدى الى رئيس جمهوريـــة فرنسا (مكماهون) كما أوفد الى ملك ايطاليا فكتور عمانويـــل

(القائد بوشتى البغدادى) والمعطى الشاوى الى المانيا ووجه الى الامبراطور فريدرك الثالث القائد الطيب بن هيمة وعبد السلام بن رشيد ومحمد بركاش .

ونظرا لقرب اسبانيا من المغرب وارتباط قضايا الدولتين فقد وجه عدة سفارات الى ملك اسبانيا الفنش الثانى عشر وزوجته مارى كريستين يذكر منهم محمد بن الباشا عبد الله بن احمد ، وعبد السلام السويسى وعبد الكريم بريشة وبوشتى البغدادى وعبد الحميد الرحمانى كما وجه محمد المؤذن الى (كارلوس الاول) ملك البرتغال ووجه الى البابا ليون 13 عبد الصادق الريفى (كما بعث هاندار ادول جميعها بدورها بسفراء الى المغرب ، فمن سفراء فرنساء فى عهده (طيسو) و (الكونت دونينى) ، ومن سفراء انجلترا شارل الانليزى ، ومن سفراء اسبانيا (بانكوس) والجنرال (مرطينس كمبوس) كما استقبل المولى الحسن بفاس سفير المانيا (أوفمر سنة 1893) .

وكذلك اقام علاقة دبلوماسية مع الولايات المتحدة ووجه الى رئيسها (هارسوس) رسائل ود وصداقة ، وشعر الاستعمار الفرنسى والاسبانى بمدى الضغط الدبلوماسى الذى تسلكه السياسة المغربية والذى يوشك ان يؤذى بمطامعها ولذلك قررت الدولتان تصفية القضية المغربية بتنازلات بين ايطاليا وانجلترا لتخلص لفرنسا المغرب الجنوبى ولاسبانيا المغرب الشمالى ولكن المغرب نهج سياسة الاستفادة من صراع الدول الطامعة فى المغرب تلك السياسة التى ادت الى انعقاد مؤتمر يقرر مصير المغرب وكان ذلك المؤتمر (مؤتمر الجزيرة الخضراء) المنعقد 16 يونيه 1906 ممثلى خمس عشرة دولة وجاء المولى عبد العزيز الذى ولى الحكم وهو ما يزال فتى يافعا وكان من حسن الحظ ان يتألف نجم الدبلوماسى المغربى

الخطير (موسى وحمو) ثم كان البطل عبد الكريم الريفى قائدا عظيما ضرب الاستعمار الاسبانى فى الصميم وكبده خسائر فادحة فى العتاد والارواح والسمعة العسكرية .. فتحالف الفرنسيون والاسبانيون لمقاومته ... وتراجع المستعمرون عن خطتهم فخضعوا متظاهرين بتطبيق وثيقة الحماية التى تقر وجود (مخزن) بمثل السيادة المغربية .

ملامح نهضة المغرب :

واتجه الشعب اتجاها تقليديا ليحافظ على شخصيته وحضارته ، فلم يغير من معالم التراث الذى ورثه بل تقوقع فى حضارته القديمة ، تعليما ، وثقافة واقتصادا ... وحاول المستعمرون ان يتظاهروا شكليا بالحفاظ على الحضارة التقليدية بينما أوجدوا تعليما مختلطا يعتمد التاريخ والحضارة الغربية والتنقيص من الحضارة الاصيلة .. وقد ظهر تيار تجديدى فى التعليم الحر ، والثقافة الاسلامية السلفية التى قاد لواءها كثير من المصلحين والمجددين .

وسعى المغرب الى تكوين أطر دبلوماسية لتوثق الصلة مع العالم وتعرفه بالقضية المغربية مستنجدة بالعالم العربى والاسلامى الذى لم تكن حالته أحسن من حالة المغرب وبما ان الدولة العثمانية كانت مهيمنة على العالم الاسلامى روحيا فقد اراد المغرب ان يشجع مكانتها العالمية ، ويمتن صلته بها وتوجه الوزير بريشة الى الاستانة لاحاطة الدولة العثمانية بما يجرى فى المغرب ، كما توجه ابراهيم السنوسى لنفس المهمة فاقترحت الدولة العثمانية على المغرب فتح سفارة لها بطنجة .. واحبط هذا الاقتراح من لدن الدول الاستعمارية ورغم ذلك فقد ظل العتابى

والتركـــزى يتحدثان فى المشرق عـــن محنة المغرب ومضايقـــة المستعمرين لسيادته .

ورغم المحاولات الاصلاحية التـــى خاضها المغرب بجـــرأة وحيطة ، فقد كان من المحتم أن يصيب المغرب ما اصاب الجزائر أولا وتونس ثانيا من الخضوع لقوة الاستعمار .. وهكذا اعلنت الحماية الفرنسية سنة 1912 فى جنوب المغرب ووسطه كمـــــا أعلنت الحماية الاسبانية فى منطقة الشمال المغربى .. وبدأ التحول الثقافى والحضارى والتمدنى الى الاتجاهات الغربية التـــــى نقلت حضارتها للمغرب لتحقق هدفين (الاول تنمية اقتصادهما باستغلال الخيرات واليد العاملة (الثانى) تركيز نفوذهمـــــا الاستعمارى فى المغرب بالقضاء على الحضارة المحلية واستلاب الفكر الثقافى لتحل محله ثقافة المستعمر .... ووقف المغـــرب يتحدى التوجيه الاستعمارى .. فثارت فرقة عسكرية مغربية على الضباط الفرنسيين ، كما اعلن الثورة رجال الاطلس .

ورغم دسائس المستعمرين وتآمرهم ، فقد ظل المغـــرب متاسامحا ، مما أتاح للمسيحيين ان يمارسوا بحرية دينهم بل استغلت الكنيسة هذا التسامح وأرسلت بعثات تبشيرية ويذكـــر أويحين لوبان فى كتابه (مغرب اليوم صفحة 34) ان القديس فرنسيس نفسه أرسل أول بعثة فرنسيسكانية الى المغرب حيث استقرت بمراكش بالاضافة الى بعثات مسيحية اخرى ظلت بفاس ومراكش والصويرة واسفى وأزمور والجديدة وعدة قـــــرى أصبحت الان مدنا كالخميسات وأزرو ، وكانت البعثة فى مراكش بروتستانتية يشرف عليها احـــد اتباع الكنيســـة المسيحيـــة فى (غلاسغو) . وقد استغل المستعمرون عمل البعثات وجعلوهـــم حلفاء الاستعمار ، فظهر رد فعل لمقاومة المسيحيين والشك فى

نوايا الكنيسة التى انحرفت داخل الانحراف وفى ربيع سنة 1930 كان نشاط حركة التبشير الكاثوليكى متجليا فى الظهير البربرى الذى فضح امره وقاومه المغاربة قاطبة بعنف .

النهضة المغربية الحديثة :

نظرا لموقع المغرب الجغرافى واحتكاكه المستمر بالغرب فهو أقدر على استيعاب التطورات الغربية وهضمها واذابتها فى شخصيته القوية التى لا تمحى بين التيارات الشرقية والغربية ولعل النكبات الاستعمارية التى تلاحقت بالشرق الاسلامى وسارعت بتدهوره وانحطاطه جعلت المغاربة يحتاطون كثيرا فى اتصالهم بالغرب والشرق مما اوقعه فى عزلة لم يكن شرها بأقل مما اصاب البلاد الاسلامية والعربية الاخرى ، وبذلك فقد صلته القوية التقليدية بالشرق المنهار المستعمر الذى لم يعد يملك ما يعطى من حضارة ، كما فقد صلته بالمغرب الذى لن يعطى الا ما نتج عن عصر القوميات والاستعمار على حساب المغرب ، وطبعا بقيت اتصالات تقليدية ضعيفة بالبلاد الشرقية ، كما كانت هناك صلات سفارية واستخبارية بالبلاد الغربية فى نطاق محدود ، ولم تمنع هذه العزلة ان تردد فى المغرب اصداء الاحداث الكبرى التى كانت بالمشرق والتى ظهرت فى ثلاثة محاولات : (الاولى) نهاية نظام الخلافة العثمانية وتعويضها بنظام دستورى اقليمى ، (الثانية) بعث الاسلام السلفى وتجديده ، (الثالثة) اعادة النظر فى مناهج للتربية والتعليم .

بداية النهضة :

عندما سقطت الجزائر فى قبضة فرنسا سنة 1830 وتونس سنة 1881 شعر المغاربة ان منفذ اتصالهم بالشرق أحكم

اعناقه وان عزلتهم عن الغرب تعنى حبك المؤامرات ، ففكروا جديا فى نقد بلادهم ونقد مجتمعهم نقدا ذاتيا ، وقر رأى أغلبيتهم على وجوب اصلاح بلاهم دينيا وتربويا وسياسيا بالقضاء على نظام الحمايات والفوضى الادارية والفتن الداخلية ... دينيا بتنظيم حركة دينية سلفية على غرار ما فى المشرق تحارب الانحرافات التى يستغلها المستعمرون لصالحهم ، وتعليميا ، بايفاد بعوث الى الغرب لدراسة العلوم التقنية ، وقد انعكست هذه النهضة على الانتاج الفكرى انعكاسا قويا فسخرت الاقلام للاعراب عن هذه المحاولات لانقاذ المغرب .

ففى خصوص التنظيم السياسى ، عمل السلطان المولى الحسن الاول . والسلطان المولى عبد الحفيظ على ادخال اصلاحات مهمة فى الادارة المغربية ، وتحديد اختصاصات المسؤولين واحداث وزارة منظمة للخارجية والمالية ، والحد من الامتيازات الاجنبية ، واصلاح نظام الجمرك ، وظهر وزراء محنكون كالوزير موسى بن احماد ومحمد الجباص ، واهتمت وزارة الحربية بتنظيم الجيش وامداده بالمعدات الحربية وتدريب ضباطه بالمانيا وايطاليا وانجلترا وفرنسا ، وانشاء معمل للسلاح ، وتكوين اسطول مغربى .

وفى خصوص الاصلاح الدينى برز مفكرون يدعون للحركة السلفية على غرار دعوة الشيخ الامام عبده وجمال الدين الافغانى كالفقيه كنون ، والمؤرخ الناصرى .

وفيما يخص اصلاح التعليم نظمت بعثات الى خارج المغرب لمختلف الدول الاوربية كفرنسا واسبانيا وايطاليا والمانيا وانجلترا ، فى عهد السلطان المولى الحسن الاول والسلطان المولى عبد العزيز ، وقد تخرج من المعاهد الغربية كثير من الطلاب نذكر منهم : الجباص ، والاوديى ، وشهبون الجغرافيان ، والعلمى

الطبيب ، ولكن معظم طلاب هذه البعثة لم تساعدهم الظـروف على نشر معارفهم وافادة امتهم كما كان منتظرا ، لذلك ظلـوا منعزلين عن المجتمع يشعرون بغربة نظرا لعدم استعداد المجتمع للاستفادة منهم .

على ان ظهور المطبعة كان عاملا قويا فى طبع عدة مؤلفات وخلق حركة عامية نشيطة ، فقد نفقت حركة طبع الكتب بفضل المطبعة الحجرية التى ادخلها الطيب الرودانى الى المغرب ، وكانت حافزا على نشر الكتب القديمـة وتأليف عدة كتب دراسيـة فى فى مختلف العلوم القديمة ثم آزرتها مطبعة الحروف المركبة ، التى ساعدت على ظهور صحافة مغربية ذات اثر عظيم فى تطوير التفكير الشعبى فصدر (المغرب) فى طنجة منذ سنة 1889 ثم المغرب الاقصى بها أيضا ايضـا ، ثم جريدة (السعـادة) سنة 1905 بالرباط ثم (الصباح) سنة 1906 ثم جريدة (لسان المغرب) سنة 1908 .

ولا شك ان هذه الصحافة كانت بجانب اهتمامها بالاخبار تهتم بنشر مقالات ادبية وتاريخية مما كان له اثر فى خاق المغرب الجديد . ويعسر ذكر جميع اعلام الفكر الاسلامى المغربى فى هذه الحقبة على ان المشهورين منهم بتآليفهم هم :

الفقيه المهدى ابن سودة سنة (1294 هـ) والمصلح محمد كنون سنة (1310 هـ) والفقيه على الدمناتى سنة (1309 هـ) والشاعر احمد ابن الحاج سنة (1310 هـ) والمعجمى ابراهيم التادلى سنة (1311) والطيـب عبد السلام العلمى سنـة (1313 هـ) والمؤرخ احمد الناصرى سنة (1315 هـ) والمعلـم الصوفى ماء العينين سنة (1328 هـ) ومحمد بن قاسم القادرى ، والنوازلى المهدى الوزانى سنة (1342 هـ) والعالم احمد ابـن

الخياط سنة (1343 هـ) والمحدث محمــد بن جعفر الكتانــى سنة (1345 هـ) والاديب احمد بن المامون البلغيثى سنة (1348) والاديب الملكى البيضاوى سنة (1354 هـ) .

ولقد كان اعلان الحماية الفرنسية فى جنوب المغرب والحماية الاسبانية فى شماله سنة (1912 م) بداية الاحتكاك المرير بين الشخصية المغربية المقاومة ، والقوات الاستعمارية التى حاربت القوات المقاومة السياسية والعسكرية النظامية بعد الحماية فى آخر عهد السلطان عبد الحفيظ وحاربت الثورة المنظمة العاملة فى جبال الريف تحت قيادة بد الكريم الخطابى ، وكشفت عــن سياسة التجزئة القانونية واللغوية بين العرب والبربر بعــد الاعلان عن الظهير البربرى سنة (1930) .

وعند ذلك استجمعت الشخصية المغربية قوتها لتناضل ضد التفتت والانهيار . كان بعث الفكر المغربى هو طريق الخلاص ، وبرزت عوامل شتى للنهوض بالامة المغربية واحياء تراثها وبعث شخصيتها وتنظيم صفوفهــا ، وظهر ذلــك جليا فى التنظيمــات السياسية والتجديدات التربوية والاصلاحات الدينية والنهضــة الادبيــة .

ففى التنظيم السياسى اقامت الحمايــة حكومة فرنسيــة مصغرة بجانب حكومة المخزن وذلك لتركيز النظام الاستعمارى الهادف الى محو الشخصية المغربية وظل النظام المخزنى يقاوم الاستعمار تحت قيادة الملك العظيم محمد الخامس الذى يعتبر اعظم شخصية وطنية مغربية ونشأت فى المغرب حركات سياسنية شعبية منظمة ، عارضت الحماية بالقوة حينا ، وبالسياحة اخرى، ونفخت فى المغاربة روح الكرامة وبنت نهضتها على احياء الثقافة ونشر التعليم ، فاهتمت الامة بالدراسة التــى خضعت لثلاثــة

انواع : (الاول) الفرنسى الذى اقام التعليم على التقنية والارتباط بالحضارة الفرنسية فى الجنوب والحضارة الاسبانية فى الشمال وتفتيت الشخصية المغربية المحافظة على الاسلام وعروبة اللغة .

(الثانى) التعليم الوطنى الذى نشر فى مدارس التعليم الحر المعرب لمقاومة الفرنسية وتقوية الشخصية المغربية المحافظة على الاسلام وعروبة اللغة .

(الثالث) التعليم الدينى الذى تركز فى جامعة القرويين العتيقة ، فصدر ظهير لاصلاح برامجها ومناهجها وتقرير مصير المتخرجين منها فى عهد السلطان المولى يوسف فى 22 ربيع الثانى 1333 : موافق 9 مارس 1915 م ، وقد تجلى اثر هذه النهضة فى الانتاج الادبى المنشور فى هذه الحقبة رغم ضآلته فى اسلوب رسائل محمد ابن موسى ، ومحمد السليمانى سنة (1344) ، وفى كتاب محمد غرنيط (1946 م) « فواصل الجمان » واحمد بن المواز سنة (1341 هـ) مؤلف حجة المنذرين ، وفى تأليف محمد البلغيثى الاديب الفاسى المشهور ، كما ظهر ذلك فى موضوعات الشعر الذى ظل فى لغته ، يحمل محل قوالب القديمة ، يستجيب لحاجات العصر ويحث على التقدم ، وكان من اعلام الشعراء البارزين محمد القباج سنة (1364 هـ) ومحمد ابن ابراهيم سنة (1375 هـ) والمختار السوسى سنة (1961 م) والقاضى سكيرج سنة (1948 م) وعبد الرحمن حجى سنة (1963 م) والجزولى ، واليمنى الناصرى ، وابوبكر بنانى ، واحمد الزبدى .

وفى حركة الاصلاح الدينى ، ظهرت دعوة العالم السلفى الشيخ ابى شعيب الدكالى سنة (1356 هـ) الذى نشر فى المغرب

دعوة الحركة السلفية على غرار ما فعل الشيخ الامام فى مصر ، وكان عملـــه استمرار لعمل الشيـــخ السنوسى فى عصر المولـــى سليمان العلوى ، فقد ترك مدرسة حديثية سلفية قاومت البدع والطرقية التى كان ينزعمها عبد الحى الكتانى سنة (1383 هـ) ، ومن اعلام مدرسته السيد محمد السائح سنـــــة (1367 هـ / 1948 م) والسيد المدنى ابن الحسنى سنة (1378 هـ) والسيد محمد ابن العربى العلوى سنة (1383 هـ) ، وقد اشتغل هؤلاء بنشر السافية السنية بما اذاعوا من مؤلفات ، والقوا من دروس واحاديث ، فترك الاول تحقيق الامنية ، واعجاز القرآن ، كمـــا ترك الثانى شرح لمختصر خليل بالحديث والسنة ، أما الاخير فقد كان ابا للسلفية الوطنية لم يتـــرك مؤلفات متداولة ، وانمـــــا القى عدة دروس توجيهية كانت ذات اثر عظيم فى الحركة الوطنية المغربية واثر ذلك فى كل مرافق الانتاج الفكرى ، حيث نشطت حركة البحث العلمى ، وكتابة المؤلفات ، بل صدر لمحمد اقصبى سنة (1364 هـ) كتابا مدرسيا للتعليم فى النحو العربى ، بأسلوب جديد وانتشر فى العالم العربى كله ، وكتب محمد بوجنــــــدار سنة (1345 هـ) تاريخ الرباط وشالة ، كما كتب المؤرخ ابن زيدان سنة (1365 هـ) تاريخ مكناس والعز والصولة ، وكتب العباس بن ابراهيم سنة (1378 هـ) تاريخ اعلام مراكش وكتب السيد محمد الرامى كتاب الجغرافية المغربية وهو اول كتاب مدرســـى لتعليم الجغرافية المغربية .

وتولد عن ضغط الحصار الذى يفرضه الاستعمار بـــــين المشرق والمغرب ، تطلع المغاربـــة الى آثار الكتاب الشرقيـــين ومحاولتهم الاستفادة من التقدم العلمى والادبى والاسلـــوب السلفى فى المشرق ، وظهر ذلك جليا فى الابحاث التاريخية والادبية التى صدرت فى هذه الحقبة ككتاب التراتيب الادارية وفهرس

الفهارس للكتانى ، وكتاب الفكر السامى فى تاريخ الفقة الاسلامى لمحمد الحجوى وتحقيق الجزء الاول من تاريخ ابن خلدون لعبد العزيز بن ادريس والسيد علال الفاسى ، وتحقيق القرطاس لابن ابى زرع ، للهاشمى الفيلالى ونشر كتاب الفلاحة لابن خيـــر بتحقيق التهامى الناصرى ، ونشر كتاب علم الفلاحة عند المؤلفين العرب بالاندلس للدكتور مياس بترجمة عبد اللطيف الخطيب ، ونشر كتاب دلائل الاعجاز لعبد القادر الجرجانى ، لمحمد بــن تاويت الطنجى ككتاب التعريف بابن خلدون ، وشفاء السائل ، وجذوة المقتبس الحميدى .

وحقق معهد الدروس العليا عدة كتب اهمها جذوة الاقتباس لابن القاضى ورسائل موحدية لمؤلف مجهول ، والبديع فى وصف الربيع لمؤلف اندلسى .

أما الانتاج الادبى ذو الطابع الاسلامى فقد تجاوز الطريقية التقليدية التى كانـــت تدرس مختلف الموضوعـــات جملة الـــى تخصص فى الموضوعات واستعمال لاسلوب جديد متأثر بكتاب المشرق ، وبالاخص بكتاب مجلة الرسالة كأحمد حسن الزيات ، والعقاد والمازنى وطه حسين ، ولكنه تقليد لا تختفى فيه الشخصية المغربية التى ظلت تصطنع الاسلوب العربى الفصيح السليـــم متجنبا فى الغالب حوشى الكلام واغلاط الصحفيين ويمكن ان نقيم موضوعات الانتاج الادبى الى تأليف ومقالة وبحوث وقصص ودواوين شعرية ، فقد عالج المؤلفون موضوعات ادبية كما فعل عبد الله كنون فى النبـــوغ المغربى ، وسلسلة (مشاهير ادبـــاء المغرب) حيث عرف تاريخ الادب المغربى من عصر الادارســـة الى اليوم مع سرد لمنتخبات شعرية وتراجم مقتضبة ، وكتـــب السيد علال الفاسى موضوعات اجتماعية كالنقد الذاتى ، والف كذلك (كتاب الحركات الاستقلالية) فى المغرب ، وكتب السيـــد

عبد الهادى بوطالب كتاب (وزير غرناطة) وهـو سرد قصصى تاريخى لحياة ابن الخطيب ، والف المكى الناصر (كتاب فرنسا وسياستها البربرية) .

واستمر الانتاج على غرار ما تقدم فى فن التاريخ فكتب محمد الكانونى (اسفى وما اليه) وكتب محمد السائح (تاريخ الرباط) ، وكتب الرجراجى (الشموس المنيـرة فى تاريـخ الصويرة) ، وكتب المختار السوسـى (المعسول فى تاريـخ سوس) ، ومحمد داود تاريخ تطوان ، ومولاى عبد الرحمن ابن زيدان الاتحاف بتاريخ مكناس ، وكما اختص هؤلاء فى تاريـخ المدن تخصص آخرون فى دراسة العصور والشخصيات كما فعل محمد المنونى فى العلوم والآداب والفنون فى عهد الموحديـن فى تراجم المشهورين ، وكما فعل محمد الفاسى فى كتابه عن ابـن عثمان ، ومحمد الرشيد ملـين فى كتابه عن المنصور الموحـدى ، وعبد العزيز بنعبد الله ومحمد التطوانى فى كتابهما عن ابن الخطيب، وترجمت بعض الكتب المهتمة بالموضوعات المغربية الاسلاميـة فترجم الدكتور تقى الدين الهلالى مدنية العرب لجوز ماكيـب وعزيز الحبابى قسما من كتاب (كرادوفو) « عن مفكـرى الاسلام » كما صدرت كتب عن تاريخ الغرب لمحمد الرهونـى التطوانى وعبد الله كنون ومحمد بن عبود التطوانى .

وتبلور هذا التطور فى التفكير الاسلامى فى المجـلات الوطنية ، كرسالة المغرب للسيد محمد غازى ، والمغرب لسعيد حجى ، والمغرب لصالح مسية ، والمغرب الجديد المكى الناصرى ، والثقافة المغربية لابن غبريط ، والاطلس لليزيدى والدفاع لمحمد بن الحسن الوزانى .

والواقع ان هذه النهضة المتوثبة المشحونة عزما لاحيـاء

معالم الحضارة المغربية ومجابهة التحدى الاستعمارى كانت ذات اثر قوى فى خلق تيار جديد يحـــرر المغرب من خطر التفويـــت الحضارى والثقافى .

وقد ربط المغاربـــة تطورهم الاقتصـــادى والاجتماعـــى بمصيرهم السياسى فلم يتعاونوا مع الاصلاحات التى جاء بها (اريك لابون) ولا مع المشاريع الفلاحية التى لوح بها (جوان) ، واعلن عن الاستقلال سنة 1955 بعودة الملك المنفى محمـــد الخامس الذى بدا يضع اسس الدولة الجديدة .

وشملت هذه النهضة كل ميادين الحياة المعاصرة المركزة على السلفية الاسلامية فازدهر الانتاج الفكرى بعد خمـــول . وظهرت عشرات المجلات تحمل الفكر الجديد ، كما صـــدرت مؤلفات وابحاث ، ويمكـــن ان نلخص ذلك فى تطـــور الادب الصحفى والمقالات الادبية ، والابحاث التاريخية .

فقد استجابت الصحف والمجلات للموضوعات الاسلامية والفكرية التى تشغل الرأى العام فى البلاد فظهرت فى الميـــدان مجلات تهتم بالدراسات العلمية والادبية (كالبينة) التـــى اصدرتها وزارة الشؤون الاسلامية ودعوة الحق التى تصدرها وزارة عموم الاوقاف ، والبحث العلمى التى يصدرها مركـــز البحث العلمى التابع لجامعة محمد الخامس ، ومجلة تطـــوان التى يصدرها نفس المركز التابع لتطوان ، ومجلة (آفاق)لاتحاد كتاب المغرب ، والايمان لجمعيـــة شباب النهضة الاسلاميـــة ، ومجلة التربية الوطنية ، واقلام التى تصدرها جمعية كتـــاب القصة ، ومجلة المغرب التى تصدرها وزارة الخارجية ، ومجلة موريطانيا التى تصدرها وزارة شؤون الصحراء و (شروق) التى

تصدرها جمعية نسوية ، وكلها مجلات لا تخلو من مناقشة القضايا العربية والاسلامية .

أما الصحافة فقد ازدادت انتشارا فى انواعها وموضوعاتها السياسية والمذهبية ، واشهر الصحف : الانباء ، والعلم ، والصحراء المغربية ، والتحرير ، والمكافح ، والمغرب العربى ، واخبار الدنيا ، ودنيا الاخبار ، والمساء .

ومن المع الكتاب فى المجلات الدولية ، ذوى الاتجاه الاسلامى ، محمد غازى ، وعبد الخالق الطريس ، وسعيد حجى سنة (1361) ، ومحمد بنونة ، وعلال الفاسى وعبد الله ابراهيم ، وعبد العزيز بنعبد الله ، وعبد الكبير الفاسى ، ومحمد ابا حنينى ، وابراهيم الكتانى ، والهاشمى الفيلالى ، ادريس الكتانى ، وعبد القادر الصحراوى ، وعبد اللطيف خالص ، واحمد الاخضر ، وعبد السلام الهراس ، والحسن السائح ، وعبد الله الجرارى ، والعياشى الجرارى ، ومحمد السرغينى ، والخورى ، وخناثة بنونة ، ومصطفى القصرى ، والرحالى والحمداوى .

أما المقالة الادبية فقد تركزت فى دراستها على موضوعات مدققة فى لغة واضحة والتزام لقضايا الساعة ، وقد أصبح اسلوبها النثرى يمتاز بالاشراق والوضوح والعناية بالفكرة وصدرت مؤلفات ادبية فى موضوعات تاريخية وسياسية واجتماعية ، ككتاب ، جولات فى تاريخ لعبد القادر الصحراوى ، وتاريخ المغرب للهاشمى الفيلالى ، ومظاهر الحضارة لعبد الزيز بنعبد الله ، ونشر عبد الوهاب بن المنصور رحلة الكردودى ، وكتاب العز والصولة لابن زيدان ، كما نشرت وزارة الشؤون الاسلامية ، كتاب مدارك لابن القاضى عياض وغيره .

وكان لابد ان يتطور الشعر في نطاق هذه الحركة الشاملة وتتسع فنونه فنبغ عدة شعراء نقتصر على ذكر بعضهم :

علال الفاسى ، وعبد المجيد بن جاون ، وعبد الملك البلغيثى، ومحمد الحلوى ، ومحمد ابراهيم ، وعبد الرحمن الدكالـــى ، والحسن طريبق ، وعبد الكريم الطبال ، وعلى الصقلى ، ومحمد الحبيب ، وعبد الكريم ثابت ، ومحمد المعداوى ، وادريس الجاى، وعبد اللطيف خالص ، وعبد الواحد السلمى ، ومحمد العلمى ، وابى بكر اللمتونى ، والمدنى الحمدانى ، وعبد الكريم التواتى ، على انه لم يصدر الا ديوان الحلوى وديوان ابن ثابت ، وديوان ابن الحبيب ، وديوان مكوار ، وديوان محمد المعداوى .

وتعرف المغاربة على المسرح الحديث منذ سنة 1341 حيث مثلث فرقة محمد عز الدين المصرى رواية هارون الرشيـــــد ، فتكونت عدة فرق تمثيلية اعتنت بالموضوعات الاسلامية والعربية تولد عنها بعد ذلك بكثير فرقة الاذاعة الوطنية المشرف عليهــا عبد الله شقرون الذى كتب عدة تمثيليات باللغة الدارجة ، وفرقة الشبيبة والرياضة التى برز فيها عزيز السغروشنى ، والطيــب العلج ، وعالج الكتاب مسرحيات تاريخية يحتفظ بهذا ليقارب الى ما كتب فى المسرح وكتب ابوبكر اللمتونـــى مسرحية شعريــــة (بقيت وحدى) كما كتب الحسن طريبق مسرحية المعتمد بـــن عباد ومعركة وادى المخازن .

وعالج الكتاب القصصيون موضوعات حية من مترعة من مترعة من الشخصية المغربيـــة فاشتهر عبد الرحمـــن الفـــاسى بأقصوصات فاس ، واحمد بنانى بسبع قصص فاسية ايضا ، وكتب عبد المجيد بن جلون (وادى الدماء) وعبد الكريم غلاب (مات قرير العين) و (سبعة ابداب) وكتب عبد الجبار السحيمى عدة

قصص اجتماعية ، كما نشر البقالى والصقلى وبوعلو عدة قصص بالعلم والراى العام .. ولم يبق المغـرب بعيدا عن مبدا الفـن فظهرت نهضة الفنون التشكيلية فى المغرب ، حيث نرى لوحـات قيمة تنتمى الى مختلف المدارس الفنية وتعتبر عن مجتمعنــا المغربى كلوحات القاسمى ، وابن الكاهية ، والادريسى ، وكريم بنانى ، وعلى الحدانى ، ومحمد شعبة ، والشرقاوى . أما الشعر الملحون فقد استمر حيا عبر التاريخ يردد الاحداث فى لغتـه الشعبية ومنابع عن الروح الاسلامية وبرز فيه ابن زوبع .

ولا ننسى ان الثقافة الفرنسية تركـت بالمغرب مدرسـة ادبية مهمة ذات انتاج حى يصطنع كتابها اللغة الفرنسية للتعبير عن افكارهم كالدكتور الحبابى مؤلف (الشخصانية فى الاسلام) والصفريوى مؤلف (السبحة العنبرية) والشرايبى مؤلـف (الماضى كما هو) و (التيوس) والشاعر (كمال الزبدى) .

وكان للاستشراق دور مهم فى بعث الثرات المغربى سواء البربرى أو العربى وبالاخص فى ميدان التشريع والاسلاميات ، ومن المع المبرزين فى الابحاث الاستشراقية : (جون مارسى) و (دو كاسترى) ناشر الوثائق ، والمؤرخ (تيراس) مؤلف تاريخ المغرب ، والمؤرخ (اندرى جوليان) مؤلف (افريقيا الشمالية) ، و (ليفى بروفنصال) مؤلف (مؤرخـو الشرفاء) والدكتـور (كايى) مؤلف تاريخ الرباط و (لتورنو) مؤاف تاريخ فـاس ، والاستاذ (فور) ناشر التشوف وانيس الفقير ، و (دوجياكمو) صاحب مبحث حفصة الركونيه ، ونشر عيوش كتاب درة الحجال لابن القاضى ورسائل موحدية ، وكتاب البديع ، وتولت مجلتا التعليم ، نشر عديد الابحاث الاستشراقية حيث كتب المستشرقون والمستعمرون مئات الابحاث المختلفة بالمغرب ، كما تولت مجلة

(كونفليان) و (برسيتف) و (الاستقلال) نشر ابحاث ادبية واجتماعية بأقلام مغربية .

وكان لتطور التعليم فى المغرب بعد الاستقلال اثر واضح فى تنظيم جامعة القرويين التاريخية المهتمة بالدراسات وبتكوين أول جامعة مغربية بالرباط التى يعتبر مركز البحث العلمى من فروعها ، فقد اهتم بنشر ابحاث علمية فى الجغرافية للدكتور عوض ، والتاريخ للدكتور مييج ، وعدة نشرات اخرى وابحاث اسلامية وتاريخية .

والواقع ان الادب المغربى رغم تطوره ما يزال يعانى نقصا فى كيفية العرض وكمية الانتاج ، فالانتاج التاريخى تنقصه الموضوع ، والانتاج الادبى ينقصه التركيز والشمول واتساع دائرة الثقافة العامة ، والانتاج القصصى ما يزال مستوردا من الموضوعات المغربية ومعالجة القضايا التى تعيشها طبقات الشعب صباح مساء .

مصادر :

مفاخر العلويين ، لعبد الرحمن بن زيدان .

احاديث عن الادب المغربى للحديث ، عبد الله كنون

تاريخ المغرب فى القرن العشرين ، روم لاندو

تاريخ الصحافة فى المغرب الاقصى ، عبد العزيز بنعبد الله – العلم .

الادب العربى فى المغرب الاقصى ، للقباج .

التنظيمات الادارية المغربية

الادارة فى الاسـلام :

اهتم الاسلام بتنظيم الدولة المسلمة تنظيما دقيقا ، وفى كتب السيرة دراسة ضافية لتنظيم الدولة الاسلامية فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلة ، فقد وجه عليه السلام عدة أمراء الى مختلف اقاليم الجزيرة العربية التى دخلت فى الاسلام لتنظيمها وفق اصول وقواعد الاسلام ، ومن هؤلاء أمير مكة عتاب بن أسيد وكان نائب كسرى ، فلما أسلم ولاه النبى على جميع مخاليف اليمن ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يوصى هؤلاء العمال ويزودهم بتعاليمه وتوجيهاته وكيف يراسلون فى القضايا العامة ، وكان يعهد اليهم بعهد مكتوب يتضمن ما يلزمهم من عمل وهذا العهد هو أصل الظهير الذى يستظهر به لدى من وليه عليهم ، ويسمى بالظهير أو الصك .. وشاع ذلك فى عهد الامويين والعباسيين مع اضافات التاثيرات الحضارية .

ولم تختلف الانظمة الادارية فى المغرب عن المشرق الايسيرا، فقد قسم العرب الفاتحون المغرب الى عمالات على أساس الوحدات القبائلية عكس التقسيمات الرومانية وكذلك فعل الادارسة والمرابطون ، والموحدون وغيرهم .. واعتمدوا النظام اللامركزى بالاخص فى الاندلس مما أدى الى ظهور الاقطاعات فى فى عهد ملوك الطوائف .. بل كان نائب امير المسلمين وأمراء الاقاليم ، يتخذون كتابا يخلع عليهم عليهم بعض المؤرخين لقب الوزراء (كما فى الاحاطة ج ، ص 213) ...

وكذلك جعلوا فى عاصمة الدولة المركز الرئيسى لقيادة الحرب وضرب السكة .

وكان من عادة المسلمين اذا دخلوا بلادا أقروا أهلها على على ما كانوا عليه اداريا وسياسيا وأبقوا لانفسهم الرياســـة العامة وقيادة الجنود ، فكانت واجبات العمال الرئيسية مراقبة الاحكام فى البلاد المفتوحة واقامة الصلاة ، واقتضاء الخراج ثم بدأت ولايات الاعمال تتحول الى خدمات محلية ثم تنوعـــت الولايات وهى فى جملتها ترجع الى امارة وامارة خاصة والامارة العامة نوعـــان امارة استكفـــاء وامارة استيـــلاء ، أما امـــارة الاستكفاء فهى امارة التفويض حيث أصبح الدعاء للخليفة على المنابر ، والسكة والنقود ، أى نقش اسم الخليفة على المنابر ، والسكة والنقود ، أى نقش اسم الخليفة على السكة والطراز ، وهو أن يرسم الخلفاء أسماءهم أو علامات تختص بهم فى طراز أثوابهم المعدة للباسهم من الحرير أو الديبـــــاج (الاجريسم) للدلالة على أن لابسها اما الخليفة ، أو واحد من أهل دولته) وأول من فعل ذلك هو عبد المالك ابن مروان وعمم ذلك على الملابس وستور المنازل ، وغير ذلك وقد عمموا فى لباس الجند والبنـــود والاعلام ، وكان لها دور خاصة ينسج الطراز ، وموظف خاص يسمى صاحب الطراز ، وشاع ذلك فى بلاد المشرق ثم فى بـــلاد الانـــدلس .

كما كانوا يعدون من قبل شارات الملك السرير والمنبـــــر والتخت والكرسى ، والالوية والرايات والموسيقى .

واذا كان الاغالبة نقلوا ذلك فى تونس فان المغرب ظـــــل متواضعا فى نقل هذه التقاليد ولم ينقل المرابطون منها كثيرا لان دولتهم كانت متقشفة .. وقد اقتفى آثارهم الموحدون فلما جاء بنو مرين تأثروا بما فى الاندلس حتى اذا خلفهم السعديـــــون تأثروا بالانظمة العثمانية وبالغوا فى ذلك ، واستمر العلويون على ما كان قبلهم .

الوضع الحضارى والاقتصادى والاجتماعى فى المدينة والبادية :

يزعم كثير من المستشرقين المبررين للتدخل الاستعمارى ، ان الدول الاوربية تمتاز بالوحدة والمركزية والحفاظ على مصالح الطبقات بخلاف بلاد الشمال الافريقى التى تعانى التمزق والفتنة .. وحذا هذا الزعم الى تقسيم بلاد المغرب الى بلاد المخزن أى البلاد الخاضعة للسلطة المركزية ، وبلاد السيبة المكونة من القبائل التى تعيش حياة لا مركزية .. وقد سن الاستعمار نظام (المحميين) أى الذين تحميهم الدول الاوربية ليخرجوا عن نظام الحكومة المركزية اضعافا للدولة ، حتى فى المدن والعواصم الخاضعة للمخزن .. وحلق الخيال التاريخى الاستشراقى فاعتبر ان كل كوارث الحروب والفتن هى خروج عن الطاعة . ناسيا أن أوربا عرفت نفس الصراع فى نفس التاريخ ، فانجلترا عانت الانفصال بين (سكتلاندا) (وايرلاندا) (وغاليا) وكل دولة أوربية الا وعاشت صراعا أشد مما عاناه المغرب دون أن يكون ذلك دالا على السيبة .

ويرى بعض المؤرخين الغربيين أيضا ان نظام الطوائف الذى عاناه المغرب هو نظام (فيودالى) .. بينما يثبت التاريخ أن هذا النظام يمتاز فى أوربا بانعدام المدن وتقدم البادية .. بينما المغرب عرف ازدهارا مدنيا وتطورا فى نمو العواصم .. بل ان البادية المغربية نشأت متأخرة فلم يعرف المغرب البادية الا بعد دخول العرب أيام الموحدين .. حيث أصبحت البادية تؤدى عملها فى نطاق الاكتفاء الذاتى والتعاون مع المدينة ... ويعنى الاكتفاء الذاتى الاقتصاد والعدل والنظام والاعراف المحلية ... ولم يعرف المغرب قط ملك الارض للاسياد ولا نظام العبيد ولا الضرائب غير الشرعية فى السلم ولا نكران حق المجاهدين من سكان البادية وهم سواد الجيش الوطنى . وأدى تطور الاقتصاد الاوربى

وازدهار التجارة الى فتح أسواق فى المدن نافست الانتاج المحلى ... وكونت طبقة من التجار الذين أثروا ثراء فاحشا أدى الى تفوق الحضارة فى المدينة على الحضارة فى القرية مما سبب انعدام التوازن بين البادية والحاضرة وبذلك عرف المغرب فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، حضارة تجارية انعكست على الفكر والعادات والحياة الاجتماعية فى المدينة وحضارة قروية ساكنة فى البادية مما سبب نفورا بين الحضارتين ، وبالتالى أفضى الى عداء بارد بين الطرفين .

وكان موقف المغرب مغايرا لحركة تاريخ أوربا ، فللمغرب مركز اقتصادى عظيم .. وكان توازنه الاقتصادى معادلا لتطوره الفلاحى ، فلهذا كان مصدر الانتاج الى أوربا ، يصدر اليها المواد الخام سواء كانت حبوبا أو مواشى أو معادن أو غير ذلك ... ولكن التطور الحضارى بسبب حضارة (البخار) جعل الدول الاوربية تسعى لتطويق المغرب بواسطة سفنها وعزله عن افريقيا وعن آسيا .. وانتصر الاستعمار مجهزا على القوة العسكرية والثقافية والروحية ... وبدت الحركات الوطنية مجددة للسلفية الاسلامية لتقف ضد الغزو الاوربى .. واذا استطاع المغرب الحفاظ على القوة الروحية والثقافية فان العجز العلمى والتقنى ظل المشكلة الرئيسية فى البلاد .

تنظيم الحكومة المركزية :

ان دار الامارة هى أول ما يؤسسه الحاكم العربى عوضا عن الفروم الرومانى . وكان عقبة بن نافع . أول من أسسها بالمغرب ثم ركزها حسان بن النعمان وهى أول ما بناه العرب الفاتحون كمركز للاقامة حتى يمكنهم العمل ، وبجانب دار (الاقامة يؤسس المسجد الجامع ثم مصالح الدواوين كديوان

الجند ، وديوان الخراج ، وديوان الرسائل ثم (دار الضرب) لسك النقود . ثـم تبنى الـدور والمنازل حيث تكـون الاحياء والحارات .. وتقسم المدن عادة الى نصفين يتوسطهما السماط أى الشارعة المصطفة حولها الدكاكين .. وأطلق العرب المغاربـة القيصارية (منسوبة الى قيصر) على الاسواق التى بها حوانيت التجارة يحيط بها جدار ويدخل اليها من باب واحد . وروى البكرى أن هشام بن عبد الملك أمر عامله عبيد الله بن الحبحاب بانشاء خمسة عشر (ماجلا) صهريجا خارج سور المدينة ليكون سقاية للسكان وتسمى الحكومة حسب العرف المغربى (بالمخزن) وهو مشتق من خزن (أى ادخر) ، لان بيت المال كان مخزنا ومدخرا للاموال والزرع والاسلحة .. وذكر ميشو بيلير ان هذا اللفـظ استعمل لاول مرة بافريقيا فى القرن الثانى الهجرى ، وأطلق على صندوق الحديد الذى يخزن فيه الامير أموال الخراج ، والجزية ، ثم أطلق على بيت مال المسلمين ، ثم على الحكومة نفسها .. ويرى أن الحكومة المغربية تسمت به من القرن السادس عشر فى نهاية العصر السعدى .. ويظهر ان المغاربة استعملوا كلمة مخزن منذ القديم غير ان الاستعمال كان شعبيا ولم يصبح رسميا الا فى عصور متاخرة ، وبالاخص بعد اتصالات المغاربة بغيرهم مـن الدول الغربية الذين كاتبوهم وكتبوا عنهم بكلمة (المخزن) .

وسمى المغاربة قصر الملك بدار المخزن حيث يستقر حرمه وديوانه . كما كانت له حاشيته ينقسم أفرادها الى أصحـاب ومسخرين ، وجيش .. فالاصحاب منهم أهل الشكايات وأهـل الكمية هم خدمة الملك فى قصره كأصحاب الفراش وأربـاب الوضوء والسجادة وأمرهم يرجع للحاجـب .. والمسخـرون المختصـون بحراسة السلطان مـن الجند والعساكـر ،

ويسمى رؤساء الجيش قوادا وقائد الرحى يرأس الف رجل ، ثم قواد المئة والمقدمون والعساكر .

رجـال السلطـة التنفيذيـة :

ومهمتهم تدبير البلاد والتصرف فيها ، وتدبير النفقات وكان الوزراء عادة خمسة قبل أن تصلح أجهزة الحكم وأولهم الوزير الصدر الاعظم ، وهو مدير الديوان ، المدير لامور الملك ، والمخطط للسياسة ويعرف فى الشرق بوزير التفويض ..

ووزير البحر : المهتـم بالمفاوضات والبحرية والحمايـات والاجانب والاجناس ، وينوب عنه بطنجة حيث الدول الاجنبية نائـب عنـه .

وأمين الامنـاء : المهتم بالسياسة الماليـة للدولة بصفـة عامة .. من النظر فى المكـوس والديوان والاكريـة والاراضى المخزنية ويعينه أمناء ثلاث . أحدهما للداخل والثانى للشكارة والثالث للحسابات .

والعلاف : ومهمته النظر فى الجيش وكسوته ورواتبه وهذا المعروف (بصاحب العرض) فى الاندلس والمشرق .

ووزير الشكايات : المهتم بالنظر فى القضاء والشكايات وهو اليه الاحكام الصادرة من القضاة وهو كما كان يسمى بصاحب المعروف بصاحب (الرد) فى الاندلس والمغرب . أى الذى تـرد المظالم حسب تعريف المهدى الوزانى فى حاشيته على الزقاقية .

العمـــال :

وكان السلطان يولى على الامصار (قوادا) أغلبهم مـن الجيش فيفصلون فى الدعاوى . وهم المعرفون (بصاحب المصر)

فى الشرق و (العمال) أعظم من القواد درجة وهم المسمـــــون (بالولاة) فى الشرق الذى جـــاءت تفاصيل عنهم فى الاحكـــــام السلطانية وقسمهم (الماوردى) فى الاحكام السلطانية الى ولاية الخاصة ... ويظهر أن كامة الباشا لم تعرف فى المغرب الا بعد وصول الاتراك الى الجزائر .

القضـــــــاء :

اذا كان العمال فى الولايات يضطلعون بالنيابة عن الامام فى السياسة العامة ويتصرفون فيها بالاستشارة مع الحكومـــة المركزية ، فقد كان التشريع والحكم بيد القضاة ويرجع تنظيم القضاء الى عهد الرسول عليه السلام ، وقد ذكر السيوطى كما فى كتاب (الشهاب) على الشفـــاء أن الرسول صلى الله عليـــه وسلم كان له حكم الباطن كالظاهر وحكمه فى الظاهر كان تارة فى القضاء وتارة بالسياسة والسلطنة أى الامارة العظمى وتارة بالفتوى ولهذا فقد جمع بين الشريعة والحقيقة . ولذلك أيضا ، فقد كان الرسول صلى الله عليه وسام يحكم بين الناس فيمـــا شجر بينهم من خلاف ، وقد أفرد النوازل التى حكم فيها الرسول الفقيه الاندلسى محمد بن فرج بكتاب سما اقضية الرسول طى الله عليه وسلم يعين قضاة من شيوخ الصحابة وشبابها ويكتب لهم عهدا بذلك ويعين لذلك من هو أعرف بالاحكام الشرعية وأشد تفطنا لحجج الخصوم وخدعهم كما قال عليه السلام فى معاذ بن جبل (أعلمكم بالحلال والحرام معاذ) ولم يكن يشترط فى القاضى كبر السن وانما يشترط فيه المعرفة بأمور الحلال والحرام ، وكان هـــؤلاء القضـــاة يرجعون الـــى الرســـول صلـــى الله عليـــه وسلم يستشيرونه ، فلما قبضه الله اليه استمر الخلفاء على هذا المنوال الى أن أخذ الخلفاء يولون عاى القضاة قاضيا كبيرا ليتولى

أمرهم ويسمى قاضى القضاة كمـــا يسمى قاضى الجماعـــة فى المغرب والاندلس ولهذا أصبح القاضى المقيم بعاصمة الخلافة وهو قاضى البلاد التى على حكمهم ، يستتيب عنه من شاء ، وفى ترجمة أبى يوسف أنه كان قاضيا للمشرق والمغرب وهو أول من من خوطب بقاضـــى القضاة كمـــا كان يقال له قاضى قضـــــاة الدنيا وكان ذلك فى عهد هارون الرشيد . ومنذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والقضاة تعدد لهم رواتب مياومة أو سنويا وذلك وذلك ليتفرغ القاضى للعمل القضائى واصدار الاحكام ، وتطور نظام القضاء الى وظيفة النظر فى المظالم وهى أوسع من وظيفة القاضى لانها تمزج بين السلطة الزاجزة والعدالة لتقمع الخالم ، وتزجر المتعدى ، وتنفذ حكم القضاة ، وتعنى النظر فى البينات والفرائد ووالفرائد وتأخير الحكم الى ظهور الحق ، واستحلاف الشهود وكان الخلفاء يباشرون هذه الوظيفة بأنفسهم الى أيام المهتدى بالله كما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتولاهـــــا بنفسه ، وينتقد أحكام القضاة والعمال ويناقشهم فيها وتسمى ولاية المظالم ، كما أن الخليفة عمر كان حريصا على توليتها حتى أنه قال لان عشت ان شاء الله لا جعلى الرعية دولا فانى أعلـــم أن للناس حوائج تقتطع دونى أما عمالهم فلا يرفعونها الى ، أما هم فلا يصلون الى ، أسير الى الشام ، فأقيم بها شهرين الخ وبهذا فان وظيفة المظالم هى وظيفة وزارة العدلية والداخلية اليوم.

وقد كان الخليفة عمر عين شخصا لتحقيق الشكايات وتقضى أخبار العمال ، ويذكر المقريزى أن أول من نظر فى المظالم هو على ابن أبى طالب ، ونظمها عبد المالك بن مروان ثم عمر بن عبد العزيز وكان الخليفة لا يولى العامل أكثر من عامين . وكان الموحدون فى المغرب لا يولون القضاء أكثر من عامين كما ذكر الزركشى .

وكان القاضى يفصل بين الخصومات ، أما فى بيته أو جانب

من المسجد ويستعين بالعدول ويذكر ابن الخطيب فى مثالى الطريقة أن الصحابة لم ينقل عنهم أن شاهدا اتخذ حانوتا وطلب على الشهادة أجرا ، وانما كان الناس يشهدون بينهم ويستوثقون بخيارهم وفضلائهم ، كما ورد فى الاصابة أن فى تاريخ ابن صمادح ان العلاء ابن عقبة والارقم كانا يكتبان بين الياس العهود والمعاملات ، وقد عرف من القضاة من يختص بفرض الموارث حيث كان هناك قاض خاص بها لانها تفتقر الى الى دراسة خاصة وأحيانا يعين القاضى عدلا خاصا بالموارث كما كان الوكلاء يدافعون عن من كلفهم بذلك فقد وكل النبى عليه السلام عمر ابن أمية على عقد نكاح أم حبيبة ، وكذلك يعتمد القاضى على الخبراء والبصراء (وهو الرجل يكون له البصر بالبناء) يبعثه الامام ليحكم بين المتنازعين فيؤخذ بقوله وغالبا ما يكون عارفا بأمور الهندسة والبناء ، كما كان الخليفة يستعين بالقسام وهو الذى يقسم بين المحاربين الاسهم عند انتهاء الحروب وقد تطورت هذه الوظائف تطورا كبيرا حيث أن الخلافة أصبحت مقيدة بقوانين دينية شرعية واشتملت على الامامة وأصبحت لها شروط واختلفت بين المذاهب الاسلامية كحق عند الحنفية ، والوصاية وحماية الحرمين والاحتفاظ بالامانات الكبرى .

وأسس الادارسة أول حكومة صغيرة فى المغرب حتى جاء المرابطون فنظموا الكتابة و (ديوان الانشاء) ونظام الوزارة ، واذا كان المولى ادريس الثانى أسند القضاء الى أحد الفقهاء المشهورين فى عصره فان حتى العصر المرابطى عرف منصب (قاضى الجماعة) أو (قاضى الحضرة) الذى كان له اتصال بأولى الامر كما ذكر القاضى عياض فى مشيخته حيث كان القاضى يشترك فى مجلس الامير ويؤخذ برأيه .. ومن مفاخر البربر (ص 53) أن أمراء الاندلس كانوا يستفتون (قاضى الجماعة).

وكانت مشيخـــة العدوتـــين تعطـــى لقاضى الحضرة أو قاضى سبتة وطنجة ــ فى الغالب ــ ولقاضى الجماعة بقرطبة ، أمـــا سلطة القاضى فانت متعددة ويخضع له عدة خطط . فهو يشرف على الشورى ، والفتيـــا ، والاحكام ، والصلاة ، والخطبـــة ، والتعليـــم .

فالشورى وهى الاعتماد على مشورة الفقهاء ليستشيرهم وهم أربعة (اثنان يشتركان فى مجلس القاضى ، (واثنان) فى المجلس الجامع ليدليان بالمشورة لمن يطلبها وكان للفقهاء رئيس ينظم أمرهم ويشرف عليهم .

وكان القاضى يولى (فى الغالب) لكل خطة فقيها يستقل بشؤونها كخطة الاحكام حيث يتكلف بها فقيها يجلس للنـــاس رفاق الاموال والايتام وأمور الدولة كما يولى على خطة الصلاة والخطبة فقيها ، والحسبة فقيها . واتخذ القضاة الكتاب .. بل كان القضاة يبدأون حياتهم الادارية بالكتابة ثم بخطة الشورى وخطة الاحكام أو الصلاة والخطبة قبل أن يصبحوا قضاة كما اصطنع القضاة الحجاب حرصا على مكانتهم ويشرف على بيت المال ، وموارده من الاحباس والاوقاف .. ولهذا فكان له حـــق اصلاح المساجد وبناء الصوامع وصنع المنابر والمحاريب والانفاق على خدام المساجد .. وأحيانا تصرف هذه الاموال للجهاد باقتراحه كما ذكر « ابن عبدون فى رسالة الحسبة » .

بل كان القضاة يشتركون فى الغزو والحرب بجانب القواد العسكريين .

أما الصلة بين القاضى ورئيس الدولة فكانت بواسطـــــة (الوزير) أو كاتب (الخليفة) لان القاضى يمثل السلطة الفعلية التشريعية ، والخليفة يمثل السلطة العليا .. ويتقاضى أجرته من

بيت المال ويسكن دارا حبسية وكانت فى فاس بجانب المسجد وكان القاضى يشرف على التعليم فى القرويين كما كان القاضى نفوذ واسع ومكانة كبرى كالقاضى عياض ، سبتة ، والقاضى ابن معيشته فى فاس والقاضى ابن عميرة فى الرباط .. وكان قضاء سلا فى عهد المرابطين فى بنى عشرة كما للحميرى فى الروض المعطار .

ويعين القاضى من طرف الخليفة ويكتب له ظهير توليته ، كما فى المرقية العليا ، وهذا الظهير هو دستور القاضى . عليه أن يعمل بموجبه والاتعرض للعزل .

وخطة القضاء تعنى الفصل بين الناس فى أموره واختصاصاته ، وكان تصرفه مستقلا فى النظر فى المحجورين والمفلسين ، والوكلاء واليتامى وفى النظر فى مصالح الطرقات والابنية ولصفح اليهود ويصفها ابن خلدون فى المقدمة بأنها أعظم الخطط قدرا . وكل أهل الولايات أعوان له .. وكان القاضى يستعين بالعدول الذين يكتبون أحكامهم فى رسوم وتسجل لديه .. واعتاد القضاة المغاربة أن ينتقوا العدول من العلماء الفضلاء الى أن ضعف الامر وأصبح القضاة والعدول من الاميين ولاسيما فى البوادى .

وعرف المغرب نظام القضاء على غرار ما كان فى الاندلس ، فكان القضاء أهم منصب فى الدولة كما كانت خطط أخرى وثيقة الصلة به كخطة الشورى والاحكام (ابن الابار ، التكملة ، نشر كوديرا ص 536) كما كانت خطة صاحب الاحباس تتبع فى الغالب ، وصاحب الرد وصاحب الشرطة ، وصاحب الخمس ، وصاحب المظالم ، وخطة صاحب الوضوء ، وصاحب السجادة وصاحب الصلاة ، وترجع خطة صاحب الصلاة فى الاندلس

والمغرب الاوسط الى القرن الثالث الهجرى . وصاحب الصلاة هذا الذى يؤم بالناس فى الصلوات ، وذلك لئلا تلتبس هذه الخطـة بوظيفة الامام بمعنى (الخليفة) على أن القاضى كان له النفوذ المطلق فى التشريع والاحكام وكانت الخطط الاخرى تتبعـه فى الغالب ، الا ما كان له اتصال بالسلطة العامة . وكانت مسطرة الحكم موكولة الى القاضى حيـث يقضى حسب اجتهـاده ثم أصبح تابعا لولى الامر ، بحيث يرجع له فى تعيين المذهب الذى يجب على القاضى أن يحكم به سواء كان مذهب الاغلبية أو لم يكن مذهبها ، وانما هو مذهب الخليفة فقط ، ولم يعرف المغرب تعيين قضاة لباقى المداهب التى لا تتمذهب بها الدولة ، كما كان فى الشرق ، وفى الدولة العثمانية بصفة خاصة ، ونظرا لان المذهب أساس القضاء والافتاء والسلوك العام للمجتمع فقد جرى تطبيقه على النوازل والاحكام وبذلك أصبحت هذه النوازل محل خلافات حسب استنباط العلماء والفقهاء ، وبذلك ظل الفكر القضائـى يجتهد داخل المذهب ولم يفقد الحيوية والاستنباط ، كما يتهمـه كثير من المتقولين دون حجة .. وبذلك كان للقاضى الاختيار أو الاجتهاد فى اتباع الاحوال المذهبية ولم يمنع ذلك أن يخضـع القضاء للوحدة الفقهية فى الحكم ، اذ أنهم اشترطوا فى الحكم والفتوى ان تكون بالراجح أو المشهور ، أو ما به العمل من المذهب المعروف لديهم ، بل أصبح يذكر فى ظهير تعيين القاضى انه يسير على هذا المنهاج فى أحكامه ، وكان المذهب المالكى هو مذهب الدولة الرسمى ، والمشهور من الاحكام ما كان على مذهب مدرسة ابن القاسم ، من أعلام المالكية ثم يحكمـون بما جرى به العمـل ، ويراد به الحكم الذى حكم به قضاة نزهاء مشهورون بمكانتهم الفقهية بشروط أن يكون الحكم صدر ممن يقتدى به وبعدم ضعف ماخذه واندراجه تحت أصل شرعى . أما ما جرى به العمل فقـد

ابتكر المغاربة والاندلسيون هذا الاسلوب الاجتهادى فى أحكامهم ويراد به ما سارت عليه الامة ، ولم يناقض حكما شرعيا ، وانما ارتكز على الاعراف والعادات التى لا تخالف اطلاق القواعد الدينية وما جرى به ويسمى بالعمل المطلق أو ما جرى به العمل فى مدينة العمل قد يكون مطلقا . دون اعتبار للبلدة والاقليم ، من المدن ويسمى العمل الفاسى أو الرباطى أو المراكشى .. وقد تضمنت نوازل الونشريشى ونوازل الوزانى ونوازل السجلماسى وغيرها من النوازل أحكاما فقهية .. وكانت كتب هذه النوازل تصور المشاكل القضائية والاجتماعية فى مختلف الاعصار ... وحماية للمتقاضين كان بجانب منصب القاضى منصب المفتى وهو من يكتب أحكاما فى القضية برغبة من المتقاضى ليدلى به هذا الاخير الى القاضى ، فكان بمثابة المحامى فى هذا العصر بخلاف المفتى فى المشرق .

ولاية المظالم :

كانت وحدة القضاء هى النظام السائد فى أوائل عصور الاسلام ، ولذلك كان القاضى يتولى « الى جانب الفصل فى الخصومات واصدار الاحكام » رد المظالم والحسبة .

والمظالم قد تكون من افراد الناس ، وقد تكون من الولاة وعمال الدولة . ثم أخذالخلفاء ينظرون فى ظلامات الناس من الحكام . فظهرت ولاية المظالم وهى اشبه بالقضاء الادارى فى هذا العصر ويعرف الماوردى نظام المظالم بأن « قود المتظالمين الى التناصف بالرهبة ، وزجر المتنازعين عن التجاحد بالهيبة » .

وكان والى المظالم ينظر فى ظلامات الافراد من الحكام والحياة والقضاء . وفى بعض الاحيان يتدخل والى المظالم فى احكام القضاة ولو بدون دعوى ، ولهذا فهذه الولاية شبه محكمة

الاستيناف ، والقضاء الادارى ، وكان يستعين والى المظالم بهيئة من المعاونين والمستشارين والقضاة والعدول .

الحسبـــة :

يقول علماء النظم أن أصل كلمة الحسبة من احتسب فــلان على فلان أى أنكر عليه قبيح عمله ، أو مشتقة من (الاحتساب) لله أى ادخار الاجر لان صاحبها المحتسب يذخر أجره ، لامــره بالمعروف ونهيه عن المنكر .. وقد جاء أصلها فى الشرع الاسلامى من وجوب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، كما جاءت تشريعاتها فى أقوال الرسول عليه السلام وتصرفاته ، وتقريراته ، وقـــد استعمل الرسول عليـــه السلام سعيد ابن سعيد بن العـــاص على سوق مكة بعد فتحها ، كما استعمل سيدنا عمر رضى الله عنه على سوق المدينة ، وقد وردت تفاصيل عن (الحسبة) فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم فى عهده للولاة والقضاء راتبـــا يوميا ...

واهتم علماء النظم الاسلاميـــة بموضوع الحسبة فذكـــر الماوردى فى الاحكام السلطانية أن على صاحب الحسبة أن يبحث عن المنكرات الظاهرة ليصل الى انكارها ، ويبحث عما ترك من المعروف الظاهر ليأمر باقامته ويتخذ عليه أعوانا ويعدى اليـــه فيه ، وليس ذلك لغيره ويشترط فى المحتسب كما ذكر الماوردى ، وخشونة فى الدين وعلم بالمنكرات الظاهرة .. كما ذكر علماء النظم الاسلامية أن على المحتسب أن ينظر فى قضايا البخس فى الكيـــل والوزن والغش والتدليس ، وقضايا المطل والتأخير فى أداء الدين . وقد سن الرسول عليه السلام تشريعاتها فكان أول محتسب فى الاسلام ، وجاء فى الترميذى أن الرسول صلى الله عليه وسام مر على صبرة طعام فأدخل يـــده فيها فنالت أصابعه بلـــلا ، فقـــال

يا صاحب الطعام ما هذا ، قال أصابته الشماء يا رسول الله قال أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ، ثم قال من غشنا فليس منا كما أن الرسول بعث من يمنع بيع الطعام حتى ينقل الى حيث يباع الطعام وكان يؤدب فى بيع الطعام مباشرة ... وكان الخليفة عمر يقوم بأمر الحسبة بنفسه فقد منع رجلا يشبع جمله ضربا لانه لم يستطع السير وقال له الخليفة ، حملت جملك ما لا يطيق ، كما كان يطوف فى الاسواق وذرته معه فمتى رأى غشاشا ضربه وربما أتلف بضاعته ، كما كان يقول : أيها الناس احتسبوا أعمالكم ، ونهى عن مذق اللبن بالماء ، ونظرا لكثرة أعماله فقد خص بعض الصحابة بالنظر فى القضاء ، وأصبحت الحسبة تابعة للقاضى .. وكان الفصل بين عمل القاضى والمحتسب ضروريا لان عمل القاضى يبنى على التحقيق والاناة ، وعمل المحتسب يبنى على الصرامة والشدة والسرعة والفعالية .. لان موضوع القضايا يختلف . وبينما يتطلب (موضوع القضاء) البحث والاستقصاء ، يتطلب (موضوع المحتسب) السرعة والانجاز حتى لا تتوقف مصالح الناس وتضيع أمورهم ، ويتعطل سير الاعمال العامة . وقد تطور المجتمع الاسلامى وتعددت مرافق العواصم والمدن ، فأصبحت مهمة المحتسب متشعبة تشمل النظر فى الميدان الاقتصادى والتجارى ، والاجتماعى ومقاومة الغش والانحراف ، وتنظيم المهن والحرف ، ومراقبة الاسعار ، ويذكر القلقشندى فى موسوعاته الادارية والتنظيمية للبلاد الاسلامية ، أن على المحتسب اعتبار الموازين والمكاييل ، واعادة الزائد منها الى التوبة والتعديل ، وان عليه أن يهذب ويؤدب ويزجر ، كما كان عليه أن يهتم بهندسة المدينة وتناسق الدور ، وهدم المتداعى منها ، كما يهتم بأمر الناس باغلاق الدكاكين الى المسجد لآداء الصلاة فى الجمعة والاعياد ويشرف على آداب

المجتمعات العامة من الحفلات والاعراس والمواسم ورعاية آداب الحمامات ، ويقاوم المفسدين ، والسكارى والمنحرفين .. ويسهر على رعاية الاطفال فى الكتاتيب والمدارس ، ويراقب الوعاظ والخطباء لئلا يحرفوا الكلام عن مواضعه ويفسدوا العقول .

كما يسهر على الصحة العامة حتى يمنع المرضى من الاختلاط بالاصحاء . والمتسولين من ازعاج السابلة ، وتوجيههم الى أوراش العمل ، ويمنع الحمالين من تعذيب الحيوانات ، ويدعو أرباب السفن الى التخفيف من حمولاتها .. ويساعد الغرباء والمعوزين ... وباختصار فقد كانت وظيفة المحتسب تشمل وظيفة البلديات وطرفا من أعمال وزارة الصحة ووزارة الاعلام ، ووزارة الاوقاف، ووزارة التعليم ، ووزارة الفلاحة ، ووزارة المالية ، والنقابات .

الحسبة وتطورها حسب رأى ابن خلدون :

كان تنظيم الدولة الاسلامية يرتكز على أسس دينية ، لان أمير المؤمنين له نيابة عن صاحب الشرع فى حفظ الدين وسياسة الدنيا فصاحب الشرع متصرف فى الامرين ، أما فى الدين فبمقتضى رعايته لمصالحه ، وله وظائف تابعة له حيث يقوم كل بوظيفته ، والوظائف الدينية الشرعية من الصلاة والفتيا والقضاء والجهاد والحسبة مندرجة تحت الامامة الكبرى متفرعة عنها ، فامامة الصلاة والفتيا من الوظائف الدينية الكبرى ، وأما القضاء فقد تطور عبر التاريخ الاسلامى فكان فى عصر الخلفاء للفصل بين الخصوم ثم توسع فى أعماله بسبب اشتغال الخلفاء والملوك بالسياسة الكبرى ، واستقر آخر الامر فى الفصل بين الخصوم ، واستيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين ، وفى وصايا المسلمين وأوقافهم ، والنظر فى مصالح الطرقات ، والابنية والامناء ، والنواب والنظر فى المظالم وأحيانا كان القضاة سواء فى الشرق

أو الاندلس يجعلون على قيادة الجهاد . وأما النظر فى الجرائم واقامة الحدود سواء فى المشرق أو فى المغرب فكان يرجع الى نظر صاحب الشرطة .

وكان القاضى نظرا لكثرة مهامه يستعين بموظفين دينيين ذوى مركز اجتماعى مهم ، منهم المكلفون بالعدالة ومنهم المكلف بالحسبة ، فأما الحسبة فهى وظيفة دينية من باب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فرض على القائم بأمور المسلمين ، ويعـين لذلك من يراه أهلا له فيتعين فرضه عليه ، ويتخذ الاعوان على ذلك ، ويبحث عن المنكرات ، ويؤدب على قدرها ، ويحمل الناس على المصالح العامة فى المدينة مثل المنع من المضايقة فى الطرقات، ومنع الحمالين ، وأهل السفن من الاكثار فى الحمل ، والحكم على أهل المبانى المتداعية للسقوط بهدمها ، وازالة ما يتوقع من ضررها على السابلة ، والضرب على أيدى المعلمين فى الكتاتيب وغيرها من الابلاغ فى ضربهم للصبيان المتعلمين ، ولا تتوقف على تنازع أو استدعاء ، بل له النظر والحكم فيما يصل الى علمه من ذلك ، ويرفع اليه ، وليس له امضاء الحكم فى الدعاوى مطلقا ، بل فيما يتعلق بالغش والتدليس فى المعايش والمكايل والموازين وحمـل المماطلين عن الانصاف ، وأمثال ذلك ، مما ليس فيه سماع بينة ولا انفاذ حكم . وهذه أعمال من مهام القضاء ولكن نظرا لعمومها وسهولة أغراضها يكلف بها موظف تابع لمنصبه ، وكانت فى كثير من الدول الاسلامية سواء فى المشرق أو فى المغرب تابعة للقضاء حيث يولى القاضى المحتسب باختياره . ولما انفردت وظيفـة السلطان عن الخلافة وأصبح نظره عاما فى أمور السياسة اندرجت فى وظائف الملك ، وأفردت بولاية خاصة بها ... وعلى هذا فقد وقع تنظيم جديد لمهام وظائف الدولة .

الحسبة فى المغرب (تاريخيا)

وقد عرف المغرب نظام الحسبة منذ بنى عقبة بن نافع مدينة القيروان ونظم نظام بلديتها سنة 50 هـ ثم تطور التنظيم البلدى فى عهد (الشيخ الامين) حسان ابن النعمان الذى دون الدواوين وكتب الخراج . وفى عصر موسى بن نصير ازدهرت المدينة الاسلامية فى افريقيا حيث أحدث (دار ضرب النقود) . وعم البناء . وبنيت الدور على شكل منازل الفسطاط ، وانتشرت الكتاتيب والمساجد ، ونظمت الاحياء حتى تخلف العواصم الاسلامية الجديدة (العواصم الرومانية) بأنظمتها البلدية الرومانية (Municiplia) والمجلس البلدى Ordre décurionum المنتخب ، ووكيلا المال وعضوا المجلس الساهرين على الطرقات والاسواق وتوزيع الحنطة وتنظيم الالعاب ، كما جاءت تفاصيل عن ذلك فى كتاب (أندرى جليان .. تاريخ افريقيا الشمالية) ولذلك اجتهد المسلمون أن يحققوا نظاما أعدل وأمتن من التنظيم الرومانى الشكلى ، فنظمت الاسواق والدكاكين ، وعين على كل صنف من الاسواق (عريف) من بين وجوه تلك الصنعة ، ووظيفة العريف أو (الامين) مقاومة الغش والسهر على حسن العلاقات بين أصحاب المهنة وعمالهم واعوانهم والحرص على ضمان حقوق الاجير كبيرا أو صغيرا كما فى كتاب (المالكى) وفى كتاب (معالم الايمان) . ثم فى عهد المولى ادريس الثانى الذى يعتبر أول من أقام نظام (المخزن) فى المغرب حيث استقضى عامر بن محمد ابن أنس وسفيان الثورى ، وبنيت فاس فى عهده ونظمت أسواقها ومنازلها وعين موظفون ساهرون عليها . وفى عهد المرابطين اضطلع يوسف ابن تاشفين باصلاح المغرب واعتمد على الفقهاء ورد أحكام البلاد اليهم وجعلهم أصحاب الامر فى البلاد القائمين على تطبيق الشريعة الاسلامية ، ولم يكن لهم قبل ذلك نفوذ واسع من

بيت المال ، وجعل المرابطون للقضاة طبقات كقاضى الجماعة ، وقاضى الاقليم وقاضى القرية ، وكان لكل اقليم كبير قاضى جماعة يشرف على القضاء فى اقليمه وزعامة القضاة لقاضى الجماعة بمراكش الذى يسمى بقاضى الحضرة وهو أقرب الناس الى مجلس الخلافة وعضو بمجلس الشورى ، وكان القاضى يشرف على وظيفة الشورى والفتيا ووظيفة الاحكام والصلاة والخطبة (ووظيفة الحسبة) وكثيرا ما كان القاضى يولى احد معاونيه خطة الصلاة والخطبة مجتمعتين وخطة (السوق والحسبة) كما ذكر ابن الابار فى كتابه (التكملة 2 ص 353) ويستعين بالاعوان ولهذا فقد كان (المحتسب) تحت امرة القاضى يتدخل فى شؤون أرباب الحرف والصناعات ويولى على كل صناعة رجل من أهلها يفصل فيما ينشب بينهم من خلاف كما فى كتاب ابن عبدون (رسالة فى الحسبة) (ص 214) ويحرص ابن عبدون وهو من الفقهاء على أن تظل أزمة الامر بيد القاضى ، وكان الخليفة اذا ولى كبير القضاة يكتب له عقد توليته الذى يصبح بمثابة دستور على القاضى أن يحترم نصوصه ويعمل بموجبه ، فان جار أو بدل ، أو خالف ، تعرض للعزل .. ثم تطورت ولاية الحسبة فى عهد بنى مرين نظرا لتطور الحياة المدنية فى وتأثر المغرب بالحضارة الاندلسية التى هاجرت اليه وبالاخص بعد سقوط غرناطة .. فواجه المحتسب التطورات الجديدة وعظم نفوذه وكثرت مهامه وأصبح المسؤول عن التنظيم الاقتصادى والاجتماعى فى العاصمة سواء فى ميدان السهر على نظام المدينة وما هو من مهام رئيس البلدية (اليوم) أو مراقبة الانتاج وتوزيعه وحقوق العمال وأصحاب الحرف والتجار والمستهلكين، وفى عهد الدولة العلوية التى واجهت التنظيمات الجديدة الاوربية، زادت مهام المحتسب نظرا للتطور الاجتماعى وتنظيم السكة ،

والقرض التجارى الذى سنه المولى الرشيد ، ثم تطور نظـام الواردات التجارية فى عهد المولى محمد الرابع .

نظـام وظيفة الحسبة فى المغرب :

لقد تطور تنظيم الحسبة فى المغرب عبر تاريخه الحضارى، فبينما كان المحتسب تابعا للقاضى أصبح فى عصر الدولة العلويه اليقظة ، يولى بظير من جلالة السلطان ، والظهير (فى الواقع) يعتبر دستورا للعمل لانه ينص دائما على الاختصاصات والمهام ، ويضيف اليها ما جد من الاحداث ، وبذلك تكون قوانين الدولة تساير الاحداث ولا تقف بعيدة عن التطورات ... فكان الظهير يفوض للمحتسب الامر فى جميع شـؤون المدينة المعين بهـا ، ويفصل فى النزعات بين أصحاب المهن وفى الحرف والصناعات ، كما كان يحدد الاسعار ، ويراقب المبيعات ، ويحمى المستهلكين من الغش والتدليس وكان فى عمله متعاونا مع القاضى وصاحـب الشرطة وعامل المدينة ... وللمحتسب ادارة خاصة به ولكنـه موظف ليس بيروقراطيا ، فعليـه أن يتفقد الاحوال بنفسـه ، ويتجول فى المدينة ، ولا يعتمد على نوابه كما كان الشأن فى المشرق وكانت له سلطة تقديريـة Pouvoir discrétionnaire واسعة ... ونشاطه الادارى يبرز فى أربعة ميادين (أولا) فى رعاية المدينة ونظافتها والسهر على تنسيق هندسة البناء ، وتوزيع المياه ، وتنظيم الاسواق ، وحماية السابلة ، وتفقد الكتاتيب ، والمنشآت التجارية والحرفية ، وأوراش العمال ، وجرت العادة أنه كلمـا شعر المواطنون بتدهور أحوال المدينة تساءلوا (أين المحتسب ؟ . (ثانيا) مسؤولية رقابة التجارة والصناعة والخدمات الاجتماعية، وبالأخص فيما لا يحدده القانون ويصبح من باب الاخـلاق والآداب وعفة النفس ، أو فى المنازعات التى لا تحتاج الى نظر

القضاء .. وكان المحتسب يعتمد على (أمناء) لا تعينهم الدولة ، ولكن يرشحهم أهل الحنطة ، ويعينون بعد الاتفاق عليهم لامانتهم ونزاهتهم وخبرتهم وجديتهم ، لا بطلبهم ، فيكلفون بهذه المهمة ما لم يطعن أحد فى أمانتهم بصفة شرعية ، فلم يكن الانتخاب اجماعيا ، وانما كان تراضيا تقريريا سكوتيا ، وكان لكل حنطة (أمين) يعرف قضاياها ورجالها ومشاكلها وهو المنسق بين باقى أمناء الحنط ... حتى لا تطغى حنطة على أخرى ، وحتى يمكن التآزر والتعاون بينهم ، فاذا لاحظ (أمين) الخرازين ارتفاعا فى أثمان الجلد فانه يتصل بأمين (الدباغين) عند الامين ليتخذا حلا ملائما ، ولم يكن الامين يأخذ أجرة من الدولة وانما يتقاضى أجرته مما يفرض له فى بيع (البضاعة Prélevements de centimes sur le prix de vente

واذا وقع خلاف بين البائع والمشترى رفع الامر الى (الامين) فاذا رضى أحدهما برأيه ، فض المشكل ، والا تدخل المحتسب فاذا لم يرض المتنازع بالحكم فانه ينادى (بالله والشرع) أى أستأنف الحكم للقاضى ليقول الحكم الشرعى فى الموضوع ، لان كلمة (استئناف) الحكم تعتبر طعنا فى حكم المحتسب ومع ذلك فان المحتسب قد لا يجيز له الاستئناف اذا كان الامر واضحا مبينا لا يستحق ذلك ، كما أن الحرفيين عند ما يقترحون تشريعا جديدا أو موقفا خاصا ، فان المحتسب يرفع الامر للقاضى حتى يكون كل اصلاح وتجديد وموقف (وفق الشريعة الاسلامية) وهكذا كان المحتسب رغم أنه معين بظهير يرجع الى القاضى ليطمئن الى حكم الشريعة الاسلامية فيما يقوم به من أعمال . (ثالثا) العقوبات الزجرية التى يتخذها المحتسب .. ؟ فاذا اكتشف غشا فى (البضاعة) فان سلطته فى العقوبة تقديرية .. وبما أن البضائع كان من المفروض فيها أن

تكون سليمة ... فلم يكن التاجر فى حاجة الى تحسين وسائل العرض والاعلان . ؟ فالاصل هو السلامة ولهذا فإن المحتسب يعرض البضاعة (الرديئة) فالبلغة المغشوشة تشق وتعلق فى باب الخزازين ولا تسل عما يقع للبائع . (كما يقول المقرى فى نفح الطيب) .. أما المواد المغشوشة فان كانت سالمة غير مضرة أعطيت للمؤسسات الخيرية ، كما اذا كان الغش فى نقص الميزان وتطفيفه ، وفى كتب النوازل ذكر لعدة قضايا من هذا النوع . (رابعا) الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فكان المحتسب يبحث عما ترك من المعروف الظاهر ليآمر باقامته وينهى عن المنكر ، والمراد بالمنكر ما يخالف ما أمر به الشارع أو ما يمس بالنظام العام والمصلحة الخاصة والعامة ، والعرف والعادة ... دون ان يصبح اجراما وغصبا وفتنة فذلك أمر من اختصاص القاضى وكذلك الامر بالمعروف ، وارشاد الناس الى الطريق السوى بدل اشتغالهم بتوافه الامور أو تناسى أداء الفروض الدينية ، فالامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ليس بيد الناس جميعا وانما هو موكول الى موظف خاص هو (المحتسب) هذا وكان (الامين) يستمر فى وظيفته ولا يعزل ولا يتقاعد الا اذا ظهر عجزه لكبر أو مرض وليست له أية حصانة ، لان الاسلام لا يقر الحصانة لمن يتولى مسؤولية مهمة ، لم يؤد عمله كان أحق من غيره بالعقاب لانه خان (الامانة) .

أما المحتسب) فكان موظفا يتقاضى أجرا على عمله وربما استعان أيضا بالتقنيين (بشيوخ النظر) اذا احتاج الى ذلك .... ، كما يستعين بالعلماء والفقهاء والوعاظ وأصحاب الرقائق لمعرفة المشعوذين وادعياء المعرفة ... وكان المربى العظيم الشيخ زروق يلقب بمحتسب الصوفية ، وبهذا فان التنسيق وتكامل الخبرة (accouplement) متوفران فى هذه الوظيفة المهمة .

محاولة تفويت (الحسبة) فى عهد الاستعمار :

لقد عمل المستعمرون بجد ليمسخوا الادارة المغربية عن عريق تفويتها ، وأحيانا باستعمال (الجنسيد) الادارى . فأقاموا نظاما محكما للبلديات ، وخصصوا مكتبا للحسبة لتصغيرها فى نظر الشعب ... ورغم أن المسيحيين فى حركة الاسترجاع كانوا يبقون على نظام الحسبة ، فان المستعمرين عملوا جهدهم على مسخها وتشويهها وتصغيرها .. ولكن مع ذلك ، والفضل للدولة العلوية . ظل الشعب يقظا لم تفته الحيلة الاستعمارية .. وكانت حكومة الجلالة المرحوم محمد الخامس رضى الله عنه تعبيرا عن الاستمرار وتعلق الشعب بمقوماته ومقدساته الدينية والسياسية .

وظائف متعلقة بالحسبة :

كانت الحسبة تدرس فى علم خاص بها وهو (علم الاحتساب) قال عنه صاحب كشف الظنون ان علم الاحتساب هو علم يبحث عن الامور الجارية بين أهل البلد فى معاملاتهم اللاتى لا يتم التمدن بدونها من اجراؤها على القانون المعدل ، بحيث يتم التراضى بين المتعاملين وعن سياسة العباد بنهى المنكر وأمر المعروف لا يؤدى الى مشاجرات وتفاخر بين العباد بحيث ما رآه الخليفة فى الزجر والمنع ومبادئه بعضها فقهى ، وبعضها أمور استحسانية ناشئة عن رأى الخليفة والغرض منه تحصيل الملكة فى تلك الامور ، وفائدته اجراء أمور المدن فى المجارى على الوجه الاتم .. وهذا أدق العلوم ولا يدركه الا من له فهم ثاقب ، وحدس صائب ، اذ الاشخاص والازمان والاحوال ليست على وتيرة واحدة ، بل لابد لكل واحد فى الامان والاحوال سياسته الخاصة ، وذلك من أصعب الامور ، فلذلك لا يليق منعها الا من له قوة

قدسية مجردة عن الهوى كعمر بن الخطاب كان عالما فى هـذا الشأن .. وكان الخليفة عمر يقوم أخلاق الناس بالعنف والضرب بالدرة .. بحد محدود لا يتجاوزه وكان المحتسب يأمر من يطوف فى الاسواق لاعلامهم بما يجب أن يعرفه الجميع ويعرف بالمنادى وصوته يسمى البريح .. وفى المغرب يسمى (البراح) .

وقد كان تحت أمر عامل المدينة صاحب السجن ولم يعرف العرب السجن حتى زمن الامام على بينما عرف المغاربة السجن منذ عهد القرطاجنيين ... ولم يطور السجن فى المغرب نظرا لتنفيذ العقوبات بسرعة أو لابقاء المتهم فى السجن مدة قصيرة وتتولى الدولة الانفاق عليه وفى بعض الاحيان تتولى الاسرة ذلك .. والواقع أن (السجن) كان عقوبة صارمة بالنسبة للمفسدين والخارجين عن الحكم والمفتانيين ، وفى قصر البديع آثار لسجن السعديين وهى لا تقل عما هو منتشر فى أوربا آنذاك من حجر مظلمة ضيقة علقت بها السلاسل والقيود .

وقد سأل المولى اسماعيل القاضى بردلة وابن رحال عن أول من أحدث السجن وكيف كان الناس يسجنون فكان ردهما واضحا ملما بتاريخ السجن كما فى (نوازل المناوى) ويعتبر سجن المولى اسماعيل بمكناس من أعظم سجون المغرب القديم .

ولايـــة الشرطـــة :

وهم الذين يحرسون الامن فى المدن والبادية ويحافظون على النظام وهم أعوان للحكام وأصحاب المظالم . فكانوا يعزرون ويقيمون النظام ... واعتاد أن يقوم بها جنود من عسكر النظام الغالب . ويشرف على الحرف (العريف) وهو المعروف باللامين فيما بعد ، ويشرف على تنظيم العلاقات التجارية بين النـاس ليحفظ من الغش .

مصادر الكتاب

- (الحلل الموشية فى ذكر الاخبار المراكشية) لمؤلف مجهول نشره علوش بالربــاط سنــة 1936 .
- (كتاب الفصل فى الملل والاهواء والنحل) لابى محمد على بن احمد بن حزم المتوفى سنة 456 هـ (المطبوع بالقاهرة سنة 1317) .
- (زهرة الآس فى بناء مدينة فاس) لابى الحسن على الجزنائى (طبعة تلمسان سنة 1922) .
- (التشوف الى رجال التصوف) لابى يعقوب بن يوسف ابن يحيى بن عيسى التادلى المتوفى سنة 917 (طبعة الرباط سنة 1960) .
- (المغرب فى ذكر بلاد افريقيا والمغرب) لابى عبد الله بن عبد العزيز البكرى 487 (طبعة ذى سلان الجزائر سنة 1917) .
- افريقيا الشماليــة ج ديوا
- فوتيه ــ ماضى افريقيا الشمالية .
- (كتاب الصلة فى تاريخ ائمة الاندلس وعلمائها ومحدثيها وفقهائهــا وادبائها) لابى القاسم خلف بن عبد الملك توفى سنة 587 (طبعة لدريد سنة 1882) .
- (البيان المعرب) لابن عذارى المراكشى .
- (اتحاف اعلام الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس) لعبد الرحمــن بن زيدان طبعة الرباط 1929) .
- (تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية) لابن عبد الله محمد بن ابراهيم الزركشى (طبعة تونس 1289) .
- (كتاب الصلة) لابى جعفر احمد بن الزبير المتوفى سنة 708 (طبعة الرباط 1937) .
- (الاحاطة فى اخبار غرناطة) للوزير لسان الدين ابن الخطيب المتوفى سنة 776 (طبعة القاهرة) .
- (قلائد العقيان) لابى نصر الفتح بن محمد بن عبد الله القيسى بــن

خاقان المتوفى سنة 535 (طبعة القاهرة سنة 1275) .

- (طبقات علماء افريقيا) لمحمد بن الحارث بن احمد الخشنى (طبعة الجزائر سنة 1914) .
- (الديباج المذهب فى معرفة اعيان المذهب) لبرهان الدين ابراهيم بن على بن محمد اليعمرى المعروف (ابن فرحون) المتوفى سنة 788 هـ .
- (نيل الابتهاج بتغريز الديباج) لاحمد بابا التمنكتى ، ابو العباس احمد بن احمد بن عمر (من علماء أول القرن الحادى عشر) .
- (اخبار المهدى بن تومرت وابتداء دولة الموحدين) طبعة باريس سنة 1928 لابى بكر البيدق الصنهاجى .
- (ازهار الرياض فى اخبار القاضى عياض) 3 اجزاء (طبعة القاهرة 1940) للمقرى شهاب الدين محمد ابن التلمسانى .
- نبذ تاريخية جامعة فى اخبار البربر فى القرون الوسطى ، منتخبة من المجموع المسمى بكتاب مفاخر البربر لمؤرخ مجهول الاسم الفه سنة 712 نشرها بروفنصال بالرباط سنة 1934 .
- (المعجب فى اخبار المغرب) لابى محمد عبد الواحد ابن على التميمى سنة 699 (طبع بالقاهرة وبفاس) .
- (جذوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام مدينة فاس) لابن القاضى احمد بن محمد بن ابى العافية (طبعة فاسية) .
- جـ . مونصو (الافارقة) دراسة حول الدول والسلاطين بافريقيا .
- شارل اندرى جوليان (تاريخ افريقيا الشمالية) .
- (الذخيرة فى محاسن اهل الجزيرة) لابن الحسن على الشنترينى سنة 542 ، الجزء الاول ، المجلد الاول والثانى طبعة القاهرة سنة 1942 . مشتمل على جميع ما املاه الامام محمد بن تومرت على تلميذه عبد المؤمن ابن على (نسخة مطبوعة بدون تاريخ) .
- (تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين) ليوسف اشباخ طبعة القاهـرة سنة 1940 .
- (القوى البحرية والتجارية 500 سنة 1100) تاليف ارتيا لورنوتين ، ترجمة احمد محمد عيسى ، مراجعة سعيد غربال ، نشرمؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر ، القاهرة سنة 1960 .
- (رسالة مراتب العلوم) من 60 الى 90 نسخة الخزانة عدد 11264 .
- الاغتباط (مخطوط) بخزانة الرباط — ابو جندار .

- (الانيس المطرب فى تاريخ فاس) لابن ابى زرع ، (مطبعة سلا) .
- (الاستقصا فى تاريخ المغرب الاقصى) للناصرى ، (مطبعة مصر) .
- (حقائق الاسلام) — عباس محمود العقاد .
- (مدارك القاضى عياض) الجزء الاول .
- (المنتخبات العبقرية) — محمد عبد المنعم خفاج ج 1 و 2 و 3
- (نفح الطيب) — المقرى
- (الدرر البهية) — الفضيلى (طبعة فاسية) .
- (العصور القاتمة للمغرب) — كوتى .
- (كتاب البربر) — عثمان الكعاك .
- (كلمة « بربر ») — دائرة المعارف الاسلامية .
- لكسوس (بحث المدينة التاريخية) — م المكناسى (مطبعة تطوان) .
- (العلوم والآداب والفنون) — محمد المنونى (مطبعة تطوان) .
- (قرطاجنة فى اربعة عصور) — احمد توفيق المدنى .
- (كتاب العبر) — لابن خلدون .
- (هانيبال) — الدكتور مؤنس (مطبعة مصر) .
- (مراكز الثقافة فى المغرب) — عثمان الكعاك (طبع الجامعة العربية) .
- (التربية فى الاسلام) — الدكتور احمد الاهوانى (طبع بمصر) .
- (تاريخ الفكر الاندلسى) — الدكتور حسين مؤنس .
- (الثقافة الانسانية وفلسفة التربية) — مباحث دولية نظمتها اليونسكو .
- (دولة المرابطين) — الدكتور حسن احمد محمود .
- (سلوة الانفاس) محمد جعفر الكتانى (مطبعة فاس الحجرية) .
- (سوس العالمة) — المختار السوسى ج 1 و 2 .
- (الاطار الجغرافى لتاريخ الجزائر) — مبحث مجلة الفكر (السنة 5 عدد 2) .
- شهيرات المغرب (مخطوط) لمحمد العيدى (الكانونى) .
- (نشر المثانى لاهل القرن الحادى عشر والثانى) ، للقادرى محمد بن الطيب (مطبعة فاس الحجرية) .

وغير ذلك من المصادر المذكورة فى الكتاب .

الفهرس

مطبعة النجاح الجديدة
الـــدار البيضاء